هاشم صالح

الانتفاضات العربيّة

عَلى ضَوْءِ فلسَفة التّاريخ

دار الساقي



الانتفاضات العربيّة

تصميم الغلاف: سحر مغنية

الانتفاضات العربيّة

على ضوء فلسفة التّاريخ

هاشم صالح



دار الساقي

الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-1-85516-962-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442-1-961+، فاكس: 866443-1-961+

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

"إن خدمة الحقيقة هي أصعب أنواع الخدمات".

فريدريك نيتشه



المحتويات

مقدمة عامة

هل الانتفاضات العربية حدث تاريخي أم زوبعة في فنجان؟

قد يبدو هذا العنوان استفزازياً وغير لائق بعد كل تلك الفرقعة الكبرى التي أحدثها الربيع العربي في الأجواء المحلية والإقليمية والدولية. بعيد عني كل البعد الاستهانة بحدث كهذا، فله بواعث موضوعية وآثار إيجابية من دون شك. وسيرد ذلك لاحقاً أكثر من مرة على مدار الكتاب، ولكن الأمور بخواتيمها كما يقال. وما حققه الربيع العربي حتى الآن هو سيطرة التيار الإخواني – السلفي على السلطة في بعض البلدان العربية. فهل هذا حدث تاريخي يا ترى؟ الحدث التاريخي ينتقل بالناس من وضع سابق إلى وضع لاحق، من وضع سيّئ إلى وضع أفضل. الحدث التاريخي يفصل ما كان عما سيكون. فهل الربيع العربي من هذا النوع؟ من المعلوم أن الأحداث الكبرى في تاريخ الأمة أو تاريخ البشرية نادرة جداً ولا تحصل كل يوم. هذا أقل ما يمكن أن يقال. وبالتالي، لا ينبغي أن تخدعنا نشرات الأخبار المليئة بشتى أنواع الوقائع والحوادث، بل وحتى الكوارث والحروب والمجازر. فمعظمها ليس إلا فقاعات تطفو على السطح. أما الحدث ذو الدلالة والمعنى، أي الحدث التاريخي بالمعنى الحصري للكلمة، فشيء نادر الحصول، وكذلك الأمر في ما يخص ظهور الشخصيات العظام. فأحياناً يمر قرن أو قرنان من دون أن يحصل حدث تاريخي أو تظهر شخصية كبرى في التاريخ... عندما زار الأميرال فيليب ديغول بكين قال له أحد القادة

الصينيين: شخص مثل والدك لا يظهر في التاريخ إلا كل قرن أو قرنين على الأقل... وعلى هذا المنوال يمكن القول بأن نابليون لا يظهر إلا كل خمسة قرون. وماذا عن الأنبياء وبقية القادة العظام في التاريخ؟ ماذا عن الفلاسفة الكبار الذين يعدّون على أصابع اليد الواحدة أو اليدين: سقراط، أفلاطون، أرسطو، ديكارت، سبينوزا، جان جاك روسو، كانط، هيغل، نيتشه، هيدغر... وماذا عن أبي العلاء المعري ورسالة الغفران التي لا مثيل لها في الآداب العربية ولا حتى العالمية، اللهم إلا الكوميديا الإلهية لدانتي؟ والأمير عبد القادر الجزائري هل تعتقدون أنه (بتسامحه الجم وحمايته للمسيحيين في دمشق من المجزرة) يتكرر في التاريخ العربي أو الإسلامي كثيراً؟ وماذا عن أستاذه أو قدوته الكبرى ابن عربي؟

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني!... إلخ، إلخ.

من الأحداث الكبرى مثلاً في تاريخ العرب والبشرية ظهور الإسلام قبل أربعة عشر قرناً ونيف وتشكيل حضارة كبرى وإمبراطورية مترامية الأطراف... ولكن انهيار هذه الحضارة قبل ثمانية قرون بعد تكفير المعتزلة والفلاسفة وكبار المتصوفة كالحلاج وابن عربي، هذا فضلاً عن المعري والتوحيدي، والدخول في العصور السلجوقية - العثمانية الانحطاطية، يشكل أيضاً حدثاً خطيراً في تاريخ العرب والبشرية. انتصار الغزالي وابن تيمية على الفارابي وابن سينا وابن رشد والمعري... هو أيضاً حدث تاريخي ضخم تابع للأول أو مكمل له. إنه حدث مزعج لم نقم منه، أو من آثاره السلبية، حتى الآن. انتصار حسن البنا على طه حسين والعقاد وبقية التنويريين المصريين هو أيضاً حدث تاريخي سلبي ضخم. وسيكون حدثاً زلزالياً هائلاً إذا ما ظهر ردّ فعل قوي ضده: أي إذا ما انبثق التفسير التنويري للإسلام يوماً ما. إذا ما نجح إصلاح الإسلام كما نجح إصلاح المسيحية في أوروبا. إذا ما استطاع إسلام التنوير أن يتغلب يوماً ما على الإسلام الإخواني السلفي الوهابي، فسوف يكون ذلك حدثاً كبيراً في تاريخ العرب والعالم. عندئذ سيصبح للربيع العربي معنى حقيقي ومضمون تقدمي رائع. عندئذ سيستحق اسم الربيع. ومن الأحداث الكبرى أيضاً اندلاع حركة الإصلاح الديني في أوروبا على يد مارتن لوثر. فقد أذهل معاصريه عندئذ وشعروا بأن زلزالاً قد حصل، ولم يصدقوا أنه قد نجح أصلاً. ويمكن أن نضيف إليه عصر النهضة الأوروبية المتزامن معه. وهي نهضة ما كانت ممكنة لولا المعارف العلمية والفلسفية التي

قدمها العرب، كما يعترف بذلك عالم الأنتربولوجيا الإنكليزي الشهير جاك غودي[1]. وبعده يمكن أن نذكر الثورة الفرنسية كزلزال خطير وكحدث تاريخي كبير، ليس فقط على مستوى فرنسا وأوروبا، بل أيضاً على مستوى العالم ككل. ولا ينبغي أن ننسى ثورة ١٨٤٨ وربيع الشعوب الأوروبية الذي صفق له فاغنر ولامارتين وبودلير وسواهم من الشعراء والكتاب. ويمكن القول بأن سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩ وانهيار العالم الشيوعي كانا أيضاً حدثاً كبيراً شعرنا بعده بأن التاريخ قد تنفس الصعداء لأول مرة بعد اختناق أيديولوجي ستاليني طويل ومرعب دام سبعين سنة. والتفجير الصاعق لضربة ١١ سبتمبر الإجرامية يمكن اعتباره أيضاً حدثاً تاريخياً ذا دلالة كبرى. لماذا؟ لأنه كشف بوضوح عن المرض العضال الذي ينخر في أحشاء العالم الإسلامي منذ عدة قرون من دون أن ينتبه إليه الجمهور العام، كما وكشف أيضاً بشكل مباشر أو غير مباشر عن مرض الحضارة الرأسمالية الغربية ذاتها، بل وحتى عن هشاشتها على الرغم من مظهرها العملاق... وهناك بالطبع أحداث تاريخية أخرى عديدة لا نستطيع ذكرها كلها هنا. فمثلاً انتصار العلم الحديث في النصف الأول من القرن السابع عشر بفضل كشوفات غاليليو وكيبلر وديكارت وبعدهم نيوتن على العلم القديم الأرسطوطاليسي – البطليموسي يعتبر حدثاً خطيراً جداً، لأنه ولد كل الحضارة التكنولوجية والعلمية الحديثة. وقل الأمر ذاته عن انتصار التنوير الأوروبي على الأصولية المسيحية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهو حدث مرتبط بالسابق، وشكل قطيعة إبيستمولوجية – أي معرفية عميقة – في تاريخ البشرية. ولا ينبغي أن ننسى الحرب العالمية الثانية كحدث خطير مرعب ولّد عالماً آخر. وأخيراً يمكن القول بأن نهضة الهند والصين الاقتصادية والتكنولوجية تشكل أكبر حدث تاريخي في عصرنا الراهن. وحتماً سوف تترتب عليها انعكاسات وآثار لا يعلم إلا الله مداها، وأوّلها فقدان الغرب الأوروبي – الأميركي لهيمنته المطلقة على العالم منذ أربعة قرون. ولكن هذه الأحداث الكونية الضخمة نادرة في التاريخ. وعموماً، فإن معاصريها يشعرون بأن شيئاً ما قد حصل وقسم التاريخ إلى قسمين: ما قبله وما بعده. فهل ينطبق ذلك على ظاهرة الربيع العربي يا ترى؟ بصراحة أتردد شخصياً في الإجابة بالإيجاب. ولا يعني ذلك إطلاقاً التقليل من أهمية

---

١ انظر العدد الخاص الذي أصدرته مجلة لو نوفيل أوبسرفاتور الفرنسية تحت عنوان: الحضارات الكبرى. عدد يونيو– يوليو ٢٠١٢. ص. ٢٢.

Le Nouvel Observateur. Les Grandes Civilisations. Hors - Serie. juin - juillet 2012. P 22.

الانتفاضات العربية الجارية حالياً ضد أنظمة الفساد والاستبداد والحزب الواحد واللغة الخشبية الامتثالية المقيتة. فلا ريب في أنه قد حصل شيء ما مع اندلاع حركات الاحتجاج العربية. لا ريب في أننا شعرنا بنسمة ريح جديدة تهب علينا. لا ريب في أن المجتمع ابتدأ يتحلحل ويتحرك ويتنفس ويدفع ثمن ذلك ضريبة الدم الأحمر القاني. ولكنه - أي الربيع العربي - ليس على مستوى الأحداث الجسام التي ذكرتها آنفاً. والسبب هو أننا لم نشعر بحصول قطيعة كبرى مع الماضي كما كان يحصل عادة مع الأحداث التاريخية التي ذكرناها... بل شهدنا العكس تماماً: أي العودة إلى الماضي! وهذا شيء غريب في الواقع، لأن الثورات تكون عادة بمثابة قطيعة مع الماضي لا عودة إليه. فكيف نفسّر هذه الظاهرة يا ترى؟ قبل أن أجيب عن هذا السؤال سوف أقول إن الانتفاضات العربية على عكس ما توهمنا في البداية أثناء انفجارها في تونس ومصر، لا تشبه الثورات الأوروبية الحديثة، كالثورة الإنكليزية والأميركية، ثم بالأخص الثورة الفرنسية. بل هي أشبه ما تكون بالثورة الإيرانية التي اندلعت قبل أكثر من ثلاثين عاماً. التجييش المليوني والخروج من الجوامع والتفافها حول شخصية الخميني في الجهة الشيعية، أو حول القرضاوي في الجهة السنية، كل ذلك يشكل علامة لا تخطئ على مدى التشابه بين انتفاضات الربيع العربي والثورة الإيرانية. ولهذا السبب رحّب بها المرشد علي خامنئي وباركها كبقية الأصوليين. يضاف إلى ذلك أن الأحزاب الدينية في كلتا الجهتين اكتسحت الانتخابات اكتساحاً وانكشف مدى تقلص الحجم الشعبي للأحزاب الليبرالية الحداثية. والواقع أن هذا الحدث الانتخابي الذي صعق الكثيرين وخيّب آمالهم بل وأخافهم، ما كان ينبغي أن يفاجئ أحداً. فما عدا بعض المدن الشاطئية السياحية المحدّثة، وبعض النخب الثقافية في العواصم العربية، فإن معظم شرائح الشعب ظلت متدينة وتقليدية فقيرة بل وأمية بنسبة كبيرة. ولذا فإنها تشكل احتياطياً انتخابياً ضخماً للإخوان المسلمين والسلفيين. ولا يمكن انتزاعها من براثنهم إلا بعد نجاح التنوير العربي الإسلامي وانتشار نور العلم والمعرفة والفهم الحديث للدين في أعماق هذه الجماهير الغفيرة.

من المعلوم أن الثورة الفرنسية كانت مضادة بعنف لرجال الدين و لم ترفع صورهم في التظاهرات الحاشدة التي نظمتها في باريس، بل رفعت بالأحرى الصور المضادة لهم: أي صور فلاسفة التنوير، وبالأخص جان جاك روسو وفولتير. وهنا يكمن فرق هائل بين

الثورة الفرنسية وثوراتنا. فشتان ما بين روسو وفولتير من جهة، وبين الخميني والقرضاوي من جهة أخرى! لا وجه للمقارنة. إنهما قطبان متضادان ورؤيتان مختلفتان للعالم. بل إن رجال الدين المسيحيين اختفوا عن الأنظار ونزلوا تحت الأرض خوفاً من بطش الثوار الذين أسقطوا سجن الباستيل الرهيب... ومعلوم أنه كان رمزاً لسلطة الاستبداد المطلق التي تحالف معها رجال الدين[١]. أما في الجهتين العربية والإيرانية، فكانوا – أي رجال الدين – مبجلين معظمين، وقد صلت وراءهم الجماهير بالملايين في ميدان التحرير وسواه. وهنا يكمن فرق جوهري بين الثورة التي دشّنت العصور الحديثة وانتفاضات الربيع العربي التي انتهت بالربيع الإخواني الأصولي. إنه فرق يستحق أن نتوقف عنده قليلاً. أقول ذلك وخاصة أن بعض المثقفين العرب قارن الثورة المصرية بالثورة الفرنسية، بل واعتبرها أعظم منها! بل ووقعت أنا في الفخ إلى حد ما، ثم اعتذرت عن ذلك أكثر من مرة. لماذا كانت الثورة الفرنسية مضادة لرجال الدين، ولماذا كانت الثورات العربية خاضعة لهم، بل وسلمتهم قيادها من خلال انتخابات حرة؟ والأخطر من ذلك، لماذا لا أحد من المثقفين يتوقف عند هذا السؤال الأساسي... طبقاً لفلسفة التاريخ الهيغلية، فإنه يخرج أحياناً من أعمال البشر شيء آخر غير الذي كانوا يتوخونه. فلا ريب في أن شباب ميدان التحرير كانوا يرغبون في أن تتمخض الثورة عن نظام حكم آخر متحرر من قيود الماضي المرهقة، وبالأخص القيود الدينية التقليدية. هذا إضافة إلى التحرر من نير الاستبداد السياسي بالطبع وحكم التوريث وفساد العائلة الحاكمة وحاشيتها، إلخ... كل مظاهراتهم المليونية كانت تهدف في البداية إلى استهلال عهد الحرية، أو قل إلى تحقيق المزيد من الحرية والانعتاق وتأمين فرص العمل والحياة الكريمة. كانوا يناضلون، على ما أعتقد، من أجل نظام ليبرالي حديث لا نظام أصولي قديم. ولكن الثورة المصرية لـ٢٥ يناير تمخضت في نهاية المطاف عن شيء معاكس لتوجهاتها الأولى، شيء لا يخطر على البال: ألا وهو حكم الإخوان والسلفيين! من كان يتوقع ذلك؟ ليس بالتأكيد الشباب المتحمس الغر والساذج. ولكن ينبغي الاعتراف بأن المراقبين المطلعين على حقائق الأمور ما كانوا يستبعدون إطلاقاً هذه الاحتمالية، بل كانوا شبه متأكدين منها. الشيء نفسه حصل مع بني صدر وبقية المثقفين الليبراليين واليساريين

١ للمزيد من التوسع حول هذه النقطة انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب تحت عنوان: هل التنوير هو الذي صنع الثورة الفرنسية؟

الإيرانيين الذين دعموا الخميني بقوة، فكان أن حذفهم من الساحة ووضع الأصوليين محلهم ما إن وصل إلى سدة السلطة واستتبت له الأمور. وهذا النوع من المثقف اليساري الساذج يُدعى عادة بـ"الأبله المفيد". فالحركات الأصولية الشعبوية تستخدمه عادة كواجهة تزيينية مقبولة من قبل الغرب والطبقات المستنيرة في الشعب قبل أن تتخلص منه لاحقاً بعد أن تنتفي الحاجة إليه. فهل يلعب هذا الدور عن طيبة خاطر أم غصباً عنه؟ في كل الأحوال، فإنه أبله مفيد...

هل يعني ذلك أنه لا يوجد أي شيء جديد في الربيع العربي؟ سوف يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد ذلك. فقد حرك المستنقع الآسن وكشف عن عورات الأنظمة الحالية المقطوعة عن شعوبها، هذه الأنظمة المتكلسة فكرياً والمتحنطة أيديولوجياً وشعاراتياً وكل شيء. إنها أنظمة الحزب الواحد والصحيفة الواحدة واللغة الخشبية المهترئة التي تردد منذ عقود الكليشيهات نفسها عن الوحدة والحرية والاشتراكية والمقاومة والممانعة والصمود والتصدي، وكل هذا الكلام الفارغ الذي فقد مصداقيته و لم يعد يقنع أحداً. إنها الأنظمة البوليسية الإرهابية التي سيّجت المجتمع كله بالأسلاك الشائكة عن طريق أجهزة المخابرات، معتقدة أنها بذلك تستطيع الهيمنة على الدولة إلى أبد الدهر. وهي لا تترك أي هامش حرية لكي يتنفس المجتمع، فكان أن انفجر كما حصل في بعض البلدان العربية أخيراً.

يضاف إلى ذلك أن "القديم" الذي أعادنا الربيع العربي إليه هو بشكل من الأشكال جديد! فمن كثرة ما طمسناه وحاربناه إبان المرحلة الناصرية والبعثية والماركسية الاشتراكية، يبدو الآن جديداً بل وبراقاً جذاباً... والممنوع مرغوب كما يقول المثل وبحق. فنحن كنا قد اعتقدنا بسبب جهلنا وسذاجتنا، أو بسبب ثقافتنا الشعاراتية والديماغوجية التقدمية السطحية، أننا قد تجاوزنا الماضي لأننا أصبحنا ماركسيين وبعثيين وناصريين وحتى ليبراليين... فإذا بانتفاضات الربيع العربي تعيدنا إلى جادة الصواب وتقول لنا ما معناه: الماضي لم يمض حتى الآن أيها السادة. على العكس، إنه حاضر أكثر من أي وقت مضى. بل إن هذا الماضي التراثي السلفي – الإخواني قد يشكل مستقبلكم لفترة من الزمن لا يعرف إلا الله مداها. هنا تكمن "جدة" الربيع العربي إضافة إلى هزّ عروش الاستبداد والحكم الوراثي والطغيان. ثم يقول لنا الربيع العربي أيضاً: لقد اعتقدتم بإمكانية تجاوز

المرحلة التراثية (أو الإخوانية - السلفية) عن طريق القفز فوقها وليس عن طريق مواجهتها وجهاً لوجه ودفع ثمن هذه المواجهة كما فعلت الشعوب المتقدمة في فرنسا وألمانيا وكل أوروبا الغربية على الأقل. وهذه نظرة مراهقة بل وانتهازية ينبغي أن تتخلوا عنها تماماً. لا يمكن تجاوز أي شيء إلا بعد معاركته ودفع ثمن المواجهة عدّاً ونقداً. وهذا أيضاً يشكل أحد قوانين فلسفة التاريخ لهيغل. أعترف، في ما يخصني شخصياً، أني لم أقتنع إطلاقاً في حياتي كلها بأننا تجاوزنا المرحلة التراثية لمجرد أننا تبنينا هذه الأحزاب والأيديولوجيات السياسية التي تبدو حداثية وتقدمية، وهي بالفعل كذلك في بعض جوانبها. ولكنها حداثة هشة وسطحية أكثر من اللزوم، وبالتالي يمكن أن تسقط من أول صدمة أو أول مواجهة مع القوى التراثية الماضوية الراسخة. وهذا ما حصل بالفعل في كل الدول التي شهدت ظاهرة الربيع العربي. كلها اكتُسحت من قبل التنظيمات الإخوانية. يضاف إلى ذلك أن هذه الأحزاب والأيديولوجيات التقدمية استهانت أكثر مما ينبغي بأهمية التيار المتدين ومدى تغلغله في أعماق الشعب. منذ سنوات وسنوات كنت أرى بأم عيني مدى ثقل الماضي وتراكمات الماضي ومدى تأثيرها على العقول. ولهذا السبب انخرطت في ترجمة محمد أركون المفككة لتراكمات التراث الإسلامي الموروث من الداخل. هذا من جهة، كما انخرطت في نقل فكر التنوير الأوروبي المفكك للتراث المسيحي التقليدي من جهة أخرى. لقد اشتغلت على كلتا الجبهتين، وبكل ما أوتيت من قوة، من أجل مواجهة هذه التيارات الشعبوية التي تكاد تكتسح في طريقها كل شيء... وبالتالي لم أنتظر انفجار حركات الربيع العربي لكي أدرك نوعية المهمة الأساسية المطروحة على عصرنا وحجمها.

لا ريب في أن التاريخ يمشي إلى الأمام. ولكنه أحياناً مضطر للعودة إلى الوراء لكي يقفز إلى الأمام. لماذا؟ لكي يلتقط أنفاسه أولاً، ثم لكي يصفّي حساباته التاريخية مع نفسه ثانياً، ثم لكي يتخفّف من أحماله وأثقاله ثالثاً. إنه يرجع إلى الوراء لكي يفكك الانغلاقات التراثية الضخمة المتراكمة على مدار العصور الانحطاطية الجامدة. وهي تراكمات تعرقل الانطلاقة أو تلجم جماحها في كل مرة. وهذا ما يحصل الآن في العالم العربي والإسلامي ككل. العودة إلى الوراء ضرورية بغية تحقيق كل ذلك. على هذا النحو نفهم عودة الغنوشي ومحمد بديع والقرضاوي وبقية الأصوليين إلى الساحة بقوة... ينبغي التكنيس والتعزيل قبل تشييد البناء الجديد. وهذا التعزيل لا يمكن أن يتم قبل حصول معركة المواجهة والمصارحة

مع الذات التراثية التي يمثلها هؤلاء وسواهم عديدون. بهذا المعنى، فإن الربيع العربي مفيد جداً، لأنه سيجبرنا على خوض معركة المصارحة وتصفية الحسابات التاريخية مع أنفسنا. قد يبدو هذا الكلام تناقضياً، ولكن من حيث الظاهر فقط. نعم إن التاريخ، لكي يستطيع القفز إلى الأمام، بحاجة إلى تصفية حساباته مع نفسه أولاً. إنه بحاجة إلى التحرر من رواسب الماضي، من تراكمات الماضي الطائفية والمذهبية التي تثقل ظهره وتمنعه من الانطلاق وتحقيق المعجزات. وكيف يتحرر منها؟ عن طريق القفز فوقها أو إشاحة البصر عنها وكأنها غير موجودة كما تفعل النعامات والأحزاب التقدمية العربية؟ أبداً لا. هذا ما توهمناه طيلة عقود وعقود عندما اعتقدنا أننا أصبحنا ماركسيين أو ليبراليين أو ناصريين أو بعثيين، إلخ. بل وتوهمنا أننا تحررنا كلياً من رواسب التراث والعصبيات الطائفية والمذهبية وأصبحنا أناساً جدداً بمجرد أن وضعنا هذا الإتيكيت التقدمي الحديث على صدورنا. فإذا بهذه الرواسب تعود لكي تنفجر في وجوهنا كالإعصار وتجرف في طريقها كل شيء. وإذا بالأيديولوجيا الأصولية، إخوانية كانت أو سلفية، تكتسح الشارع وتهمش ما كان مهمشاً أصلاً: أي كل هذه الأحزاب الحداثية التقدمية بشكل هش وسطحي... وأخيراً عدنا إلى المربع الأول، إلى نقطة الصفر من جديد. ومن أعادنا إلى ذلك؟ اكتساح الإخوان والسلفيين للانتخابات المصرية والتونسية وسواهما. شكراً لهم إذن! فقد ساعدونا، ولو بشكل سلبي، على فهم أين نحن، وفي أي نقطة من مسار التاريخ نتموضع بالضبط... كنا نتوقع أننا هضمنا الحداثة وتجاوزنا "القدامة" كلياً مثل شعوب أوروبا، فإذا بنا نكتشف أننا لا نزال نتخبط في متاهات العصور الوسطى اللاهوتية وإشكالياتها وفتاواها المرعبة. أكثر شيء يزعجني لدى المثقفين العرب اليوم هو التساؤلات الآتية: يا أخي من أين جاءتنا كل هذه المشاكل؟ الإسلام غير المسيحية ولا يمثل أي مشكلة. في الإسلام لا توجد طائفية ولا تعصب ولا محاكم تفتيش ولا كهنوت... أو: يا أخي شعبنا غير طائفي. من الذي زرع كل هذه العصبيات الطائفية والمذهبية في مجتمعاتنا؟ أليس الاستعمار؟ إلخ. كل هذا الكلام مراهق فكرياً، بل وغير مسؤول سياسياً.

ولكن، وهنا سأدهش القارئ بفكرة أخرى غير متوقعة: سوف أقول بأن دخول العرب في المرحلة الأصولية السلفية – الإخوانية بفضل الربيع العربي لا يعني انتصار الأصولية، بل بداية انحسارها! وهذا ما يدعوه هيغل بمصطلح شهير هو: مكر العقل أو

مكر التاريخ. كلمة "مكر" مستخدمة هنا بالمعنى الإيجابي لا السلبي للكلمة، تماماً كما في الآية الكريمة: ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. بمعنى أن العقل يحقق أهدافه في التاريخ أحياناً عن طريق استخدام أدوات لا تخطر على البال: أي استخدام القوى السلبية المضادة لحركة التقدم من أجل التقدم ذاته! إنه بحاجة إليه لكي يحقق أهدافه العليا أو البعيدة المدى. وهذا من غرائب المتناقضات. ولكن فلسفة التاريخ تعلمنا أن استخدام السلبي للتوصل إلى الإيجابي شيء ضروري جداً. يضاف إلى ذلك فكرة أخرى أساسية: وهي أن التاريخ المكبوت والمحتقن تاريخياً ينبغي أن ينفجر بكل قيحه وصديده الطائفي حتى يشبع انفجاراً. بعدئذ يمكن للتاريخ أن يتنفس الصعداء. هذه هي أول خطوة على طريق الخلاص. لا يمكن معالجة المريض من أوجاعه والجراثيم التي أصابت معدته قبل أن يقذف بكل تراكمات أحشائه الفاسدة. ينبغي أن يتقيّأها أولاً. بعدئذ يشعر بالارتياح وتصبح المعالجة أمراً سهلاً. ولكن ليس قبل ذلك. والآن ماذا يحصل؟ لقد ابتدأ التاريخ العربي الإسلامي يتقيّأ كل رواسبه التاريخية المتراكمة بعضها فوق بعض منذ قرون[١]. ولهذا السبب أقول إن الوضع الحالي يمثل نقطة تقدمية في المسار العام لحركة التاريخ. لا ريب في أن الثمن المدفوع سيكون باهظاً. فالتاريخ يتقيأ أحشاءه عادة (أو قل يصفّي حساباته

---

١ انظر مواقع الإنترنت الإخوانية - السلفية وكيف تقذف يومياً بكل تراكماتها الطائفية المكبوتة بعنف غير مسبوق وعلى مدار الساعة. انظر كيف تستخدم فتاوى القرون الوسطى لكي تكفر طوائف بأسرها وتحتقرها بل وتدعو إلى إبادتها واستئصالها. فهل ستشفى نفوس هؤلاء بعد أن يفرغوا كل ما في جعبتهم أو بعد أن يخرجوا كل ما في قلوبهم من أحقاد طائفية ومذهبية طال كبتها؟ هذا ما نأمله ونرجوه. هل ستهدأ ثائرتهم بعد أن أصبحت ضحاياهم تعد بمئات الآلاف في العراق وغير العراق؟ هذا ما تقوله لنا فلسفة التاريخ بشرط أن تولد هذه الأعمال الإجرامية وعياً مضاداً لها وتفسيراً آخر للدين غير تفسير "القاعدة" وأشباهها. وانظر أيضاً طائفية الأقليات، فهي أيضاً موجودة بل وعدوانية، وإن كانت عموماً دفاعية خائفة، هذا في حين أن طائفية الأغلبية تكون عادة هجومية مخيفة. على أي حال، فإنه بفضل انتفاضات الربيع العربي تنفجر كل هذه الأحقاد المتراكمة على مدار القرون وتخرج من أعماق العصور المظلمة كما تخرج حمم البراكين من أعماق الأرض. فهل ستساهم هذه الانفجارات أو التفجيرات اللاهوتية الإرهابية في تخفيف الاحتقانات المتراكمة في أحشاء التاريخ الإسلامي منذ قرون؟ نأمل ذلك، نعتقد ذلك، وإلا فإن دماء الضحايا تكون قد ذهبت سدى. التحليل النفسي يقول لنا إن الانفجارات ضرورية لكي يتقيأ التاريخ كل أحقاده ويشفى المصاب من آلامه. ينبغي أن تتحدث عما يوجعك مراراً وتكراراً لكي تستطيع التخلص منه. أما إذا ما كبته وقمعته فإنه يتفاقم ويتضخم بشكل مخيف، بل ويستفحل ويخرج عن دائرة السيطرة. وقد ينفجر فيك ويدمرك. وبالتالي كبت المشكلة الطائفية لا يحلها، على عكس ما توهمت الأحزاب التقدمية العربية ذات الرؤية السطحية الساذجة والطيبة. على العكس تماماً. ولذلك أقول: اتركوا الناس يعبرون عن طائفيتهم وأعماق أعماقهم حتى يشبعوا. بعدئذ يمكن أن نحل المشكلة. على أي حال، هذه هي فلسفة التاريخ التي أنطلق منها على مدار هذا الكتاب.

مع نفسه) على هيئة حروب أهلية ومجازر طائفية وآلام بشرية لا توصف. وهذا ما وصلنا إليه الآن. ولكن فلسفة التاريخ تقول لنا بأن هذه العملية إجبارية وإلا فإن التاريخ العربي لا يمكن أن ينطلق خفيفاً قوياً بعد أن كان قد تخلص من أحماله وأثقاله التي كانت ترهق ظهره وتعرقل حركته وانطلاقته.

وهذا ما لم يفهمه التقدميون العرب السطحيون، فكان أن فوجئوا بانفجار القديم الطائفي في وجههم في كل مرة وعرقلته لمخططاتهم التنموية والنهضوية. بالطبع أنا أنطلق هنا من المنظور الكانطي والهيغلي والتنويري عموماً لفلسفة التاريخ. وهو منظور يرفض أن يكون مسار التاريخ اعتباطياً أو عبثياً. إنه منظور متفائل بمستقبل البشرية ويعتقد بإمكانية تحقيق التقدم وتحسين الوضع البشري. إنه منظور يرى أن التاريخ له معنى ويمشي إلى الأمام على الرغم من كل التراجعات والمظاهر الخادعة التي قد توحي بالعكس. هيغل يقول لنا ما معناه: على الرغم من كل المجازر والكوارث والحروب الأهلية والصراعات الهائجة بين الطوائف والمذاهب، فإن التاريخ يتقدم إلى الأمام. التاريخ له هدف وغاية نهائية: ألا وهي تحقيق الحرية والسعادة للبشر على هذه الأرض. هنا يختلف المنظور الفلسفي التنويري الحديث عن المنظور الديني اللاهوتي القديم، سواء في المسيحية أو في الإسلام. فالمنظور الديني الذي ساد العصور الوسطى كلها في العالم الأوروبي المسيحي ولا يزال يسود العالم العربي والإسلامي حتى الآن يعتقد بأن التقدم يعني العودة إلى الوراء وليس القفز إلى الأمام. إنه يعني العودة إلى لحظة النبوة وزمن السلف الصالح، أي إلى لحظة مثالية نموذجية، لحظة مقدسة تتعالى على كل اللحظات. وبالتالي، فالتقدم فكرة لا معنى لها ضمن هذا المنظور: إنه قيمة سلبية لا إيجابية. لماذا؟ لأنه يبعدنا عن زمن السلف الصالح بدلاً من أن يقربنا منه أو يعيدنا إليه. فكلما تقدمنا في الزمن إلى الأمام ابتعدنا بالضرورة عن تلك اللحظة الأسطورية المتعالية في نظر عامة الشعب. ضمن هذا المعنى، فإن الفلسفة المثالية الألمانية العظيمة التي أسسها كانط وفيخته وهيغل وسواهم كانت بمثابة علمنة للمسيحية أو بالأحرى للإصلاح اللوثري بالضبط. لقد أنزلته من علياء السماء إلى واقع الأرض. وعكست منظوره: فبدلاً من أن كان تراجعياً، أصبح تقدمياً بالمعنى الحرفي للكلمة. بدلاً من أن كان مشدوداً إلى الماضي، أصبح مشدوداً إلى المستقبل. بدلاً من أن كانت الصيرورة التاريخية شيئاً سلبياً، أصبحت شيئاً إيجابياً واعداً بالمستقبل. وبدلاً من أن كانت الحياة الدنيا شيئاً عابراً لا قيمة له بالقياس

إلى الحياة الآخرة، أصبحت شيئاً أساسياً ومشروعاً. وبدلاً من انتظار الجنة في السماء، أصبح ممكناً تحقيقها هنا والآن. انظر المجتمعات الأوروبية الحديثة: جنة الله على الأرض. وهذا لا يتعارض مع ذاك بالضرورة. فالجنة السماوية مكملة للجنة الأرضية. والمدينة الفاضلة حلم كل الفلاسفة على مدار التاريخ، منذ أفلاطون حتى اليوم مروراً بالفارابي. نعم لقد كانت الفلسفة التنويرية قفزة هائلة إلى الأمام، لأنها حررت الإنسان الأوروبي من أغلال اللاهوت والكهنوت وكل الاستلابات العقلية المرافقة لذلك. هل يعني ذلك أني أدعو إلى حذف الدين كلياً من الساحة واعتباره بمثابة العدو الأول؟ أبداً لا. فعلى مدار هذا الكتاب وكل الكتب الأخرى والترجمات، حاولت التفريق بين الدين كقيم أخلاقية وروحانية وتنزيهية عالية متعالية، وبين التأويل المشكل عنه في فترة من الفترات. الدين شيء، وتفسير البشر له شيء آخر. إنهما شيئان مختلفان ومتمايزان على عكس ما تظن عامة الناس، بل وحتى العديد من المثقفين السطحيين الذين يدّعون الحداثة والحداثة الحقة منهم براء. انظر كيف التحقوا بالحركات الإخوانية وركبوا الموجة ما إن انفجر الربيع العربي وشعروا بأن هذه الحركات سوف تقطف ثمرته وتتسلم السلطة. إذن، فلنفرق بين الدين وتأويلاته. ولنلاحظ أن تأويله يكون عادة ظلامياً طائفياً في عصور الانحطاط، ولكنه يصبح مستنيراً عقلانياً في عصور النهوض والانفراج. مشكلتي هي مع الأول لا الثاني. التراث العربي الإسلامي يظل تراثي الأساسي الذي أسبح فيه كما تسبح السمكة في الماء. ولكن لي حق الاختيار والفرز. لي الحق في أن أحب الفارابي وابن سينا وابن عربي والمعري والتوحيدي، أكثر من الغزالي وابن تيمية وبقية فقهائنا الكبار. لي الحق في أن أفضل المعتزلة على الحنابلة. لي الحق في أن أفضل التيار الإنساني والعقلاني على التيار السلفي الإخواني الذي يشتبه بالعقل والفلسفة بل ويكفرهما. ولي حق النقد والتمحيص والغربلة. فالقشور المتحنطة الميتة ينبغي أن تطرح ولا يبقى إلا جوهر الدين: أي القيم الروحانية والأخلاقية العليا للتراث العربي الإسلامي الكبير. ولكن ينبغي أن تضاف إليها قيم الحداثة التحريرية للتنوير الأوروبي وأفضل إنجازاتها التي لا تقدر بثمن. وتقف في طليعتها دولة الحق والقانون، وكذلك مبدأ حرية الضمير والمعتقد، ثم محاربة كل أنواع التمييز العنصري أو الطائفي. هذه هي عقيدتي ألخصها بكلمات معدودات منذ البداية.

أخيراً سوف أقول ما يأتي: عندما يظهر كتاب واحد جديد في اللغة العربية يعادل كتاب

ديكارت **التأملات الميتافيزيقية**، أو كتاب مالبرانش **البحث عن الحقيقة**، أو كتاب سبينوزا **مقالة في اللاهوت السياسي**، أو كتابي فولتير **رسالة في التسامح** و**القاموس الفلسفي**، أو كتابي روسو **اميل** و**العقد الاجتماعي**، أو كتاب كانط **الدين ضمن حدود العقل فقط** إلخ، فسوف أقول إن الربيع العربي أصبح على الأبواب[١]. أقصد الربيع الفكري الحقيقي الذي يسبق بالضرورة الربيع السياسي ويمهد له الطريق. بالطبع هذه لائحة مختصرة جداً وناقصة أكثر من اللزوم. ولذلك ينبغي أن نضيف إليها عشرات الكتب الأخرى التي فكّكت اليقينيات المعصومة للعالم المسيحي القروسطي القديم، وفتحت المجال لتدشين عصر الحداثة والحرية.

---

١ يقال إن الفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانط كان يقوم يومياً بنزهة محددة بدقة بعد ظهر كل يوم. وكانوا يعيّرون الساعة على خروجه من البيت. بمعنى أنه لم يكن يتأخر دقيقة واحدة عن لحظة الخروج. ولم يلغ هذه النزهة طيلة حياته المديدة إلا مرتين: الأولى عندما ظهر كتاب **إميل** عن التربية لجان جاك روسو، والثانية عندما اندلعت الثورة الفرنسية. في كلتا الحالتين ألغى نزهته وذهب إلى المكتبة بيت الجرائد لكي يشتري كتاب روسو ولكي يستخبر عن أحداث الثورة الكبرى. هل يعني ذلك أن ظهور كتاب واحد في التاريخ يعادل حدثاً ضخماً كالثورة الفرنسية؟ بالطبع لا. ولكن لولا هذا لما كان ذاك. لولا كتاب روسو أو فكره لما كانت الثورة الفرنسية. الكتاب حدث تاريخي بشرط أن يدشن عهداً جديداً في الفكر والتربية والسياسة وبالأخص الدين. وهذه هي حالة كتاب روسو الذي دشن كوناً بأسره في العالم الأوروبي عندما بلور تفسيراً جديداً كلياً ومحرراً للدين المسيحي. وقد دفّعه الأصوليون ثمناً باهظاً على ذلك، لأنه فكك مفهومهم القديم والقمعي الطائفي للدين. وعلى أي حال فإن كتبه هي التي مهدت للثورة الفرنسية عن طريق تنوير العقول. وبالتالي فلا ينبغي أن نستهين بظهور الكتب الفاتحة في التاريخ: أي التي تغير نظرتنا للعالم والأشياء. فبعد قراءتها أو الاطلاع عليها نصبح أشخاصاً آخرين. وهذا ما نشعر به عندما نقرأ أمهات الكتب العلمية والفلسفية. للأسف فإن هذا النوع من الكتب غير موجود إلا نادراً في اللغة العربية. من هنا ضرورة ترجمة الكتب الفرنسية والإنكليزية والألمانية التي تحتوي على فتوحات فكرية حقيقية. من الواضح أن الكتب التي تشكل حدثاً تاريخياً نادرة في تاريخ البشرية ولا تظهر كل يوم.

الفصل الأول

الانتفاضات العربية وتصفية الحسابات التاريخية

الفكر العربي والقطيعة الإبيستمولوجية

لا أستطيع أن أفكر إلا من خلال فلسفة معينة للتاريخ، إلا من خلال منظور بعيد المدى. وهو منظور مقارن أيضاً. فمن لا يقارن لا يعرف كما يقول المثل الصيني. و"بضدها تتبين الأشياء" كما يقول المثل العربي. ولذلك، ولتوضيح الأمور بشكل أفضل، فسوف أقول ما يأتي: يخيل إلي أن العالم العربي يعيش الآن المرحلة التاريخية نفسها التي كانت تعيشها أوروبا على مفترق الحزّ الفاصل بين العصور الوسطى والعصور الحديثة. فالانقسامات الطائفية والمذهبية التي يعاني منها والتي تندلع على شكل حروب أهلية مروعة هنا أو هناك دليل على أنك لن تستطيع أن تهرب من قدرك وتاريخك بمثل هذه السهولة. فالماضي سيلحق بك عاجلاً أو آجلاً مهما حاولت وفعلت. وبالتالي فسياسة الهروب إلى الأمام أو القفز فوق المشاكل ليست هي الحل. الحل يكون بمواجهتها وجهاً لوجه. هذا هو الحل. لا بد من المواجهة والمصارحة وتصفية الحسابات التاريخية المعلقة أو المؤجلة مهما طال الزمن... أما المراوغة والمداورة وعدم الجرأة على تسمية الأشياء بأسمائها فلا تؤدي إلى نتيجة تذكر. أكتب ذلك على ضوء الفواجع الجارية حالياً في سوريا وغير سوريا من بلدان العرب. لقد اعتقدت أنظمة الاستبداد وكمّ الأفواه أنه يكفي أن تمنع الناس عن إثارة المشكلة الطائفية لكي تنحل هذه المشكلة من تلقاء ذاتها أو تتبخر بقدرة قادر! وهو اعتقاد ساذج

وغبي جداً. في الواقع إن العكس هو الصحيح. فكلما منعتهم عن الخوض فيها راحت تتضخم وتستفحل إلى أقصى حد ممكن. هذا ما تعلمنا إياه المنهجية العلمية الحديثة، سواء في مجال علم النفس والتحليل النفسي أو في سواه من العلوم الإنسانية. فهي تقول لنا ما معناه: إذا كانت هناك مشكلة تنخر في أحشاء المجتمع فلا تكبتها، بل حللها واشرحها للناس واحفر على جذورها الدفينة ونظم المناقشات والمناظرات حولها على شاشات التلفزيون. بعدئذ يمكن السيطرة عليها وتحجيمها. انظر ما تفعله فرنسا وكل الدول الديمقراطية المتقدمة بالنسبة إلى المشكلة العنصرية التي لا تقل خطورة عن المشكلة الطائفية.

كانت الحركات الأيديولوجية في الخمسينات والستينات كالبعث والناصرية والماركسية قد أوهمتنا بإمكانية حل هذه الرواسب التاريخية عن طريق القفز عليها وعدم مواجهتها وجهاً لوجه لكي لا تستيقظ وتنفجر وتحرق الأخضر واليابس. كانوا يقولون لنا: حذار، لا تقتربوا منها، اتركوها وشأنها... الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها. ولكن المشكلة أنها هي التي لا تتركنا! كلما تركناها لحقتنا أكثر وأكثر... إن هذه المنهجية الساذجة الحسنة النية من دون شك أثبتت فشلها وأدت إلى عكس النتيجة. فها هي المشاكل العرقية والطائفية تنفجر بعنف أشد بعد عقود من هيمنة الفكر التقدمي – القومي – اليساري. ها هي تنفجر في وجوهنا كالقنابل الموقوتة بعد طول كبت واحتقان. وها هي الأيديولوجيات التقدمية تنحسر عن الساحة وكأنها لم تكن. ها هي تتبخر بسرعة مدهشة لكي تحل محلها الأيديولوجيات الطائفية والشعبوية الأصولية. وها هم المثقفون العرب يندبون حظهم ويولولون قائلين: يا إلهي، لماذا عدنا إلى الوراء؟ يا إلهي لماذا كل هذا التقهقر الذي لا نستحقه؟ والواقع أننا لم نعد إلى الوراء، بل الوراء هو الذي عاد إلينا لأننا لم نتجرأ في أي يوم من الأيام على مساءلته أو مناقشته، فضلاً عن نقده وتفكيكه. معاذ الله: وهل تُفكك المقدسات؟ وهل تُنقد ثوابت الأمة؟ كل شيء مقدس في العالم العربي، بما فيه الجهل والتخلف، وبالأخص الجهل والتخلف والرواسب القديمة المتراكمة على مدار القرون[1]. لذلك أقول إن المحنة التي

[1] لنتفق على الأمور هنا: العقيدة الدينية مقدسة من دون شك. ولكن تأويلها بشري وليس مقدساً. التأويل الذي قدمته المعتزلة عن القرآن الكريم ورسالة الإسلام العظيم غير التأويل الذي قدمه الحنابلة وأهل التقليد والنقل عموماً. هناك تأويل عقلاني مستنير للدين وهناك تأويل ظلامي. ولكن المشكلة هي أن التأويل الأول انقرض في تاريخنا بعد الدخول في عصر الانحطاط وإغلاق باب الاجتهاد. هذا في حين أن التأويل الثاني لا يزال مستمراً ومهيمناً على الشارع من خلال الحركات السلفية – الإخوانية. انظر الخطر الذي يشكله التأويل الوهابي الحرفي الإرهابي للإسلام على العالم العربي والإسلامي. انظر كيف حصر الدين الحنيف =

يعيشها العالم العربي ومن ورائه العالم الإسلامي ككل سوف تطول. إنها أمامنا لا خلفنا. وسوف تظل رازحة تقلق وجودنا ما لم نتجرأ على طرح السؤال الأول عليها. من أين جاءت هذه الانقسامات الطائفية والمذهبية؟ متى تشكلت لأول مرة؟ متى انعقدت عرى خيوط عقدتها المبرمة؟ من سيتجرأ على الحفر عليها أركيولوجياً وتفكيكها تمهيداً للتحرر من أخطبوطها والخلاص منها؟ ما هي الكتب التراثية والسلفية الصفراء التي ترسخها منذ ألف سنة حتى اليوم؟ هل هي مقدسة أيضاً؟ هل كل ما ورد عن الأقدمين مقدس يا ترى؟ هل شيوخ السنة والشيعة والخوارج والعلويين والدروز والإسماعيليين... كلهم مقدسون أيضاً؟ هل كل ما قالوه أو كتبوه كلام معصوم؟ هل ينبغي أن يتحكم في رقابنا لاهوتهم وفتاواهم وفقههم إلى أبد الآبدين؟ في كل الأمم الصاعدة الحاضر هو الذي يتحكم في الماضي والأحياء في الأموات، ما عدا في العالم العربي: الماضي هو الذي يتحكم في الحاضر حتى ليكاد يخنقه خنقاً. رحم الله الأموات جميعاً وشكراً على إنجازاتهم الرائعة في عصرهم. فهي كثيرة وجليلة. ولكن ليتركونا نحل مشاكل عصرنا بأنفسنا: فلكل عصر رجاله، لكل عصر مشاكله وحلوله.

إذا لم يتغير المنطق السائد فإني أقول لكم إننا لن نخرج من ورطتنا طيلة ألف سنة قادمة. الفكر العربي أصبح أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يتجرأ، وللمرة الأولى في تاريخه، على مناقشة هذه الثوابت الراسخة التي لا قداسة لها في الواقع ولكن التي تفرض نفسها بحكم الزمن المتطاول وكأنها مقدسة، وإما أن يبقى خاضعاً لها ومتعلقاً بها إلى حد الوله والاستلاب، وعندئذ لا حل ولا خلاص. كل الفكر الحديث قائم على مفهوم القطيعة الإبيستمولوجية، ما عدا الفكر العربي الذي لم يسمع بها حتى الآن أو لا يريد أن يسمع. كل العلماء والفلاسفة يقولون لك إن هناك فرقاً بين الفضاء العقلي للقرون الوسطى، والفضاء

= كله في تطبيق الحدود، أي قطع الأيدي والأرجل من خلاف ورجم المرأة والجلد وبقية الأشياء المرعبة التي شوهت صورتنا في العالم كله... وبالتالي رجاءً لنفرق بين الدين كأخلاق مثالية وقيم روحانية عالية متعالية، وبين التأويل الذي يشكله البشر عنه في هذه المرحلة أو تلك من مراحل التاريخ. فتأويل الإسلام في العصر الذهبي غير تأويله في عصر الانحطاط.... لنفرق أيضاً بين الجوهر والقشور، بين الدين ورجال الدين... ولنعلم أن الصراع المقبل في العالم الإسلامي هو صراع تفاسير كما يقول الفيلسوف الفرنسي بول ريكور، وإن بمعنى مختلف وسياق آخر. الصراع الذي سوف يشغلنا في مستقبل الأيام سيكون بين التفسير التنويري لرسالة الإسلام والقرآن والتفسير الظلامي السائد حالياً. التفسير الأول لم يبرعم بعد ولم يترسخ بعد بما فيه الكفاية حتى الآن. ولكن المستقبل له من دون أدنى شك.

العقلي للعصور الحديثة. وكلهم يقولون لك إن هناك قطيعة فلسفية وسياسية عميقة تفصل بينهما. ولكنّ المحافظين الجدد في العالم العربي (نعم في العالم العربي وليس فقط في أميركا!) يرفضون الاعتراف بهذه القطيعة المعرفية أو الإبيستمولوجية بين العصور. ويرفضون منطق المساواة والإخاء الإنساني بين مختلف مكونات الشعب بكل عجرفة واستعلاء. ففي رأيهم أن ذلك سيؤدي إلى التضحية بالكثير من الثوابت - أي الفتاوى الإلهية - التي هي أعز علينا من روحنا والتي قد تتقطع نياط قلوبنا إذا ما تخلينا عنها حنيناً إليها. ولكن في هذه الحالة أسألكم: كيف يمكن أن نبني وطناً جديداً يتسع لكل أبنائه وليس فقط للفئة المهيمنة تاريخياً؟ كيف يمكن أن نؤسس مفهوم المواطنية بالمعنى المدني الحديث للكلمة إذا لم نقطع مع التصورات اللاهوتية أو الفقهية القديمة الموروثة عن العصور الوسطى والتي تكفّر ثلث السكان على الأقل؟ أجيبوني بالله عليكم لكي أتبعكم وأمشي وراءكم وأقبّل أياديكم وأرجلكم وأشكركم لأنكم فتحتم الآفاق المغلقة أمام عيني. هل تعتقدون أن الدول المتقدمة في أوروبا لم تكن تعاني من المشاكل نفسها؟ وهل تعتقدون أنها حلّتها عن طريق تحاشيها والقفز عليها ودفن وجهها في الرمل كالنعامات؟ لقد دمر الانقسام المذهبي الكاثوليكي - البروتستانتي القارة الأوروبية تماماً كما قد يدمرنا الانقسام السني - الشيعي حالياً، أو الإسلامي - المسيحي، أو الكردي - العربي، أو الأمازيغي - العربي، إلخ. نصف سكان ألمانيا سقطوا في حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨). وعندئذ لم يقل مثقفو أوروبا إن هذه مشاكل مستوردة من الخارج أو من الاستعمار أو من الشيطان! بل واجهوا الحقيقة المرة وجهاً لوجه وقالوا: هذه مشاكل داخلية على ديننا وتراثنا، وبالتالي فالعقيدة أصبحت بحاجة إلى تفسير جديد، إلى مراجعة جذرية راديكالية شاملة، وإلا فسوف تدمرنا. قالوا: ليس كل ما ورثناه عن القدماء صحيحاً أو معصوماً. هناك أشياء عديدة لم تعد صالحة لعصرنا، بل وتشكل عراقيل خطيرة تحول دون الانطلاقة والنهضة. وعن هذه المراجعة الشاملة نتج الفهم المتسامح المستنير للدين المسيحي وانحلت المشاكل تدريجاً وتأسست المواطنية على قواعد الفلسفة الإنسانية الحديثة التي يتسع صدرها للجميع. وعندئذ توقفت الحروب المذهبية والأهلية التي طالما مزقتهم ودمرتهم. وأصبحوا كلهم مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات أمام مؤسسات الدولة، ويعاملون بالطريقة نفسها. هذا ما حصل بعد الثورة الفرنسية وربيع الشعوب الأوروبية. وقد كان ربيعاً حقيقياً لأنه قطع مع الماضي

و لم يكن عودة إليه. وبالتالي، أهلاً وسهلاً بالربيع الفكري والقطيعة الإبيستمولوجية! ولكن بالتدريج وبشكل إنساني، استيعابي، مهضوم. أنا لا أطالب بكل شيء دفعة واحدة، ولا أريد حرق المراحل أو الاستهانة بتراث عربي إسلامي طويل عريض. إني أعرف مدى ثقل الماضي، وأعرف أن التحرر من رواسبه لا يتم بين عشية وضحاها... وبالتالي لا ينبغي أن نطالب شعوبنا بأشياء تتجاوز طاقتها ولا تستطيع تحقيقها في المدى المنظور. يكفيها ما هي فيه من هم وعذاب...

هذه هي فلسفة التاريخ التي أنطلق منها في هذا الكتاب لتفسير ظاهرة الربيع العربي. إنها ذات استلهام هيغلي بل وحتى ديكارتي ما قبل هيغلي. لنقل بأنها تستلهم جوهر الفكر التفكيكي - أو التحريري - الحديث كله. وهي تقول لنا ما معناه: التاريخ العربي الإسلامي بحاجة لأن يعبر عن نفسه، لأن يتخفف من الأحمال التي تثقل ظهره. إنه بحاجة لأن يقذف، كما البركان، بكل تراكمات أحشائه العميقة: من عصبيات طائفية ومذهبية وأحقاد تاريخية مكبوتة منذ قرون. لا يمكن للمجتمعات العربية أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام قبل القيام بهذه العملية التفكيكية: عملية التنظيف والتعزيل المؤدية إلى التخلص من القشور الميتة والتراكمات القديمة التي تعرقل الانطلاق الحضاري. بمعنى آخر، إن الماضي أصبح عبئاً على الحاضر والمستقبل. ولكن ليس كل الماضي، بل فقط رواسبه المتكلسة والمتحنطة. أما جوهر التراث العربي الإسلامي من قيم روحية وأخلاقية عالية فسيبقى. هنا تكمن ثوابت الأمة بالضبط. إنها تشكل مفخرتنا وروحنا التاريخية. مشكلتنا اليوم هي أننا متمسكون بالقشور الميتة من التراث لا بالجوهر الحقيقي. كل الوجه العقلاني -الإنساني المضيء من تراثنا مجهول من قبل الأجيال الجديدة. وحده الوجه المظلم المعتم معروف وسائد في كل مكان: من البيت إلى الجامعة إلى الجامع وحتى المدرسة الابتدائية، هذا فضلاً عن الفضائيات وبرامجها الدينية القروسطية. فكيف يمكن للأمة أن تنهض في مثل هذا الجو؟ كيف يمكن الربيع العربي أن يؤتي ثماره يانعة جنية؟ كيف يمكن ألا تسطو عليه قوى الماضي؟ مادام ابن سينا لم ينتصر على الغزالي، أو الفارابي على ابن تيمية، أو محمد عبده على محمد بن عبد الوهاب، أو طه حسين على حسن البنا، أو حسن حنفي على سيد قطب، أو محمد الشرفي وعبد المجيد الشرفي على راشد الغنوشي، إلخ، فلا يمكن أن يتحلحل الوضع وتنطلق قوى الأمة من عقالها. هناك وجهان للتراث لا وجه واحد. وأنا لا أقول بالقضاء على الوجه

الآخر الذي يمثله الإمام الغزالي وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية وسواهما من كبار الفقهاء وعلماء الدين. أبداً لا. معاذ الله. فهذا الوجه من تراثنا الديني العميق له حق الوجود بشرط أن يتعرض للمراجعة النقدية والتفكيك الفلسفي بغية تحييد فتاواه التكفيرية التي أدخلتنا في حرب مفتوحة مع العالم كله... أنا لست ضد تدريس هذا التيار السلفي إذا ما تحقق هذا الشرط. ولكن لا يحق له أن يهيمن كلياً على برامج التعليم الديني في العالم العربي. لا يحق له أن يسحق كلياً الوجه العقلاني والفلسفي المضيء من تراثنا كما هو حاصل (ليس فقط حالياً) بل أيضاً منذ ألف سنة بعد انحسار العصر الذهبي والدخول في عصر الانحطاط. هنا يكمن لب الخلل وأصل المشكلة والعلة. وهذا هو سبب شيوع الجهل على أوسع نطاق في مجتمعاتنا. والأنكى من ذلك أن هذا الجهل راح يتخذ، بمرور القرون المتطاولة، طابع القدسية والمعصومية!

العرب والجهل المقدس

منذ زمن طويل وأنا أبحث بشكل واعٍ أو لا واعٍ عن مصطلح واحد[١] يلخص المرحلة العربية الإسلامية بأسرها من دون أن أجده. كنت أدور حوله وألفّ من دون جدوى. وأخيراً عثرت عليه بالصدفة عند أوليفييه روا، أحد كبار المختصين الفرنسيين بالحركات الأصولية من إسلامية ومسيحية ويهودية. ومعلوم أنه مؤلف كتاب **فشل حركات الإسلام السياسي**[٢] ومختص بشؤون أفغانستان وباكستان، ومنافس لجيل كيبل على دراسة موضوع الأصولية الذي يشغل العالم كله الآن. هذا المصطلح الذي شفى غليلي وأضاء لي عتمات قلبي هو: الجهل المقدس. هكذا تلاحظون أنه عن طريق الجهل وصلت إلى مبتغاي. وأكاد أقول: يا ظلام الجهل خيّم إننا نهوى الظلاما. لكن هل يستطيع أن يخيّم أكثر مما هو مخيّم؟ قبل أن أشرحه وأضيء المرحلة من خلاله سوف أقول إن المفكرين الحقيقيين هم وحدهم الذين يستطيعون التوصل إلى مرحلة بلورة المصطلحات الكبرى التي تضيء بطرفة عين

---

١ على هامش كتاب الباحث أوليفييه روا: **الجهل المقدس: زمن الدين بلا ثقافة**. منشورات سوي. باريس ٢٠٠٨.
Olivier Roy: *La sainte ignorance: le temps de la religion sans culture*. Paris. Seuil. 2008
صدرت النسخة العربية عن دار الساقي، بيروت. ترجمة صالح الأشمر ٢٠١١.

2 Olivier Roy: *L'echec de l'Islam politique*. Paris. Seuil. 1992

غياهب الظلمات. لن أعظّم في شأن أوليفييه روا أكثر مما يجب، ولن أجعل منه هيدغر العصور الحديثة. ولكن كفاه فخراً أنه توصل أخيراً إلى بلورة هذا المصطلح الفعال والناجح. مصطلح واحد يكفي لتخليده. ومعلوم أن المصطلحات الذكية أو العبقرية هي عكازات الفكر. فهو لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام ويضيء الإشكاليات من دون الاعتماد عليها. فكر من دون مصطلحات دقيقة هو عبارة عن مواضيع إنشاء أو ثرثرات فارغة. إنه إلقاء للكلام على عواهنه لا أكثر ولا أقل. قد تقولون بعد أن يكون قد نفد صبركم: يا أخي بالله عليك أفرغ ما في جعبتك وقل لنا أخيراً ما هو هذا الجهل المقدس الذي سحرك إلى مثل هذا الحد؟ إليكم ما هو:

أنتم تعلمون أيها السادة أن الجهل كلمة سلبية لا إيجابية. فما بالكم في أن يصبح مقدساً؟ كيف ينتقل من الحضيض إلى قمة الإيجابية بل والقداسة؟ هل هذا معقول؟ هل يضحك علينا الباحث يا ترى؟ هل يستفزنا؟ هل يقصد مثلاً أن الجهل أفضل من العلم؟ معاذ الله. هذا المصطلح ينطوي على نظرية كاملة سوف أشرحها لكم ولنفسي على النحو الآتي: يرى الباحث الفرنسي أن العولمة على عكس ما نظن شجعت على ازدهار الحركات الأصولية، سواء اتخذت هذه الأصولية شكل السلفية الإسلامية أو السلفية البروتستانتية الأميركية أو السلفية اليهودية إلخ. لقد شجعتها عن طريق استخدام تقنيات المعلوماتية – وكذلك الفضائيات!– لنشرأفكارها على أوسع نطاق. انظروا إلى الدعاة الدينيين الذين أصبحوا نجوماً تلفزيونيين في كل أنحاء العالم العربي الإسلامي بل وحتى في أميركا. وهذه الأصوليات السلفية ترى في الثقافة الدنيوية القديمة والحديثة نوعاً من الوثنية التي تبعد عن الله. وبالتالي، ما يميّز الأصوليات المعاصرة ويشكل سمة مشتركة لها كلها هو العداء للثقافة. لماذا؟ لأنها في رأيهم إما أنها لا تضيف شيئاً جديداً إلى كتاب الله وبقية الكتب الدينية، وبالتالي لا نفع فيها، وإما أنها تشكل حجر عثرة أمام أداء الفرائض الدينية وتصرف الأنظار عن التفكير في الآخرة. وبالتالي فهي تضييع وقت. وفي كلتا الحالتين، هي مدانة. ينتج من ذلك أن الجهل يصبح لأول مرة قيمة إيجابية بامتياز. فالجهل بالسينما والمسرح والموسيقى وكل النظريات الفلسفية والأدبية واللوحات الفنية يصبح غاية الغايات. إنه الجهل المقدس: أي الجهل الذي يحمينا من التلوث بموزار وبيتهوفين ورافائيلو وميكل أنجيلو وفان غوخ وبيكاسو وسلفادور دالي... إنه الجهل العظيم الذي يحمينا من أفكار أفلاطون وأرسطو

وابن سينا والمعري وابن رشد وكانط وهيغل وكل الفكر الحديث. إنه الجهل الذي يحمينا من نزار قباني ونجيب محفوظ وعادل إمام وأحمد عبد المعطي حجازي ومحمد أركون... ما أجمل هذا الجهل وما أرقاه! أكاد أقول: اللهم زدنا جهلاً على جهل!... قد تضحكون وتقهقهون وتقولون إني ألعب وأتسلى على هواي وإني لست جاداً. لقد أصبحت سوفسطائياً. لا، أيها السادة إني جاد كل الجدية. وأكبر دليل على ذلك هو أني أنا شخصياً كنت مفعماً بالجهل المقدس في طفولتي الأولى أو شبابي الأول. نعم كنت أصولياً انغلاقياً سلفياً بالمعنى الحرفي للكلمة. وكنت أحلم بهجرة المجتمع والقرية والاختلاء في البراري والقفار مع كتاب الله فقط حيث أتلو آياته صباح مساء حتى آخر لحظة، حتى يحين أجلي: فأدخل الجنة بعدئذ طاهراً مطهراً من دون أن أكون قد تلوثت بالثقافات الفارغة والكافرة لهذا العالم الأرضي. من يصدق ذلك؟ أنا نفسي لا أكاد أصدق ما أقول. ومع ذلك فهذه هي الحقيقة. صدقوا أو لا تصدقوا. كان هذا حلمي، مثالي الأعلى آنذاك، قبل أن أكتشف العلم المحرم والثقافة الدنيوية. وقد حصل ذلك على أيدي اللبنانيين والمصريين من أمثال نعيمة وجبران والمازني والعقاد والمنفلوطي والنظرات والعبرات والآنسات والسيدات... هذا فضلاً عن الثقافة الفرنسية والأوروبية لاحقاً. من هنا انشغالي طيلة ربع قرن بفلاسفة التنوير الأوروبي وصراعهم الرائع مع الجهل المقدس المسيحي. لقد كانت متعة ما بعدها متعة. ولا أزال غاطساً فيها حتى الآن... وهكذا انتقلت من الثقافة الدينية اللاهوتية المحضة إلى الثقافة الدنيوية العلمانية، وأصبحت شخصاً آخر. وهكذا تخليت شيئاً فشيئاً عن تربيتي الأولى، عن جهلي المقدس. على هذا النحو ابتسمت للحياة أو قل ابتسمت لي الحياة، ولم أعد متجهم الوجه، عبوساً قمطريراً.

قد تقولون: ولكنك ربحت الدنيا وخسرت الآخرة؟ أبداً لا. فالإيمان لم يفارقني لحظة واحدة، وإلا لكنت قد سقطت وما استطعت مقاومة ما تعرضت له حتى الآن من محن ومشاكل. ولكنه أصبح إيماناً آخر، إيماناً داخلياً، جوهرانياً، حراً متحرراً من القشور، والأصفاد والقيود. وقد دفعت ثمنه عداً ونقداً. اللهم زدني إيماناً على إيمان وأفقاً رحباً على أفق... على هذا النحو تحررت من الجهل المقدس وتوصلت إلى العلم المقدس والإيمان المستنير. على هذا النحو تصالحت مع نفسي ومع العالم. وأنا واثق بأن العقود المقبلة من السنين سوف تحقق هذه النقلة الفكرية والروحية الكبرى على المستوى الجماعي كله عندما

تتطور برامج التعليم وتستنير العقليات. عندئذ سوف ينبثق الربيع العربي الحقيقي ويطل بأنواره على العالم كله.

العرب والولادة الثانية

في خضم هذا الربيع العربي والانقلابات المتسارعة التي تشهدها مجتمعاتنا، لا يسعني إلا أن أطرح بعض التساؤلات، محاولاً استكناه أسرار المستقبل بقدر الإمكان. هل يمكن المثقف العربي أن يعيش من دون منظور تاريخي أو أفق واسع رحب مفتوح أمامه؟ هل يمكن أن يكتب ويشتغل ويخطط للمستقبل من دون فلسفة معينة للتاريخ يمشي على هديها؟ وهنا يبدو لي أن التشخيص أصبح واضحاً بالنسبة إلينا نحن العرب: لقد دخلنا في ما يدعوه الفلاسفة بالمصهر التاريخي الخلاق الذي سيؤدي إلى الولادة الثانية (هذا إذا لم نمت أثناء الولادة والمخاض العسير!). لقد دخلنا مرحلة العبور الحضاري الكبير. وهذا المنظور الهيغلي ينطبق على العرب مثلما انطبق على الأمم الأوروبية التي حققت نقلتها الحضارية، كالأمة الفرنسية أو الأمة الألمانية، إلخ. وهي مرحلة قلقة، مترجرجة، مليئة بالمخاضات والاختلاجات الهائجة، كما أنها مليئة بالكر والفر والتقدمات والتراجعات. لنضرب على ذلك مثلاً حرية الصحافة في أوروبا: لقد تراجعوا عنها أكثر من مرة في القرن التاسع عشر لكي يعودوا إليها بقوة لاحقاً ويرسخوها. وقل الأمر ذاته عن حرية الكتابة والإبداع والنشر والتعبير. ألم يدينوا رائعتي بودلير وفلوبير **أزهار الشر** و**مدام بوفاري** بحجة "الإخلال بالآداب العامة والحض على الفسق والفجور"؟ والآن ماذا يفعل أصوليّونا مع عادل إمام ونجيب محفوظ وسواهما؟ ألم يذبح الأوروبيون بعضهم بعضاً على الهوية طيلة قرون بسبب العداء الطائفي الرهيب بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين؟ وهذا ما يحصل عندنا الآن على هيئة حروب أهلية ومذهبية ضمنية أو صريحة من أقصى اليمن إلى أقصى العراق مروراً بكل الأقطار تقريباً. ولكن ينبغي أن لا نخاف من هذه المرحلة المضطربة كثيراً كما قد يقول لنا هيغل وكما سأشرحه بعد قليل. فهي عبارة عن مرحلة انتقالية إجبارية لا مفر منها لكي تتحقق الولادة الجديدة لاحقاً. العرب قادمون من دون شك، وإذا لم يكن اليوم أو غداً فحتماً بعد غد. هذا هو اقتناعي، وهذه هي فلسفة التاريخ التي أنطلق منها

لكي أفهم ما يجري. إنها تنظر إلى الأمور على المدى البعيد لا المدى الآني القريب السريع أو حتى المتوسط. هناك عملية غربلة شاسعة واسعة سوف تحصل في العقود القادمة من السنين. وعلى آثارها سوف ينهار العالم القديم ويولد على أنقاضه العالم الجديد. التفكيك قبل التركيب، والهدم قبل البناء. هذا هو منطق التاريخ المتجدد. الشعوب التي لا تتجدد تنقرض وتموت. لكن كم من الفواجع سوف تحصل قبل أن يتحقق ذلك؟ كم من الآلام والدماء والدموع؟ كم من الثمن الباهظ المدفوع!

عندما أقرأ الكتب الاستراتيجية التي تتحدث عن الدول المنبثقة الصاعدة كالصين والهند والبرازيل وحتى كوريا الجنوبية وسواها، ولا أجد أي ذكر للعرب، لا من قريب ولا من بعيد، أشعر ليس فقط بالحزن بل بالخوف أيضاً. ولكني أعتقد أن هذه الحالة مؤقتة وسوف تزول عندما تحصل النهضة المنشودة للعرب. إذا كانت القوى المحافظة لا تزال هي المسيطرة علينا حتى الآن وفي كل الأحزاب والتيارات الفكرية، فإن ذلك لا يعني أن قوى الإصلاح والتجديد قد خسرت المعركة إلى الأبد. عاجلاً أو آجلاً سوف تنتصر. إذا كان الجميع يتقوقعون على طوائفهم ومذاهبهم وعشائرهم خوفاً من المستقبل، فإن ذلك لن يدوم. إنها عبارة عن مرحلة مؤقتة ليس إلا. نعم إن حركة التفكك التي يشهدها العالم العربي حالياً هي مرحلة عابرة سوف تزول بعد أن تحصل الولادة الثانية للعرب. وبالتالي لا ينبغي أن يشمت أعداؤهم بهم كثيراً. صحيح أن وضعهم ليس مفرحاً ولا مشجعاً جداً حالياً، ولكن الإمكانيات الضمنية التي ينطوون عليها تخيف الكثيرين.

العرب فقدوا المبادرة التاريخية بعد سقوط بغداد والأندلس والحضارة الكلاسيكية الرائعة. وقد حاولوا أن ينهضوا من جديد ويحققوا الولادة الحضارية الثانية في عصر النهضة إبان القرن التاسع عشر. ولكن النهضة أجهضت لأسباب داخلية وخارجية. بعد إغلاق العصر الليبرالي العربي، عصر المفكرين النقديين الأحرار من أمثال أحمد أمين والعقاد وطه حسين والمازني والزيات وسلامة موسى وقاسم أمين وشبلي شميل ويعقوب صروف وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وسواهم، دخلنا في عصر الأيديولوجيا الانفعالية والشعارات الحامية التي فرضها علينا التحدي الاستعماري والاستيطان اليهودي في فلسطين. واضطررنا عندئذ إلى التضحية بالمشروع الحضاري من أجل مقاومة الهجمة الخارجية التي فاجأتنا وزعزعتنا. التنوير العربي الذي كان منطلقاً توقف فوراً. عندئذ حل المثقف الأصولي محل طه حسين الذي فقد

مصداقيته في نظر الجماهير الشعبية. وعندئذ منع نقد الانغلاقات التراثية التي تعرقل النهوض الحضاري والولادة الثانية. المرض الداخلي ظل كما هو لا أحد يتجرأ على الاقتراب منه. ولكننا نعلم أن الولادة الثانية لن تحصل إلا بعد معالجته بكل ترسباته المتراكمة معالجة راديكالية. فالدودة في الثمرة أيها السادة، والمرض في الداخل.

يخيل إلي أحياناً أن وضعنا نحن العرب يشبه وضع اليونان. كلاهما له ماض عريق وحاضر هزيل. كلاهما صغير بالقياس إلى عصر الآباء والأجداد. كلاهما يفتخر بماضيه ويخجل من حاضره. فمن الواضح أن الحضارة اليونانية قبل ألفين وخمسمئة سنة كانت تشع على العالم أيام بيركليس وسقراط وأفلاطون وأرسطو إلخ... كانت أستاذة العالم علماً وفلسفة وديمقراطية وحضارة. ولكنها الآن بلد صغير جداً بالقياس إلى ماضيه الكبير. وربما لكانت قد بقيت ديكتاتورية متخلفة مثلنا لولا أن الاتحاد الأوروبي ضمّها إليه وانتشلها من وهدتها وتخبطها وأنقذها من حكم العسكر. ولكن اليونان معذورة: فهي عشرة ملايين فقط ونحن ثلاثمئة مليون! ولكننا مثلها نفتخر، وبحق، بعصر الأمويين والعباسيين والفاطميين والرشيد والمأمون وعبد الرحمن الثالث والمعز ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ومراكش وفاس... ولكن أين هو حاضرنا؟

بل إن اليونان الصغيرة على تخلفها وضعف أهميتها أصبحت أهم منا الآن وأكثر تقدماً وتحضراً. لن أكرر هنا ما قاله برنامج الأمم المتحدة عن التنمية بكل تفاصيله. ولكن لنذكّر ببعض الأرقام المذهلة: نسبة الأمية بالنسبة إلى النساء في العالم العربي تصل إلى خمسين في المئة وفي اليونان إلى ثلاثة في المئة! عدد الكتب المترجمة لا يتجاوز ثلاثمئة وثلاثين كتاباً في السنة عندنا، هذا في حين أن اليونان الصغيرة تترجم ثلاثة أضعاف هذا العدد: أي ألف كتاب سنوياً. لنقارن أنفسنا الآن بدولة أوروبية متوسطة. هل نعلم بأن اقتصاد إسبانيا وحدها أغنى من اقتصادات كل الدول العربية مجتمعة، بما فيها دول البترول؟... نقول ذلك على الرغم من أن عدد سكانها نصف عدد سكان مصر أو أكثر قليلاً... وإسبانيا لم تكن شيئاً يذكر قبل ثلاثين سنة فقط أيام فرانكو السيّئ الذكر. حتى عام ١٩٧٥ كانت أصولية، متعصبة، استبدادية، انغلاقية، متخلفة. وقل الأمر ذاته عن برتغال سالازار... كلهم نهضوا وانتفضوا وانتصروا على أنفسهم ما عدانا. هل نحن مصابون بعلة يعجز كل فلاسفة الأرض عن تشخيصها أو علاجها؟ ما هو سر المرض العربي، الجمود العربي، التخلف العربي؟

الفصل الثاني

الانتفاضات العربية من منظور فلسفي

هيغل وفلسفة التاريخ

في تساؤلي حول سر المرض العربي، والجمود العربي، والتخلف العربي، سوف أستلهم، على مدار هذا الكتاب، بعض أطروحات الفيلسوف الألماني الكبير: هيغل. وهو المفكر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس منذ قرنين ولا يزال. فالفكر الحديث كله ناتج من هيغل بشكل من الأشكال كما قال موريس ميرلو بونتي صديق سارتر ومنافسه على عرش الفكر الفرنسي في لحظة ما. العبارة بالحرف الواحد هي: "هيغل هو أصل كل ما يحصل من أشياء عظيمة في مجال الفلسفة منذ مئة سنة". وقد استطاع هذا الفيلسوف العبقري أن يشكل نظاماً فلسفياً متكاملاً حيث درس فيه الدين والأخلاق والسياسة والدولة والمجتمع... إلخ. لم يترك شيئاً إلا تحدث عنه، وربما كان آخر فيلسوف شمولي في التاريخ.

إنه أرسطو العصور الحديثة كما يقال أحياناً. فكما أن المعلم الأول تحدث عن الفيزيقا والميتافيزيقا والمنطق والبلاغة والشعر والسياسة والأخلاق والدين... إلخ، فإن هيغل فعل الشيء ذاته في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولذلك اعتبره البعض ذروة الفلسفة المثالية الألمانية التي كانت تضم أيضاً كانط وفيخته وشيلنغ وآخرين. لقد تأثر هيغل بكانط من دون شك، لأن كانط كان أستاذاً لكل مثقفي ألمانيا في ذلك الزمان، ولكنه حاول أن يتجاوز أستاذه، وقد تجاوزه في أشياء عديدة واستطاع تأسيس فلسفة جديدة. فإذا كان

كانط هو أبا الفلسفة النقدية، فإن هيغل هو أبو الفلسفة الجدلية أو الديالكتيكية. من هنا عظمة هيغل. ذلك أن من النادر أن يظهر فيلسوفان كبيران في الفترة نفسها أو في في فترة متقاربة. فهيغل كان معاصراً لكانط وإن كان أصغر سناً منه بكثير. هيغل ولد عام ١٧٧٠ وكانط عام ١٧٢٤. وبالتالي كانت تفصل بينهما مدة خمسين سنة تقريباً.

وأما الأحداث الأساسية التي أثّرت على فكر هيغل وفلسفته في التاريخ فهي الثورة الفرنسية التي اندلعت وعمره تسعة عشر عاماً (١٧٨٩)، ثم شخصية البطل نابليون بونابرت الذي غزا ألمانيا ورآه لأول مرة على حصان حيث تجسدت روح التاريخ كلها في شخصه، ثم الثورة الصناعية الإنجليزية التي غيّرت وجه العالم الزراعي والإقطاعي القديم. هذان هما الحدثان الأساسيان: الثورة الفرنسية والثورة الصناعية التكنولوجية.

لا ريب في أن تلخيص فلسفة ضخمة كفلسفة هيغل أمر صعب جداً. فالمرء يخشى أن يشوّه فكره إذا ما بسَّطه أكثر من اللزوم. لكن لنقل بسرعة شديدة ما يلي: كان هيغل يرى أن ما يتحقق في التاريخ عبر الصراعات الدامية والأهواء البشرية المتعارضة والهائجة هو الفكر أو الروح: أي العقلانية العميقة. فالتاريخ عقلاني على الرغم من أنه يبدو لنا فوضوياً، مليئاً بالحروب والظلم والقهر والتناقضات. وذلك لأن العقل هو الذي يحكم العالم والتاريخ طبقاً لوجهة النظرة الهيغلية المتفائلة.

فالتاريخ كان عقلانياً وسيبقى على الرغم من كل المظاهر الخادعة والفظائع الجنونية التي قد توهم بالعكس. والتاريخ لا يمكن أن يفهمه إلا عقل الفيلسوف. كان هيغل يقول بالحرف الواحد: ينبغي أن ننظر إلى التاريخ بعين العقل التي هي وحدها القادرة على اختراق السطح المبرقش للأحداث اليومية. بمعنى أنه ينبغي للأحداث اليومية المتلاحقة والتفاصيل الصغيرة التي تنهمر علينا يومياً من خلال وسائل الإعلام أن لا تعمي أبصارنا أو تلهينا عن إدراك حركة التاريخ العميقة التي تربض تحت السطح. وحده الفيلسوف يستطيع أن ينفذ إليها ويراها. وحده قادر على أن يخترق السطح لكي يصل إلى الأعماق. حركة التاريخ العميقة لا ترى بالعين المجردة. تراها عين الفيلسوف فقط. أما الكاتب الصحافي فيظل مبهوراً أو مشغولاً بالحدث السطحي الآني. من هنا التحليلات السطحية عموماً للصحافيين. إنها مفيدة لدى الصحافيين الجادين ولكنها ليست كافية.

والتاريخ، طبقاً لتصورات هيغل، يسير باتجاه هدف معين يدعوه فلسفياً بالفكرة العليا

أو الروح المطلقة: أي الوعي بالذات، هذا الوعي الذي يجعل الإنسان حراً. التاريخ يمشي في اتجاه المزيد من العقلانية، والأخلاق، والنظام، والحرية. هذا هو هدف التاريخ النهائي والأخير. إنه يهدف إلى تحقيق السعادة للبشر على هذه الأرض، وكذلك تحقيق التقدم المادي والمعنوي.

هل ينبغي أن نستنتج من ذلك أن الناس في عصرنا أكثر عقلانية وأخلاقية وحرية مما كانوا عليه في الماضي؟ لا. ولكن ما هو مضاد للعقلانية والأخلاق والحرية ما عادوا يتحملونه كما كانت عليه الحال في السابق، بل أصبحوا يدينونه أكثر فأكثر. لنضرب على ذلك المثل الآتي: عندما كانت الكنيسة الكاثوليكية تمارس محاكم التفتيش في القرون الوسطى أو حتى في عصر النهضة فتلاحق المفكرين بل وتعدمهم، كما حصل لجيوردانو برينو وآخرين، ما كان أحد يحتج على ذلك.

كانوا يعتبرونه شيئاً طبيعياً أو عادياً، لأن الكنيسة معصومة ولا تناقش. ولكن عندما قتلوا المفكرين أو حتى الناس العاديين في القرن الثامن عشر، احتج فولتير على ذلك ومعه كوكبة من المثقفين المتنورين. وبالتالي فقد حصل تطور في التاريخ بالقياس إلى ما سبق. لقد تقدم التاريخ خطوة إلى الأمام. ما كان مقبولاً في العصور الوسطى ما عاد مقبولاً في عصر التنوير. وقس على ذلك...

أما في القرن التاسع عشر، عندما أدانوا الضابط اليهودي دريفوس بتهمة الخيانة العظمى للجيش الفرنسي وهو بريء، فإن الروائي الشهير إميل زولا احتج على ذلك ومعه ليس فقط المثقفون بل جزء لا يستهان به من الرأي العام... وهنا تطور التاريخ درجة إضافية بالقياس إلى عصر فولتير، لأن الرأي العام نفسه استنار وأصبح مع زولا وليس فقط المثقفون. وهكذا نلاحظ أنه يوجد تطور متدرج على مدار التاريخ من قرن إلى قرن. فما كان مسموحاً به من ظلم في القرن السابق ما عاد مسموحاً به في القرن اللاحق. واليوم أصبح الحكام في الدول الأوروبية يخشون رأيهم العام إلى حدّ لا يكاد يصدق. ولو سمع بذلك ملوك العصور السابقة، حيث لم يكن هناك أي وزن للشعب أو للرأي العام، لجنّ جنونهم! ولما صدقوا ذلك. هنا نلاحظ أن انتفاضات الربيع العربي حققت إنجازاً ما. فلأول مرة في التاريخ أصبح الحكام العرب يخشون شعوبهم ويحسبون لها الحساب... وبالتالي فالذين يقولون بأنه لا يوجد تقدم في التاريخ مخطئون. إنهم عدميون يائسون وخطرون. ولكن هذا لا يعني أن

هيغل أكثر عقلانية وأخلاقية من سقراط أو أرسطو... فقط عصر هيغل يختلف عن عصر سقراط، وعصرنا أكثر تقدماً من عصر هيغل، إلخ...

كان هيغل يرى أن التاريخ الكوني أو تاريخ العالم لا يهتم بالأشخاص الفرديين، بل يهتم بـ"الفرد الكوني"، أي بالشعب ككل وبروح هذا الشعب. وهذا ما ندعوه الآن بخصوصية الشعب الألماني، أو الفرنسي، أو العربي الإسلامي... إلخ.

فكل شعب له روح جماعية لا يعرفها أو لا يحس بها إلا الأبطال أو الشخصيات الاستثنائية. ولهذا السبب ندعوهم بالأبطال. فهم مفعمون بروح الشعب ويتمتعون بحدس داخلي خارق على عكس بقية البشر.

وهؤلاء يصبحون عادة قادة لشعوبهم. وبالتالي فالبطل التاريخي هو ذلك الشخص الذي يستشعر ما يطمح إليه وعي البشر في عصره ويحققه لهم. إنهم يطمحون إليه بشكل مبهم، غامض، غير واع بذاته تماماً. ولكن البطل التاريخي أو القائد الملهم هو وحده الذي يعرف ما هو هذا الشيء المبهم الغامض، ويعرف ما هو الطريق للوصول إليه. ولذلك فإنه يدل الناس على هذا الطريق من أجل تحقيق أمنية شعبه. إنه رائد وقائد بكل ما للكلمة من معنى. نضرب على ذلك مثلاً لوثر أو نابليون أو ديغول أو تشرشل أو عبد الناصر في لحظة من اللحظات...

وهذا ما يفسر الإجماع الذي يتحقق حول الرجل العظيم أو البطل. فالرجل العظيم من دون الشعب لا شيء. ولكن الشعب من دون الرجل العظيم لا يعرف كيف يتجه، ولا كيف يمسك بأول الخيط الذي يؤدي إلى الخلاص، إلى الحل، إلى الفجر.

وبالتالي فالشعب بحاجة إلى الرجل العظيم لكي يستشعر مطامحه وآماله ولكي يحققها له. وكل شعب له خصوصيته التي يتجه نحوها والتي تشكل جوهره، أو غايته، أو هدفه الأعلى في الحياة.

ويرى المؤلف أن مسار روح العالم بالنسبة إلى هيغل يهدف في النهاية إلى تأسيس الدولة التي تحقق الحرية والسعادة لكل المواطنين من دون استثناء. وفي الدولة تتحقق الحرية بشكل موضوعي. وبالتالي غاية التاريخ هي الدولة، وغاية الدولة هي الحرية. المقصود بذلك طبعاً دولة الحق والقانون وليس أي دولة... وبالأخص ليس دولة التعسف والاعتباط والمحسوبيات التي انتفض عليها الربيع العربي أخيراً.

ولكن إذا كان العقل يحكم العالم ويتجسد في التاريخ كما يقول هيغل، فإننا لا نملك إلا أن نطرح هذا السؤال: لماذا يبدو لنا التاريخ البشري في أحيان كثيرة على هيئة فوضى أو جنون أو عنف أعمى لا غاية له ولا عقلانية؟ هنا ينبغي أن نفرق بين التاريخ العميق أو الحقيقي الذي لا يُرى بالعين المجردة كما ذكرنا، والتاريخ الظاهري السطحي الذي نراه كل يوم. والأول لا يستطيع أن يراه إلا الفيلسوف العميق الذي لا يكتفي بظواهر الأشياء السطحية الخادعة. يضاف إلى ذلك أن العنف أو الشر في نظر هيغل ليس كله شراً. فلولاه لما اكتشف الناس الذين يصنعون التاريخ معنى الخير. وبالتالي فهناك وظيفة إيجابية للشر أو للعامل السلبي. ولا ينبغي أن نستهين بها. فلولا السلبي لما كان الإيجابي: ولا بد دون الشهد من إبر النحل... هذه الفكرة سوف نلتقي بها لاحقاً أكثر من مرة.

ضمن هذا المنظور الهيغلي الواسع يصبح للشر معنى ولا يعود شيئاً عبثياً أو اعتباطياً أو شاذاً، بل يصبح شيئاً ضرورياً لتحقيق التقدم في التاريخ. وعندئذ نستطيع أن نتحمل ما لا يُحتمل أو نتقبل ما لا يُقبل بانتظار أن يحصل الأفضل. هذه هي فلسفة التاريخ في خطوطها العريضة لهيغل، أو قل هذه هي بعض جوانبها لكي نكون أكثر دقة. وهي فلسفة جديرة بالتمعن والاهتمام لأنها تنطبق على الواقع العربي والإسلامي اليوم إذا ما أحسنّا فهمها وتطبيقها. فما يحصل من كوارث وفواجع اليوم في سوريا أو العراق أو اليمن أو كل مكان من أرض العرب ربما كان ضرورياً لكي نفتح أعيننا على خطورة العوامل السلبية في التاريخ فنحاول إيجاد مضادات حيوية لها. وأقصد بذلك تشخيصات فلسفية عميقة ومضيئة للواقع العربي والإسلامي. نحن بحاجة فعلاً إلى هيغل عربي لكي يشرح لنا حقيقة ما يجري اليوم، لكي يساعدنا على أن نتحمل ما لا يُحتمل وما لا يُطاق. ضمن هذا المنظور أستطيع المراهنة على أن عذابات الشعوب العربية وتضحياتها لن تذهب سدى.

لكي نفهم هيغل جيداً ينبغي أن نموضعه ضمن عصره وظروفه. فهيغل نفسه كان يقول بأن الفلسفة هي بنت عصرها، وبالتالي لا نستطيع أن نفهمها جيداً إلا إذا وضعناها ضمن سياق ذلك العصر وهمومه وقضاياه الأساسية. وكان يقول بأن مهمة الفلسفة هي القبض على الواقع من خلال الفكر. بمعنى أن مهمتها تكمن في تحليل الواقع والنفاذ إلى أعماق أعماقه بغية تشخيص مرض العصر وعلاجه.

والواقع أن هيغل عاش وكتب جل مؤلفاته في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

نقول ذلك على الرغم من أنه ولد في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر كما ذكرنا آنفاً (١٧٧٠-١٨٣١). فما هي الأحداث الجسام التي حصلت في تلك الفترة يا ترى؟ ما هي هموم ذلك العصر ومشاكله الأساسية؟ يمكن القول إن أهم حدث سياسي أثر على هيغل وجيله هو اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. فقد كان عمره آنذاك تسعة عشر عاماً بالضبط كما ذكرنا سابقاً. ويقال إنه فرح كثيراً بالحدث الذي كان له وقع الزلزال في أوروبا. وقد بلغ به الفرح إلى درجة أنه ذهب مع زميليه شيلنغ وهولدرلين إلى منطقة ما في ألمانيا حيث زرعوا شجرة الحرية تيمناً بالثورة الفرنسية واحتفالاً بها. فقد رأوا فيها العلامة التي لا تخطئ على استهلال العصور الحديثة وأفول العصور القديمة: أي عصور الإقطاع والاستبداد السياسي والأصولية المسيحية. وتمنوا أن تنتقل شرارتها إلى أوروبا كلها لكي تدك معاقل الإقطاع في ألمانيا أيضاً وليس فقط في فرنسا. فهل يمكن أن نقول الشيء نفسه عن انتفاضات الربيع العربي؟ هل تشكل قطيعة مع الماضي، كالثورة الفرنسية، أم لا؟ إنه السؤال الذي سوف يلاحقنا على مدار هذا الكتاب. ولهذا السبب رحب هيغل بنابليون بونابرت على الرغم من أنه دخل ألمانيا غازياً بجيوشه الجرارة، بل ووصل إلى مدينة "يينا" ذاتها حيث كان فيلسوفنا يشتغل كأستاذ في الجامعة. وبدلاً من أن يحزن على بلده المغزو في عقر داره، راح يفرح ويتمنى لو أن حامل أفكار الثورة الفرنسية في "الحرية والمساواة والإخاء" يقضي على النظام العتيق السائد في ألمانيا مثلما قضى عليه في فرنسا وأسقط سجن الباستيل الشهير. فهل كان هيغل عميلاً أو خائناً لبلاده إذ اتخذ مثل هذا الموقف؟ من يستطيع أن يقول ذلك؟ لقد كان فقط "عميلاً" لفكرة الحرية وكارهاً لحكم الاستبداد والأصولية الذي أطاحته الثورة الفرنسية.

وبالتالي فلسفة هيغل مرتبطة بفكرة الحرية والثورة الفرنسية بشكل مؤكد. بل ويمكن القول إن الفلسفة الهيغلية كلها ليست إلا عبارة عن "ترجمة فلسفية" لهذا الحدث السياسي الضخم. ينبغي العلم بأن هيغل كان متأثراً بجان جاك روسو الذي قرأه في مطلع شبابه وأعجب به جداً مثلما أعجب به هولدرلين ومعظم مثقفي ألمانيا التواقين إلى الصدق والحقيقة والحرية. ومعلوم أن روسو هو أبو الثورة الفرنسية التي رفعت صورته على رؤوس الأشهاد واتخذت كتابه **العقد الاجتماعي** كإنجيل لها. يضاف إلى ذلك أن هيغل جاء بعد كانط مباشرة كما ذكرنا سابقاً.

وكانط، كما هو معلوم، كان أستاذ الجيل كله ويعتبر بمثابة "الظهور" الفلسفي في ألمانيا. كان يعتبر بمثابة "النبي الجديد" الذي سيهدي ألمانيا إلى طريق النور والحقيقة بعد أن أطبقت عليها الظلمات والعتمات طيلة القرون الوسطى. كان أستاذ الجميع، من فيخته إلى شيلنغ إلى هيغل نفسه. وقد وصل الأمر بهيغل إلى حد قراءة كتبه تحت اللحاف عندما كان في الجامعة. وذلك لأن الأساتذة التقليديين المتعصبين كانوا يراقبون الطلاب لمعرفة ماذا يقرأون في خلواتهم أو غرفهم قبيل النوم! فإذا كانوا يقرأون الكتب الدينية الوعظية الامتثالية فلا غبار عليهم. أما إذا كانوا يقرأون الكتب الفلسفية "الهدامة" الخارجة على الدين فالويل لهم!... وبالمناسبة، كان كانط أيضاً من أكبر المعجبين بجان جاك روسو. وبما أنه كان ممنوعاً من قبل الأصوليين المسيحيين، فإن الطلاب ما كانوا يتجرأون على قراءة كتبه علناً. ولذلك فإن هيغل كان يقرأها من حين إلى حين تحت اللحاف ثم يخبئ الكتاب خوفاً من أن يدخل عليه أحد الأساتذة فجأة للتفتيش. وكذلك كان يفعل آخرون عديدون. وبالتالي، الحدثان الأساسيان اللذان أثرا على تكوين هيغل الفلسفي هما: كانط وفلسفته العقلانية التنويرية، ثم الثورة الفرنسية. يضاف إلى كل ذلك حدث آخر لا يستهان به ألا وهو الثورة الصناعية الإنكليزية.

فإنكلترا كانت قد سبقت كل أوروبا إلى مجال الصناعة والسيطرة على التكنولوجيا. وابتدأت الآلات الحديثة تظهر فيها منذ وقت مبكر، وهذا ما أعطى أملاً كبيراً بتحقيق التقدم وتخفيف معاناة الإنسان عن طريق الاستغناء عن جهده العضلي المرهق بفضل استخدام الآلة، كما أعطى أملاً بالسيطرة على الطبيعة وتذليلها لخدمة البشرية عن طريق هذه الآلات التكنولوجية بالذات. هذا الحدث ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار أيضاً إذا ما أردنا أن نفهم المنطلقات الحقيقية لفلسفة هيغل وما تلاها. فهذا الفيلسوف الضخم أثر على كل الفلسفات الحديثة والمعاصرة التي جاءت بعده.

كلها خرجت من معطفه بشكل أو بآخر: فإما أنها كانت مستلهمة منه وتدافع عنه، وإما أنها نشأت كرد فعل ضده. فالفلسفة الوجودية خرجت من معطفه، وكذلك الفلسفة الماركسية. أما الفلسفة الوضعية أو التحليلية الإنكليزية فقد تشكلت ضده أو كرد فعل عليه وعلى أطروحاته وأفكاره الأساسية. وبالتالي، فتأثيره على القرن العشرين كان كبيراً جداً، ولذلك لا توجد جامعة في العالم إلا وهي تدرس فلسفته وتشرحها وتحللها وتنقدها

وتكشف عما مات فيها وعما لا يزال صالحاً ينبض بالحياة حتى الآن. وللفلسفة الهيغلية اختصاصيون كبار في مختلف جامعات العالم تماماً كالفلسفة الأرسطوطاليسية، أو الفلسفة الديكارتية، إلخ...

ولكن فلسفة هيغل صعبة وغامضة، وينبغي على القارئ أن يبذل جهوداً كبيرة لكي يفهم النص الهيغلي. فهو ليس في متناول أي شخص كان. ينبغي عليك أن تكون متعمقاً في الشؤون الفلسفية لكي تستطيع أن تفهمه، ينبغي أن تعرف كل تاريخ الفلسفة لكي تستوعبه فعلاً، ثم بالأخص ينبغي أن تصبر عليه لكي تصل إلى نتيجة. بالطبع فإن أشهر كتبه هو **فينومينولوجيا الروح** أو علم تجليات الروح الفكرية على مدار التاريخ منذ أقدم العصور حتى اليوم، مروراً بلحظة القرون الوسطى المسيحية، فلحظة الإصلاح الديني وعصر النهضة، فلحظة التنوير، وانتهاءً بلحظة هيغل نفسه باعتبارها آخر اللحظات وأعلى اللحظات فكراً ونضجاً.

فقد اعتقد هيغل بأنه ختم العلم والفلسفة وتوصل إلى المعرفة المطلقة! ولكن هذا كان وهماً بالطبع. فالعلم لم ينتهِ بعد هيغل ولا كذلك الفلسفة، ولكن عظمة هيغل تكمن في أنه مشى بالفلسفة في عصره إلى نهاياتها القصوى، ووصل بها إلى نوع من النضج قلّ نظيره، ولذلك توهم أنه ختم العلم والفلسفة.

ومن أهم كتبه الأخرى التي جاءت بعد الفينومينولوجيا أو علم الظاهريات والتجليات نذكر كتابه عن علم المنطق، ثم كتابه **موسوعة العلوم الفلسفية**، ثم كتابه عن فلسفة التاريخ، إلخ. وفي هذا الكتاب الأخير يبلور هيغل نظرية متكاملة عن أحداث التاريخ ومدلولاتها ويفرق بين ما هو أساسي وما هو ثانوي، ما هو عميق وما هو قشور سطحية. ويكشف عن سر التاريخ وجوهره وكيف يتقدم إلى الأمام وضمن أي ظروف وبناءً على أي تضحيات ومصائب بشرية وآلام.

ويمكن القول بأن هيغل هو أحد كبار فلاسفة التاريخ إضافة إلى الفيلسوف الإيطالي فيكو، أو الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت، أو كارل ماركس، أو سواهم. وقد ابتدأ يعطي دروسه في جامعة برلين عن فلسفة التاريخ عامي ١٨٢٢-١٨٢٣، ثم عاد إلى الموضوع لاحقاً لكي يكمل أفكاره من جديد. وهي الدروس التي جمعها تلامذته ونشروها بعد موته تحت عنوان: دروس في فلسفة التاريخ.

والفكرة الأساسية التي ينطلق منها هيغل هي أن العقل يحكم العالم على الرغم من كل مظاهر الفوضى والحروب الأهلية والمجازر التي نجدها في التاريخ البشري. فهذه الكوارث هي أشياء إجبارية أو ضرورية لتقدم التاريخ، وذلك لأن ثمن التقدم إلى الأمام باهظ، ولا يمكن أن تصل إلى الضفة الأخرى إلا بعد مواجهة الأعاصير والرياح العاتيات. ولذلك فإن كل الأمم التي تقدمت إلى الأمام هي أمم دفعت ثمناً غالياً وتضحيات كبرى، كالأمة الفرنسية مثلاً.

فالثورة الفرنسية قطعت آلاف الرؤوس الإقطاعية، وجرت الدماء أنهاراً في شوارع باريس قبل أن يتوصل الشعب الفرنسي إلى نظام سياسي عقلاني جديد. هذا من دون أن نذكر ثورة ١٨٤٨ وكومونة باريس عام ١٨٧٠ إلخ... وبالتالي فمسيرة التاريخ الكوني هي مسيرة عقلانية على الرغم من كل شيء. والعقل هو الذي ينتصر في نهاية المطاف، وكذلك النظام، والرفاهية، والحياة الرغيدة للشعوب. وهذا ما تحقق بالفعل في أوروبا لاحقاً. وبالتالي نظرية هيغل ليست خاطئة على الإطلاق. يكفي أن نلقي نظرة على دول الاتحاد الأوروبي لكي نتأكد من ذلك. لقد أصبحت بمثابة جنة الله على الأرض. ولولا ذلك لما أصرّت تركيا بشكل مستميت على الانضمام إليها. ولما حاول كل فقراء العالم الهجرة إلى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، بل والموت غرقاً في القوارب مقابل شواطئ هذه الجنة الموعودة. وهذا يعني أن النظام الجديد السعيد، نظام دولة القانون والمؤسسات والمساواة، لا يتحقق إلا بعد المرور بمرحلة الفوضى الخلاقة المدمرة: أي التي تدمر أسس النظام القديم وتكلف الناس تضحيات كبيرة ومرعبة.

والآن نطرح هذا السؤال:

ما علاقة هيغل بالتنوير الديني، وهل كان يعتبره شرطاً أساسياً لنجاح الثورات والتحولات؟

ينبغي العلم بأن هيغل مر بالمرحلة التنويرية، مثله في ذلك مثل معظم فلاسفة عصره. ففي ذلك الوقت ما كان بإمكان أي مفكر حقيقي إلا أن يواجه المسألة الدينية في لحظة ما من لحظات حياته. فإما أن يفسر الدين بشكل مستنير، وإما أن يظل خاضعاً للتفسير القديم لرجال الدين. وهذه هي مشكلة المثقف العربي في عصرنا أيضاً. بل يمكن القول بأن مسألة العلاقة مع المسيحية أو بالأحرى مع التصور التقليدي والأصولي القمعي لها كانت تشكل

المسألة الكبرى بالنسبة إلى الفلسفة والفلاسفة الأوروبيين آنذاك. يعرف ذلك كل من غاص في أعماق الفكر الأوروبي وتابع تطوره التاريخي. أما الآن فقد تغير الوضع في أوروبا إلى درجة أن فلاسفتها قد يمضون كل حياتهم في البحث والتفكير من دون أن يقولوا كلمة واحدة عن الدين أو القضية الدينية لسبب بسيط: هو أنها لم تعد مشكلة أساسية. لم تعد تشغلهم كما كانت تشغل أسلافهم قبل قرن أو قرنين من الزمن. لقد شُخصت وعُولجت وحُلت وتم تجاوزها منذ زمن طويل. لقد أصبحت منتهية أو تحصيل حاصل. هذا كل ما في الأمر لا أكثر ولا أقل... وهنا يكمن الفرق الأساسي بين مثقفي أوروبا ومثقفي العالم العربي. فمن الواضح أن المشكلة الدينية بالنسبة إلينا هي مشكلة المشاكل حالياً، وسوف تظل تشغلنا لسنوات - أو حتى عقود - طويلة قادمة. وهذا يعني أن حجم التفاوت التاريخي بين تقدمهم وتأخرنا يصل إلى مئة وخمسين سنة على الأقل.

والواقع أن الفلسفة هي بنت عصرها كما كان يقول هيغل شخصياً. وبالتالي ينبغي أن نزيل من أذهاننا تلك الفكرة الشائعة كثيراً في بعض الأوساط التي تقول بأن الفيلسوف يقول كلاماً تجريدياً عمومياً يتجاوز كل العصور ولا يرتبط بأي عصر أو زمن أو مجتمع محدد. ينبغي أن ننسى تلك الفكرة الوهمية التي تصور لنا الفيلسوف على أساس أنه شخص معتكف أو منعزل في برجه العاجي... هذا النوع من التفلسف إذا ما وجد لم يعد يقنع أحداً. الفيلسوف الذي لا يعالج المشاكل الأساسية المطروحة في عصره والتي تقلق مجتمعه ليس فيلسوفاً ولا يستحق هذا الاسم. كل فيلسوف كبير هو بالضرورة شخص منخرط في هموم عصره وقضاياه. وتكمن مهمته في تشخيص المشكلة الكبرى بشكل صحيح تمهيداً لحلها. فهو وحده القادر على ذلك. من هنا أهمية الفلاسفة الكبار في التاريخ. إنهم يحترقون لكي يضيئوا للآخرين الطريق. إنهم فعلاً منارات عالية. هكذا كان ديكارت أو سبينوزا أو فولتير أو روسو أو مونتسكيو أو ديدرو أو كانط أو هيغل نفسه إلخ... وهذا هو معنى عبارة هيغل المذكورة سابقاً حيث عرّف الفلسفة بأنها: القبض على الواقع من خلال الفكر.

أياً يكن من أمر، فإن هيغل كان قد واجه المسألة الدينية وهو في الخامسة والعشرين، عندما ألف كتابه **حياة يسوع** عام ١٧٩٥. وفي هذا الكتاب الذي لم يتجرأ على نشره فوراً، نلاحظ أنه يقدم صورة تاريخية - أي عقلانية - عن مؤسس المسيحية. فالمسيح كما يفهمه

هيغل يبدو كمعلم أخلاقي على الطريقة الكانطية أكثر مما هو شخصية خارقة أو فوق تاريخية وفوق بشرية. فلم يعد يسوع يصنع المعجزات هنا وهناك كما تصوره لنا الكتب التقليدية، و لم تعد هناك أسرار تحيط به، بل أصبح يعلم الحرية الداخلية والكرامة الإنسانية، كما يفعل أي فيلسوف من فلاسفة التنوير، وإن بشكل أكمل.

ثم ألّف هيغل بعد ذلك بعام واحد كتاباً آخر مهماً عن الدين هو: **دوغمائية الدين المسيحي**. وفي هذا الكتاب الذي لم ينشر أيضاً في حياته يدرس هيغل العقائد المسيحية نفسها التي كان فولتير قد انتقدها. ولكنه يطبق منهجية مختلفة عن منهجية فولتير. إنها منهجية داخلية أكثر مما هي خارجية. ففولتير كان ينتقد الأرثوذكسية المسيحية (أي الأصولية) من موقع خارجي مضاد. أما هيغل فكان يتبع هذه المنهجية أحياناً، ولكنه في معظم الأحيان كان يمشي مع العقيدة من الداخل وبشكل ديالكتيكي لكي يبين ضرورتها التاريخية أو الوظيفة التي أدتها في لحظة ما. ثم يبين بعدئذ كيف أنها تحولت إلى عكسها. فما كان عقلانياً في الدين المسيحي أصبح بمرور الزمن دوغمائياً قامعاً للعقل.

لقد تحول إلى طقوس وشعائر ومؤسسات مفرغة من معناها الأصلي، الأولي. بمعنى آخر، فإن الدين المسيحي تحول إلى قشور وقوالب يابسة جافة محنطة أو متحنطة... وعلى الدين الحقيقي أن يتخلص من هذه القشور لكي يعود إلى معناه الحي، إلى منبعه الأصلي.

فالدين المسيحي بمرور الزمن، وبسبب صراعات البشر وأهوائهم، تحول إلى أيديولوجيا سلطوية، قمعية في مرحلة ما من مراحل التاريخ. وهذا ما يدعوه هيغل: بالدوغمائية.

ولكن في ما بعد، فهم هيغل أن الدين إذا ما فرغ من دوغمائيته وطقوسه وشعائره فإنه لا يعود ديناً على الإطلاق! وعندئذ وقف هيغل أمام خيارين: فإما أن يتخلى كلياً عن الدين الدوغمائي الرسمي السائد لمصلحة العقلانية الفلسفية الراديكالية، وإما أن يجعل الفلسفة تتعايش أو تتجاور مع الدين. ولكن هذا التعايش يبدو مصطنعاً وغير مفهوم بعد أن قام هيغل بنقد العقائد المسيحية، والأسرار، والمعجزات، وما إلى ذلك. ولهذا السبب اتهمه بعضهم باستخدام لغة مزدوجة: لغة الفلاسفة ولغة اللاهوتيين. فهل هناك حقيقة واحدة عقلانية للجميع؟ أم أنه توجد حقيقتان: الأولى للفلاسفة والنخبة المثقفة، والثانية لعموم الشعب؟

على أي حال، فإن الدين المسيحي، ضمن منظور هيغل، تحول بفعل ضرورة تاريخية قاهرة إلى عكسه! راح يصبح استلابياً إكراهيا مضاداً لمقاصده الأولى وجوهره. وعلى هذا

النحو نفهم سبب تحالف الكنيسة المسيحية مع النظام الإقطاعي والاستبداد السياسي طيلة قرون وقرون. فالإنجيل لا يقول بالتحالف مع الأغنياء ضد الفقراء، أو مع الأقوياء ضد الضعفاء، بل العكس تماماً. ومع ذلك فإن الكنيسة وافقت على هذا الشيء وشرّعته: أي خلعت عليه الشرعية اللاهوتية أو الإلهية، بل وحاولت أن تقنع البسطاء بقبوله والرضوخ للأمر الواقع. من هنا تواطؤها مع سلطات الاستبداد والحكم المطلق. من هنا خيانتها لرسالة المسيح الحقيقية. وهنا تكمن الوظيفة الاستلابية للدين. فالدين قد يتحول إلى قوة استلابية جبارة تعمي عيون الناس وتجعلهم يقبلون بالحكم التعسفي الاستبدادي وكأنه قدر إلهي. ويلعب رجال الدين دوراً كبيراً في العملية عن طريق ضخ المواعظ التقليدية على مدار الساعة إلى درجة تعطيل وعي الشعب وإلهائه بالخرافات والخزعبلات لكي تنصرف الأنظار عن المشاكل الحقيقية. وهنا يكمن معنى الاستلاب بالضبط. انظر ما يحصل في العالم العربي حالياً، وبخاصة في الأنظمة المحافظة. وانظر بشكل خاص الدور الاستلابي الكبير الذي تلعبه البرامج الدينية، حيث تحول بعض الدعاة إلى نجوم تلفزيونيين لتخدير العقول.

بالطبع فإن مثل هذه الأفكار كانت تبدو خطرة في وقتها ومدانة من قبل المجتمع في أغلبيته العظمى، ولهذا السبب لم ينشرها هيغل، بل أبقاها كمخطوطات في درج مكتبه.

كان يعرف أن هذه الأفكار سابقة لأوانها، وأن الشعب الألماني لن يقبل بها لأنه غير مهيّأ لذلك أو غير قادر عليه بكل بساطة. وهذا أكبر دليل على أن تغيير العقليات عملية خطيرة ولا تتم بين عشية وضحاها. ولذلك، فإن أكثر ما يزعجني هو استعجال بعض المثقفين العرب للتغيير أو لحرق المراحل! وأنا أقول بأن التغيير ينبغي أن يهضم مرحلة فمرحلة. ولا ينبغي أن ننتقل إلى المرحلة التالية قبل أن تكون الأولى قد هضمت تماماً واستوعبت.

ينبغي العلم بأن فيخته، أستاذ هيغل بشكل ما، على الأقل في البداية، كان قد دفع الثمن باهظاً بسبب اصطدامه برجال الدين. فقد طرد عام ١٧٩٩ من جامعة يينا، إحدى الجامعات الألمانية الأكثر انفتاحاً وليبرالية في ذلك الزمان. لماذا؟ لأنهم اتهموه بالإلحاد ونموا عليه ووشوا به أمام السلطات العليا التي تحل وتربط. وكل ذلك لأنه أطلق تصريحاً عقلانياً حول الدين المسيحي. لا ريب في أن هذا التصريح كان متقدماً على الرأي العام الشائع، ولكنه كان خجولاً بالقياس إلى ما كان هيغل يكتبه سرياً في اللحظة نفسها في سويسرا. كان فيخته يعتقد أن النظام الأخلاقي الحي والفعال هو الله نفسه. ونحن لسنا بحاجة إلى عقيدة أخرى غير ذلك. لا

يوجد في العقل أي باعث يدفعنا إلى الخروج على هذا النظام الأخلاقي الذي يمسك الكون كله. لسنا بحاجة للاعتقاد بوجود كائن خاص يكون بمثابة السبب للنتيجة. وبالتالي فالفهم السليم لا يستخلص مثل هذه النتيجة. وحدها فلسفة الخطأ تفعل ذلك... هذا الكلام يعتبر هرطقة: أي خروجاً على الفهم السائد للمسيحية في ذلك الزمان. ولذلك أدانوه وفصلوه من الجامعة. وذلك لأن تصور فيخته عن الله والدين يختلف عن التصور المسيحي التقليدي الراسخ منذ مئات السنين. إنه تصور فلسفي معقلن أكثر من اللزوم[١]...

بالطبع فإن هيغل يذهب بعيداً أكثر في اتجاه "الهرطقة". والواقع أن مؤلفاته في فترة الشباب والتي لم تكشف للملأ إلا بعد موته، كانت أكثر راديكالية في نقد العقائد الدينية والسياسية من مؤلفات الكهولة أو النضج. بعدئذ أصبح أكثر حذراً وتجربة، إن لم نقل أكثر خوفاً من العقاب. في شبابه الأول كان هيغل يكتب الرسائل الملتهبة إلى صديقيه شيلنغ وهولدرلين ويعلن كرهه لكلية اللاهوت البروتستانتي ولطريقة تعليم الدين فيها. وكان يعبر عن أمله بانتصار الفلسفة الجديدة في ألمانيا: أي فلسفة كانط وفيخته، فلسفة العقل والنقد والحرية. أما اللاهوتيون والكهنة فكانوا يثيرون غيظه. والواقع أنه لم يحبهم أبداً في حياته بصفتهم هيئة جماعية أو منظمة كنسية. كان يخشاهم ويخشى ردود فعلهم ويعتبرهم خطراً على حرية الفكر. وأشد ما كان يزعجه هو محاولتهم التكتيكية أو الانتهازية الهادفة إلى الاستيلاء على الفلسفة الكانطية وتسخيرها لخدمة عقائدهم المذهبية البالية التي عفّى عليها الزمن. فبما أن فلسفة كانط نجحت وصعد نجمها في ألمانيا، فإن الجميع حاولوا التقرب منها والاستئثار بها، بل وتطويعها لكي تتماشى مع أفكارهم الخاصة. ولم يشذ

---

١ انظر بهذا الصدد قصة ذلك الشجار الشهير الذي دار حول الإلحاد بين فيخته وخصومه والذي أدى إلى فصله من جامعة يينا عام ١٧٩٩.

ومعلوم أنه خرج من المعركة مع رجال الدين (أو الأصوليين المسيحيين) مهزوماً ومدحوراً. وقد أثر عليه ذلك كثيراً من الناحية النفسية، وشعر بالانسحاق. ولكنه لم يستسلم، بل تابع المعركة لاحقاً في جامعة برلين حيث احتل أكبر منصب لتدريس الفلسفة في ألمانيا. وهو المنصب الذي تسلمه هيغل على أثره مباشرة... كان تصور فيخته لله سابقاً لأوانه وغير قابل للفهم من قبل الناس في تلك اللحظة. في الواقع إنه لم يكن يتصور الله كشخص خارجي على العالم، بل كان يطابق بين الله والنظام الأخلاقي للعالم. فالله بالنسبة إليه يتجسد في الخير المطلق وأداء الواجب وتحقيق النزعة الأخلاقية في الكون ولا شيء غير ذلك... ولأنه خرج على التصور المسيحي لله، فإنهم اتهموه بالإلحاد وهددوه بالقتل. وهكذا حصل له ما حصل لسقراط ولكن مع الفارق: هو أنه هرب من مدينة يينا في اللحظة المناسبة ونجا بجلده في حين أن سقراط رفض الهروب وتجرع السم الزعاف...

رجال الدين المحنكون عن القاعدة.

وهذا ما يحصل عادة لكل شيء ينجح في التاريخ.

هيغل والربيع العربي

التقدميون السطحيون، وأنا منهم، ما عادوا يفهمون شيئاً مما يحصل حالياً في العالم العربي. هل يعقل أن تحصل ثورات تعود بنا إلى الخلف بدلاً من أن تتقدم بنا إلى الأمام؟ هل يعقل أن تؤدي كل هذه الثورات إلى أنظمة إخوانية – سلفية تكتسح الشارع والانتخابات اكتساحاً؟ أمن أجل هذا انتفض الشباب العربي الرائع في ميدان التحرير وبقية الميادين؟ الشيء نفسه يتكرر من تونس إلى ليبيا إلى مصر والحبل على الجرار... كل ثورات "الربيع العربي" انتهت إلى النتيجة نفسها. هل التاريخ يمشي بالمعكوس في العالم العربي دون بقية العالم، ما عدا إيران بالطبع؟ فهي التي دشنت هذه الموضة العجيبة الغريبة، أي الثورات الدينية اللاهوتية القروسطية، وذلك قبل أكثر من ثلاثين سنة. وفي الوقت الذي ملّت فيه إيران أو قل ملّ شعبها من المرحلة الأصولية الخانقة ويريد الخروج منها بأي شكل، إذا بنا نحن ندخلها بكل حماسة واندفاع وكأننا نخترع الذرة أو ندخل عصر الحداثة والحرية والاستنارة من أوسع أبوابه! ما إن انتصرت الثورة الليبية وأطاحت القذافي حتى سارع العبقري مصطفى عبد الجليل إلى زف النبأ العظيم لنا: أبشروا سوف نعيد إليكم قانون تعدد الزوجات الذي حرمتم منه في الماضي من دون حق! ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

أنا شخصياً لست ضد أن نتزوج أربعة أو حتى عشرة وكل واحدة تدللك أكثر من الأخرى! ولكن من يستطيع أن يتزوج بواحدة فقط؟ لا سقف ولا راتب ولا مستقبل. الشباب العربي عاطل من العمل في نصفه أو ثلاثة أرباعه... وبالتالي، قبل أن تقدموا له هذه الهدية الرائعة، أعطوه عملاً أولاً، وإلا فالانفجار أو الطوفان!

لا ريب في أن سقوط أنظمة الطغيان والفساد حدث مهم ويستحق التصفيق والترحيب. بهذا المعنى فالربيع العربي له معنى. وشكراً له كل الشكر إذ يخلصنا من هذه الأنظمة الإرهابية البوليسية التي تقتلك ما إن تفتح فمك لكي تتنفس أو حتى قبل أن تفتح فمك! ولكن هل من الضروري أن تقطف ثمرته يانعة جنية حركات الإسلام السياسي؟ ألا توجد

تيارات أخرى أكثر قرباً من روح الثورة التغييرية وعبق الربيع العربي المضرج بالدم القاني؟ هل سيظل الماضي هو المستقبل، والمستقبل هو الماضي؟

هذه هي بعض التساؤلات التي يطرحها المثقف التقدمي السطحي، أي أنا بالذات.

ثم شفت غليلي فلسفة التاريخ لهيغل وحررتني من كل أوهام الثقافة العربية "التقدمية" الهشة إلخ... كان ينبغي أن تلتقي بمفكر في حجم هيغل لكي تفهم ما يحصل حولك بالضبط. كان يلزمك فيلسوف من أعلى طراز، أي يطل على التاريخ من عل كالرادار، لكي تستطيع أن ترى شيئاً ما وسط عتمات الضباب. قال لي هيغل: يا أخي الكريم أنت جاهل ومغرور إذ تعتقد بإمكان تجاوز الماضي من دون فتح معركة الصراحة معه على المكشوف. ولأنك رفضت ذلك ودفنت رأسك في الرمال كالنعامات، فإن الواقع العربي نفسه نبهك إلى خطورة الأمر عندما انفجر في وجهك بفرقعات هائلة وأصبح يهدد حتى جوهر وجودك. لقد أيقظك من غيبوبتك الأيديولوجية الاستلابية دفعة واحدة وحسناً فعل. الواقع أكثر تقدماً منك وأكثر صراحة وصدقاً مع الذات. عادة يكون المثقفون هم الأكثر تقدماً من الواقع وهم الذين يستشرفون آفاقه ويرهصون بما سيحصل حتى قبل أن يحصل، ما عدا عندكم في العالم العربي حيث الواقع في جهة والمثقفون، إلا من رحم ربك، في جهة أخرى. إنهم يتحدثون عن كل شيء ما عدا الشيء الذي ينبغي التحدث عنه. كيف تريد أن يحصل تقدم عندكم كما حصل في أوروبا مثلاً أو بقية أنحاء العالم؟ لقد قتلكم شيء واحد: أنكم ترفضون أن تروا أنفسكم في المرآة، بل وتخافون أشد الخوف من ذلك. الفكر النقدي التساؤلي ليس من عاداتكم، ولا تحبون أن تروا عيوبكم. أصلاً أنتم بلا عيوب ولا نواقص. أما عن عيوب الآخرين والإمبريالية والاستعمار فحدث ولا حرج... هنا تبرعون أشد البراعة وتستمتعون كل الاستمتاع. قتلكم أنكم نائمون على التاريخ ولا تريدون أن تستيقظوا وتفتحوا عيونكم. قتلكم أنكم ترفضون أن تخضعوا ماضيكم التراثي لمبضع النقد التاريخي الجراح كما فعل مفكرو أوروبا من ديكارت إلى سبينوزا إلى مالبرانش ولايبنتز وفولتير وكانط ومحسوبك أيضاً. ثم تفاجأون بعد كل ذلك باندلاع الحروب الأهلية وانفجار العصبيات الطائفية في وجوهكم كالقنابل الموقوتة؟ لا يحق لكم أن تفاجأوا على الإطلاق... عيب عليكم أن تفاجأوا أصلاً. هل مررتم بالمرحلة التنويرية كما فعل العالم المتحضر لكي تفاجأوا؟ بل وتتهمون الغرب والاستعمار والصهيونية بأنهم السبب في

ذلك! لا ريب في أن عدوكم سوف يستغل هذه الثغر والتناقضات لتمزيقكم، ولكنه لم يخترعها، بل هي موجودة في تاريخكم منذ مئات السنين. ولولا ذلك لما كان استغلالها ممكناً، وفعالاً، أصلاً. أنتم لم تتحرروا بعد من عقد الماضي ورواسبه التاريخية المتراكمة، بل وترفضون حتى الآن طرح أدنى سؤال على شخصيتكم التاريخية وأعماقكم التراثية. أنتم ختمتم العلم من زمان ونمتم نومة أهل الكهف على أمجادكم الغابرة. ومن ختم العلم قبل ألف سنة هل هو بحاجة إلى مواكبة آخر التطورات وأحدث الفتوحات والنظريات؟ وإذن فأنا أقول لكم: لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. عودوا إلى رشدكم، عودوا إلى مقاعد المدرسة الابتدائية من جديد، وانسوا كل ما تعلمتموه سابقاً لكي تتعلموا ما فاتكم وهو كثير. فلا عيب في التعلم والتواضع. ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه. سوف تكتوون بنار النظام الإخواني الأصولي لفترة من الزمن لا يعرف إلا الله مداها، قبل أن تتحرروا منه لاحقاً. ينبغي أن تمروا بها لكي تتجاوزوها. لا يوجد حل آخر. وهذه هي مهمة العامل السلبي في التاريخ. فهو أخطر بكثير من العامل الإيجابي وأكثر أهمية. وأصلاً لولا السلب لما كان الإيجاب، لولا الخطأ لما كان الصح. سوف تخوضون بعضكم مع بعض حرباً ضروساً حتى يستبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. لا يمكن أن تؤجّلوا هذه المعركة إلى ما لا نهاية. هذا هو ديالكتيك التاريخ أو قانونه الأعظم الذي اكتشفته قبل مئتي سنة على الأقل. الكلام دائماً لهيغل. العامل السلبي ضروري لكي يحصل التقدم والانفراج يوماً ما. تداويت منها بها. بل إنكم لستم بحاجة إلي لكي تفهموا ذلك. تراثكم العبقري يكفي: وداوني بالتي كانت هي الداء.

هذا ما كان سيقوله هيغل لو أنه كان حياً بيننا أو لو أتيح له أن يحاضر في المثقفين العرب؟ وأعتقد أنه كان سيضيف هذه الكلمات التي شفت قلبي:

اعلموا أنه توجد عقلانية عميقة تحكم العالم وتشكل لحمته الخفية. وبالتالي لا ينبغي أن يغشكم المظهر الفوضوي والكارثي للعالم العربي حالياً. فوراء الأكمة ما وراءها، وتحت الأشياء ما تحتها. ولا تخشوا الصراعات الطائفية ولا حتى الحروب الأهلية. فمعارك البشر وتطاحناتهم العنيفة ليست إلا "المواد الخام" أو "المواد الأولية" التي يستخدمها العقل لكي يتوصل إلى تحقيق مبتغاه في نهاية المطاف: أي حرية البشر وسعادتهم على هذه الأرض. لا شيء عظيماً يحصل في التاريخ من دون صراعات البشر وأهوائهم العنيفة الهائجة. العقل

يتوصل إلى مبتغاه عن طريق اللاعقل: أي عن طريق جنون التاريخ. البشر المنخرطون في الصراعات يعتقدون أنهم يتابعون أهدافهم الخاصة إذ ينخرطون في الممارسة السياسية ويتحمسون بكل قوة ويتفاعلون. ولكنهم في الواقع يحققون أهداف العقل على غير وعي منهم. إنهم وقود التاريخ السائر نحو الأمام وتجاوز العقبات بلا أدنى شك. والتاريخ بحاجة إلى وقود كالسيارة أو كالآلة البخارية. وهنا يكمن مكر العقل بالذات. (ولكن كلمة مكر مستخدمة هنا بالمعنى الإيجابي لا السلبي للكلمة تماماً كما في الآية الكريمة: ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين). فهذا المكر لصالح البشر. البطل التاريخي (نابليون مثلاً) كان يعتقد أنه يحقق أهدافه الخاصة، إذ يسيطر على مصر وألمانيا وكل أوروبا، ولكنه في الواقع كان يحقق أهداف حركة التاريخ. كان عميلاً أو وكيلاً للتاريخ، وذلك بالمعنى الإيجابي لا السلبي لكلمة "عميل". وما إن انتهت مهمته حتى ضحى به العقل على مذبح التاريخ وألقاه مهملاً في جزيرة سانت هيلانة وهو في عزّ الشباب لكي يموت في الخمسين من عمره. ولكن الأفكار الجديدة التي دكت عروش الإقطاع السياسي والأصولية المسيحية والطغيان والعالم القديم كله كانت قد انتشرت عن طريقه وبفضل فتوحاته. لقد أيقظ العالم النائم من رقاده وإن بشكل فج ووحشي، حيث ذهبت الضحايا بالملايين. يقال إنه قضى على الشباب الفرنسي في عهده من كثرة تجنيده له في جيوشه حتى لم يبقَ هناك من شباب في فرنسا لكي يجندهم الجيش الفرنسي. فما بالك بالضحايا الذين سقطوا من أبناء الأمم المغزوة في عقر دارها. وعلى الرغم من أنه غزا ألمانيا وهزمها في معركة "يينا" الشهيرة، فقد صفق له هيغل كما ذكرنا سابقاً، لأنه كان يجسد في شخصه قيم الثورة الفرنسية وروح الحداثة. وبالتالي يمكن هيغل أن يقول لنا أيضاً: لن تصلوا إلى بر الأمان قبل أن تقوموا بتصفية الحسابات التاريخية في ما بينكم وتتحرروا من الأعباء التراثية التي تثقل ظهوركم. محال أن تصلوا إلى نتيجة قبل أن تدفعوا الثمن باهظاً. ينبغي أن يتنفس التاريخ، ينبغي أن يتحلحل، أن يقذف بكل أحشائه المتراكمة على مدار القرون. بعد أن يتنفس التاريخ الصعداء ويقذف بكل مكبوتاته فسوف تنحل مشاكلكم، ولكن ليس قبل ذلك. ضعوا هذا في حسبانكم، في رؤوسكم مرة واحدة وإلى الأبد. الربيع العربي لن ينجح غداً ولن يؤتي ثماره إلا بعد زمن طويل. هل آتت الثورة الفرنسية ثمارها إلا بعد مئة سنة من حصولها؟ ولكنكم سائرون على الطريق والشعوب العربية لن تتراجع... أصلاً

أنتم لم تشهدوا الثورة الفكرية بعد، فما بالكم بالثورة السياسية؟ قصة طويلة... ولكن بعد أن تزول أنظمة الاستبداد، وبعد أن تفشل المرحلة الإخوانية الأصولية التي ستليها، سوف تصبح الساحة خالية لليبراليين والحداثيين. لكنها لن تفرغ لهم قبل المرور بالمرحلة الأصولية. ينبغي أن تمروا بها لكي تتطهروا منها، لكي تتداووا منها بها. لن تتجاوزوها إلا بعد أن تفقد مصداقيتها وتتراجع شعبيتها. وعندئذ تستطيعون تجاوزها بفعل عامل الحتّ السلبي لجدلية التاريخ. عندئذ، وعندئذ فقط سوف تبتدئ الثورة الفكرية الحقيقية في العالم العربي. وسوف تلحق بها الثورة السياسية لكي تجسدها أو تترجمها على أرض الواقع. بعدئذ سوف يبتدئ الربيع العربي الحقيقي. ولكن ليس قبل ذلك. المسألة أعقد مما تظنون. وبالتالي فلا تخافوا من هذه الكوارث الجارية حالياً، على الرغم من بشاعتها ووحشيتها. لا تخافوا من كل هذه الضحايا والفواجع والآلام التي يعاني منها الشعب، فهي لن تذهب سدى. إنها الثمن المدفوع لكي ينبثق النور في نهاية النفق المظلم الذي دخلتم فيه منذ قرون، لكي يزول شبح الديكتاتورية والظلامية إلى الأبد. إنها الثمن المراق الذي تدفعه الشعوب السائرة نحو الانعتاق والحرية.

هذا الكلام لا يعني إطلاقاً المصادرة على ما سيحصل في ظل الإخوان والسلفيين. إنه لا يعني إدانتهم سلفاً. فهذا لا يجوز. ينبغي أن نترك لهم فرصة تجريب أنفسهم بعد أن انتخبهم الشعب. فإذا ما نجحوا استفدنا جميعاً من نجاحهم. وإذا ما فشلوا استفدنا أيضاً: بمعنى أن الحل "الإلهي" أو السحري الذي كانوا يعدوننا به تكشف على حقيقته: وهو أنه حل بشري في الواقع وليس إلهياً. أو قل إنه حل ناتج من تفسير بشري لكلام الله ورسالة القرآن الكريم والإسلام. إنهم بشر في نهاية المطاف حتى ولو لبسوا الجلابات وأرخوا الذقون. ولكن هذا المظهر التقليدي الجليل ينطلي على عامة الناس فيعتقدون أنهم مقدسون ومعصومون ويقفون فوق مستوى البشر. لاحظ مدى خطورة الشكل الخارجي أو المظهر الرمزي المقدس على التصور الذي يمكن أن نشكله عن الناس. أحياناً يكون خادعاً جداً. إن فشل هذا التفسير القروسطي القديم الذي يحملونه هو الذي سيفسح المجال واسعاً أمام ظهور التفسير الحديث الغائب أو المغيب حتى الآن. هنا يكمن مكر التاريخ أيضاً. في كل الأحوال، نحن مستفيدون من تجربة الإخوان. لماذا؟ لأنهم ما داموا في المعارضة فإنهم سيظلون يعرقلون حركة التحديث أو حركة التاريخ بفعل قوة التجييش الشعبي

التي يمتلكونها، ثم بفضل عظمة الوهم الكبير الجبار الذي يحيط بهم كمتدينين. الآن من خلال ممارستهم اليومية للحكم سوف تنكشف بشريتهم ومحدوديتهم لأول مرة. وفي أعين الشعب سوف تتساقط أسطورتهم كما تساقطت أسطورة الطاقم الديني الشيعي في إيران، حيث يقال إن الشباب الإيراني أصبح نافراً من التدين والمتدينين بعد تسلمهم للسلطة. في كل الأحوال لا يمكن أن ينبثق مفهوم تنويري جديد للدين الإسلامي إلا بعد انهيار المفهوم القروسطي القديم وتفككه. وهذا الأخير لا يمكن أن ينهار ويفقد مصداقيته إلا بعد وصول الإخوان إلى السلطة وممارستهم لها لفترة من الزمن. هناك حل ثالث بالطبع: هو أن نساعدهم على التطور في أطروحاتهم الخيالية غير المناسبة لعصر الحداثة. وذلك لأن فشلهم هو فشل لنا أيضاً وللأمة كلها. وأعتقد أن قادة الفكر والسياسة في مصر سوف يساعدونهم لكي يفهموا حقائق العالم المعاصر ولكي لا يرتكبوا أخطاءً فاحشة يدفع الجميع ثمنها. في كل الأحوال، فإن الخيط الأبيض لن يستبين من الخيط الأسود، والنور العربي الإسلامي الوهاج لن ينبثق في نهاية المطاف إلا بعد أن تحصل المقارعة الكبرى بين النظرة الأصولية للعالم والنظرة الحديثة للعالم. عن هذه المقارعة الكبرى سوف ينتج الخير العميم. لذلك فأنا متفائل بما يحصل الآن، على عكس ما قد توحي به مقالاتي أحياناً. نعم إن حركة التاريخ العربي تتقدم إلى الأمام في الوقت الذي تبدو فيه كأنها تتراجع إلى الوراء! هنا أيضاً يكمن مكر التاريخ. أضيف أخيراً قائلاً: يمكن أن نحل مصطلح "العناية الإلهية" محل مصطلح مكر التاريخ أو مخطط التاريخ، بمعنى أن العناية الإلهية تريد الخير للبشر من خلال كل عذاباتهم ومحنهم، إنها لا تعذبهم مجاناً لكنها تريد أن تصل بهم إلى شاطئ الأمان بعد كل هذا الاختبار والمعاناة. "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم". وبالتالي هناك مخطط إلهي في التاريخ يهدف إلى تقدم البشر وسعادتهم. يمكن أن نفهم الأمور على هذا النحو. لم لا؟ الفرق الوحيد بين النظرة الدينية والنظرة الهيغلية العلمانية هو أن الأولى تركز على سعادة البشر ونعيمهم الأبدي في العالم الآخر، دار الأبدية والخلود، في حين أن نظرة هيغل – ونظرة الحداثة التنويرية كلها – تركز على سعادتهم في هذا العالم هنا والآن، حيث يمكن تحقيق الجنة على الأرض أيضاً قبل أن ننتظر تحققها في السماء لاحقاً. بهذا المعنى فإن فلسفة التاريخ لكانط وهيغل ليست إلا علمنة للإصلاح الديني اللوثري. والواقع أن حركة التاريخ اللاحقة لم تكذب تصورات هيغل والفلسفة المثالية الألمانية كلها، بدليل أن المجتمعات

الأوروبية تجاوزت كل انقساماتها الطائفية وحروبها الأهلية المذهبية وأصبحت جنة الله على الأرض. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الصراعات المذهبية الكاثوليكية - البروتسانتية دمرت أوروبا وأنهكتها على مدار قرنين أو ثلاثة. وبالتالي لم يصلوا على فرش من حرير! هذا من دون أن ننسى محاكم التفتيش وملاحقة العلماء والفلاسفة. وبالتالي فالوهم الجبار للأصولية المسيحية وللكهنة ورجال الدين لم يتحجم إلا بعد مقارعته على المكشوف، وبعد أن دفع ثمن تحجيمه باهظاً. هذا كل ما أردت قوله. الشيء الذي أعيبه على معظم المثقفين العرب هو أنهم لا يأخذون هذه النقطة الحاسمة بعين الاعتبار.

بعد أن سمعت خطاب هيغل الذي أراحني نفسياً وحلّ عقدي المتراكمة، تنفست الصعداء و لم أعد محبطاً كما كنت في السابق. صحيح أني مرعوب من حجم المهمة الثقيلة المطروحة علينا مستقبلاً. صحيح أني أخاف من فتح الملفات التاريخية الساخنة، الملفات المطموسة، أخاف من حالي. ولكني على الأقل أصبحت أعرف ما أريد وما لا أريد. ثم زاد من سعادتي أني منخرط حالياً في ترجمة أول كتاب لمحمد أركون يصدر بعد موته بالفرنسية والعربية في آن واحد. فهنا تجد الفكر المضيء، الفكر الذي يحفر أركيولوجياً في أعماق التراث. إنه يحررك من جذورك الدفينة، من أعماق أعماقك. إنه يمشي معك خطوة، خطوة، على طريق التحرير الفكري الطويل. إنه يدخلك في أكبر مصارحة، في أكبر مقارعة، للذات التراثية العربية الإسلامية مع ذاتها. ثم تشعر بعد قراءته كأنك تولد من جديد وتخرج رويداً رويداً من غياهب العصر اللاهوتي... لقد انتهى عصر الأيديولوجيات الاستلابية، والمراهقات الثورية، والطفولات العقلية.

أضيف إلى كل ما سبق ما يأتي:

أعتقد أن هيغل كان سيقول أيضاً: كل ما هو واقعي عقلاني. الربيع العربي أصبح أمراً واقعاً: وإذن فإنه عقلاني ، أي يعبّر عن حاجة موضوعية مسجلة في أحشاء الواقع العربي. لا يمكن أن نعود إلى الوراء بعد الآن: أي إلى أنظمة ما قبل الربيع والمستنقع الآسن والاستبداد المطلق وحكم الحزب الواحد، والجريدة الواحدة إلخ. صحيح أن الأصوليين سطوا عليه، وهذا شيء مزعج بالنسبة إلى مفكر تنويري مثل هيغل، ولكنه كان سيقول لنا طبقاً لمنهجه الجدلي ما يأتي: سيطرة الأصولية لها ما يبررها مؤقتاً. إنها تجسيد لثقل التراث عبر التاريخ: وهو الشيء الذي لا يمكن تجاوزه في المدى المنظور. الشعوب العربية غير مؤهلة لمثل هذا

التخطي حتى الآن. وبالتالي فلا مجال للقفز على الحالة التراثية أو تجاوزها في الحالة الراهنة للأمور. إنها الصخرة الصلبة الصامدة التي تكسرت عليها كل المحاولات التجديدية، بدءاً من عصر النهضة في القرن التاسع عشر حتى اليوم. الطريقة الوحيدة لتحجيمها هي أن نتركها تحكم وتسيطر، أن نتركها تتوسع وتتمدد، حتى تأخذ كل أبعادها، حتى تشبع هيمنة وسيطرة. وإلا فلا يمكن تقليم أظافرها لاحقاً. الأصولية ليست ظاهرة صغيرة، إنها عميقة بحجم التاريخ. ولكن بعد سيطرتها لفترة من الزمن، وبعد تطبيقها لبرنامج معاد للحريات عموماً وفاشل على الصعيد الثقافي والتعليمي خصوصاً، فإنه سوف يتولد ردّ فعل ضدها عاجلاً أو آجلاً. سوف يملّ الناس منها وينتفضوا عليها بعد أن يضيقوا ذرعاً بإكراهاتها وقيودها الشكلانية الماضوية القروسطية. ثم إنها ستتحجم بعد أن ينكشف رجال الدين على حقيقتهم، بعد أن تنكشف محدوديتهم، وتزول الهالة القدسية التي تحيط بهم، والتي تجعلهم يبدون للعامة كأنهم مقدسون فوق البشر. بعد أن تزول هذه الهالة التي تحيط بهم والتي جعلت الجماهير الغفيرة تصوّت لهم، فإنهم سيفقدون رصيدهم الضخم وشعبيتهم العارمة. وهكذا نجد أن الأطروحة (أي الأصولية) سوف تولد عاجلاً أو آجلاً الأطروحة المضادة (أي الحداثة الليبرالية). وعن طريق التفاعل الصراعي بينهما سوف تتولد التركيبة الجديدة أو الصياغة الجديدة للعالم العربي: أي (الحداثة الأصيلة أو الأصالة المعاصرة). والمقصود بذلك أنه ستحصل مزاوجة أو مصالحة بين التراث والحداثة في نهاية الصيرورة التفاعلية. وسوف يتمخض كل ذلك في نهاية المطاف عن الحداثة العربية الإسلامية. ولن تكون نسخة طبق الأصل عن الحداثة الأوروبية. وهي التركيبة الموفقة أو الحل المنقذ. لماذا؟ لأنها ستأخذ من التراث جوهره لا قشوره، وستأخذ من الحداثة جوهرها لا قشورها وانحرافاتها أو شططها. وعن طريق المزج بين العناصر الإيجابية لكلا هذين القطبين الكبيرين سوف يتولد طريق المستقبل. أعتقد أنه كان سيقول ذلك أو ما أشبهه...

نيتشه والربيع العربي

- ١ -

عندما سألت نيتشه عن الربيع العربي حملق فيّ حملقة مرعبة أفزعتني، فتراجعت إلى الخلف

خطوة أو خطوتين مخافة أن يضربني. كان ذلك أثناء لقائي به في سويسرا حيث كان يتسلق الجبال الشاهقة بحثاً عن الهواء الطلق غير الملوث بأنفاس البعض، وبالأخص رجال الدين. ومعلوم أنه لا يستطيع أن يتفلسف بحرية إلا عندما يكون الأفق مفتوحاً أمامه والبشرية الدوغمائية تحته، لا لاهوت ولا كهنوت... ولهذا السبب فإن جبال سويسرا ومناظرها الخلابة تناسبه تماماً. قال لي: أين هو الربيع العربي؟ هل ترى أنت ربيعاً في عودة كل هؤلاء المشايخ إلى الساحة واحتلالهم للبرلمانات والوزارات والفضائيات؟ هل راشد الغنوشي ربيع؟ أو محمد بديع؟ أو رئيس الاتحاد العالمي لجماعات الإخوان المسلمين؟ هذا فضلاً عن الدكتور العرعور وما أدراك ما العرعور وفصاحته التي لا تضاهى... هل هذا هو مفهومكم للربيع يا عرب؟ والله أنا وأنتم لسنا على نفس الكوكب.

> قاطعته فوراً: دكتور نيتشه أرجوك! لا تهاجم شيوخنا الأجلاء وعلماءنا الأفاضل، خط أحمر!

لم يعبأ بكلامي على الرغم من دفاعي المستميت، هو الذي فكك المسيحية من أولها إلى آخرها حتى وصل إلى يسوع المسيح تقريباً. ومعلوم أنه فتك بالقديس بولس فتكاً ذريعاً وشرّحه تشريحاً... فما بالك بمشايخنا؟ ويا ويله من يقع في براثن نيتشه! حتى سقراط وتلميذه أفلاطون مسح بهما الأرض مسحاً. حتى كانط جعله أضحوكة للعالم كله، وأمضى حياته وهو "يتسلّى" به... من سلم من لسانه السليط، ما عدا فولتير وغوته وبعض الآخرين؟

وفجأة غيّر قليلاً من لهجته أو وجهته وأضاف: هل تعتقد بأن شخصاً مشغولاً بالقضايا الفلسفية الكبرى من أمثالي يمكن أن يهتم "بالحوادث المتفرقة" كالربيع العربي وسواه؟ هذه الأشياء ليست إلا زوبعة في فنجان أو فقاعات تطفو على السطح. يلزمني زلزال يهزّ الكون كالثورة الفرنسية لكي يدخل في دائرة اهتماماتي الفلسفية.

– ٢ –

مرة أخرى قاطعته صارخاً: دكتور نيتشه أرجوك! أرجوك ثم أرجوك! الربيع العربي هزّ العالم كله وزلزل عروش الطغاة وحكم المخابرات والمافيات والعائلات، وأنت تقول لي

بأنه زوبعة في فنجان؟ لقد أرعب الحكام العرب لأول مرة في التاريخ وأشاع في الجو مناخاً محبباً من الحرية والحماسة والانعتاق. لقد كان صرخة احتجاج رائعة صادرة من الأعماق. لقد أثبت أن فكرة التغيير والخروج من المستنقع الديكتاتوري الآسن ممكنة. و لم يبخل علينا بالضحايا والشهداء وأطفال في عمر الزهور... ألم تسمع قول شاعرنا الكبير: وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق؟ بصراحة إني لا أفهم موقفك بل وأستنكره كل الاستنكار. عندما سألت هيغل قال لي شيئاً آخر.

فأجاب: ومن هو هيغل هذا؟ أنت تعلم أني لا أعترف به وأن صديقي الفكري أو بالأحرى أبي الروحي هو شوبنهاور، عدوّه اللدود في جامعة برلين. هل تعتقد بأنه سيضحك علي بقانونه الجدلي الذي يبرر المجازر والكوارث البشرية بحجة أن العامل السلبي ضروري لكي تتقدم عجلة التاريخ إلى الأمام؟ إنه يهضم كل شيء صديقك هيغل هذا. إنه بالوعة! لماذا لا نبرر الطائفية والعنصرية والذبح على الهوية أيضاً بحجة أن كل ما هو واقعي عقلاني؟ لماذا لا نبرر اغتصاب النساء وذبح الأطفال وبقر بطون الحوامل؟ لا، لا. أرجوك. حلّ عني أنت وأستاذك هيغل الذي بهرك أكثر مما ينبغي. أعرف أنك واقع تحت تأثيره المغناطيسي. وهو ابن حرام له جاذبية فلسفية لا تقاوم. ولكني قضيت عليه بالضربة القاضية عندما أسست فلسفة معاكسة تماماً لفلسفته أو قل خارجة عن نطاق تأثيره الطغياني الذي عم كل ألمانيا و لم ينجُ منه إلا مثقف واحد هو: محسوبك. أنا أكبر عبقرية فلسفية – وشعرية!– في تاريخ ألمانيا. فلماذا تريدني أن أخضع له؟

قلت له: مفهوم دكتور. أنت أعظم شخص على وجه الأرض. ولكننا بحاجة إلى من يشرح لنا ما يحصل حالياً. سمعتك أخيراً تقول إن الفيلسوف هو طبيب حضارات..بمعنى أنه هو وحده القادر على تشخيص أمراض الأمة ووصف العلاج المناسب لها. فما هو مرضنا نحن العرب يا ترى؟ لقد حارت بنا الأطباء بعد أن عرضنا أنفسنا على كل دكاترة العالم شرقاً وغرباً من دون أي نتيجة. لقد أصبحنا مهزلة في نهاية المطاف أو أضحوكة للقاصي والداني. لا أحد يعرف ما هو سر الداء العضال الذي أصابنا على غفلة من الزمن.

فهل يمكن أن تهتم بنا أيضاً مثلما اهتممت بالألمان والفرنسيين والأوروبيين بشكل عام؟ هل نستحق أن تلقي علينا نظرة خاطفة؟ هل يمكن أن نحظى منك بخمس دقائق فقط؟

- ٣ -

قال لي: بصريح العبارة أنتم العرب لا تستحقون أن تدخلوا في دائرة اهتماماتي حتى الآن. ولا أعرف ماذا أفعل بكم. أنا لا أستطيع أن أضيع وقتي في حالات سريرية ميؤوس منها. الناس تتقدم إلى الأمام وأنتم ترجعون إلى الخلف. سوف أترككم تتفككون وتنهارون حتى تشبعوا تفككاً وانهياراً. سوف أترككم يذبح بعضكم بعضاً إلى ما شاء الله. لا يوجد حل آخر. ربما بعد أربعين أو خمسين سنة سوف أهتم بكم. أما الآن؟ أنتم العرب لم تصلوا بعد إلى نقطة الصفر، الى أسفل القعر، فكيف يمكن أن ألقي عليكم نظرة؟ أنتم مستسلمون ليقينياتكم التراثية المطلقة، وعصبياتكم الطائفية المغلقة. وأنا لا أستطيع أن أتناقش مع أناس جامدين من هذا النوع، أناس يدورون في حلقة مفرغة منذ ألف سنة (إلا خمس سنوات بالضبط). نعم منذ ظهور نص الاعتقاد القادري الذي أباح دم المعتزلة عام ١٠١٧ (فطمس تاريخية القرآن إلى الأبد وختم على العقل العربي بالشمع الأحمر) وأنتم غارقون في مستنقع الجهل، أعداءً ألداء للعلم والفكر. بحياتكم كلها لن تشموا رائحة الديمقراطية ما لم تعتذروا عن هذا النص وآلاف النصوص والفتاوى الإرهابية الأخرى التي تلته وكفرت الفلسفة والمنطق والعقل. هل تعلم بأن منظمة "القاعدة" ناتجة عنه مباشرة؟ لقد زرع بذرة الاستبداد اللاهوتي – السياسي في تاريخكم على مدار ألف سنة متواصلة. ومنذ ذلك الوقت وأنتم سجناء داخله لا تستطيعون منه فكاكاً. فمن لا يعترف بالتعددية الدينية – أو الفكرية – كيف يمكنه أن يعترف بالتعددية السياسية؟ من يحتقر الأديان الأخرى ويكفر معتنقيها علناً جهاراً، ليلاً نهاراً، ويبيح دماءهم شرعاً، هل يمكن أن يشكل حضارة إنسانية؟

قل لي بالله عليك: كيف يمكن أن تصبحوا ديمقراطيين؟على من تضحكون؟ كل ديمقراطية وحرية ونزعة إنسانية منكم براء! عندما تؤلفون كتاباً واحداً ضد القرون الوسطى الحنبلية كما فعل سبينوزا أو فولتير أو أنا مثلاً ضد القرون الوسطى الكاثوليكية فسوف أهتم بكم. عندما تنتفضون على معبوداتكم ومقدساتكم وتحطمون أصنامكم - أقصد مشايخكم - وليس فقط طغاتكم وزعماءكم فسوف أهتم بكم. عندئذ سوف يحصل ربيع عربي، وسوف تزهر الحقول... أما قبل ذلك فلا. متى سيظهر فيكم مفكر بركاني مثل نيتشه؟ أنا لست إنساناً، أنا الديناميت!

- ٤ -

على الرغم من اعتراضاتي المتكررة و شبه المستغيثة، أضاف لا فضّ فوه:

أنتم أكثر الشعوب كسلاً في التاريخ وأكثرها تكراراً واجتراراً، والأنكى من ذلك أكثرها انتفاخاً! ولا أعرف لماذا تنتفخون وتتعجرفون يا عرب؟ ماذا قدمتم للبشرية منذ ألف سنة حتى تتعجرفوا؟ فبعد انهيار حضارتكم الكلاسيكية وعصركم الذهبي، لا طب ولا صيدلة ولا هندسة ولا اكتشافات علمية ولا نظريات فلسفية... لا شيء، لا شيء... أنتم فعلاً لا شيء. لقد كفّر فقهاؤكم الفلسفة والفلاسفة حتى لم تقم لهم قائمة على مدار التاريخ. هل يعقل أن تعيش أمة بأسرها مدة ألف سنة من دون فلسفة؟ أين نحن؟ حتى الآن في معظم بلدانكم وجامعاتكم لا توجد أقسام للفلسفة ولا لتاريخ الأديان المقارنة. حتى الآن لا تدرّسون ديناً آخر غير دينكم، رافضين مقارنته بالأديان الأخرى، ولا تنفتحون على أحد، ولا على شيء. إني أدعوكم إلى ذلك لكي تفهموه بشكل أفضل لا لكي تعتنقوا أديان الآخرين! كيف يمكن أن تفهموا دينكم على حقيقته إن لم تسمحوا بإجراء مقارنات واسعة وعميقة بينه وبين اليهودية والمسيحية اللتين سبقتاه إلى الوجود؟... عيب عليكم. عار عليكم. والله إني لأخجل بكم أمام الأمم ولا أعرف كيف أدافع عنكم.

لقد أصبحتم عالة على البشرية. لقد عطلتم المنطق والعقل، بل حتى تجرأتم على إنكار قانون السببية الذي يمسك الكون أيام كبيركم الغزالي. فماذا بقي لكم؟ ثم كرستم الجهل المقدس والأساطير اللاهوتية كثوابت راسخة لا تناقش ولا تمس. ثم عممتم ذلك ونشرتموه على أوسع نطاق في برامج التعليم المدرسية حيث تطغى مادة التربية الدينية على ما عداها، وحيث لا وجود - مجرد وجود - لمادة الفلسفة. وكلما فتح أحدكم فمه لكي يتنفس صرختم قائلين: حذار! ثوابت الأمة، مقدسات، خطوط حمر، ألغام، لا تقترب! ثم سيَّجتم أنفسكم بالأسلاك الشائكة، ورحتم تكررون المقولات المجترة نفسها على مدار القرون كالببغاوات. بل رحتم تستمتعون بذلك وتفتخرون على العالم وكأنكم اكتشفتم كنه الأشياء أو مجرات الفضاء. فماذا أستطيع أن أفعل بكم؟ قل لي بالله عليك: ماذا أستطيع؟ صحيح أن مفكري عصر النهضة والعصر الليبرالي العربي حاولوا تصحيح ذلك، ومحاولاتهم تشكر، ولكن العقبة اللاهوتية الكأداء كانت أكبر منهم بكثير، فأجهضت النهضة وتراجع المتراجعون. من يستطيع أن يناضل ضد ألف سنة من الانحطاط والجمود الفكري؟ من يستطيع أن يوقظ أمة بأسرها نامت على التاريخ نومة أهل الكهف؟ وعلى صخرة يقينياتكم اللاهوتية المعصومة تكسرت كل المحاولات التجديدية. اسمع كلماتي جيداً أيها الجاهل المغرور: الربيع العربي لن يحصل إلا عندما يتم تفكيك كل ذلك... أعطيك موعداً بعد خمسين أو ستين سنة فقط!

- ٥ -

- قلت له: أنت متفائل أكثر من اللزوم دكتور نيتشه.

فرد بسرعة: أما قلت لك لا تقاطعني أيها الأحمق! لا، لست متفائلاً. نيتشه لا يلقي الكلام على عواهنه. أنتم محاصرون بالحداثة العالمية من كل الجهات. وعاجلاً أو آجلاً سوف تستيقظون غصباً عن أبيكم وسوف تبتدئون بطرح

التساؤلات على أنفسكم. أنت تعلم أني حطمت كل اليقينيات الدوغمائية المقدسة الراسخة في الغرب منذ ألفي سنة في كتابي **غسق الأصنام والمعبودات**، وفي كتبي الأخرى أيضاً. لقد حطمت كل الأوهام الميتافيزيقية الغربية، من الأفلاطونية إلى المسيحية، بل وكل المثاليات السماوية أو المعتبرة كذلك. كل هذا عادي جداً وبشري، بل وبشري أكثر من اللزوم. كيف تجرأت على المقدسات المسيحية؟ كيف حطمت عقلية الكهنة والأفكار اللاهوتية المعبودة منذ ألفي سنة؟ كل ما كان البشر يعتبرونه إلهياً سماوياً عرّيته على حقيقته، كشفت عن بشريته وأرضيته. أنا أكبر زلزال في تاريخ الفكر. هل قرأت كتابي المهدى إلى فولتير زعيم التنوير الأوروبي؟ لماذا لم يظهر عندكم فولتير واحد حتى الآن؟ أنت تعلم أني لا أتفلسف إلا والمطرقة في يدي لكي أحطم الأصنام والمعبودات: أي كل العقائد الطائفية المقدسة التي تجعل الناس يذبح بعضهم بعضاً على الهوية. أنا أكبر قطيعة في تاريخ الفكر البشري: ما قبلي وما بعدي. وأخشى أن أقضي عليكم إذا ما فعلت معكم الشيء نفسه. بصراحة أنتم غير قادرين على تحمل وقع ضربات المطرقة الفلسفية النيتشوية. أخشى أن يؤدي تفكيك يقينياتكم الشعبوية الجبارة ومقدساتكم الطائفية المهترئة التي يبثها شيوخ الفضائيات على مدار الساعة إلى فقدانكم للتوازن النفسي وانهياركم العقلي بكل بساطة.

بصراحة أنتم لا تستحقون أن تكونوا في الصف الأول الابتدائي. ولا أعتقد أني سأقبل بكم كتلاميذ صغار في المدرسة الفلسفية الألمانية... هل عندكم مفكر واحد يفهم في العمق معنى الظهور الفلسفي لشخصيات من نوع: لايبنتز، أو كانط، أو فيخته، أو هيغل، فضلاً عن شوبنهاور؟...

– ٦ –

عندئذ خفت أكثر وارتعبت. وعندما رأى ملامح الهلع ترتسم على وجهي أشفق علي وقال لي هذه الكلمات التي لن أنساها:

أعلم أنكم، أيها العرب، بحاجة إلى أن تلتصقوا بذاتكم التراثية كل الالتصاق قبل أن تنفصلوا عنها لاحقاً (وهذا هو معنى الربيع العربي حالياً. إنه ربيع معكوس ظاهرياً فقط. ولكنه قد يشكل بفعل الانعكاس الديالكتيكي واحتكاك المتضادات قفزة هائلة إلى الأمام. انتظروا: وراء الأكمة ما وراءها... وراءها سقوط الاستبداد والحزب الواحد وحكم التعسف والاعتباط. وبالتالي لن تذهب تضحيات المتظاهرين السلميين ودماؤهم الطاهرة سدى). ثم استطرد قائلاً:

إنكم تدركون بشكل غامض أنكم ستفارقون هذه الذات التراثية المتكلسة، المتحنطة، المتحجرة يوماً ما. تدركون أن لحظة القطيعة معها قادمة لا محالة. ولكن هذه القطيعة أصعب عليكم من مفارقة روحكم، بل وتكاد تتقطع لها نياط قلوبكم... سوف تبكون عليها دماً ودموعاً، أعرف ذلك. هل تعتقد بأن انهيار الأصولية المسيحية في الغرب كان سهلاً علينا؟ من الذي أعطانا الإسفنجة لكي نمسح الأفق كله؟! هل تعتقد بأن أكبر انقلاب على إله القرون الوسطى (حيث أنزلناه من عليائه ووضعناه تحت الإقامة الجبرية بل وأحلناه على التقاعد نهائياً) كان عملية بسيطة؟ مئتا سنة حتى بلعنا القصة، وبالكاد! وقيل إنه توفي في غرفة العناية الفائقة من دون أي مقاومة تذكر من كثرة الهرم والشيخوخة. فقد كان بلغ من العمر عتياً!... .

ها قد مر ألفان من السنوات دون أن يظهر إلهٌ واحد جديد!

– قلت له: دكتور نيتشه عفواً: الله حيٌّ لا يموت. الشيء الذي مات وانتهى هو الصورة المكفهرة التي شكلها عنه الناس في العصور الوسطى، عصور اللاهوت التكفيري والإرهاب الكهنوتي، عصور المجازر الطائفية والجهل والفهم الخاطئ للدين...

فأجاب: نعم، نعم، فسّر الأمور كما تشاء. المهم أخيراً ظهر هذا الإله الجديد الطيب، إله التسامح والاستنارة، إله الحداثة والحرية، ولكن في الفضاء الأوروبي فقط، وبعد أن اندحرت عصور محاكم التفتيش. الفهم المستنير للدين لم ينتصر حتى الآن إلا في أوروبا والبلدان المتقدمة علمياً وفلسفياً. فمتى

سيتغلب عندكم الله الرحمن الرحيم، الغفور الكريم، على إله القرون الوسطى المظلمات؟ كتابكم الخالد يقول: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. فكيف تحول تدينكم على أيدي المتطرفين إلى نقمة على العالمين؟ كيف انعكست الأمور تماماً وأفلت شمسكم الحضارية؟ وإلى متى ستظلون متعلقين بقشور الدين لا جوهره؟ نعم: متى سينتصر العصر الذهبي عندكم على عصر الانحطاط؟ متى ستغبلون الجانب المضيء من تراثكم العربي الإسلامي العظيم على الجانب السلفي المتعصب السائد حالياً؟ متى سينتصر الانفتاح على الانغلاق؟ هنا تكمن المشكلة والعقبة الكأداء. الربيع العربي معنيّ كلياً بهذه الأسئلة ولن ينجح أصلاً قبل حلها أو الإجابة عنها... .

- ٧ -

قلت له: ولكنك تطالبنا بالمستحيل في الظرف الراهن؟

فأجاب نعم أطالبكم بالمستحيل: كيف يمكن أن تنفصلوا عن ذاتكم التراثية وهي أقرب إليكم من حبل الوريد؟ كيف يمكن أن تفارقوها وقد عشتم معها أو عليها منذ مئات السنين؟ أنتم العرب كدودة القز التي لم تخرج من الشرنقة بعد. بل وتخاف إذا ما خرجت أن تموت بدلاً من أن تتحول إلى فراشة وتطير! ولذلك لا تتجرأون حتى الآن على إحداث القطيعة مع العصور الوسطى الإسلامية مثلما فعلنا نحن مع العصور الوسطى المسيحية. كلما أوشكتم على ذلك أصبتم بالهلع فتراجعتم إلى الخلف فوراً: مستغفرين، نادمين، تائبين. نعم إني خائف عليكم، على توازنكم النفسي... ها قد مر ألف وخمسمئة سنة من دون أن يظهر مقدس آخر جديد! من يستطيع أن يقطع حبل السرة مع اللاهوت؟ من يستطيع أن ينتصر على نفسه، أن يستقل عن آبائه وأجداده؟ من يستطيع أن يؤسس مقدساً جديداً: مقدس الحداثة والعلمانية؟ آه أيتها الحقيقة يا أكبر كذبة في التاريخ! متى سيظهر إله المحبة والتسامح في رحابكم؟ متى سيحل محل إله القرون الوسطى المظلمات؟ لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت

يا عرب، ولا أن أفصح أكثر مما أفصحت. يا لغبائكم التاريخي المتراكم! يا ويلي معكم! لم يستعصِ عليّ أحد في العالم إلّاكم. حتى الجامعة العربية أصبحت مدعاة للشفقة والرثاء بعد أن انهارت كل السقوف والجدران و لم يبقَ منها إلا حائط أو حائطان يتداعيان... وأعتقد أن أفضل خدمة يمكن أن أقدمها لكم هي إطلاق رصاصة الرحمة عليكم، لكي ينهار ما تبقى. ينبغي أن تعرفوا قيمتكم الحقيقية على مسرح العالم المعاصر:

ليس الأعاريب عند الله من أحد...

لقد انكشف ضعفكم وهوانكم أمام العالم كله عندما وصلتم إلى مرحلة التهالك على أبواب الآخرين لكي يحلوا لكم مشكلتكم. بل ووصلتم إلى مرحلة التهافت أو حتى تهافت التهافت كما يقول فيلسوفكم الكبير ابن رشد. والله إني لأشعر بالخجل عندما أراكم.

ولكن هذه مرحلة إجبارية لا بد منها. سوف تموتون ألف ميتة قبل أن تهضموا القطيعة الإبيستمولوجية مع ذاتكم التراثية وتقطعوا حبل السرة مع اللاهوت المقدس. ينبغي أن تعودوا إلى الوراء لكي تقفزوا إلى الأمام (هذا هو أيضاً معنى الربيع العربي. إنه ليس انتكاسة إلى الوراء إلا ظاهرياً فقط. ضع هذا في ذهنك أيها التقدمي السطحي. قلت لك وراء الأشياء ما وراءها. فدماء الذين سقطوا على مذبح الاستبداد سوف تبرعم قريباً). أنتم ضحايا أنفسكم في الدرجة الأولى. وأنا لا أستطيع أن أفعل لكم شيئاً سوى أن أتمنى لكم المزيد من التدهور حتى تصلوا إلى أسفل القعر. ثم أضاف مطمئناً: لا يمكن أن تنفصلوا عن التراكمات التراثية، عن الاستلابات الماضوية، إلا بعد أن تشبعوا التصاقاً بها. تداويت منها بها. ينبغي أن تصلوا إلى مرحلة الإشباع التراثي الكامل. ينبغي أن يشبع التراث من التراث. دعوا المشايخ يصولون ويجولون على شاشات الفضائيات حتى يعم الظلام كلياً وتختنقوا برائحة اللاهوت والكهنوت. لا يوجد حل آخر. بعدئذ يمكن أن تستيقظوا من غيبوبتكم. بعدئذ يمكن أن ينقلب التراث على ذاته ويفقد مصداقيته ويحيّد نفسه بنفسه. بعدئذ يمكن أن تتنفسوا

الصعداء لأول مرة في تاريخكم. بعدئذ يمكن أن ينبثق رد فعل معاكس في أعماقكم وتبتدئ مرحلة الصعود من أسفل القعر، أو أسفل البئر، لا فرق. أما قبل ذلك فلا. هذا قانون تاريخي.

– ٨ –

قلت له: ولكن هذا ما قاله لي هيغل حرفياً.

فأجابني: أعلم ذلك. هيغل ليس مخطئاً من هذه الناحية. ولكني هاجمته لأن شخصيته كانت طاغية أكثر من اللزوم. وعندما ظهرت أنا في ألمانيا كان أمامي حلان: إما أن أخضع لتأثيره المغناطيسي وأصبح أحد تلامذته كبقية مثقفي ألمانيا، وإما أن أنحرف عنه كلياً لكي أرى ما لم يره وأشكل فلسفة جديدة لا علاقة لها به. وقد اخترت الحل الثاني. و لم يغفروا لي فعلتي تلك حتى الآن. ولذا فإنهم يتهمونني بأني شخص "لاعقلاني"، بأني خرجت على العقلانية الكانطية – الهيغلية المقدسة والمعصومة. بل ووصل الأمر بهم إلى حد اتهامي بتدمير العقل كلياً كما فعل ذلك الأصولي الماركسي المتزمت جورج لوكاتش. هل قرأت كتابه: **نيتشه وتحطيم العقل**؟ إنه مترجم إلى لغتكم العربية على ما أعتقد. وهو تلميذ لذلك الغبي كارل ماركس الذي تنبأ بالثورة البروليتارية العالمية وتدمير الرأسمالية، في حين أن العكس هو الذي حصل تماماً. فطبقة البروليتاريا تبرجزت وأصبحت تمتلك السيارة والثلاجة والغسالة و لم تعد بحاجة إلى ثورة ولا من يحزنون. لقد انتصرت الرأسمالية على ماركس وفندت معظم نبوءاته.

– ٩ –

والرأسمالية لا أحد يستطيع أن ينتصر عليها. الرأسمالية غادة حسناء لابسة "ميني جيب وكعب عالي". من يستطيع أن يقاومها؟

– يا إلهي، يا إلهي، ليس أنا!

– أعرف ذلك. وصلتني عنك أخبار يشيب لهولها الولدان. يبدو أنك لا تزال تترامى عليهن بجشع هائل لا يكاد يصدق... متى ستتجاوز مرحلة المراهقة؟ متى ستبلغ سن الرشد؟

– دكتور نيتشه: أرجوك، لا تتدخل في حياتي الشخصية. خط أحمر!

– نعم، نعم، وصلتني تقارير مرعبة يندى لها الجبين خجلاً. يبدو أن حماقاتك وهشاشاتك لها بداية وليس لها نهاية. قل لي متى ستقلع عن هذه العادة السيئة: مغازلة الآنسات الصغيرات، الغضات البضات، أو حتى السيدات العفيفات الطاهرات؟ هل يليق ذلك بشخص يحترم نفسه؟

– دكتور نيتشه، أرجوك، ثم أرجوك!!

– لا، لا، لا أرجوك ولا ما أرجوك ولا كلام فارغ. سوف أسحقك سحقاً وأجعلك عبرة لمن اعتبر. هل تعتقد أن حيلك وألاعيبك تنطلي على نيتشه؟ هل تعتقد بأنك مختبئ في مكان ما ولا أحد يراك؟ إنك مراقب أرضاً وجواً وبحراً وعلى جنوبهم ونحصي عليك أنفاس أنفاسك يا عدو الله. نيتشه عنده مخابرات ميتافيزيقية ترى كل شيء ولا يراها شيء. من يستطيع أن ينجو من مخالب نيتشه؟

هذا وقد سألت الدكتور سيغموند فرويد (الذي يحاول تلميذي المشاغب ميشيل أونفري تحطيم أسطورته حالياً) فأجابني بالحرف الواحد: دكتور نيتشه: هذا الشخص لا أريد أن أرى وجهه بعد الآن. لقد عقدني. يا أخي كل يوم قصة جديدة. هل يعقل ذلك؟ كل يوم مجنون ليلى أو جميل بثينة! إنه يفقد عقله "كلما لاح بارقٌ في محيا".

يا أخي هذا الشخص وحش من الوحوش الضارية:

ترفق أيها الحوران في أقصى لياليه

ترفق ضاق وجه الأرض وانسدت نواحيه...

يا أخي هذا الشخص مريض بالمعنى الحرفي للكلمة. إنه مصاب بمرض يدعى الهشاشات الغرامية أو المراهقات المتأخرة والمزمنة. وهي أبشع أنواع المراهقات. وأنا لا أستطيع أن أتعامل مع مراهقين. دكتور نيتشه، أنا رفعت يدي عن هذا الشخص نهائياً. يا أخي يمكن أن أحل المشكلة السورية المتفجرة، بل وحتى المشكلة الفلسطينية التي أعيت العالم كله أنا قادر عليها... أما هذا الشخص؟ والعياذ بالله! مشكلته لا حل لها في المدى المنظور

ثم أضاف:

ولا غير المنظور...

ثم دخل الدكتور شوبنهاور (نعم شوبنهاور ما غيره!) على الخط وقال:

يا أخي هذا الشخص مجنون بالمعنى الحرفي للكلمة. هل يعتقد بأن المرأة تعشق لوجه الله؟ ألا يعلم بأن المرأة هي أكبر مؤامرة على الرجل؟ إنها أكبر حيلة اخترعها التاريخ من أجل تأبيد النوع البشري الذي ينبغي أن ينقرض نهائياً. والرجل الغبي سرعان ما يقع في حبائلها لكي يحبّلها وتركب عليه الهموم والأولاد والعيال وتنتهي القصة... هذا كل ما تطلبه المرأة منه. وهي تستخدم كل أساليبها في الإغراء لكي يستسلم لإرادتها ويخضع لها. بل ليست بحاجة إلى استخدام أي أساليب. تكفي إشارة بسيطة من إصبعها الصغيرة لكي يصبح الرجل التافه في خبر كان. من يستطيع أن يقاوم إغراء بنات حواء؟ لم تخلقه أمه بعد... ما عدا الدكتور شوبنهاور بالطبع. إنه أعزب أبد الدهر. هل يعقل أن يسقط البروفيسور شوبنهاور في الحب؟ أبداً لا. هل يعقل أن يعشق؟ مستحيل. إنه يكره حتى أمه. هذا نموذج يحتذى! وهكذا تراه يتجول في شوارع فرانكفورت وحيداً مع كلبه الصغير الأبيض الجميل. إنه يتحدث وحده أو مع كلبه وليس بحاجة إلى شخص آخر لكي يتحدث معه. يا لها من حضارة رائعة! إنه يتقوقع على ذاته بكل أنانية عذبة لا تكاد تصدق. ولا أحد يتجرأ على الاقتراب منه. وهو يعتبر ذلك بمثابة الحياة الفلسفية بامتياز. إنه النموذج المضاد لعدوه اللدود هيغل: حيث العائلة والأولاد والزوجة الحنونة، حيث العقلانية المتفائلة بحركة التاريخ، حيث الأمل بالحرية ومستقبل البشرية.

ثم واصل الدكتور شوبنهاور تشخيصه للوضع قائلاً:

أعتقد أن هذا الشخص مصاب بمرض لا يقل خطورة عن المرض العربي ذاته. وهو مرض عضال لا علاج له ولا شفاء منه. والغريب العجيب أنه لا يزال حياً يرزق حتى الساعة. وقد كان واجباً "تصريفه" بشكل أو بآخر من زمان... ولكنه أفلت من أيديهم في آخر لحظة. صحيح أنه خرج معطوباً من القصة، ولكنه خرج، على الأقل حتى الآن. عزاؤنا الوحيد أنه فاشل على كافة الأصعدة والمستويات. إنه يغرق يومياً أكثر فأكثر في تناقضاته. والأنكى من ذلك أنه يزعم أنه مثقف! بل ويتنطح لإنقاذ الأمة وهو عاجز عن إنقاذ نفسه. طبيبٌ يداوي الناس وهو عليل...

ثم ختم الدكتور شوبنهاور قائلاً:

والأخطر من ذلك كله أنه – بين الهرهورة وسيدي العابد، هناك على شاطئ الرمال الذهبية – فإن هذا المدعو يعيش الآن أجمل لحظات حياته. فهل نتركه يستمتع أكثر فأكثر؟ دكتور نيتشه: للصبر حدود!

– ١٠ –

في نهاية المطاف، لا أعرف لماذا دفعني خبثي أو بالأحرى تهوري إلى الانتقام منه وطرح السؤال الآتي عليه. قلت له بعد طول تلعثم وتردد: دكتور نيتشه: هل تسمح بأن أطرح عليك سؤالاً شخصياً لا علاقة له بالموضوع؟ فأجاب: قل ما تشاء ولكن على عجل، لا أستطيع أن أضيع وقتي معك أكثر مما فعلت. قلت له: لماذا هجوت تلك العبقرية الحسناء "لو أندريا سالومي" بشكل مقذع بعد أن كنت مولهاً بها؟ هل حرقت قلبك إلى مثل هذا الحد؟ ما إن لفظت هذه الكلمات حتى اكفهر وجهه وامتقع وراح يتلمس عصاه. وهي نفس العصا التي أهدتها إليزابيت نيتشه إلى هتلر لاحقاً... وعندئذ تملكني الرعب فقفزت من أعلى جبال الألب إلى باطن الوديان السحيقة مخاطراً بأن تنكسر رجلي على أن يخبطني خبطة عشوائية تقضي عليّ قضاءً مبرماً.

الفصل الثالث

انسداد تاريخي وانغلاق لاهوتي

المثقف العربي والانسداد التاريخي

سوف أكون متسرعاً أو مغروراً أكثر من اللزوم إذا ما قلت إني توصلت إلى حل نهائي للمأزق الرهيب الذي نتخبط فيه اليوم. ولكن يخيل إلي أني لمحت بصيص نور في نهايات نفق مظلم يبدو كأن لا نهاية له. فبعد طول انتظار، ولف ودوران، بعد الاشتغال على الموضوع أكثر من ثلاثين سنة متواصلة في فرنسا والمغرب، هل أنعم الله علي بالرؤية الخلاقة؟ يا ليت... مبالغة. أنا لست جان جاك روسو لكي يهبط عليّ الإلهام من السماء! نعم إنه انسداد خطير لم يسبق له مثيل في التاريخ، اللهم إلا انسداد الحالة الألمانية قبل ظهور لوثر، أو الحالة الفرنسية قبل ظهور ديكارت وفلاسفة التنوير الآخرين... نحن نتخبط في ظلمة حالكة السواد، ولا نكاد نرى شيئاً أمامنا من شدة الضباب الكثيف الذي يكاد يسد الأفق ويمنع الرؤية. نحن ضائعون حكاماً ومحكومين، أسياداً ومسودين. حقاً، إن الأمة العربية الإسلامية تمر في مرحلة الأعاصير والاضطرابات الجوية كتلك التي تحصل للطائرة أحياناً فيصاب الناس بالهلع لفترة قبل أن تنجلي الحالة وتعود الأمور إلى نصابها. كل ما نأمله هو ألا تطول فترة الهلع هذه، وأن يظهر في العرب مفكر عبقري في حجم ديكارت أو كانط أو هيغل، مفكر قادر على تشخيص المرض العضال وإيجاد الحل والعلاج. يقول الفيلسوف الألماني هابرماس إن كل أمة من الأمم تعاني من فترة إلى أخرى من حالة الانسداد على كافة

الأصعدة والمستويات. وعندئذ تعمى الناس ولا يعود أحد يعرف أين المخرج ولا كيف. في تلك اللحظات الحرجة بالذات يظهر المفكرون الكبار لفك حالة الانسداد هذه، واكتشاف موطن الخلل وإعطاء دفعة جديدة للأمة لكي تثق بنفسها وتنطلق من جديد. هذا ما حصل للألمان في القرن السادس عشر قبل أن يظهر فيهم لوثر والإصلاح الديني الكبير. وقد شعر به معاصروه وكأنه زلزال لا يكاد يصدق، واستغربوا كيف أنه نجح أصلاً... كان ذلك عبارة عن معجزة حقيقية. وبعدئذ انسدت الأمور مرة أخرى في القرن السابع عشر، فظهر فيهم الفيلسوف لايبنتز الذي قدم لهم تفسيراً عقلانياً مضيئاً لشؤون الدين والدنيا. ثم تراكمت الأشياء بعضها على بعض مرة ثالثة، وحصلت ظلمة أو عتمة جديدة في القرن الثامن عشر، فظهر فيهم كانط وبدد عتمات الظلام. وعندئذ تنفسوا الصعداء وأحسوا بأن شيئاً ما قد حدث وزال الاحتقان. وعادت إليهم الثقة بأنفسهم من جديد بعد أن قدم لهم كانط المفتاح والمنهاج. الشيء نفسه يقال عن ديكارت بالنسبة إلى الفرنسيين. ثم تراكمت أشياء جديدة في القرن التاسع عشر واحتاج الناس مرة أخرى إلى ضوء كاشف وهاج لكي يفسر حركة التاريخ وقوانينه ويحل المعضلة، فكان أن ظهر هيغل. وبعده ظهر نيتشه وآخرون. نيتشه لا يمكن اختزاله إلى جوانبه السلبية المتمثلة بمعاداة الحداثة الديمقراطية. فله جوانب أخرى إيجابية، وخاصة في ما يتعلق بنقد المسيحية والأوهام الميتافيزيقية. وبالتالي فهو سلاح ذو حدين. وفي النصف الأول من القرن العشرين ظهر فيهم هيدغر، فكشف عن سر الداء العضال الذي ينخر في الحداثة ذاتها. وأما في النصف الثاني فقد ظهر فيهم هابرماس نفسه الذي قدم لهم المفتاح على هيئة نظرية الممارسة الديمقراطية والعقل التواصلي الحواري. فلماذا لم يظهر فينا، نحن العرب، حتى الآن مفكر كبير[١] قادر على أن يشخص المشكلة المركزية أو يدلنا على الطريق على الأقل؟ هل عقمت الأمة العربية – الإسلامية فأصبحت عاقراً لا تنجب المفكرين العباقرة؟

---

١ أعتقد شخصياً أن هذا المفكر الكبير قد ظهر، وعلى مستوى الإسلام كله، ولكنه للأسف غادرنا قبل أن يكمل رسالته تماماً...

التنوير العربي بين فكّي كماشة: الأصولية والصهيونية

حتى الآن كنت أتحدث عن العرب والانسداد التاريخي. ولكن بعد الانتفاضات المباركة، في تونس ومصر أولاً، ثم في اليمن وليبيا وسوريا لاحقاً، فإنه آن الأوان للتحدث عن العرب والانفراج التاريخي. بعد الانتفاضة العظيمة للشعب الليبي البطل ضد واحد من أكثر الأنظمة إجراماً وخنقاً للحريات، لا بد من التفاؤل ولو قليلاً بالمستقبل. نقول ذلك وخاصة بعد أن انتفضت الشعوب العربية الأخرى ضد أنظمة بوليسية مشابهة لنظام القذافي ولا تقل عنه ضراوة وملاحقة للناس، ليس فقط في الداخل بل في الخارج أيضاً[1].

١ أقول ذلك وأنا أفكر في الحالة العربية بشكل عام. لذلك كان يمكن أن أخلع على هذا الفصل عنوانا آخر هو: العرب بين الديكتاتورية والأصولية. فالواقع أن الأنظمة البوليسية التعسفية السائدة حالياً ما كان يمكن أن يطول أمدها إلى مثل هذا الحد لولا التلويح بالبعبع الأصولي. لقد استغلته أيما استغلال لتخويف الداخل والخارج منه وإقناع الغرب بأنها هي وحدها القادرة على الوقوف في وجه المد الزاحف للحركات اللاهوتية القروسطية المتزمتة. ولذلك دعمها وغض الطرف عن جرائمها باعتبار أنها أهون الشرين... ولكن هذا الاستغلال الانتهازي للبعبع الأصولي ما كان له أن ينجح لولا التفجيرات والاغتيالات التي قامت بها بالفعل هذه الحركات الأصولية المتطرفة بالذات. انظر حملة الاغتيالات والتفجيرات التي قامت بها جماعة الإخوان المسلمين في الثمانينات من القرن الماضي... فقد أرعبت الناس ودقت إسفيناً عميقاً في صميم الوحدة الوطنية للبلاد. أياً يكن من أمر فإن هذا الاستغلال الانتهازي بلغ الآن نهايته وانكشفت خدعته أو محدوديته بعد انفجار الانتفاضات العربية. وسوف تنكشف خدعته أكثر عندما تغير حركات الإسلام السياسي من شعاراتها الاستلابية وبرامجها القروسطية وفتاواها التكفيرية والذبح على الهوية. إذا ما مشت في خط الإصلاح والتطور الذي انتهجه حزب أردوغان في تركيا مثلاً فسوف تسحب ورقة كبيرة من أيدي الأنظمة الاستبدادية الحالية وستسرع في قلبها لا محالة. حركة الغنوشي التونسية تقول إنها اعتنقت الديمقراطية عن جد ومشت في خط حزب العدالة والتنمية التركي. وهذا يعني أنها طلقت العنف اللاهوتي ثلاثاً واحتكمت إلى صناديق الاقتراع لا إلى التهديدات والتفجيرات والاغتيالات باسم الدين. وهو ما جربته في الثمانينات أو التسعينات من القرن الماضي بغية إرهاب الناس والاستيلاء على السلطة بالقوة، فارتد عليها كل ذلك وبالاً وشوّه سمعتها وصورتها. الشيء نفسه يقال عن الإخوان المسلمين السوريين. ومع ذلك، فلا تزال هناك مخاوف لدى بعض التنويريين العرب من أن يكون تغيرها تكتيكياً لا حقيقياً. انظر المقالة التي نشرها الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي في جريدة الأهرام تحت عنوان: ركوب الديمقراطية... إلى الطغيان! ٢٠١١/٣/٨.

وانظر أيضاً مقالة عبد الرحمن الراشد في الشرق الأوسط بعنوان: الإخوان بين الحقيقة والخرافة ٢٠١١/٣/١٠.

وانظر مقالتي الناقد صبري حافظ في القدس العربي بعنوان: خطاب مفتوح إلى طارق البشري ٢٠١١/٢/٢٣.

ثم: عوار التعديلات الدستورية.. انقلاب على الثورة ٢٠١١/٣/١١.

كلها تتخوف من أن تقطف حركة الإخوان المسلمين ثمار الانتفاضات العربية وتجيرها لصالحها وتبطل مفعولها التحرري الذي بدلاً من أن يمشي إلى الأمام يصبح يرتد إلى الخلف... ربما كانت هناك مبالغة في هذه التخوفات. ولكن حتى لو كانت صحيحة ومشروعة، فإن حركة التاريخ ينبغي أن تمر من هنا. بعدئذ ليشتعل الصراع الجدلي الخلاق بين كلا التيارين العلماني والأصولي، فعنه ستتمخض الحضارة العربية المقبلة. ومن ينتصر في نهاية المطاف حلال عليه...

وهكذا ينفتح الأفق أمامنا واسعاً على مد النظر. فما بعد الانسداد إلا الانفراج. بالطبع يخطئ من يظن أن الأمور قد انتهت! فالاحتقان لا يزال سائداً في معظم الدول العربية الأخرى، وبخاصة دول الحزب الواحد والصحيفة الواحدة والفكر المؤدلج المهترئ الذي يذكرك بالعهد القديم لدول أوروبا الشرقية أو حتى كيم إيل سونغ وابنه في كوريا الشمالية. لا داعي لذكر الأسماء فهي معروفة. وهذا الانسداد لن يزول دفعة واحدة، حتى في تونس ومصر إلخ. نقول ذلك على الرغم من أن التاريخ أخذ يتنفس الصعداء في هاتين الدولتين المباركتين. ولكن المشاكل من التراكم والضخامة بحيث إنك تكاد تشفق على الحكام الجدد الذين سيتحملون المسؤولية الآن. فحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وتأسيس دولة الحق والقانون، أي دولة مدنية تنطبق قوانينها على الجميع من دون استثناء، عملية ليست سهلة على الإطلاق. لذلك سوف أبتدئ دراستي هذه بالتحدث عن جوانب الانسداد قبل أن أختتمها بلمحة بسيطة عن آفاق الانفراج القادم إن شاء الله في معظم أقطار العرب.

في الواقع، إننا نعاني من انسدادين خطيرين لا من انسداد واحد. وهما منفصلان ومتصلان في الوقت ذاته. الأول انسداد خارجي يخص عدم القدرة على حل مشكلة فلسطين، لا حرباً ولا سلماً. كل الحلول جربت وكلها فشلت. ونحن أمام الحائط المسدود في حيص بيص. والأنظمة المتعاقبة تقول لك: لا ديمقراطية ولا حرية ولا تنمية حقيقية إلا بعد تحرير فلسطين أو حل مشكلة فلسطين. إنها القضية المقدسة التي تشكل أولوية الأولويات. ولكن المشكلة هي أنه بعد مئة سنة من الصراع لم نستطع تحرير فلسطين ولا تحرير الداخل من الفقر والجهل والتخلف. لقد فشلنا على كلا الصعيدين. وهنا يكمن الانسداد الخانق. ومزايدات الأنظمة الحاكمة لم تعد مقنعة على الإطلاق. فلم يعد أحد مستعداً لانتظار تحرير فلسطين من أجل إنشاء نظام دستوري قانوني ديمقراطي والتخلص من حكم التعسف والاستبداد والاعتباط. الآن انفجرت الأمور و لم تعد الشعوب العربية بقادرة على الانتظار فترة أطول لكي تتحقق مطالبها في الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد والمحسوبية والرشى وبقية الأمراض الاجتماعية... ولا نعرف أصلاً لماذا يتعارض تحرير فلسطين مع كل ذلك! أليست هي قضية حرية في أصلها وجوهرها؟ وبالتالي هذه الورقة سقطت من أيدي الأنظمة البوليسية البائسة، على الرغم من أن بعضها لا يزال يستخدمها بشكل سمج ومفضوح.

وأما الانسداد الثاني فهو داخلي يخص عدم القدرة على حسم المسألة التراثية: أي بلورة تأويل جديد ومستنير لكل تراثنا العربي الإسلامي يكون مضاداً للتأويل الأصولي الظلامي. ومعلوم أن التأويل العقلاني هو وحده القادر على مصالحتنا مع الحداثة الكونية. وبناءً على هذا التأويل الجديد سوف تتحدد علاقتنا بالآخر غرباً كان أو شرقاً، كما سوف تتحدد علاقتنا بعضنا مع بعض وتنحل مسألة الانقسامات العرقية والطائفية التي تمزقنا وتهدد بتحويلنا إلى دويلات متنازعة أو متخاصمة. فالتفسير السلفي الأصولي للإسلام يفرض نفسه وكأنه هو التفسير الوحيد الصحيح. بل ويفرض نفسه وكأنه هو الإسلام ذاته! ولا يمكن أن يوجد تفسير آخر غيره. التفسير العقلاني أو التنويري للإسلام مرفوض سلفاً ومكفّر من قبل التيار العام السائد، بل ويعتبر خروجاً على الإسلام الأبدي الخالد. من هنا الملاحظة الأساسية الآتية: وهي أن العالم العربي محاصر بالصهيونية من الخارج، والأصولية والديكتاتورية من الداخل[1]. فعلى أي جانبيك تميل؟ لهذا السبب تعطلت مسيرتنا الصاعدة نحو النور والتنمية والحرية[2].

---

١ أعترف بأني كنت أصطدم طيلة السنوات العديدة الماضية بنوعين من المثقفين يقفان على طرفي نقيض. النوع الأول كان يأخذ كل حريته في نقد الأصولية وتطبيق المناهج التنويرية الحديثة على التراث العربي الإسلامي. وهذا سر إعجابي به. ولكنه بالمقابل كان يدفع ثمناً باهظاً مقابل ذلك: ألا وهو السكوت على المسألة الصهيونية إلى حد ما إن لم يكن صراحة فضمنا. وكان ذلك يجرحني في العمق ويؤلمني لأنه صادر عن شخصيات فكرية أحترمها وأقدرها. وأما النوع الثاني من المثقفين فكان يشاركني كرهه للصهيونية العدوانية ولكنه بالمقابل ما كان يبدي أي حماسة لنقد الأصولية بل على العكس كان يظهر محاباة صريحة أو ضمنية لها أو معها. وهذا ما كان يزعجني ويحبطني. باختصار كنت أشعر بأني وحيد على كلا الجبهتين، بأن صقيع العزلة والوحدة يحيط بي من كل الجهات. كنت أجد نفسي متفقاً مع كل طرف بنصف الموقف فقط ومختلفاً معه في نصفه الآخر. كنت أتمنى أن أجد مثقفاً واحداً مضاداً للأصولية والصهيونية في آن واحد. لاريب في أن هذا المثقف موجود في الساحة العربية ولست الوحيد الذي يتخذ هذا الموقف لحسن الحظ. ولكنه لم يشكل بعد تياراً كبيراً قادراً على فرض نفسه بالشكل المرجو. ولن يتشكل فعلاً قبل أن تقوم الدولة الفلسطينية المباركة ويحل السلام في المنطقة بيننا وبين اليهود. من هنا الوضع الحرج أو المعضلة الرهيبة التي يتخبط فيها المثقف التنويري العربي المعاصر: إنه محاصر من كلتا الجهتين: الجهة الأصولية، والجهة الصهيونية. فأنصار الأصولية يكرهونه لسبب معين، وأنصار الصهيونية يكرهونه لسبب آخر. هل أقول إن مأساة حياتي منذ ربع قرن حتى اليوم ناتجة من هذه المعضلة الرهيبة التي لم أستطع حلها والتي أوشكت أن تحلني وتطيحني أخيراً؟ لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك الآن.

٢ غني عن القول إن الأصولية لا تعني الإسلام كله وإن كانت هي التجسيد الغالب له حالياً بسبب تواصل عصور الانحطاط الطويلة. فعندما ينتصر التنوير العربي – الإسلامي سوف يتم تحجيم الظاهرة الأصولية إلى حد كبير. وهذا هو الهدف من ترجماتي المتلاحقة لأركون. وغني عن القول أيضاً إن إدانة الصهيونية لا تعني إدانة الديانة اليهودية أو الشعب اليهودي ككل، بل إدانة مشروع سياسي جهنمي محدد بدقة. فالمشروع الصهيوني حديث العهد جداً قياساً إلى الديانة اليهودية أو الشعب اليهودي الموجودين منذ آلاف السنين. وهناك كثير من اليهود لا يؤمنون به. ولذلك ينبغي ألا نقع في مطب التعميم والإدانة الجماعية. فالشعب اليهودي يستحق الاحترام مثله مثل بقية شعوب الأرض. وأصلاً لولا تورطه في قصة فلسطين واغتصاب الحركة الصهيونية لها تدريجياً بالشكل =

وبالتالي، فالربيع العربي بدلاً من حل المشاكل اكتفى حتى الآن بتفجيرها. ولكن أليست هذه ميزة كبيرة تحسب له؟ هل كانت الأنظمة ستتحلحل وتقوم بالإصلاحات لولا أنه أخافها؟

= الذي نعرفه، لظل رصيده الأخلاقي كبيراً... ولكنه أهدره عن طريق السكوت عن استئصال شعب كامل بأسره من أرض آبائه وأجداده وإحلال أناس آخرين محله، أناس قادمين من شتى أنحاء الأرض... هذا من جهة. وأما من جهة أخرى، فيمكن أن نقول ما يأتي: لا ريب في أن الطاقات والموارد الهائلة التي اضطر العرب إلى تجييشها أو التضحية بها لمقاومة المشروع الصهيوني كانت كافية لتحويل العالم العربي إلى جنة لولا إنفاقها على التسلح ومقاومة هذه الهجمة الصهيونية الشرسة بالذات. كم مرة دمر لبنان من قبل الجيش الإسرائيلي الفتاك الذي يدعي تساهال أو جيش الدفاع الإسرائيلي!؟ هذا فضلاً عن تدمير فلسطين، بل وحتى تدمير سوريا ومصر وكل المنشآت والجسور والبنى التحتية... وبالتالي، تخلف العرب وبالأخص المشرق العربي يعود في قسم كبير منه إلى كابوس المشروع الصهيوني وضغطه الرهيب عليه. ولكن هناك قسم من المسؤولية ملقى على الداخل، وبالأخص على المشروع الأصولي الذي كان دائماً يشد إلى الوراء ويمنع العرب من الانطلاقة والتقدم إلى الأمام. كان يمنعهم من تبني المشروع العلمي – الفلسفي عن طريق التشكيك فيه أو تكفيره. بهذا المعنى هناك تواطؤ موضوعي، أي لاإرادي، بين الصهيونية والأصولية. وهو تواطؤ أدى في نهاية المطاف إلى إجهاض النهضة العربية وقصم ظهرها وهي في أوج انطلاقتها. بهذا المعنى لو حلت قضية فلسطين لسحبت ورقة كبيرة من أيدي الأصولية ولخف تأثيرها على الجماهير ولتناقصت شعبيتها إلى درجة النصف تقريباً. وفي الوقت ذاته لو حلت لكنا استطعنا استخدام كل مواردنا من أجل التنمية ومحاربة الفقر وبناء الجامعات والمشافي والمدارس وتحقيق الازدهار على كافة الأصعدة والمستويات. بهذا المعنى أنا لست ضد إيجاد حل سلمي للنزاع العربي الإسرائيلي ووضع حد لهذا الصراع الجهنمي، بشرط أن يحصل إجماع فلسطيني وعربي على ذلك. فهل سيدرك الغرب والعالم اليهودي كله أن من مصلحة إسرائيل قيام دولة فلسطينية إلى جانبها؟ هذا ما يقوله أحد كبار مفكري فرنسا وعقلائها: آلان تورين. فإسرائيل لا يمكن أن تحظى بالمشروعية في المنطقة إلا إذا قامت الدولة الفلسطينية المباركة إلى جانبها. وذلك لأن الضحية هي وحدها القادرة على أن تخلع المشروعية على الجلاد لا العكس. هنا تكمن قوة الحق الفلسطيني التي لا تناقش. ولكن المشكلة هي أن المحافظين الجدد الذين يكرهون آلان تورين وأمثاله مصرون على الباطل ودعم الليكود الذي يريد بلع الضفة الغربية. وهكذا لا يعود هناك مجال لتأسيس دولة أخرى على أرض فلسطين التاريخية. وهكذا يحرم الشعب الشرعي الحقيقي من دولته على أرض آبائه وأجداده. وهذا يعني أن الصراع قد يستمر مئة سنة أخرى. فهل هذا ما يريده الغرب؟ هل ستتأجل النهضة العربية أو الديمقراطية العربية مئة سنة قادمة؟ مستحيل. هل كانت الأصولية الإسلامية ستبلغ كل هذه القوة والانتشار والعنفوان لولا هجمة الأصولية اليهودية – الصهيونية المضادة على المنطقة؟ هكذا نلاحظ أننا واقعون بالفعل بين فكي كماشة. ولا أحد يعرف متى سنخرج منها أو متى سنفك رقبتنا منها. ولهذا السبب يصعب أن ينتصر التنوير العربي الإسلامي في المدى المنظور... هذا وضع قاهر يتجاوزنا جميعاً ولا حيلة لنا به... ولكن أضيف إلى ذلك الأطروحة الأساسية التي تخترق هذا الكتاب: وهي أن وصول الأصوليين إلى سدة الحكم بفضل الربيع العربي سيؤدي إلى انحسار الهالة الأسطورية التي كانت تحيط بهم وتجعلهم يبدون كأنهم فوق البشر... من المعلوم أن التنظيمات السلفية والإخوانية كانت – ولا تزال – تتمتع بمصداقية هائلة في نظر الجماهير الشعبية الأمية في قسم كبير منها. بل وتتمتع بقداسة حقيقية لأنها تتحدث باسم المقدس: أي الدين ذاته. ولكن ممارستها للسياسة اليومية بكل التسويات والتكتيكات والمساومات التي تتطلبها بالضرورة هذه الممارسة سوف تزيل هالة القداسة عنها. وسوف يبدو الأصوليون عندئذ على حقيقتهم: أي كبشر يخطئون ويصيبون كبقية البشر... بل إن أخطاءهم سوف تبدو أكثر فداحة لأنه ما كان أحد يتوقع ذلك منهم... من هنا مقولة مكر التاريخ لهيغل. فكل الحركات التقدمية العربية كانت عاجزة عن تحجيم الأصولية. وحده انتصار الأصولية وتسلمها لمقاليد الحكم هو الذي سيحجم الأصولية وليس بقاؤها أبدياً في المعارضة. تداويت منها بها!

التحالف الموضوعي بين الانسداد الداخلي والانسداد الخارجي

لكي أشخّص الوضع أكثر سوف أضيف ما يأتي: أنا أزعم أن هناك تحالفاً موضوعياً بين العدو الداخلي والعدو الخارجي. وهو تحالف يؤدي إلى تفاقم هذا الانسداد التاريخي الناتج من الأصولية الراديكالية من جهة، والصهيونية العالمية من جهة أخرى. وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال تفجير كنيسة النجاة في بغداد أو كنيسة القديسين في الإسكندرية[١]. فالقوى الخارجية المعادية للعرب والمسلمين وجدت في هذين التفجيرين الإجراميين فرصة ذهبية لتشويه سمعة الإسلام والمسلمين أكثر فأكثر. يحصل ذلك كما لو أن صورتنا لم تتشوه بما فيه الكفاية بعد ١١ سبتمبر وتفجيرات مدريد ولندن وسواها، حتى نضيف مشاكل

١ لماذا أقول إن الأصولية هي الحليف الموضوعي للصهيونية؟ ألا يجافي ذلك الواقع والحقيقة باعتبار أن الأصولية هي ألد أعداء الصهيونية؟ لا ريب. صحيح. ولكن مع ذلك فإن الأصولية تقدم أكبر خدمة للصهيونية، إذ تركز على عوامل الفرقة المذهبية والطائفية في كتاباتها ومنشوراتها الواسعة الانتشار. إنها تقدم لها هدية على طبق من ذهب إذ تكفر شرائح واسعة من الشعب وتدعو علناً إلى قتل "الكفار"، أي كل من ليس مسلماً على طريقتها الخاصة. وهكذا تتلقف الصهيونية أفكار الأصولية لكي تشق الصفوف أكثر فأكثر وتزرع الفتنة بين مختلف مكونات العرب بفعالية منقطعة النظير. وعلى هذا النحو وقع الجميع في الفخ تقريباً. وراح الكثيرون ينفذون المشروع الصهيوني من دون أن يشعروا أو حتى وهم يشعرون! راحوا يسهلون له العملية. وبالتالي، لا يمكن مواجهة الصهيونية بفعالية واتقاء شرها ما دامت الأصولية مسيطرة. لحسن الحظ فإن ثوار ميدان التحرير في القاهرة انتبهوا إلى هذا الخطر فرفضوا رفع أي شعار طائفي. على العكس لقد تجلت الوحدة الإسلامية – القبطية بشكل رائع إبان الثورة. وهذا شيء يبشر بالخير، بالأمل والمستقبل. هل تعتقدون بأن الصهاينة كانوا سعداء بذلك؟ لقد أصيبوا بالغم والهم. هذا أقل ما يمكن أن يقال... وبالتالي، كل ما يمشي في اتجاه التنوير العربي وسلوك العرب درب الحضارة يرعب الصهاينة العتاة. أما تخبطنا في جحيم التنظيمات الأصولية التكفيرية فلا يزعجهم على الإطلاق، على العكس من كل المظاهر! لماذا؟ لأن ذلك يعني أننا سنظل منقسمين على أنفسنا ومتخلفين عن ركب العصر وقابلين للتقسيم إلى دويلات متناحرة. بالطبع لا أقصد بالصهيونية الشريرة هنا كل الشعب اليهودي! ولا حتى كل الشعب الإسرائيلي. بل أقصد في الدرجة الأولى اليمين المتطرف الصهيوني على طريقة نتنياهو وليبرمان وآخرين، كما أقصد اللوبي الصهيوني الفرنسي الشرس جداً ثم بالأخص اللوبي الأميركي، إلخ. أستثني إذن القوى ذات الضمير الحي والنزعة الإنسانية في الشعب اليهودي داخل إسرائيل وخارجها: أي القوى التي تناضل من أجل الاعتراف بالحق الفلسطيني وتتعطش للتواصل مع العرب وإقامة سلام حقيقي معهم. صحيح أنها مغلوبة على أمرها، صحيح أنها أقلية، ولكنها موجودة. ولا ينبغي وضع كل اليهود أو كل الإسرائيليين في سلة واحدة. هذا خطأ بل وظلم. يضاف إلى ذلك أنه يضر بالقضية ولا ينفعها. حذار من التعميم في كافة المجالات. الشعب اليهودي عانى أيضاً على مدار التاريخ وليس فقط إبان المحرقة النازية. نقول ذلك على الرغم من أنه يعيش الآن عصره الذهبي حيث يدلله الجميع ويغنجونه. ولكن هل هذه العذابات التاريخية تبرر له اقتلاع شعب كامل من جذوره، من أرض آبائه وأجداده؟ هذا هو السؤال الأخلاقي المركزي المطروح، ليس فقط على الشعب اليهودي بل أيضاً على الغرب الأوروبي – الأميركي كله. أعتقد أن غارودي سلط إضاءة رائعة على الموضوع. فليرجع إليه من أراد...

جديدة. وبالتالي، فالأصولية الراديكالية تقدم أعظم هدية للصهيونية العالمية سواء أشعرت بذلك أم لم تشعر. وقضية فلسطين هي أول من يدفع الثمن. لماذا تراجعت وأصبحت في الدرجة الثالثة أو الرابعة من اهتمامات العالم؟ لأن هناك شيئاً آخر غطّى عليها.

نقصد بالتحالف الموضوعي ذلك الناتج من جهتين معينتين، حتى ولو كانت كل منهما تكره الأخرى كره النجوس. والأصولية الإسلامية تكره الصهيونية إلى أقصى الدرجات. هذا شيء مؤكد ومفروغ منه. ولكن هذا لا يمنع أن أعمالها التفجيرية أو حماقاتها تخدم الصهيونية خدمة جلى، لأنها تؤدي إلى إضعاف الجانب العربي الإسلامي وتشويه سمعته في كل الدوائر العالمية، كما وتلقي بظلال سوداء على قضية فلسطين بالذات. من هنا الوضع الجهنمي الحرج الذي نجد أنفسنا محشورين فيه غصباً عنا، ومن دون أن نستطيع منه فكاكاً. كلما تحاشينا الحفرة وقعنا فيها! نحن فعلاً بين فكي كماشة: الأصولية الراديكالية من جهة، والصهيونية العالمية[١] من جهة أخرى.

فكيف يمكن أن نخرج من هذه المصيدة؟ البعض يقول: لا يجوز لنا أن نستخف بالعقائد

١ هناك فكرة أخرى نادراً أن تذكر: وهي أن ضغط المشروع الصهيوني على المنطقة أجبرها على قطع تجربتها البرلمانية الوليدة والدخول في عهد الانقلابات العسكرية والزعماء الديكتاتوريين، كما وأجبرها على كره الغرب كله، ليس فقط في سيئاته بل في حسناته أيضاً، لأنه كان الداعم الأكبر لهذا المشروع الصهيوني بالذات. وبالتالي كل ما يصدر عن الغرب أصبح مكروهاً ومرفوضاً وكأنه رجس من عمل الشيطان. ولهذا السبب انتصر المثقف العضوي الملتزم قومياً أو أصولياً أو اشتراكياً ماركسياً على المثقف الليبرالي الحر كأحمد لطفي السيد وفرح أنطون ويعقوب صروف وميخائيل نعيمة وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ إلخ. نعم لقد أجبرنا كره إسرائيل والصراع المفروض علينا على أن نكره أفضل ما في الحضارة الغربية: أي الاستنارة الفكرية، والحرية الفلسفية، والمنهجية العلمية، ودولة الحق والقانون والمؤسسات والدستور، والديمقراطية المتمثلة في التناوب على السلطة بشكل شرعي، والدولة المدنية التي لا تفرق بين المواطنين طبقاً لأصولهم العرقية أو الدينية والمذهبية إلخ... كل فتوحات الحداثة أصبحت مرفوضة بحجة أنها آتية من جهة الغرب الإمبريالي الاستعماري الصهيوني. فهل دخلنا الآن في مرحلة جديدة بفضل الربيع العربي والثورات المتفجرة في كل مكان من تونس إلى مصر إلى ليبيا فاليمن وسوريا والبحرين والحبل على الجرار؟ هذا ما نأمله، وإن كنا نخشى أن تصادر الثورة العربية المباركة مرة أخرى من قبل تيار واحد يعيدنا إلى الديكتاتورية من جديد... البعض يخشى من هيمنة الإخوان المسلمين على المرحلة المقبلة وقطف ثمار كل هذه الثورات التي انطلقت بشكل عفوي خارج إطار الإخوان وغير الإخوان... ولكن نرجو أن تكون هذه الهيمنة مؤقتة أو مرحلية فقط. وعندئذ يتحول السلب فيها إلى إيجاب، وذلك طبقاً لفلسفة التاريخ الهيغلية التي أرتكز عليها في هذا الكتاب والتي تقول: لا يمكن تجاوز المرحلة التراثية المتجذرة في أعماق الجماهير قبل المرور بها والاكتواء بحر نارها. لا يمكن التوصل إلى الحداثة قبل المرور بالقدامة. أياً يكن من أمر فإن الثورة العربية لن تتحقق فعلاً إلا بعد أن تنتصر القيم الديموقراطية التي ذكرتها آنفاً والتي تنعم بها الشعوب المتقدمة منذ زمن طويل. فهل يمكن تحقيقها قبل حل مشكلة الصهيونية والأصولية في آن واحد والتفرغ كلياً للمشروع الحضاري العربي؟ هذا هو السؤال الكبير...

واليقينيات المقدسة وثوابت الأمة. ومعهم الحق. ولكن البعض الآخر يقول: لا يمكن أن نخرج من حالة الانسداد التاريخي إلا إذا وضعنا هذه العقائد والثوابت والمقدسات على محك النقد التاريخي والتقييم الفلسفي والغربلة الشمولية لفرز الصالح عن الطالح. وأصلاً لا يمكن أن تنحل مشكلة الطائفية والمذهبية وكذلك تأسيس دولة الحق والقانون الذي ينطبق على الجميع قبل أن نفعل ذلك. فالتراث القروسطي السائد أصبح عبئاً على كاهلنا وصدورنا. ومعهم الحق أيضاً. فكيف يمكن أن نصالح بين هذين الموقفين اللذين يبدوان متناقضين تماماً؟ أليست حالة الانسداد التاريخي ناتجة من هذا التناقض بالذات؟ هكذا نجد أنفسنا وكأننا ندور في حلقة مفرغة أو مغلقة كلياً. فمن جهة لا تحرير فكري حقيقي من دون نقد راديكالي للعقلية التراثية الطائفية التي تتحكم فينا وتشل طاقاتنا عن الإبداع، ومن جهة أخرى، لا يمكن نقد هذه العقلية التراثية لأنها تتخذ طابع المقدسات والمعصوميات والمسلمات التي لا تناقش ولا تمس. يضاف إلى ذلك أنها تساعدنا في الكفاح ضد الخارج العدو. فما الحل؟ ما العمل؟

الحل هو أن يتم ذلك خطوة خطوة، وبالتدريج وليس دفعة واحدة. ويمكن أن يسهم حتى رجال الدين أنفسهم في هذه العملية. نعم رجال الدين!

مثال عملي على فك الانسداد التاريخي في الإسلام

للانتقال من مرحلة اللاهوت السياسي الطائفي القديم الذي سيطر علينا طيلة قرون وقرون، إلى مرحلة الفلسفة السياسية الحديثة القائمة على فكرة المواطنية وحقوق الإنسان واحترام كرامته أياً يكن، لسنا بحاجة إلى إجراء قطيعة راديكالية مباغتة قد تزعزع العقلية الجماعية في الصميم. يمكننا أن ننتقل بهدوء تدريجي، فنستعيد ثقة العالم بنا واحترامه لنا، ونستطيع حل المشاكل العالقة بيننا.

بالأمس القريب كنت أتمشى في أحد شوارع المغرب الجميل حيث أقيم حالياً، فوقع بصري فجأة على صفحات إحدى الجرائد التي تقول في صفحتها الأولى: علماء ومفكرون يدعون إلى الاستعاضة عن مفهوم أهل الذمة بمفهوم المواطنة. أعترف بأني فوجئت، ويا لها من مفاجأة سعيدة، عندما علمت بعد قراءة المقال، وأنا لا أكاد أصدق عيني، أن الدكتور

يوسف القرضاوي والأستاذ راشد الغنوشي مستعدان للتخلي عن مصطلح أهل الذمة. صحيح أنه ليس مصطلحاً قرآنياً، ولكنه مكرس في الفقه الإسلامي الكبير منذ مئات السنين، إلى درجة أنه اتخذ طابع المعصومية. الدكتور يوسف القرضاوي يقول ما معناه: الفقهاء المسلمون جميعاً قالوا: إن أهل الذمة من أهل دار الإسلام. ومعنى ذلك بالتعبير الحديث أنهم: مواطنون. فلماذا لا نتنازل عن هذه الكلمة (أهل الذمة) التي تسوؤهم ونقول:هم مواطنون؟

برافو! هذا عين العقل. هذا أفضل ردّ وأبلغ ردّ على التكفيريين الذي ارتكبوا جريمة كنيسة النجاة أو كنيسة القديسين. هذا دليل على أن الفقه الإسلامي يمكن أن يتطور من الداخل ومن قبل كبار علماء الدين المسؤولين. لو قال هذا الكلام محمد أركون، وهو يقوله منذ سنوات وسنوات، لقامت عليه الدنيا و لم تقعد، ولصرخوا في وجهه غاضبين مستنكرين: أنت مستغرب، مستشرق، خارج على أمة الاسلام. أنت تريد تدمير الثوابت والمقدسات، إلخ. ولكن الذي يقوله الآن هو رئيس اتحاد علماء المسلمين من جهة، وزعيم الحركة الإسلامية التونسية (النهضة) من جهة أخرى. وكلامهما له وزن شعبي في أوساط جماهير المسلمين. هذا الكلام يفحم بابا روما أيضاً الذي يتهم الإسلام بأنه عاجز عن التطور لاهوتياً على عكس المسيحية. وبالتالي فائدته مزدوجة. قد يزايد عليهما الدكتور أيمن الظواهري ويتهمهما بالخروج على الإسلام! لأنه دائماً يوجد مزايد ومزايد أكثر! ولكن ما همّ! فشعبيتهما داخل الجماهير الإسلامية لا تقل أهمية عن شعبيته إن لم تزد.

ولكن إذا كانت كلمة "أهل الذمة" ليست قرآنية، فإن كلمة "الجزية" قرآنية. ومع ذلك فإن الشيخ يوسف القرضاوي مستعد للتخلي عنها استناداً إلى موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه. يقول الشيخ مردفاً:

> لماذا لا نتنازل عن هذه الكلمة (أهل الذمة) التي تسوؤهم ونقول هم (مواطنون) في حين أن عمر تنازل عما هو أهم من كلمة أهل الذمة؟ لقد تنازل عن كلمة (الجزية) المذكورة في القرآن حينما جاءه عرب بني تغلب وقالوا له: نحن قوم عرب نأنف من كلمة الجزية، فخذ منا ما تأخذ باسم الصدقة ولو مضاعفة فنحن مستعدون لذلك. فتردد عمر في البداية ثم قبل أخيراً.

هذا مثال ساطع على أن التطور الفقهي أو التطور اللاهوتي شيء ممكن من الداخل، بل وضروري للحفاظ على الوحدة الوطنية للبلدان العربية. إنه تطور يزيل الخوف من نفوس المسيحيين العرب ويرد لهم الاعتبار، ويشعرهم بأنهم إخوة للمسلمين العرب في المواطنية ومتساوون معهم في الحقوق والواجبات داخل الدولة المدنية الحديثة ذات القوانين التي تنطبق على الجميع.

أما الشيخ راشد الغنوشي فيصل به الأمر إلى حد تحييد كلمة الجهاد التي تعطي فكرة مرعبة ومشوّهة عن الإسلام الحنيف في الخارج، وتؤلب علينا دول العالم أجمع، وتشوّه سمعتنا. يقول مثلاً:

> السلم هو الأصل في العلاقة مع غير المسلم. فالجهاد لم يُجعل أداة للدعوة إلى الإسلام أو لفرضه على مخالفيه أو لاستئصال الكفر من العالم.

كلامه مطابق للمقصد القرآني: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، أو: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، أو: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، إلخ. قلت مطابق للمقصد القرآني ولكن جزئياً في الواقع وليس كلياً. لماذا؟ لأن مقولة "استئصال الكفر من العالم" تدل على رفض الاعتراف بالتعددية الدينية أو العقائدية. فالآخرون من مسيحيين أو يهود أو بوذيين إلخ لا يعتبرون أنفسهم كفاراً. بل إنهم يحبون تراثهم ويتمسكون به مثلما نحب نحن تراثنا ونتمسك به ونفتخر وبحق. إنه يخلع المعنى على وجودهم ويبث روح الأمل والطمأنينة في قلوبهم، تماماً كما يفعل تراثنا العربي الإسلامي بالنسبة إلينا. أياً يكن من أمر، فإن عشرات الفتاوى اللاهوتية التي كانت تحظى بقدسية مطلقة سوف يتم تعديلها أو التخلي عنها في السنوات القادمة، لكي يتصالح العرب والمسلمون مع الحداثة والعصر. ومصطلحا "أهل الذمة" و"الجزية" ليسا إلا مثالين بسيطين من جملة أمثلة أخرى عديدة... كل الفقه القديم الذي يتحكم في رقابنا منذ ألف سنة سوف يتم تفكيكه، وكل اليقينيات اللاهوتية الراسخة رسوخ الجبال في العقلية الجماعية سوف تتعرض للأرخنة والغربلة والتمحيص. وهنا نلاحظ أن رجال الدين العقلاء لا يستطيعون أن يفعلوا كل شيء. يكفي أنهم يساعدوننا على السير خطوة واحدة في الاتجاه الصحيح. أما الباقي فتقع مسؤوليته علينا، على كاهلنا. ينبغي على حركة التنوير العربي أن تنجز التحرير الفكري

الكبير الذي لا يمكن رجال الدين أن يقوموا به حقيقة. لماذا؟ لأنه يتناقض مع مصالحهم، ثم بالأخص مع لاهوت القرون والوسطى ومجمل الفقه القديم المسيطر عليهم، على الرغم من كل الجهود التجديدية المشكورة التي يبذلونها[١]. يضاف إلى ذلك أنهم غير مؤهلين علمياً ومنهجياً للقيام بهذه العملية التحريرية الكبرى. هذه تبقى مهمة فلاسفة الحداثة أو مفكريها الكبار كأركون وسواه. ولهذا السبب فإن القرضاوي الذي استشهدنا به إيجابياً آنفاً، قد يتخذ موقفاً سلبياً جداً من الحريات وحركة التنوير العربي كما فعل بالنسبة إلى تونس، حيث أدان العلمانية فيها. نقول ذلك على الرغم من أن تونس ليست علمانية، ولكن فقط فيها بعض الانفتاح على أفكار الحداثة، وخاصة في ما يتعلق بالمرأة وقانون الأحوال

١ لذلك أقول منعاً لأي التباس: أرجو ألا يتوهم القراء الكرام أني أصبحت من جماعة القرضاوي وراشد الغنوشي بعد أن قلت ما قلته! فما إلى هذا قصدت. وأنا لم أحد عن فلسفة التنوير وعن التأويل الأركوني العقلاني والإنساني لرسالة الإسلام والقرآن. ولا أريد عنهما بديلاً. ولكن إذا وجدت شيئاً إيجابياً في المعسكر الآخر، شيئاً يمشي في اتجاهنا، فلماذا لا أشير إليه أو حتى أشيد به؟ قد يقول البعض إن هذه الخطوات التجديدية التي يقوم بها بعض الشيوخ ليست إلا تكتيكاً أو ذراً للرماد في العيون بغية إيهام الغرب بأنهم عقلاء مستنيرون يؤمنون بحقوق الإنسان ويختلفون كلياً عن التيار التكفيري المتطرف لبن لادن وعتاة السلفيين. ربما. الله وحده عليم بذات الصدور. ولكن حتى لو كان ذلك تكتيكاً فإنه مفيد، لأنه يثبت أن قيم الحداثة أصبحت تفرض نفسها حتى على الشيوخ التقليديين! من يصدق ذلك؟ ولكني فوجئت أخيراً بتصريحات الأستاذ الكبير محمد الطالبي بخصوص عودة الأستاذ راشد الغنوشي إلى تونس. فهو في رأيه لم يتغير إلا سطحياً أو ظاهرياً على عكس ما يقول. وهو سلفي، والسلفي لا يمكن أن يكون ديمقراطياً... نرجو ألا تكون أقوال أستاذنا محمد الطالبي صحيحة. نرجو أن يكون موقف الرئيس المنصف المرزوقي هو الصحيح. فقد راهن على التحالف مع الغنوشي لتحييد التطرف في الحركة الإسلامية أو لضرب المتطرفين بالمعتدلين. وعلى أي حال، فإن المسألة ستتوضح قريباً عندما يدخل الغنوشي وحركته إلى ساحة المعمعة السياسية: أقصد عندما ستحين لحظة التناوب على السلطة في الانتخابات القادمة إذا ما خسروها. هل سيقبلون بالتناوب أم لا؟ هل سيتشبثون بالسلطة إلى الأبد أم لا؟ عندئذ سنعرف ما إذا كانوا قد تغيروا وأصبحوا ديمقراطيين بالفعل، لا بالقول فقط، أم لا.

أياً يكن من أمر، فإن هذه الخطوات التجديدية الخجولة لكبار شيوخنا لا تكفينا ولا تحسم المشكل. والدليل على ذلك أن الشيخ القرضاوي هاجم تونس بعنف بحجة أنها علمانية متطرفة! وهذا غير صحيح على الإطلاق. فتونس ليست علمانية على الرغم من كل الخطوات الإصلاحية الجريئة التي اتخذها بورقيبة، وبخاصة في ما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية وتحرر المرأة. تونس لا تزال بلداً إسلامياً، بدليل أن الدستور ينص على أن دين الدولة هو الإسلام. نقول ذلك ونحن نعلم أنه لا يوجد شيء اسمه دين الدولة في النظام العلماني ولا حتى دين رئيس الدولة. فالدولة العلمانية هي دولة مدنية لا ثيوقراطية، كمعظم دول العرب والإسلام، إن لم يكن كلها، باستثناء تركيا. إنها دولة مدنية تعامل جميع مواطنيها على قدم المساواة بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم. هذه هي الدولة العلمانية. إنها تقف موقف الحياد بالقياس إلى جميع الأديان الموجودة على أرضها، بما فيها دين الأغلبية. ولذلك فإننا نقف بقوة ضد هجوم الدكتور القرضاوي بعنف على تركيا وتونس في كتابه العبوس: **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: نموذج تركيا وتونس**. من الواضح أن الشيخ الشهير لا يفهم معنى العلمانية ولا يدركه.

الشخصية. ولكن هذا يزعج الشيخ الشهير ولا يستطيع تحمله. وهو دليل على أن انفتاحه الديني محدود ومشروط جداً باللاهوت القديم والفتاوى القروسطية.

القرآن الكريم والانفتاح اللاهوتي على الآخرين

لو أنه فتحت كليات لتعليم تاريخ الأديان المقارنة في الجامعات العربية لفهمنا ذلك بسهولة. والقرآن الكريم يقرّ بالتعددية في العديد من آياته البينات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات. ١٣)،

أو: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة. ٤٨)،

أو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة. ٦٢).

هكذا تلاحظون أن القرآن الكريم يعترف بالتعددية العقائدية بشرط التقى والعمل الصالح. ثم إن الله هو وحده الذي يحكم على البشر يوم القيامة بالكفر أو بالإيمان، ولا يحق لمخلوق على وجه الأرض أن يفعل ذلك مكانه. وبالتالي، التكفير الذي يمارسه المتزمتون أمر مرفوض وناتج إما من الجهل وإما من التعصب الأعمى وإما من الاثنين معاً. كل الفتاوى التكفيرية باطلة ضمن هذا المنظور القرآني الواسع والحكيم. بمعنى: إن كل من آمن بالله وعمل صالحاً وفعل الخير لنفسه وللمجتمع فهو مؤمن أياً يكن دينه أو عقيدته أو مذهبه. هكذا تلاحظون أن هناك فهماً آخر ممكناً لرسالة القرآن والإسلام. وهو فهم مضاد للتأويل المتزمت الضيق الذي يهيمن علينا منذ عصور الانحطاط حتى اليوم.

وتلاحظون أيضاً أن ما يدعى بالثوابت يمكن أن يتغير ويتطور اللهم إلا إذا اعتبرنا أن الجهل والجمود والانغلاق من ثوابت الأمة! وهذا غير صحيح أو قل لا ينطبق إلا على

عصور الانحطاط. أما في العصر الذهبي المجيد فكان نور العلم هو من ثوابت الأمة. وتلاحظون أيضاً أني لم أستشهد بمفكري الحداثة العربية العلمانيين لتدعيم فكرتي بل بالشيوخ العقلاء فقط. كان يمكن أيضاً أن أستشهد هنا بالأستاذ جمال البنا الذي له مواقف أكثر جرأة في ما يخص قضية الحجاب والاختلاط والإيمان وسواها.

المسيحية الأوروبية والخروج من الانسداد اللاهوتي

والواقع أن علماء المسيحية في أوروبا خرجوا على لاهوتهم القديم المنغلق بعد الفاتيكان الثاني، فلماذا لا يخرج علماء الإسلام؟ ألم يعترفوا بالإسلام لأول مرة عام ١٩٦٥؟ ألم يقولوا إنهم يحترمون عقائد الإسلام والمسلمين؟ ألم يقولوا إن كل من آمن بالله خالق السماوات والأرض فهو ناج عند الله وداخل في سلامه وفي مقدمتهم: المسلمون؟

هل تعتقدون أنه كان سهلاً عليهم أن يقولوا هذا الكلام وينفتحوا كل هذا الانفتاح على العدو التاريخي؟ لقد نقضوا إحدى ثوابت العقيدة الكاثوليكية على مدار القرون: وهي تكفير المسلمين. وهذا يعني أن التطور والانفتاح ممكن حتى في الشؤون اللاهوتية الأكثر حساسية. لقد وضعوا بذلك حداً لتلك المقولة اللاهوتية الشهيرة التي حكمت الكنيسة مدة ألفي سنة تقريباً والتي تكفر كل الأديان الأخرى ما عدا المسيحية.

من المعلوم أن اللاهوت المسيحي كان ينص على ما يأتي: خارج الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المقدسة لا خلاص في الدار الآخرة ولا مرضاة عند الله. وهكذا استبعدوا من رحمة الله ليس فقط كل الأديان الأخرى غير المسيحية، بل أيضاً المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية، وبخاصة المذهب البروتستانتي الذي كفروه لعدة قرون.

كان ينبغي أن أتحدث عن كيفية فك الانسداد التاريخي داخل الإسلام نفسه بين المذاهب الكبرى: السنية والشيعية والإباضية. هنا أيضاً يوجد تكفير وتكفير مضاد، وينبغي الخروج من هذه الحالة التكفيرية القروسطية والتوصل إلى إيمان جديد واسع رحب يتسع صدره للجميع. ينبغي على مؤتمرات الحوار بين المذاهب الإسلامية أن تنجح مثلما نجحت الحركة المسكونية التي قربت بين المذاهب المسيحية في أوروبا وتجاوزت خلافاتها المزمنة وتكفيرها بعضها لبعض. وكل ذلك مؤشر على ضرورة بلورة لاهوت جديد في الإسلام يتجاوز

اللاهوت القديم المرتكز على حديث الفرقة الناجية وبقية الفرق في النار.

هكذا تلاحظون أن فك الانسداد التاريخي وانطلاق المارد من قمقمه أمر ممكن. ولتحقيق ذلك ينبغي تطبيق كل المناهج الحديثة على التراث الإسلامي كما فعل محمد أركون بكل تمكن واقتدار. وهنا نتخطى بالطبع منظور الشيوخ التقليديين المذكورين آنفاً لكي ندخل في منظور جديد يكمله ويتجاوزه في آن واحد: هو منظور الحداثة الفكرية والحرية الدينية الكاملة. ولكن كل ذلك سيأتي على مراحل وليس دفعة واحدة. وبالتالي الحل سيكون من الداخل لا من الخارج، وإلا فلن يكون مقنعاً للجماهير المؤمنة العريضة، ولا ناجعاً، ولن يرسخ في الأرض. نعم إن تجديد الفكر الإسلامي أمر ممكن. وقد أصبح ضرورة ملحة في وقتنا الراهن إذا ما أردنا الخروج من حالة الانسداد الخطيرة التي نعيشها والتي تهدد بالتفاقم، فالانفجار. بل هي منفجرة تماماً. وبالتالي فلنجيش كل طاقاتنا لتطبيق المناهج الألسنية والتاريخية والاجتماعية والأنتربولوجية المقارنة على تراثنا العربي الإسلامي العريق. فالتحرير الفكري لن يحصل قبل القيام بهذا العمل النقدي الكبير.

هل الانفجار هو الحل الوحيد لفك الانسداد التاريخي؟

أخيراً لا بد أن نقول كلمة عن انسداد ثالث لم أتحدث عنه حتى الآن، ألا وهو الناتج من الاستقطاب الثنائي الحاد بين الأنظمة البوليسية ومعارضاتها الأصولية. وقد سبب الاحتقان الشديد على مدار الثلاثين عاماً الماضية، الشيء الذي انتهى بالانفجار. وهو أمر كان متوقعاً، لأن حالة الانسداد تفاقمت جداً في الآونة الأخيرة و لم يعد هناك من حل آخر. فالضغط يولد الانفجار بحسب القانون الفيزيائي الذي ينطبق على البشر أيضاً. إنها أنظمة رابضة على قلوب الشعوب أبدياً من دون أن تستطيع تحقيق أي نوع من أنواع التحرير: لا الداخلي ولا الخارجي. لا فلسطين تحررت ولا الحريات الداخلية تحققت. وبالتالي فالأمور لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه إلى أبد الآبدين. عاجلاً أو آجلاً سوف يتم تكنيس هذه الأنظمة البوليسية بشكل أو بآخر، حتى ولو حل محلها الشيطان! وقد تأخر سقوطها في الواقع أكثر مما يجب. فقد كان متوقعاً أن تنهار بعد سقوط الاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية التي تدعمها. كنا نتأمل أن تهب علينا رياح الحرية التي هبت على شعوب أوروبا

الشرقية بعد سقوط جدار برلين منذ عام ١٩٨٩، فأخرجتها من نظام الحزب الواحد واللغة السياسية المتخشبة والمهترئة ودمقرطتها. ولكن من الأفضل أن يجيء الشيء متأخراً على ألا يجيء أبداً كما يقول المثل الفرنسي. أياً يكن من أمر، فإن الانفجار الثوري المبارك الذي حصل في كل من تونس ومصر يفتح نافذة على الأفق ويفك الانسداد التاريخي بالقوة بعد دفع ضريبة الدم. كل ما نتأمله هو أن تنجح القوى الأصولية في عملية إصلاحها الداخلي كما فعلت في تركيا على يد أردوغان ورفاقه. وعندئذ لا تعود هناك مشكلة عويصة تحول دون تعاون كلا جناحي الأمة، الإسلامي والعلماني، لإنقاذ الوضع. لا ريب في أن المشاكل ستظل مطروحة، ولن تحل بين عشية وضحاها. ولكن على الأقل يمكن أن ندخل في دروب التعددية السياسية والتناوب السلمي على السلطة بعد طول جمود واختناق. إني أعرف أني أستبق الأمور كثيراً وأتفاءل أكثر مما يجب، ولكن لا بد من الانخراط في هذا الاتجاه بشكل أو بآخر. فنظرية الاستعصاء الإسلامي أو العربي على الديمقراطية والشفافية سقطت بفضل التجربة التركية. وإذا ما نجحت التجربة التونسية والمصرية الجارية حالياً وعرفت كيف تستفيد من التجربة التركية، فإن ذلك سيؤدي إلى تعميمها على كل العرب. هذا هو الممكن اليوم. أما المستحيل فلن يتحقق قبل عشرين أو ثلاثين سنة. وذلك باعتبار أن مستحيل اليوم هو الممكن غداً. ونقصد به الحرية الكاملة والديمقراطية الكاملة والمساواة الكاملة لجميع المواطنين في ظل دولة القانون والمؤسسات. وبالتالي فنحن نسير في أحسن الأحوال نحو النموذج التركي: أي النموذج الإسلامي الوسطي المستنير نسبياً. أما التنوير الكامل فلا تستطيع مجتمعاتنا أن تتحمله اليوم. ينبغي أن ننتظر لكي تنضج الظروف ويصبح مستحيل اليوم هو ممكن الغد.

هل الغرب مسؤول عن الانسداد التاريخي للعرب؟

بقيت كلمة أخيرة عن الغرب المتغطرس ودوره في تفاقم الانسداد التاريخي للعرب. إضافة إلى قضية فلسطين التي يرفض حلها بسبب تأييده المطلق للباطل الصهيوني وخيانته[١] لكل

---

١ حول خيانة الغرب للتنوير انظر ما يقوله المفكر الفرنسي جان كلود غيبو في كتابه الشهير الذي يحمل العنوان نفسه:
= Jean- Claude Guillebaud: *La Trahison des Lumieres*. Seuil. Paris. 1995

المبادئ التنويرية والإنسانية هنا، فإن الغرب لعب دوراً خطيراً عندما دعم أنظمة الاستبداد في العالم العربي ولا يزال. وبرر ذلك بأنه يريد تحاشي الأنظمة الأصولية على الطريقة الإيرانية. هذه الحجة ظلت معقولة وتملك بعض المبررات حتى اندلاع الثورتين التونسية والمصرية. هاتان الثورتان المباركتان وضعتا حداً لهذه الأطروحة التي سيطرت على مثقفي الغرب وقادته طيلة الثلاثين عاماً الماضية. بعد الآن لا يوجد خوف من اندلاع ثورة أصولية في العالم العربي. بل ويمكن القول إننا دخلنا في مرحلة ما بعد الأصولية. صحيح أن الأصولية كفكر قروسطي راسخ لم تنتهِ ولن تنتهي قبل وقت طويل، ولكنها انتهت كموجة هادرة تكتسح في طريقها كل شيء. فشعار "الإسلام هو الحل" لم يعد مقنعاً إلا لشرائح محدودة في مجتمعاتنا بعد التجربة الإيرانية والسودانية والطالبانية المخيفة. وهنا تكمن فائدة هذه التجارب السلبية المكلفة جداً. فلولاها لما سقط ذلك الوهم اللاهوتي الكبير الجبار الذي يسيطر على عقول الملايين، والقائل بأن تطبيق الشريعة والنظام الأصولي القروسطي سوف يحل كل مشاكلنا بضربة عصا سحرية. إذن الحل الأصولي انكشفت آفاقه ومحدودياته بعد أن مررنا به وجربناه وذقنا طعمه المر. انظر كيف تحاول القوى الديمقراطية في إيران أن تتخلص منه بأي شكل. حتى الإخوان المسلمون أو قسم منهم على الأقل تخلوا عن وهم الدولة الدينية الثيوقراطية وأصبحوا يتحدثون عن الدولة المدنية الدستورية الحديثة، دولة القانون والمؤسسات. وأصلاً لولا تصريحاتهم الطائفية السابقة وفتاواهم التكفيرية التي

= في آخر تصريحاته يقول هذا المفكر المحترم ما معناه:

لقد هيمن الغرب على العالم طيلة أربعة قرون: أي منذ عصر النهضة حتى اليوم. وقد زعم في البداية أنه ينقل الإنجيل إلى بقية العالم، ولكنه في الوقت ذاته كان يرتكب المجازر بحقهم ويستأصلهم كما حصل بالنسبة إلى الهنود الحمر وسواهم. فهل هذا ما تقوله رسالة الإنجيل المبنية على المحبة والسلام الذي يصل إلى حد الاستسلام؟ من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر... ثم زعم بعدئذ بأنه ينقل التنوير والحضارة إلى بقية العالم أيضاً، إذا به يستعمرهم ويرتكب المجازر بحقهم كما هو معروف فهل هذا متوافق مع مبادئ التنوير التي نص عليها فلاسفة إنسانيون كبار من أمثال مونتسكيو وجان جاك روسو وإيمانويل كانط؟ فرنسا وحدها قامت بمجزرة في مدغشقر عام ١٩٤٨ راح ضحيتها عشرون ألف شخص. زعمنا أننا سنخرج الشعوب المتخلفة من ظلمات الجهل والتعصب الديني، إذا بنا نمارس التعذيب الجسدي الوحشي في الجزائر... فهل التعذيب حضارة وتنوير أم همجية وبربرية؟ لهذا السبب فقدنا مصداقيتنا أمام العالم ولم يعد يصدقنا أحد، لأننا نستخدم لغة مزدوجة أو قل لأننا نقول شيئاً ونفعل عكسه تماماً. على هذا النحو فقد التنوير الأوروبي مصداقيته وجاذبيته التي لا تقاوم.

انتهى كلام جان كلود غيبو

كلام رائع ولا زائد لمستزيد...

تخلع المشروعية على الاغتيالات الإجرامية والتفجيرات العشوائية لما طال عمر الأنظمة البوليسية إلى مثل هذا الحد. نستخلص من ذلك أنه لم يعد هناك أي مبرر للغرب في دعم أنظمة توتاليتارية تخنق الحريات على كافة الأصعدة والمستويات كما فعل طيلة ثلاثين سنة بحجة مكافحة الأصولية. وهذا يعني أن الأنظمة البوليسية المتبقية ينبغي أن تتساقط الواحد بعد الآخر بعد سقوط بن علي ومبارك. لم يعد هناك أي مبرر لوجودها أو استمراريتها رابضة على قلوب الشعوب. هذا هو منطق التاريخ. وإذن فالمسألة مسألة وقت ليس إلا.

نعم إن الانسداد التاريخي الحاصل طيلة الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ناتج من الخطر الأصولي الذي عرفت الأنظمة القائمة كيف تستخدمه كبعبع لإقناع الغرب بدعمها وإطالة عمرها. وبالفعل، فإن التصريحات العنترية، الطائفية، التكفيرية ، المرعبة للإخوان الأصوليين، أعطت لكلامها مصداقية وآذاناً صاغية في الغرب الأوروبي - الأميركي الذي يتحكم في مصير المنطقة والعالم. وكان للغرب عذره في عرقلة وصولها إلى السلطة حتى بعد أن ربحت الانتخابات في الجزائر مثلاً. ولكن هذه الحيلة انكشفت الآن بعد أن تخلى الأصوليون عن خطهم التكفيري القروسطي الظلامي وتبنوا لغة جديدة مطمئنة أو على الأقل غير مفزعة كما في السابق. وعندئذ اكتشفنا أن الانسداد التاريخي اللاهوتي يمكن أن ينفرج إذا ما تخلينا عن التفسير الحرفي السلفي الإرهابي للنصوص الدينية وتبنّينا تأويلاً آخر لرسالة الإسلام والقرآن. وهذا التأويل الآخر المنفتح الذي بلوره الترابي قبل القرضاوي والغنوشي هو الذي سيفقد الأنظمة البوليسية مصداقيتها وسيعجل إطاحتها. لقد انتهت الفزاعة الأصولية! أين هي الأصولية في ثورة الياسمين المباركة أو في الزلزال المصري العظيم؟

هكذا نلاحظ أن الانسداد التاريخي للوضع العربي ناتج من عدة عوامل لا عامل واحد. إنه معقد ومتفاقم ومحتقن إلى أقصى الحدود بسبب تشابك هذه العوامل المختلفة بالذات. من هنا الطابع الانفجاري للوضع العربي برمته. فما بعد الانسداد إلا الانفجار. لكن لنعد ولو للحظة إلى خيانة الغرب للتنوير الذي يزعم أنه يحكم باسمه ومن خلال قيمه. كيف برر هذه الخيانة عندما تعامل مع الأنظمة الاستبدادية بل وحماها من الانهيار؟ يقول التونسي بشير بن يحمد رئيس تحرير مجلة جون أفريك الصادرة في باريس، والواسع الاطلاع، ما يأتي: إن الدعم المكيافيلي الوقح الذي تحظى به الأنظمة العربية البوليسية الفاسدة من قبل

قادة الديمقراطيات الغربية الكبرى له بواعث دقيقة محددة تماماً وليس عبثياً ولا عشوائياً. وفي إحدى المرات سألت أحد قادة هذه الدول الكبرى عن السر في دعم أنظمة من هذا النوع فرد علي قائلاً:

لقد فكرنا في الأمر طويلاً وقلبناه من كافة جوانبه وتوصلنا إلى النتيجة الآتية:

لقد اضطرتنا الظروف إلى دعم أنظمتكم الديكتاتورية وحكامها، وتوثيق علاقاتنا معهم، ودغدغة أناهم المتضخمة، وغض الطرف عن فظائعهم وحقاراتهم، لأنهم يؤمّنون لنا المصالح الآتية:

أولاً: الانضمام العام المؤكد إلى السياسة الخارجية للغرب في مجملها وبخطوطها العريضة.

ثانياً: لأن هذه الأنظمة تؤمّن السلام بين الدول العربية وإسرائيل الغالية علينا جداً.

ثالثاً: مساهمة هذه الأنظمة العلنية أو السرية معنا في محاربة الإرهاب. فقد وظفت أجهزة مخابراتها لمساعدتنا على محاربة الأصولية الراديكالية بما فيها إيران.

رابعاً: إن هذه الأنظمة تؤمن لنا التوصل إلى مصادرها البترولية.

لهذه الأسباب كلها دعمناها ومنعنا الحركات الأصولية من قلبها والحلول محلها (مجلة جون أفريك. الافتتاحية. عدد ١١ فبراير. ٢٠١١).

الفصل الرابع

المثقف العربي والمشكلة الطائفية

تساؤلات أولى

لطالما طرحت على نفسي هذا السؤال: لماذا لا نستطيع حتى الآن تشخيص المشكلة الطائفية بشكل صحيح تمهيداً لحلها يوماً ما؟ ومعلوم أن التشخيص الصحيح لأي مشكلة هو نصف الطريق نحو العلاج. وأما التشخيص الخاطئ فقد يقتل المريض، أي نحن بالذات. أقصد بالتشخيص الخاطئ الأيديولوجيا العربية الرثة والهشة، إن لم أقل الكاذبة والديماغوجية بمعظم تياراتها. وهي تتحاشى دائماً طرح المسألة الأساسية وإذا طرحتها فإنها تكتفي بدغدغة المشاعر الشعبوية السائدة في الشارع وتكريس المواقع المحافظة واليمينية، أو قد تتخذ مواقف يسارية سطحية هشة، قافزة على الحقائق التراثية الضخمة متوهمة بذلك أنها حلت الموضوع. وهي في الواقع لم تتجرأ حتى على مواجهته! وقد تكرر إلحاح هذا السؤال علي بعد كل ما حصل في المنطقة العربية منذ الثمانينات حتى اليوم: أي بعد اندلاع الموجة الأصولية الإخوانية - الخمينية التي اكتسحت الشارع، بل وحتى الكثير من المثقفين، ويا لدهشتنا الكبرى إن لم أقل فجيعتنا الكبرى. ولكن في الوقت ذاته لا يمكن أن نسكت عن أولئك المثقفين الذين يدعون الحداثة والعلمانية، وهم في الواقع انتهازيون تابعون للأنظمة الاستبدادية التي ثارت عليها انتفاضات الربيع العربي وبحق. وبالتالي، فالإدانة تشمل المثقف الذي ركب الموجة الأصولية، والمثقف الذي ركب الموجة المضادة على حد سواء.

لندخل في التفاصيل قليلاً. نحن الآن أمام نوعين من الإسلام: معتدل ومتطرف. هناك إسلام معتدل على طريقة شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب مثلاً مقارنة له بإسلام محمد مهدي عاكف المعارض المتشدد أو حتى الشيخ يوسف القرضاوي وكل تياره. قد يحتج البعض قائلاً إن الشيخ القرضاوي هو أيضاً وسطي معتدل. لا ريب في أن هناك فرقاً بين الشيخ يوسف القرضاوي والدكتور أيمن الظواهري! ولكن ظاهرياً فقط ومن حيث الدرجة لا النوعية. أقصد من حيث حدة اللهجة ودرجة العنف اللاهوتي. فالأول معتدل لا يطالب بتفجير مخازن الغرب ومطاراته وبناياته إلخ... بل إنه يدين ذلك، ويشكر على هذا التعقل وعدم التهور. والثاني متطرف يطالب بذلك علناً. ولكن هناك قواسم عقائدية مشتركة بينهما. فقد دعم كلاهما تفجيرات الزرقاوي التي ذهبت بالآلاف المؤلفة من الضحايا البريئة من فقراء العراق وأناسه البسطاء. وحتى الآن، لا يقول الشيخ القرضاوي كلمة واحدة ضد التفجيرات الدموية الإجرامية التي تنفذها "القاعدة" شهرياً وأحياناً يومياً وأسبوعياً في بلاد الرافدين أو في أماكن أخرى. والجمهور المسلم الطيب البسيط ينقسم بين هذا وذاك. وبالتالي، فاعتدال الدكتور القرضاوي له حدود. الشيء نفسه يمكن أن نقوله عن الجهة الشيعية. فهناك أيضاً رسميون معتدلون وهناك متطرفون خارجون على كل شرعية ويريدون تغيير العالم بالقوة. انظر الفرق بين الشيخ علي السيستاني مثلاً أو محمد حسين فضل الله من جهة، ومتطرفي الشيعة من جهة أخرى.

السؤال المطروح على الإسلام المعتدل والمتطرف في كلتا الجهتين هو الآتي: متى سيحصل إصلاح ديني حقيقي في أرض الإسلام، إصلاح قادر على أن يخرجنا من كل هذا التعصب والانغلاق القروسطي؟ متى سيحصل تنوير إسلامي مثلما حصل تنوير مسيحي في الدول الأوروبية أو الغربية المتطورة؟ هذا السؤال ما عدنا بقادرين على تحاشيه بعد كل ما حصل ويحصل. وبناءً على الإجابة عنه يتوقف مصيرنا وتحسم مسألة الطائفية والمذهبية في المشرق العربي على وجه الخصوص (التناقض الأساسي في المغرب الكبير هو عرقي لغوي، أي عربي/أمازيغي، من دون أن يعني انعدام التناقض المذهبي بين الأقلية الإباضية والأكثرية السنية المالكية. انظر ما حدث في الجزائر أخيراً من اضطرابات حيث تعاني الأقلية الإباضية من التمييز مرتين: مرة أولى لأنها أقلية على المستوى العرقي بسبب أمازيغيتها، ومرة ثانية لأنها أقلية على المستوى المذهبي بسبب إباضيتها. أما في المشرق، فالأمور تبدو أكثر تعقيداً

في الواقع. فإضافة إلى الانقسام العرقي اللغوي الكبير بين العرب/والأكراد هناك الانقسام الطائفي الكبير بين المسلمين/والمسيحيين ثم المذهبي الكبير بين السنة/والشيعة. هذا من دون أن ننسى الأرمن والآشوريين إلخ... وبالتالي فالشرق ذو فسيفساء مذهبية وعرقية أكثر تعقيداً. وكان يمكن ذلك أن يكون مصدر غنى وتنوع ونعمة لمنطقتنا، ولكنه انقلب في عصر الجهالات والانغلاقات المتعصبة إلى نقمة).

لكن لنعد إلى مسألة الإصلاح الديني التي يتوقف على نجاحها انبثاق المفهوم الجديد للمواطنية: أي المفهوم القادر على استيعاب الجميع والمساواة في ما بينهم أمام مؤسسات الدولة بعد قرون وقرون من التمييز والإجحاف. أولاً ينبغي لمفهوم الإسلام الوسطي المعتدل ألا يغيّب عن أذهاننا الحقيقة الآتية: وهي أن العالم الإسلامي مريض بالجمود التاريخي كما يقول عبد الوهاب المؤدب، وأن هذا المرض أصبح حقيقة واقعة، بل وهمّاً لنا وشغلاً شاغلاً للعالم أجمع. وكما قلت في أطروحتي عن الانسداد التاريخي: إما أن يتطور الفقه الإسلامي لكي يصبح متطابقاً مع حقوق الإنسان والقوانين الحديثة، وإما أن يعلن الحرب التكفيرية على العالم أجمع كما هو حاصل اليوم. إما أن يتخلى العالم العربي عما يتوهم أنه ثوابت "فوق بشرية" ويعتنق الحداثة الفكرية والسياسية، وإما أن يكفّر هذه الحداثة ويعلن عليها الحرب الشعواء كما فعلت الخمينية والبن – لادنية وقبلهما الوهابية. ولكن التجربة التركية تفتح لنا خطاً ثالثا وتعطينا بصيص الأمل. فإخوان تركيا انفتحوا على الحداثة بجدية، وما عادوا يطالبون بتطبيق الشريعة والحدود المرعبة. نقول ذلك على الرغم من تخوفنا وتخوف التيار العلماني التركي من تزمت بعض عناصرهم وأجنحتهم. ولكن على الرغم من ذلك، فإنهم يبذلون الجهود للسير في طريق التطور والتخلي عن الشريعة وتحديث القوانين، حتى ولو كان ذلك ضد رغبتهم العميقة، بإلحاح وضغط من الاتحاد الأوروبي. وعسى أن يقلدهم إخوان سوريا وغير سوريا ويمشوا في خط التنور والاجتهاد والاستنارة الفكرية. نأمل ذلك. وبالتالي هناك إسلام واحد ولكن بتفسيرين مختلفين له: الأول ارتكاسي ماضوي سلفي رجعي يكفّر شرائح واسعة من المجتمعات العربية ويسبب الحروب الأهلية، إضافة إلى ذلك فإنه لم يعد يليق بهذا العصر، بل أصبح عالة علينا أمام بقية الأمم والشعوب المتحضرة ليس فقط في الغرب بل في الشرق أيضاً. أقول ذلك وأنا أقصد أمماً كبرى صاعدة سوف يكون لها وزنها قريباً كالصين والهند. فهؤلاء أيضاً أصبحوا يشمئزون من كلمة إسلام

ويعتبرونها مرادفة للعنف والإرهاب. والثاني عقلاني مستنير يحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن المذهبية والطائفية الضيقة والنزعات التكفيرية المسبقة، وله المستقبل في رأيي. وهو يعتبر امتداداً لإسلام العصر الذهبي، إسلام المعتزلة والفلاسفة وكبار المتصوفة الروحانيين كابن عربي وسواه. ولكن المشكلة هي أنه لا يزال أقلية بالقياس إلى التيار الآخر الطاغي الذي يكتسح الشارع. مهما يكن من أمر، فإننا نعلم أن هذه العملية، أقصد عملية الإصلاح الديني والتنوير، لا يمكن أن تتم بين عشية وضحاها. وتجربة فرنسا وبقية الشعوب الأوروبية المتقدمة أكبر دليل على ذلك. هذه صيرورة عسيرة تحصل تدريجاً وعلى مراحل، ونعتقد أنها ستتحقق خلال الأربعين أو الخمسين سنة القادمة، وربما تأخرت حتى نهاية الألفية الثالثة. وعلى أي حال، فإن هذا القرن هو قرن الإسلام: بمعنى أنه القرن الذي ستُحل فيه مشكلة الإسلام. فالإسلام إما أنه سيصبح روحانياً متصالحاً مع الحداثة ويتخلى عن نزعته الاستبدادية الشمولية التوتاليتارية على طريقة الإخوان المسلمين والقاعدة، وإما أنه سيُهمّش كلياً من قبل الحضارة العالمية. أياً يكن من أمر، فإن الأصولية الحالية، سواء أكانت خمينية أم إخوانية، هي علامة على المرض الذي ينخر في أحشائنا منذ قرون وقرون. حاكمية المودودي وسيد قطب كما ولاية الفقيه للخميني، ما هما إلا العدو اللدود للحداثة الفكرية والسياسية: أي لفلسفة التنوير وسيادة الشعب والديمقراطية الحقيقية والتسامح الديني أو حتى الحرية الدينية الكاملة وحقوق الإنسان. بمعنى آخر، فإن الحاكمية السنية كما ولاية الفقيه الشيعية ما هما إلا معادل حرفي لنظرية الحق الإلهي المطلق لملوك فرنسا المستبدين الممثلين لظل الله على الأرض، والتي أطاحها فلاسفة التنوير والثورة الفرنسية الكبرى. وبالتالي، لا يوجد هنا فرق بين أكثرية وأقلية: الجميع مصابون بالجمود التاريخي والمرض الطائفي. جميع الفرق الإسلامية من سنية وشيعية وإباضية تعاني من الانغلاق أو الانسداد التاريخي كما برهن على ذلك أركون. كلنا في الهوا سوا... وهنا أصل إلى النقطة الثانية والمزعجة فعلاً من النقاش.

لكن قبل أن أدخل فيها أحب أن أقول شيئاً مهماً منعاً لكل التباس. فالبعض أصبح يعتقد بأني ضد الدين في المطلق، أو أني أريد "القضاء على الإسلام" من كثرة نقدي للأصولية والأصوليين ومحاكم التفتيش! (انظر أحد المواقع السلفية على الإنترنت باسم: الألوكة المجلس العلمي). يحصل ذلك كما لو أني قادر على ذلك أو لكأني أريده! يحصل ذلك

كما لو أني نزلت من المريخ ولست ابن هذا التراث! ينبغي أن يعلم الجميع بأني أنا أيضاً أنتمي إلى تراث الإسلام قلباً وقالباً، وبخاصة في جانبه الروحي والأخلاقي والميتافيزيقي. وأنا أيضاً أعتبره جزءاً لا يتجزأ من الهوية الوطنية للسوريين والعرب أجمعين. ولكن أضيف إليه أيضاً المسيحية العربية والمحبة الإنجيلية. فهي أيضاً جزء لا يتجزأ من تراثنا الروحي وهويتنا التاريخية. ولا أعتقد أن التنويريين السوريين أو العرب يخالفونني الرأي في ذلك.

اعترافات شخصية

أياً يكن من أمر، فإنه يحصل لي أحياناً أن أفتح التلفزيون وأستمع إلى الدروس الدينية لهذا الشيخ أو ذاك، وأستمتع بها. من يصدق ذلك؟ مثلاً، بالأمس القريب، وقبل أن يخرب جهاز التلفزيون عندي غير مأسوف عليه، فتحت صدفة على الفضائية السورية، فوقعت فجأة على درس ديني للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في الجامع الأموي الكبير بدمشق. واعتقدت في البداية أني لن أصبر عليه أكثر من خمس دقائق، فإذا بي أستمع إليه حتى النهاية وبإعجاب. وفي بعض اللحظات خيّل إلي وكأني أستمع إلى والدي وهو يلقي علينا مواعظه الدينية. أقول ذلك وبخاصة أن هناك شبهاً شكلياً بين الرجلين أو هكذا خيل إلي. وأحياناً أستمع إلى الشيخ القرضاوي على قناة الجزيرة طويلاً على الرغم من كل انتقاداتي له. ويحصل لي أن أشاهد برامج دينية أخرى من أجل التسلية أحياناً أو من أجل المقارنة بين الرؤية التبجيلية للدين والرؤية التاريخية الفلسفية التي دربنا عليها أركون... كل شيوخ الإسلام على اختلاف مذاهبهم يرددون الشيء نفسه في نهاية المطاف: آيات قرآنية، أحاديث نبوية، مواعظ أخلاقية. ومن هذه الناحية أحب أن أقول للجميع إني لا أعتبر نفسي أقلية، بل مندمجاً شعورياً وروحانياً مع الأكثرية. في حياتي لم أشعر بأني غريب عن هذا التراث أو أنه غريب عني. فمثلاً عندما أزور بلدان المغرب العربي وأستيقظ على صوت المؤذن صباحاً أستمتع به، وأشعر كأني قد عدت إلى أصلي وجذوري بعد طول غياب. وعندما أشتغل على التراث العربي الإسلامي ترجمة أو كتابة، أشعر وكأني لم أبارح طفولتي وتربيتي القرآنية المبكرة. وفي الوقت ذاته أشعر وكأني مسؤول عنه كله، بما فيه الجانب السني وبخاصة الجانب السني، لأنه الأضخم والأهم. وبالتالي، فأنا عندما أترجم

أركون مثلاً أو أشتغل على التنوير، فإني أعتبر نفسي مسؤولاً عن التراث الإسلامي كله وليس فقط الشيعي أو العلوي كما قد يتوهم بعضهم. لا ريب في أني أنطلق من جذوري الأولى بشكل واع أو لاواع كجميع الناس، ولكني وسعت الإشكالية لكي تشمل الجميع بسبب اشتغالي علّى فكر أركون طيلة ثلاثين سنة متواصلة. وهو فكر علمي، قوي، معقد، مرن إلى أقصى الحدود. وقد دفعني ذلك لأن أعاني تلك التجربة الشهيرة والصعبة التي يدعوها العلماء: باشتغال الذات على ذاتها أو حتى قهر الذات لذاتها أو انتصار الذات على ذاتها من خلال معاركة ذاتها. وكل معرفة لا تؤدي إلى ذلك لا تساوي نصف ساعة عناء. المعرفة إذا لم تغيرك من الداخل، إذا لم تصهرك صهراً، وتحولك كيميائياً وعملياً، حتى لكأنك أصبحت شخصاً آخر، ليست معرفة ولا قيمة لها.

وبالتالي، فأنا أعتبر نفسي سنياً وشيعياً وإباضياً ومعتزلياً وصوفياً وعلوياً وإسماعيلياً ودرزياً فاطمياً وكل شيء. كل تراث الإسلام تراثي لا أستثني منه شيئاً. وهذا ما يدعوه أركون بالتراث الإسلامي الكلي. ومعلوم أن أركون يدعو إلى توحيد الوعي الإسلامي كله في ما وراء الفتنة الكبرى والانقسامات التاريخية التي لا تزال تمزقنا حتى الآن بل وتهدد وحدتنا الوطنية. ولذلك فإنه يدعونا للخروج – أخيراً!– من منظور القرون الوسطى والدخول في منظور العصور الحديثة. ومعلوم أن كتب الملل والنحل التكفيرية قديماً وحديثاً رسخت آنذاك، ولمدة ألف سنة، أي حتى اليوم، مفهوم الفرقة الناجية الذي يكفر جميع الفرق الإسلامية ما عدا أهل السنة والجماعة الموعودة وحدها بالنجاة في الدار الآخرة. أما بالنسبة إلى العالم الإيراني الشيعي فإن الفرقة الناجية في الإسلام هي وحدها المذهب الشيعي الاثني عشري. أركون يدعو إلى تفكيك هذا المنظور القروسطي القديم وتبني منظور آخر يضع جميع الفرق الإسلامية على قدم المساواة من دون أي تمييز مسبق. بمعنى آخر، فإنه يدعو إلى عكس المنظور السابق أو قلبه. من هنا الطابع الراديكالي والتحريري لفكر أركون (انظر كتابه: **نقد العقل الإسلامي** الذي صدر عن دار الطليعة في بيروت عام ٢٠٠٩). ينبغي العلم بأنه حصل في المسيحية الشيء نفسه. فالانقسامات المذهبية مزقتها أيضاً. وظلت الكنيسة الكاثوليكية التي هي الأكثر عدداً وعدة مصرة حتى أمد قريب على أن المذهب الكاثوليكي هو وحده الذي يمثل الفرقة الناجية في المسيحية بعكس المذهبين الآخرين الأرثوذكسي والبروتستانتي. ظلت تردد على مدار القرون هذه العبارة الشهيرة:

خارج المذهب الكاثوليكي البابوي الروماني المقدس لا نجاة في الدار الآخرة ولا مرضاة عند الله. وهو نفس موقف كتب الملل والنحل والبدع في الإسلام. بل ولا يزال البابا الحالي مصراً على هذا الموقف الأصولي على الرغم من علمه وسعة اطلاعه على الفكر الفلسفي. لهذا السبب دعوت سابقاً إلى تأسيس علم الأصوليات المقارنة للكشف عن كل هذه الآليات التي تتحكم في العقلية الأصولية الانغلاقية القائمة على رفض الاختلاف رفضاً قاطعاً ثم على نبذ الآخر واستبعاده من رحمة الله. فكل واحد منغلق داخل دينه أو مذهبه أو طائفته ويعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يمتلك الحقيقة الإلهية المطلقة وأنه في الجنة وكل الآخرين في النار! وبالتالي فظاهرة الإقصاء والتكفير واللعنات اللاهوتية موجودة في كل الأديان.

لكن لأعد إلى الوراء قليلاً من أجل توضيح مواقفي أو منطلقاتي الأولى. أتذكر أنه عندما كنت في ثانوية مدينة "جبلة" السورية الساحلية الصغيرة، فإني كنت أحب دروس الديانة كثيراً، وبخاصة لدى الشيخ محمد أديب قسام. ولا أبالغ إذا قلت بأنه كان يحبني مثل طلبة المدينة وربما أكثر على الرغم من أنهم سنّة مثله، وذلك لأني كنت فصيحاً في العربية وحافظاً لآي القرآن. وكان، وهو الأزهري العريق، حساساً جداً لهذه الناحية. أقول ذلك وكأني أراه أمام عيني الآن، رحمه الله، وهو يتمشى على المنصة ويشرح لنا بكل براعة الحديث الآتي: دخلت النار امرأة في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض...

حديث جميل ،عظيم، مليء بالمعاني الإنسانية. حديث يدل على أن الإسلام يرفق حتى بالحيوان فما بالك بالإنسان؟ ما كنا نمل من درس الدين آنذاك... كنا نشعر بأننا نعيش لحظة استثنائية حقيقية، أو هكذا كان شعوري على الأقل، أنا الذي لا ينفك يتحدث عن التنوير والفلسفة التنويرية! ولكن لا يوجد تناقض في العمق إذا ما أخذنا الدين بجوهره لا بقشوره. جان جاك روسو كان مؤمناً حقيقياً، وكذلك كانط:

التنوير ليس كله إلحادياً!

وأخيراً أنا لست ضد رجال الدين في المطلق بشرط أن يتركونا نشرب عرقاً وويسكي ونسمع الجاز والموسيقى الكلاسيكية ونغازل الآنسات والسيدات وبقية الحريات... هكذا تلاحظون أن إيماني مخفّف إلى درجة أنه يكاد يتبخر في الهواء... ولكن المشكلة تكمن في التزمت المخيف والنزعة الطقوسية الشكلانية المرهقة والردع والزجر والمحظورات

والممنوعات التي لا نهاية لها... التدين السائد في عصور الانحطاط يخنقك خنقاً. وهذه أشياء كنت أعاني منها في بيتي مع والدي قبل أن أعاني منها في المجتمع بسبب الأصوليين ورقابتهم القمعية عليه. ومن هذه الناحية، لا يوجد أي فرق بين الأصولية العلوية الشيعية التي تربيت عليها في طفولتي والأصولية السنية أو أي أصولية أخرى. يضاف إلى كل ذلك شيء مخيف انتشر كثيراً في الآونة الأخيرة بعد انتصار الخميني وحرب أفغانستان ضد السوفيات وصعود الحركات الإخوانية والسلفية هو: تسييس الدين بشكل زائد عن الحد وتفريغه من معانيه الروحية واستخدامه كأداة فعالة وفتاكة للتفرقة المذهبية والطائفية بين المواطنين. معظم الاغتيالات والمجازر جرت على أساس الفتاوى اللاهوتية لشيوخ القرون الوسطى الظلامية. ولذا أقول إن التنظيمات الأصولية سواء أكانت سنية أم شيعية تتحمل مسؤولية رهيبة بهذا الخصوص. ولكن هذا لا ينفي بالطبع مسؤولية السلطات والأنظمة القائمة على الإطلاق. فالطائفية استخدمت كأداة فعالة وهدامة للوحدة الوطنية من قبل كلا الطرفين: أو قل من قبل المتطرفين من كلا الطرفين لكي نكون أكثر دقة. والجميع غرق في المستنقع بكل تهور وقصر نظر من دون أن يدرك أن البلاد قد تدفع الثمن غالياً وأن الخارج الذي يتربص بها قد يستغل ذلك في اللحظة المناسبة. فمن يلعب بالنار تحترق أصابعه بها، وربما ما هو أكثر من أصابعه...

لكن لنعمق التساؤلات أكثر...

غياب القراءة التنويرية للتراث

هل كانت هذه الحركات الأصولية المتخلفة ستسيطر على الشارع لو أنه كان يوجد في الساحة العربية فكر جديد وقوي ومسؤول عن الإسلام الحنيف وتراثه الطويل العريض؟ هناك فراغ كبير في الساحة وقد عرف مثقفو الأصولية كيف يملأونه. لا توجد أي قراءة تنويرية ذات مصداقية للتراث: أقصد قراءة قادرة على أن تتصدى لقراءة السلفيين والتقليديين عموماً. والتغيير يبتدئ من هنا: قراءة تنويرية مقابل قراءة إخوانية سلفية، فكر مستقبلي مقابل فكر ماضوي، حجة جديدة مقابل حجة قديمة، إلخ. هذا ما فهمته من خلال ترجمة أركون والتعليق عليه لمدة ثلاثين سنة متواصلة. فهذا المفكر التحريري الكبير

يعالج التراث من الداخل لا من الخارج. إنه لا يقول لك بكل خفة وطيش: أنا ملحد، ماركسي، لينيني، متحرر من التراث سلفاً! أنا أقفز عليه قفزاً! أصلاً الذين يقولون ذلك معظمهم سقط في حبائل الأصولية ما إن تحولت إلى موجة طاغية. وهذا أكبر دليل على أن التحرر لا يكون إلا من الداخل ومن خلال المعاناة ودفع الثمن. هذه العملية الهائلة المتمثلة في مجابهة التراث حرفاً حرفاً، ونصاً نصاً، وفاصلة فاصلة، ونقطة نقطة، هي التي تؤدي إلى التحرير الحقيقي في نهاية المطاف. وهو ما قام به أركون بكل تمكن واقتدار. ولكنّ المثقفين العرب أو بعضهم يزعمون أن ذلك غير ضروري، وأن التراث لا يمثل مشكلة، وأننا نخلق مشكلة مفتعلة هنا، وأن الإسلام غير المسيحية ولا يعرف التعصب ومحاكم التفتيش إلخ. كيف يمكن أن يحصل التغيير في مثل هذا الجو؟ كيف يمكن أن ينبثق مفهوم المواطنية بالمعنى الحديث للكلمة إذا كان قسم من المجتمع يكفّر قسمه الآخر ويشكل عنه صورة مرعبة مليئة بالأحكام السلبية المسبقة؟ كيف يمكن بناء الحداثة على تراكمات الماضي مع تركها كما هي ورفض معاركتها أو مساءلتها فضلاً عن تفكيكها (بالمعنى العلمي الحديث للكلمة)؟ هيغل يقول لنا إنه لا يمكن تجاوز أي شيء إلا بعد مناطحته ومعاناته والمرور فيه، وأكاد أقول الاحتراق فيه! لا يمكن أن تتجاوز التراث إلا من خلال التراث. لا يمكن أن تتجاوز الطائفية إلا من خلال تفكيك الفكر الديني الذي يخلع عليها المشروعية الإلهية. هذه المعركة يرفض المثقفون العرب المحافظون الانخراط فيها، وفي الوقت ذاته يغطون أنفسهم بقشرة رقيقة من الحداثة السطحية الوهمية الخادعة. بل ويملأون الجوّ زعيقاً ونعيقاً عن الديمقراطية وحقوق الإنسان! ولكن أي إنسان وأي ديمقراطية؟ وهل يمكن من يتحالف مع التنظيمات الأصولية أن يتحدث باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان؟!

متى ندرك، نحن المثقفين العرب، أن ما كان سائداً على مدار القرون الوسطى الإقطاعية الطائفية لا يمكن أن يستمر إلى الأبد؟ متى ندرك أن العالم من حولنا يتغير وأن البشر سواسية، سواء أكانوا متدينين أم غير متدينين، مسلمين أم مسيحيين، سنة أم شيعة؟ متى ندرك أن الإنسان قيمة مقدسة بحد ذاته بغض النظر عن أصله وفصله أو دينه وطائفته ومذهبه؟ متى ندرك أنه لا يوجد مواطن درجة أولى ومواطن درجة ثانية وربما ثالثة في ظل الحداثة والديمقراطية والتصور الحديث للإنسان؟ هذا الشيء كان سائداً في القرون الوسطى وكان مقبولاً، ولكنه الآن لم يعد مقبولاً. باختصار شديد: متى نفهم المغزى الحقيقي والعميق

لثورة الأنوار الفلسفية؟ متى نعي أن النظام اللاهوتي القروسطي المسيطر تاريخياً على العالم العربي سوف يهتز في العمق ويتفكك وينهار حتى ولو كان عمره ألف سنة أو لأن عمره ألف سنة؟ متى ندرك أن الحداثة الكونية أصبحت تحاصرنا من كل الجهات؟ متى ندرك أن التغيير لن يشمل هذه المرة فقط السطح: أي الأنظمة السياسية السائدة، بل أيضاً المعارضات الأصولية والثوابت التاريخية "المقدسة" ذاتها؟

هل صحيح أن مثقفي الأقليات هم وحدهم القلقون الذين يريدون تغيير الأمور في العمق وتفكيك الدين والمقدسات؟ لا أعرف، لا أعتقد. باستثناء سبينوزا الذي خرج على طائفته وكل الطوائف الأخرى دفعة واحدة وفكك العقيدة اليهودية - المسيحية في العمق لا أجد أمثلة كثيرة. في فرنسا كانوا معظمهم من الأكثريات: ديكارت، فولتير، ديدرو، مونتسكيو، كوندورسيه، رينان، أوغست كونت، فيكتور هيغو، جول فيري، وعشرات غيرهم... كلهم كانوا ينتمون إلى الأكثرية الكاثوليكية التي تمثل تسعين في المئة من الشعب الفرنسي على الأقل. وكلهم انخرطوا في معركة راديكالية ضد الأصولية المسيحية وضد مذهبهم وطائفتهم بالذات: أي الطائفة الكاثوليكية المهيمنة على المجتمع، كما ثاروا على بابوات روما ورجال الدين. وكلهم فككوا الطائفية والمذهبية واشتبكوا معها في حرب ضروس، في مواجهة مفتوحة. ولم يقولوا كما يفعل الكثير من المثقفين العرب اليوم: حذار انتبه! هذا تراث الآباء والأجداد، هذه ثوابت الأمة ومقدساتها وينبغي عدم المس بها! لو فعلوا ذلك لما حصلت أصلاً أي حداثة أو نهضة في أوروبا. على العكس لقد تحملوا مسؤوليتهم التاريخية بخلاف المثقفين العرب وانخرطوا في المعركة التفكيكية - التحريرية للتراث حتى النخاع. وهي المعركة التي أدت إلى العلمانية لاحقاً وفصل الكنيسة عن الدولة وتأسيس المواطنية بالمعنى الحديث للكلمة. وعندئذ لم يعد هناك أي فرق بين الأقلوي البروتستانتي الذي يمثل خمسة في المئة من الشعب الفرنسي والكاثوليكي الذي يمثل تسعين في المئة من الشعب، بل وحتى اليهودي الخارج كلياً على التراث المسيحي أصبح مواطناً بعد الثورة الفرنسية مثله في ذلك مثل الآخرين: له الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها. والآن، انضاف إليهم المسلم الفرنسي الذي أصبح يتمتع بالحقوق ذاتها في ظل النظام العلماني. هذا هو النظام المدني الحديث الذي نحلم به بالنسبة إلى مجتمعاتنا التي تمزقها الانقسامات الدينية

والمذهبية وتكاد تدخلها في حروب أهلية مدمرة (هذا الكلام يخص مجتمعات المشرق العربي ذي الفسيفساء الدينية في الدرجة الأولى، لا المغرب العربي الذي يتمتع بانسجام ديني مذهبي كبير. معظمهم سنة مالكيون). ولكن ينبغي أن نكون واقعيين، وألا نطلب المستحيل: هذا النظام المدني الحديث لا يمكن أن يتحقق الآن ولا غداً، ولكن بعد غد. لماذا؟ لأن تفكيك تراكمات الماضي أو عملية إطاحة مشروعيته ومعصوميته لم تحصل بعد. وبالتالي، هناك عملية تفكيك سلبية تسبق عملية البناء الإيجابية. رحنا في داهية! القصة طويلة يا شباب!

في ألمانيا كانوا أيضاً من الأكثرية الطائفية، أولئك الذين زلزلوا الثوابت المسيحية والمعتقدات المقدسة، وغيروا وجه العصور الحديثة: كانط، فيخته، هيغل، شيلنغ، فويرباخ، نيتشه... وحتى ماركس يمكن اعتباره إذا شئنا من الأكثرية لأن عائلته كانت قد تخلت عن اليهودية واعتنقت دين الأغلبية: أي المسيحية في مذهبها البروتستانتي، وهو المذهب الغالب في ألمانيا، بلد لوثر، على عكس فرنسا الكاثوليكية. ينبغي العلم بأنه في ألمانيا وشمال أوروبا فإن المسيحي الحقيقي هو المسيحي البروتستانتي. إنه الفرقة الناجية! وعندما تذكر اسم البابا الكاثوليكي أمامهم كانوا يبصقون عليه حتى أمد قريب...

في إحدى زياراتي لهولندا قال لي أحدهم: حتى إلى ما قبل ثلاثين سنة كانت الطائفية لا تزال موجودة نسبياً في البلاد. وكان الكاثوليكي يذهب أحياناً إلى مسافة بعيدة لكي يشتري حوائجه من عند تاجر كاثوليكي مثله، في حين أن جاره البروتستانتي يملك المتجر نفسه والسلع نفسها ولكنه لا يشتري منه! وقد فوجئت بهذا الخبر لأن هولندا من أكثر بلدان أوروبا تسامحاً وانفتاحاً، وذلك منذ أيام سبينوزا في القرن السابع عشر. ومعلوم أن ديكارت هرب من فرنسا الكاثوليكية الأصولية المتعصبة إلى هناك لكي يفكر ويكتب بحرية. وفيها عاش معظم حياته. وكذلك فعل المفكر البروتستانتي بيير بايل وعشرات المفكرين الآخرين. علام يدل ذلك؟ على أن الحزازات المذهبية رازحة، راسخة، متجذرة في النفوس ويصعب اقتلاعها. ولكنها اقتلعت أخيراً في أوروبا المستنيرة الحرة الديمقراطية التي تمثل جنة الله على وجه الأرض.

هذا عن الغرب المنفتح المتحرر الذي حل عقده ومشاكله الطائفية،

وأسس المواطنية على قاعدة مشروعية جديدة غير المشروعية اللاهوتية التي كانت سائدة

سابقاً. لقد أسسها على قاعدة مشروعية الحداثة: أي مشروعية حقوق الإنسان ودولة القانون والمؤسسات وكل الفلسفة السياسية الحديثة المضادة للقانون المقدس أو الشريعة المسيحية.

أما عنا نحن فيا ويل الويل!

أحياناً يخيل إلي أن كل شيء مسدود في هذا الشرق العربي: انسداد في السياسة، انسداد في اللاهوت والفقه القديم، انسداد في الطوائف والمذاهب، انسداد في الفكر العربي، انسداد في الآفاق. والأخطر من كل ذلك انسداداتي الشخصية المتفاقمة! ليس غريباً إذن أن أكون قد أتحفتكم بنظرية "الانسداد التاريخي". الوعاء ينضح بما فيه. سامحونا! كما تقول إحداهن...

أعتقد أن الحداثة السياسية العربية المقبلة سوف تكون محصلة لشيئين: أولهما تفكيك الثوابت الموروثة التي لا تزال تتخذ طابع القداسة والمعصومية بل وحتى الرهبة الإرهابية. لقد آن الأوان لتفكيكها من خلال القيام بالنقد الراديكالي للعقل الإسلامي التقليدي. وهذا ما أفعله من خلال ترجمات أركون. وثانيهما الاطلاع على الشيء نفسه الذي حصل سابقاً في أوروبا، وذلك من خلال القراءة المعمقة لفلاسفة التنوير الذين فككوا مقولات ومعصوميات العقل اللاهوتي المسيحي. الحداثة العربية لا يمكن أن تنهض إلا على أنقاض هذا التفكيك وتلك الأطلال الدارسة والخرائب المنتشرة على مدّ النظر... الحداثة ليست لصقاً ميكانيكياً لبنية جديدة على بنية قديمة نتركها كما هي على حالها من دون أي تغيير ومن دون أن نشتبك معها في معركة صراحة أو مصارحة حادة. هذا تصور ساذج ولاتاريخي عن الحداثة. لماذا؟ لأنها عندئذ، أي البنية القديمة، قد ترتد علينا لاحقاً وتنتقم لنفسها فتشتبك معنا وتكون انتكاسة الحداثة كما حصل سابقاً أكثر من مرة، بسبب عدم جرأة المفكرين العرب على الذهاب إلى نهاية الشوط، أو بسبب توقفهم في منتصف الطريق، أو بسبب عدم قدرتهم الفلسفية على تفكيك الماضي الموروث. هناك ثمن باهظ ينبغي دفعه أثناء عملية الانتقال من القدامة إلى الحداثة. هناك نزف داخلي سوف يحصل، وتضحية بالكثير من اليقينيات المطلقة والمعصوميات. هناك عملية تكنيس وتعزيل هائلة لا مثيل لها تنتظرنا. ينبغي أن نعاني "آلام الانفصال" كما يقول هيغل: أقصد الانفصال عن الذات التراثية المتغلغلة في عروقنا ودمائنا. وينبغي أن نقيم عليها الحداد.

مشكلة أقليات أم أكثريات؟

ينبغي العلم بأن أول مبدأ من مبادئ الفلسفة العلمانية وحقوق الإنسان والتشريعات الحديثة هو المساواة الكاملة بين المواطنين، بغض النظر عن أعراقهم وأديانهم أو حتى عدم اعتناقهم لأي دين أو مذهب. حتى الملحد، من حيث الحقوق المدنية، يتساوى مع من يذهب إلى الكنيسة كل يوم، بشرط أن يقوم بواجباته تجاه المجتمع بشكل صحيح ويكون مستقيم السلوك... كل متدين مواطن حتماً، ولكن ليس كل مواطن متديناً بالضرورة، أو يؤدي الشعائر والطقوس. هذا هو المفهوم الحديث للمواطنية. ومعظم المواطنين في الدول المتقدمة هم من النوع الثاني لا الأول. في فرنسا عدد الذين يذهبون إلى الكنيسة يوم الأحد لا يتجاوز ٨ في المئة. هذه أشياء بينك وبين ربك يحاسبك عليها يوم القيامة ولا يحق لأي مخلوق على وجه الأرض أن يتدخل فيها. ولكننا نتحدث هنا عن مجتمعات حضارية متقدمة لا عن مجتمعات لا تزال في شرائح واسعة منها أصولية قروسطية. وهي شرائح تشمل كل الطوائف لا طائفة الأغلبية فقط. نحن نتحدث عن مجتمعات محكومة من قبل الفلسفة السياسية الحديثة لا من قبل الحاكمية اللاهوتية للمودودي أو ولاية الفقيه للخميني. والإنسان في ظل فلسفة التنوير هذه يشكل قيمة بحد ذاتها وينبغي أن يحترم بصفته تلك، سواء كان أبيض أو أسود أو مسلماً أو مسيحياً أو علوياً أو سنياً أو درزياً أو إباضياً إلخ... لا توجد فرقة ناجية ضمن هذا المنظور ولا فرقة ضالة منحرفة. ولا أحد أحسن من أحد سلفاً وبشكل مسبق. كلهم متساوون في المواطنية والحقوق أمام القانون. هذه هي دولة الحداثة التي نحلم بها لا الدولة الثيوقراطية اللاهوتية التي لا تزال تتحكم في رقابنا منذ ألف سنة – على الأقل – حتى اليوم. نحن بحاجة إلى ثورة تنويرية راديكالية تكون تمهيداً للتغيير السياسي الحقيقي القادم. والتغيير سوف يصيب هذه المرة "ثوابت الأمة ومقدساتها" أو ما تتوهم أنه ثوابت ومقدسات أبدية سرمدية، في حين أنه فبركات تاريخية. سوف يصيبها في الصميم مثلما فعل في فرنسا وألمانيا وكل العالم الأوروبي المتحضر بالنسبة إلى المسيحية. وسوف تنهض على أنقاضها ثوابت ومقدسات جديدة تضع كرامة الإنسان وإنسانية الإنسان فوق كل اعتبار. وسوف يكون لتراث الإسلام السمح العظيم وجه جديد آخر غير هذا الوجه الكالح الذي يسيطر علينا منذ الدخول في عصر الانحطاط قبل ألف سنة تقريباً.

ينبغي ألا نستهين بعذاب الأقليات الدينية أو القومية – العرقية على مدار التاريخ. ينبغي

ألا نحتقره كما يفعل مثقفو اليمين المتطرف العربي أو غير العربي. أسمع أحياناً كلاماً صادراً حتى عن أشخاص مستنيرين أو مفترض فيهم كذلك، ولكنه لو قيل هنا في فرنسا أو في أي بلد أوروبي متحضر للوحق صاحبه بتهمة التحريض على العنصرية أو الطائفية. البعض يعتقد بأن كل المشاكل والهزائم ناتجة من الأقليات! وأنه لو حذفت أو صفيت عن بكرة أبيها لاستراح المجتمع وانحلت كل مشاكله دفعة واحدة. قد أكون أبالغ قليلاً في رسم الصورة بغية توضيحها. ولكن هذا شعور موجود أو منبث بشكل سري أو علني في الجو. ينبغي العلم بأن التخلف العربي أو الانحطاط العربي يصيب الأقليات والأكثريات في آن واحد ولا يوفر أحداً، وينبغي العلم بأنه إذا كان هناك مسؤول أول عنه فهو الأكثرية التي حكمت وقادت المصير التاريخي على مدار القرون، ما عدا فواصل قصيرة أو استثناءات محدودة. الانحطاط ابتدأ منذ السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي باعتراف كل مؤرخي العالم وفلاسفته: أي قبل تسعمئة سنة. ثم تواصل بالطبع مع الإمبراطورية العثمانية التي هي امتداد مباشر لهم، والتي لم تضف أي شيء جديد في مجال الإبداع العلمي أو الفلسفي أو الاكتشافات والاختراعات، على عكس الحضارة العربية الإسلامية الكلاسيكية في عصرها الذهبي.

وبعضهم يريد أن يوحي بأنه حتى الشعور بالاضطهاد التاريخي أو بالعذاب أصبح معرّة! ينبغي أن تقبل بالاضطهاد كحقيقة واقعة وتسكت! إياك أن تفتح فمك مجرد فتح... اذهب وقل هذا الكلام للأسود الذي استعبد قروناً من قبلنا نحن العرب المسلمين أو من قبل الأوروبيين بل وتوجر به كسلعة رخيصة. اذهب وقل له: يا أخي عيب عليك! لماذا تشتكي وتتوجع؟ أين هي المشكلة؟ اسكت واخرس، اذهب واعتذر لمن اضطهدوك وعذبوك أو داسوك بالأقدام أو احتقروك في كرامتك أو أعماق إنسانيتك... هنا أيضاً قلب للأدوار ومنطق معكوس. في البلدان المتحضرة يفعلون عكس ذلك تماماً. فمثلاً، اعتذر البابا يوحنا بولس الثاني عن مجزرة سانت بارتليمي التي ارتكبتها الأكثرية الكاثوليكية بحق الأقلية البروتستانتية حتى بعد أكثر من أربعة قرون على حصولها. ولكننا نتحدث هنا عن بلدان حضارية وشعوب تقدمت وأديان أُصلحت وتطورت... نعم إني أشعر بالقلق عندما أسمع الفضائيات الغوغائية ومثقفي التيار القومجي – الأصولي (أي العنصري – الطائفي) الذين يعكسون الأمور فتصبح الضحية هي

الجلاد والجلاد التاريخي هو الضحية! لقد آن الأوان لتوضيح الأمور في الساحة الثقافية العربية التي تعاني من خلط وتشويش وتزييف كثير. ولكن لحسن الحظ فإن مجموعة من المثقفين والمثقفات أصبحوا ينبثقون هنا أو هناك في كل أقطار العرب كالمنارات المشعة. بالطبع، فإن معركتهم شاقة جداً وعسيرة، لأن أتباع التيار العنصري الطائفي ليسوا فقط الأكثر عدداً بل ويتمتعون بمشروعية تاريخية لا حيلة لنا بها. الماضي معهم والمستقبل ضدهم، وأما نحن فالمستقبل معنا والماضي السلفي الانحطاطي ضدنا. وما دام الإصلاح الديني لم يحصل بعد والتنوير الفلسفي لم يتحقق بعد فسوف يظلون مسيطرين. ولكن هل نعلم بأن عدد سكان فرنسا في القرن الثامن عشر كان ثمانية وعشرين مليون شخص، وأن عدد فلاسفة التنوير لم يكن يتجاوز ثلاثين أو أربعين شخصاً، وعدد أتباعهم في باريس لم يكن يتجاوز ثلاثة آلاف شخص، وفي المملكة الفرنسية كلها خمسة عشر ألف شخص، ومع ذلك فقد ربحوا المعركة الفكرية ثم السياسية في نهاية المطاف؟ وبالتالي، المجال مفتوح أمام التنويريين العرب والمسلمين على الرغم من كل شيء. ولكنهم سيخوضون معركة يشيب لهولها الولدان. فأنت لا تستطيع تفكيك الانغلاقات المتراكمة على مدار ألف سنة متواصلة من دون معركة كسر عظم حقيقية.

اذهب وقل هذا الكلام القومجي الأصولي المتغطرس لكل المعذبين في الأرض أو لكل المضطهدين لسبب عرقي أو طائفي أو مذهبي. اذهب وقله لكل الطوائف الشيعية والخارجية الإباضية والإسماعيلية والدرزية في العالم العربي. اذهب وقله للبربر الأمازيغ في المغرب الكبير أو للأكراد في المشرق الكبير أيضاً الذين تُنكر حقوقهم اللغوية والثقافية ويُحتقرون لأنهم يحبون لغتهم الأم ويتعلقون بها... هل سمعتم بعربي يتعلم اللغة الكردية أو الأمازيغية؟ مستحيل أو في نادر النادر. هذا في حين أن ملايين الأكراد والأمازيغ يتعلمون لغة الضاد بل ويبدعون بها ويتفوقون علينا في أحيان كثيرة. بل اذهب وقله لكل الأقليات السنية والعرقية في الإمبراطورية الفارسية الشيعية. فهناك الإسلام الصحيح الوحيد هو المذهب الشيعي الإمامي. الفرقة الناجية هناك هي أهل الشيعة لا أهل السنة: أي عكس ما هو سائد في العالم العربي تماماً. اذهب وقله للمسيحيين العرب الذين كانوا أكثرية في سوريا وربما في مصر حتى القرن الحادي عشر الميلادي. من يعرف ذلك؟ بعدئذ قلبت سوريا إسلامية لأن الناس على دين ملوكهم. وبالتالي، معظمنا كان أجداده مسيحيين قبل أن

يصبحوا مسلمين. اذهب وقله للأرمن وبقية الطوائف المسيحية التي عانت من أبشع مجزرة في تاريخ العصور الحديثة على أيدي جلاوزة السلطنة العثمانية المحتضرة. لحسن الحظ، فإن النخب المثقفة التركية ابتدأت تتحرك بقوة للاعتذار عنها. وقد تجاوزت توقيعاتهم الثلاثين ألفاً على الإنترنت أخيراً. برافو للنخب الحضارية التركية! ولكن ماذا تفعل النخب السورية أو العربية عموماً إلا من رحم ربك؟ احتقار الأقليات أو التحدث عنها وكأنها حشرات!

اذهب وقله للبروتستانتيين الفرنسيين الذين دمرهم لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر عندما فرض شعاره الشهير: مذهب واحد! قانون واحد! ملك واحد! ومعلوم أن "الملك – الشمس" كما يلقبونه كان يجسد في شخصه الحاكمية الإلهية المسيحية، أو ظل الله على الأرض. ولكن لحسن الحظ، فإن التنويريين الفرنسيين سرعان ما جاؤا لكي يفككوا مشروعيته اللاهوتية من أساساتها. ثم جاءت الثورة الفرنسية لكي تجسد أفكارهم على أرض الواقع وتدمر هذا النظام الإطلاقي القديم برمته. وعندئذ، انهارت الثوابت اللاهوتية المقدسة للأمة الفرنسية لكي تحل محلها ثوابت الحداثة المتمثلة في الإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن الصادر عام ١٧٨٩ عن الثورة الفرنسية بالذات. ويعود الفضل في ذلك إلى فلاسفة التنوير الكبار، وبخاصة الأقلوي الزنديق البروتستانتي جان جاك روسو، نبي العصور الحديثة. هذا من دون أن ننسى دور مونتسكيو وفولتير ودلامبير وديدرو والموسوعيين... فهم الذين لغموا المشروعية المسيحية القديمة تمهيداً لإطاحتها وإحلال المشروعية الجديدة محلها. وهذا ما سيحصل في العالم العربي والإسلامي كله في السنوات القادمة بعد أن تنحسر الموجة الشعبوية الأصولية بكل فرقعاتها وضجيجها.

لماذا أقول أحياناً إنه ينبغي أن نتخذ فولتير نموذجاً لنا؟ لأنه لم يمضِ حياته في شتم الأقليات أو تعيير الناس بأنهم أقليات، بل أمضاه في الدفاع عنها على الرغم من أنه لم يكن منها. لقد أمضاه في إدانة التعصب الديني الأعمى للأغلبية الكاثوليكية التي كان ينتمي إليها أباً عن جد والتي نشأ وترعرع في أحضانها. وذلك لأن تعصب الأغلبية هو الأخطر والأقدر على الضرب والأذى. وهو الذي يفرض قانونه على المجتمع ككل. وهو الذي يمارس تمييزه العنصري أو الطائفي بكل تبجح واستعلاء. هذا لا يعني بالطبع أن طائفية الأقلية ليست خطرة بل وانتقامية شريرة أحياناً، وبخاصة إذا ما وصلت إلى السلطة. وبالتالي، فضحايا الأمس قد يصبحون جلادي اليوم (انظر الحالة السورية). في كل الأحوال الطائفية مدانة

مثلها في ذلك مثل العنصرية، من أي جهة جاءت وإلى أي عقيدة انتسبت. لكن لنعد إلى فولتير. لقد خاطر بنفسه بسبب محاربته للطائفية المسيحية، لأن الأصوليين هددوه أكثر من مرة وأحياناً بشكل جدي. وكان بإمكانه أن يعيش عيشة الملوك قرير العين ومن دون أن يسبب لنفسه إزعاجات إضافية. ولكنه نذر حياته للدفاع عن الحقيقة ومحاربة الاضطهاد والظلم من أي جهة جاء، حتى ولو كان من جهة جماعته وطائفته. وهنا تكمن عظمة المثقف أصلاً. المثقف الحقيقي ليس ذلك الذي يدافع عن طائفته على طول الخط، حقاً أو باطلاً، ويحتقر الطوائف الأخرى. هذا سهل ولا يكلف عذاباً نفسياً كبيراً. على العكس. التعصب سهل وقريب إلى النفس ومذاقه حلو، ولكن الانتصار على التعصب في أعماق كل واحد منا هو الصعب. وبالتالي، فالمثقف الحقيقي هو ذلك الذي يخوض المعركة مع ذاته، مع عصبياته الدفينة ويواجه طائفته الخاصة بالذات ويقف في وجهها بل ويتحداها إذا لزم الأمر. جاء في الحديث النبوي الشريف ما معناه: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قال: كيف أنصره ظالماً يا رسول الله؟ قال: تردعه عن ظلمه.

وهذا ما فعله فولتير بالضبط أو حفيده سارتر في عصرنا ضد فرنسا الاستعمارية في الجزائر، إلخ... اقرأ قصة فولتير مع عائلة كالاس البروتستانتية الشهيرة التي هاجت عليها الأكثرية الكاثوليكية في مدينة تولوز وكادت أن تمزقها إرباً إرباً، في وقت كانت فيه فرنسا لا تزال متعصبة طائفياً مثلنا نحن اليوم. ما كانت فرنسا قد استنارت بعد ولا تطورت ولا تقدمت. كان اليسوعيون، أي الإخوان المسيحيين الكاثوليك، لا يزالون يسيطرون على برامج التعليم والثقافة السائدة والمعاهد والمؤسسات والجامعات، تماماً كالإخوان المسلمين والسلفيين في العالم العربي حالياً. وكانت الأيديولوجيا الطائفية للأغلبية هي التي تسيطر على المجتمع ككل. ولم يكن البروتستانتي يتجرأ على أن يفتح فمه مجرد فتح. الآن أصبح مواطناً كامل المواطنية مثله في ذلك مثل الكاثوليكي سواء بسواء: له الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها. ولم تعد هناك أقلية أو أكثرية على أساس طائفي، بل على أساس أيديولوجي أو سياسي أو برامج سياسية وانتخابية. وأصبح البروتستانتي يقود البلاد على كافة الأصعدة والمستويات من دون أن يشكك أحد في وطنيته أو مواطنيته. انظر ميشيل روكار وليونيل جوسبان وسواهما. وأوباما الذي اعتلى عرش أميركا أخيراً، هل تعتقدون بأن اليمين المتطرف الأميركي سعيد جداً بالنبأ؟ هل تعتقدون أنه بلعه بسهولة؟

ولكنه ساكت على مضض، لأن أغلبية الشعب الأميركي أصبحت مستنيرة وضد العنصرية. قبل عشر سنين فقط كان الأمر صعباً جداً إن لم يكن مستحيلاً. الآن أصبح ممكناً بعد أن تطورت العقليات بما فيه الكفاية، وبعد أن دفع ابراهام لنكولن ومارتن لوثر كنغ وآلاف غيرهم الثمن. وعندنا سوف تتطور أيضاً. عندنا سوف تخف الطائفية أو ربما ستموت كلياً يوماً ما. ولكننا لا نستطيع أن نطالب مجتمعاتنا بأن تقطع في سنوات معدودات ما قطعته المجتمعات الحضارية المتقدمة على مدار ثلاثمئة سنة من التنوير والتثقيف وهضم كل فتوحات الحداثة الفلسفية والعلمية والسياسية. قليلاً من الصبر إذن! فلحظة التقدم العربي والتنوير العربي قادمة لا ريب فيها.

باراك حسين أوباما والاختراق التاريخي

أخيراً سوف أقول ما يلي:

> كنت قد دعيت إلى برنامج "نقاش" التلفزيوني على القناة الفرنسية الرابعة والعشرين، القسم العربي، وذلك لمناسبة تنصيب أوباما رئيساً للولايات المتحدة الأميركية. وقد فوجئت بأن معظم المدعوين، إن لم يكن كلهم، اعتبروا انتخابه كأنه شيء عادي! وعلى الرغم من أن اثنين من المشاركين كانا يتحدثان من نيويورك وواشنطن ولا بأس بحديثهما، رفضا التوقف عند ظاهرة صعود أول رئيس أسود من أصل إسلامي على عرش الولايات المتحدة الأمريكية. فهي في نظرهم زوبعة في فنجان لا تستحق أكثر من تعليق بسيط على الماشي! أعتقد على العكس أن رمزية الحدث لا تقل خطورة وأهمية عن الزلزال السياسي. فالرجل قد ينجح أو يفشل، قد تعجبنا سياسته أو لا تعجبنا نحن العرب. ولكنها لن تكون أسوأ من سابقتها على أي حال. مستحيل أن تكون أسوأ من السياسة التي نظّر لها المحافظون الجدد. بل إنها ستكون أفضل من دون أدنى شك لأنها تستلهم منطلقات فلسفية أخرى نظراً إلى أصول أوباما، ليس فقط العرقية بل الدينية أيضاً. صحيح أنه هو شخصياً مسيحي بروتستانتي كأغلبية الأميركان، ولكن والده حسين أوباما

كان مسلماً. وبالتالي فله جذور إسلامية. ثم هناك شيء واحد مؤكد: هو أنه انتهك المحرمات العنصرية التي كانت تمنع وصول شخص غير أبيض - أنغلو ساكسوني- بروتستانتي إلى سدة البيت الأبيض. من المعلوم أن كندي كان ينتمي إلى الأقلية الكاثوليكية، وقد احتج بعضهم على وصوله إلى سدة الرئاسة لأنه ليس بروتستانتياً. ولكنه تجاوز ذلك بسهولة لأنه أبيض ومن عائلة غنية كبيرة. أما باراك حسين أوباما فقد جمع في شخصه "أبشع" الصفات في نظر اليمين الغربي: فهو أسود ووالده حسين أوباما من أصل إسلامي. لا يكفيه نقيصة واحدة ولكنه جمع النقيصتين! ومع ذلك فقد استطاع اختراق الحواجز الهائلة وتحقيق المستحيل.

لماذا وضع نفسه تحت ظل التمثال الكبير لابراهام لنكولن؟ لأن هذا الأخير هو محرر العبيد في أميركا. فقد ألغى قانون الرق عام ١٨٦٥، أي في منتصف القرن التاسع عشر أو بعده بقليل. وقد دفع حياته ثمناً لذلك. ولماذا ألقى مارتن لوثر كنغ خطابه الشهير: أنا عندي حلم كبير لكم، تحت ظل التمثال نفسه؟ لأنه أيضاً كان يعرف معنى ابراهام لنكولن وعظمته في مجرى التاريخ الأميركي. كان يريد مثل أوباما أن يضرب له التحية. وكلاهما، أي لوثر كنغ ولنكولن، اغتيل بسبب دفاعه عن الكرامة الإنسانية للأقلية السوداء المحتقرة المهانة. ابراهام لنكولن اغتيل غدراً وهو يحضر فيلماً سينمائياً. فقد جاءه العنصريون من خلف ظهره وأطلقوا عليه النار من مسدس. ومارتن لوثر كنغ سقط أيضاً بطلقات نارية من مسدسات العنصريين وهو في الأربعين من عمره. كلاهما دفع حياته ثمناً لأفكاره ولإيمانه بالمثل العليا. وأوباما ما هو إلا الثمرة المباشرة لذلك النضال وتلك التضحيات. لولاهما لما وصل إلى ما وصل إليه اليوم.

ماذا نستنتج من كل هذا؟ نستنتج شيئاً عظيماً ومهماً جداً ألا وهو: إن التقدم ممكن في التاريخ. نستنتج أن البشرية قابلة للتحسن والتطور وتجاوز عصبياتها العنصرية والطائفية. نستنتج أن القيم الروحية والإنسانية العليا هي التي تنتصر في نهاية المطاف ومهما طال الزمن. نستنتج أن التغلب على العصبيات الغرائزية الضيقة الكامنة في أعماق كل واحد منا

شيء ممكن. وهذا ما أدعوه بالمعركة الشرسة مع الذات، بالانتصار على الذات. صحيح أنها عملية صعبة جداً وشاقة ومرهقة، لأنك عندئذ تدخل في صراع مع نفسك، مع حميميتك، مع أعز ما عندك، لا مع عدو خارجي. و"الصراع مع الذات أصعب من معارك الرجال"، كما كان يقول آرثر رامبو. ولكن الأميركان نجحوا في هذا الامتحان العسير وانتصروا على عنصريتهم الدفينة وقبلوا بأن يترأسهم شخص أسود. ثم قبلوا بأن تكون سيدة أميركا الأولى امرأة سوداء ولمدة أربع سنوات وربما أكثر. صحيح أنها مثقفة وجميلة ومحترمة ولكنها سوداء بالمرة. وهي التي ستكون وجه أميركا أمام العالم كله الآن. انتهى عهد لورا بوش البيضاء الشقراء. أليس ذلك رائعاً؟ ألا يستحق التنويه والتوقف عنده قليلاً؟ ألا يملأ القلب بالفرح والثقة بمستقبل البشرية؟ لذلك قلت وأقول وأكرر القول: برافو للشعب الأميركي! مبروك له رئيسه الجديد. وهنيئاً له هذا الانتصار على الذات!

هذا من حيث الشكل الذي هو في رأيي أهم هنا من كل مضمون. أما من حيث المضمون السياسي فأعتقد أن أوباما ينبغي أن يستمد فلسفته السياسية من ريتشارد بولييت، أستاذ التاريخ والعلوم السياسية في جامعة كولومبيا بنيويورك والعدو اللدود لصموئيل هانتنغتون وبرنارد لويس وكل غربان صدام الحضارات الذين هيمنوا على عهد بوش. وربما لم يكن موت هانتنغتون قبيل تسلّم أوباما للسلطة بأيام قلائل إلا علامة خير وإشارة رمزية على موت حقبة بأسرها. ماذا يقول بولييت؟ باختصار شديد ما يأتي: هناك جذور حضارية مشتركة للغرب والعرب المسلمين على الرغم من العلاقات الصراعية التي تحكمت فيهم غالباً على مدار التاريخ. بل ويصل به الأمر إلى حد القول بأنهما فرعان أو غصنان من حضارة واحدة: هي الحضارة الإسلامية – المسيحية التي سيطرت على حوض البحر الأبيض المتوسط! شيء مدهش أن يقول ذلك مستشرق أميركي شهد ضربة ١١ سبتمبر من نافذة شقته النيويوركية. نعم شيء مدهش ولا يكاد يصدق. ثم يقول أيضاً إن الإسلام الذي يرافق التاريخ الحديث للعالم العربي هو إسلام تعددي وتقدمي عموماً وإن المتزمتين فيه لا يشكلون الأغلبية على الإطلاق بل الأقلية. وذلك على عكس ما تزعمه وسائل الإعلام الغربية. وبالتالي، فالتعايش ممكن جداً بين عالم الغرب وعالم العرب والإسلام وليس هناك أي معنى، ولا أي مستقبل، لنظرية صدام الحضارات. لا ريب في أن الإسلام بحاجة إلى إصلاح كبير كما حصل للمسيحية الأوروبية سابقاً. ولكن هذا الإصلاح قادم. والعالم

العربي أو الإسلامي سوف يفرز في السنوات القادمة الشخصيات الكبرى القادرة على أن تحقق هذه الطفرة أو القفزة النوعية. هنا نقول أيضاً برافو لأستاذ جامعة كولومبيا بنيويورك! فليستلهم منه الرئيس أوباما إذن الخطوط العريضة لسياسته، ولينس برنارد لويس وصموئيل هانتنغتون والمحافظين الجدد. ولكن هل هو بحاجة إلى هذه النصيحة يا ترى؟

الفصل الخامس

محاكم التفتيش

المثقفون: زنادقة العصر؟

كنت قد اطلعت على البيان التهديدي الموجه إلى ثلاثة وعشرين مثقفاً ومثقفة تونسية قبل اندلاع الربيع العربي بقليل. وهو تهديد صادر عن مجموعة تدعو نفسها باسم: ديوان لجنة تقصي زنادقة العصر[١]. وأعترف بأن رد فعلي عندما سمعت بهذا الاسم لأول مرة هو الانفجار بالضحك. ولا أعرف لماذا. ربما لأن اسم الجماعة مضحك أو يذكرك بـ"ديوان الزنادقة" القديم السيّئ الذكر... ومعلوم أن محاكم التفتيش هذه قتلت على مدار التاريخ شخصيات إبداعية كبرى، كابن المقفع وبشار بن برد والحلاج والسهروردي وعشرات المبدعين الآخرين أيام زمان، هذا إضافة إلى فرج فودة ومحمود محمد طه وآخرين في عصرنا الراهن. ولكني بعد الضحك استشعرت خطورة الوضع وأخذت الأمر على محمل الجد. أقول ذلك، وخاصة أني أربط ذلك بما يحصل الآن لعادل إمام في مصر (وهذه المرة بعد اندلاع الربيع العربي لا قبله!)، كما أربطه بتهديد الحريات العامة في تونس ما بعد الثورة وسيطرة الإخوان والأصوليين على الشارع في مصر وتخويفهم للنساء والصحافيين والجامعيين وحرية التفكير عموماً. الشيء الذي يلفت الانتباه أولاً في البيان التهديدي

١ انظر في هذا الصدد جريدة الأوان الإلكترونية بتاريخ ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٩.

المذكور آنفاً هو أن عدد المثقفات المهددات يوازي تقريباً عدد المثقفين: تسعة من أصل ثلاثة وعشرين اسماً. والسبب يعود الى أن تونس متقدمة علمياً ومستنيرة بالقياس إلى بقية الدول العربية عموماً. ولذلك فإن عدد المثقفات والمتعلمات فيها كبير. وهذا ما يحز في نفوس المتخلفين المتزمتين ويجعلهم يخرجون عن طورهم. فالمرأة تبقى عدوهم الأول والخطر الماحق الذي يهدد وجودهم وأيديولوجيتهم البائسة. وكلما تعلمت وتحررت وتثقفت ودخلت معترك الحياة العامة وتطوير المجتمع زاد همهم وغمهم، وازدادت ضراوتهم أيضاً...

وواضح أن المعركة بين الأصوليين الظلاميين من جهة والمثقفين المستنيرين من جهة أخرى قد اندلعت على مصراعيها بعد الربيع العربي، ولن تتوقف في المدى المنظور. هذا لا يعني أني أعتبر كل المتدينين ظلاميين ولا كل الحداثيين أخلاقيين ومستنيرين! لتكن الأمور واضحة منذ البداية. لن أهاجم المؤمنين المستنيرين الذين يخشون الله ويطلبون الرحمة لعباده جميعاً من دون أي تعصب أو تمييز. لن أهاجم أبداً أولئك الذين يبتهلون إلى الله في خلواتهم وصلواتهم. لن أهاجم أولئك الذين يتبعون مكارم الأخلاق ويعطون صورة رائعة عن الإسلام الحنيف. المشكلة ليست معهم على الإطلاق. المشكلة فقط مع تيار الإسلام السياسي الذي يستخدم الدين كأداة فعالة وفتاكة لأغراض انتهازية وسلطوية رجعية تريد العودة بالمجتمع إلى الوراء[١]. المشكلة هي مع من يأخذون من الدين قشوره فقط أو قيوده وإكراهاته وتعصبه وانغلاقه ويطرحون جوهره الروحاني والأخلاقي العالي المتعالي. باختصار شديد: المشكلة هي مع الفهم الإكراهي القديم للدين، وليس مع الفهم المتسامح الحديث. فهذه تبقى معركة العصر، معركة القرن الحادي والعشرين، من دون

١ أقول ذلك وأنا أعرف أن المجتمع لا يمكن أن يتطور إلا طبقاً لإيقاعه الخاص وليس طبقاً لإيقاعنا نحن، معشر الحداثة وما بعد الحداثة. من هنا انتصار رئيس إخواني في مصر لا رئيس ليبرالي أو قومي تقدمي على طريقة حمدين صباحي مثلاً. ولكن انتصار الرئيس الإخواني نسبي جداً ولا ينبغي أن نبالغ فيه. مع ذلك فإنه يمثل حقيقة واقعة ينبغي الاعتراف بها ديمقراطياً حتى ولو كانت معارضة لرغباتنا وتوقعاتنا. كل ما نأمله هو أن يعترف الإخوان بالنتيجة إذا ما هزموا لاحقاً في المعركة الانتخابية القادمة. كل ما نأمله هو ألا يلجأوا إلى التهديد المبطن أو الصريح لإلغاء الانتخابات إذا ما جاءت النتيجة لغير صالحهم. وعلى أي حال، فالجدلية الصراعية الخلاقة أصبحت مفتوحة على مصراعيها بين قوى الحداثة العقلانية من جهة، والقوى الإخوانية – السلفية من جهة أخرى. وبناءً على نتيجتها لاحقاً سوف يتمخض وجه المستقبل العربي. المعركة لم تنته بعد، بل إنها بالكاد ابتدأت: أقصد معركة الذات العربية الإسلامية مع ذاتها. وهي المعركة التي ينتظر العالَم أجمع نتيجتها بفارغ الصبر...

أدنى شك (بالنسبة إلى العالم العربي والإسلامي ككل، لأن العالم الأوروبي حسمها منذ زمن طويل). ولكن قبل الدخول في تفاصيل الموضوع تنبغي الإشارة إلى أن هذه الجماعة السلفية الجديدة التي هددت نخبة من المثقفين والمثقفات التونسيات بالقتل إن لم يتوبوا تتبع نفس استراتيجية ثالث الخلفاء العباسيين المهدي (٧٤٦-٧٨٥)، بل إن اسمها مشتق من اسم "ديوان الزنادقة" الذي أسسه والذي أدى إلى مقتل الشاعر الكبير بشار بن برد وآخرين كثيرين كما ذكرنا آنفاً. في الواقع إن ابن المقفع كان قد قتل في زمن والده المنصور وعمره لا يتجاوز السادسة والثلاثين: أي عندما كان في أوج عطائه وعبقريته. ولكن الذي قتله فعلاً بتهمة الزندقة هو والي البصرة أيام المنصور: سفيان بن معاوية. ينبغي العلم بأن المهدي استتاب بعض المتهمين فتابوا فلم يقتلهم. من هنا الدعوة التي يوجهها "ديوان لجنة تقصي زنادقة العصر" إلى هؤلاء المثقفين التونسيين والتونسيات للتوبة بعد ألف سنة من عهد المهدي: أي للتراجع عن أفكارهم لكي لا يُقتلوا. ما أشبه الليلة بالبارحة! وهذا أسلوب رهيب وفتاك في الابتزاز والإخضاع. ولذا اشتهر الخليفة المهدي باسم: "جزار الزنادقة" من كثرة من قتل من مفكري ذلك الزمان ومبدعيه. ففي عام ١٦٣ هجرية أرسل إلى حلب فجمع من في تلك الناحية من الزنادقة فقتلهم وقطّع كتبهم بالسكاكين. غني عن القول إننا جميعاً مهددون بالقتل، سواء ذكرنا في هذه اللائحة أو لم نذكر. فحتماً سيجيء دورنا في لحظة أو أخرى. وفي ما يخصني كان اسمي قد ورد في لائحة أحد الأصوليين السعوديين من جملة مثقفين آخرين عديدين[١]. وبالتالي كلنا زنادقة بالقياس إلى هؤلاء الإخوة السلفيين هداهم الله، ولا حيلة لنا في الأمر، وسوف يقتلوننا إذا ما استطاعوا. نحن نكتفي بتفكيك أفكارهم أو نقدها، أما هم فلا يكتفون بمهاجمة أفكارنا ونقدها! إنهم يفككونك جسدياً ويقتلونك لأنهم عاجزون عن قتل أفكارك أو دحضها فكرياً بالحجة المنطقية. ينبغي العلم بأنهم في موقف ضعف على المستوى الفكري، ثم إن العصر كله ضدهم وكذلك حركة التاريخ. وبالتالي، لم يبقَ لهم إلا اللجوء إلى السلاح الفعال لتصفية فكرك: أي عن طريق تصفيتك أنت جسدياً. أقول ذلك على الرغم من أن وسائل الإعلام مفتوحة أمامهم على

١ انظر كتاب: **الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها**، لمؤلفه الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي. دار الاندلس الخضراء للنشر والتوزيع. جدة. ٢٠٠٣. وهو في ثلاثة مجلدات. ويبلغ ٢٣١٧ صفحة! وقد نال عليه مؤلفه شهادة الدكتوراة بدرجة الامتياز ومرتبة الشرف الاولى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وفيه تكفير أكاديمي لأكثر من مئتي مثقف عربي...

مصراعيها في الفضائيات والإنترنت والصحف والمجلات والكتب، هذا فضلاً عن المدارس والجوامع وبرامج التعليم إلخ... ولكنهم يدركون أن أفكارهم أصبحت قديمة بالية لا تغري كثيراً على الرغم من القوة المؤسساتية والتجييش الشعبوي الذي يقف وراءها. وهذا ما يغيظهم أشد الغيظ. إنهم يخشون من أن يُسحب البساط من تحت أقدامهم من قبل مثقفي التجديد والتنوير الفكري، سواء أكانوا تونسيين أم لا. بل إنهم مدركون في قرارة أنفسهم أن هذا أمر قادم لا ريب فيه. من هنا هيجانهم العنيف حيث يكاد يجن جنونهم. من هنا لجوؤهم إلى السلاح الأقصى لإيقاف حركة التاريخ إذا أمكن: أي الاغتيالات والتصفيات الجسدية! وهذا ما فعلته محاكم التفتيش الأوروبية المسيحية أيضاً. كانوا يكفرون العلماء والفلاسفة أولاً، ثم يستتيبونهم ثانياً، فإذا لم يتراجعوا قتلوهم. انظر قصة العالم المغدور جيوردانو برينو من جملة آخرين عديدين. وحده غاليليو تاب وتراجع فنجا بجلده!...

وقد اطلعت أخيراً على مقالة لأحد الأصوليين المصريين المقيمين في لندن (الدكتور هاني السباعي) يوجه فيها التهديد نفسه إلى مجموعة من المثقفين العرب. لنستمع إليه قليلاً ونقارن بين تهديده والتهديد الموجه إلى المثقفين والمثقفات التونسيات على يد "ديوان لجنة تقصي زنادقة العصر"، فربما ساعدنا ذلك على فهم آلية اشتغال العقل السلفي الظلامي ومحاكم التفتيش العربية. يقول هذا الشخص الذي يتحلى بلقب دكتور، بل ويحتل منصب مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية!!

> لقد ابتلي هذا العصر بوجود مجموعة من الزنادقة الذين خرجوا من رحم المنظومات المعادية للإسلام. وللأسف الشديد، فإنهم منتشرون في كثير من المناحي الحياتية ولهم صوت مسموع في وسائل الاعلام. والأخطر من ذلك أنهم يعملون في مجال تشكيل العقول وغسيل أمخاخ أجيال كاملة من المسلمين عبر مناصبهم في مجال التربية والتعليم على كافة مستوياته: من أمثال طه حسين الملقب بعميد الأدب العربي ظلماً وزوراً، ونجيب محفوظ صاحب رواية أولاد حارتنا التي نال بسببها جائزة نوبل المشبوهة، ومحمد أركون المولود عام ١٩٢٨ في منطقة القبائل بالجزائر، وعزيز العظمة وهو سوري لا يؤمن بأي دين، ومحمد بنيس من مدينة فاس ولد عام ١٩٤٨، وبلند الحيدري ولد في بغداد عام ١٩٢٦ وهو ملحد زنديق، وأدونيس واسمه الحقيقي علي

أحمد سعيد أسبر ولد بقرية قصابين بسوريا عام ١٩٣٠، واختار لنفسه اسم أدونيس وهو رمز لإله الخصب عند اليونان قديماً، ومعتقده القديم مذهب النصيرية ثم صار شيوعياً ثم تأمرك وصار لادينياً ومن كبار الزنادقة. أسس مجلة مواقف عام ١٩٦٨.

ثم يضيف صاحبنا قائلاً:

ونختار ثلاثة من الزنادقة الجدد لنسلط الضوء على ما تفوح به أقلامهم من زندقة وهم: حسن حنفي، ومالك شبل، وعادل ضاهر.

وأخيراً يخلص الدكتور الأصولي إلى النتيجة العامة الآتية:

لقد خرجت الزندقة الجديدة من رحم الزندقة القديمة. إنها عبارة عن حرب ضروس على الإسلام وأهله من قبل ثلة من العلمانيين اللادينيين المتآمرين الذين انسلخوا عن دينهم وعن هوية أمتهم. ورغم ذلك، وبكل تبجح، يزعم هؤلاء الزنادقة أنهم مسلمون يفهمون الإسلام أكثر من الصحابة الكرام، بل ومن رسول الله ذاته. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[١].

انتهى كلام الدكتور العتيد.

ماذا نستنتج منه؟ شيئين أساسيين: الأول هو أن المعركة الجارية حالياً هي فعلاً على عقول الشبيبة العربية والإسلامية. فمن يربح معركة الأفكار في الساحة العربية والإسلامية سوف يربح كل شيء..بمعنى أنه سيربح السياسة والسلطة وتنظيم المجتمع وفلسفة الوجود العربي ذاته. ولذلك فإن كلا الطرفين (الأصولي والحداثي) سوف يستميتان في خوض هذه المعركة التي يتوقف على حسمها مصير العرب. من هنا تخوف الدكتور هاني السباعي من "غسل أدمغة الشبيبة العربية". فتحديث العقول وتنويرها بأفكار الحداثة والتسامح والمحبة والحرية يعتبره هو غسل أدمغة!

والثاني هو أنه ككل الأصوليين المنغلقين داخل اليقينيات المطلقة التقليدية، لا يمكن أن

١ النص موجود على الإنترنت بعنوان: زنادقة الأدب والفكر. قراءة في تاريخ الزندقة قديماً وحديثاً. بقلم: د. هاني السباعي.

يتصور - حتى مجرد تصور - وجود تأويل آخر للإسلام غير التأويل الانغلاقي السلفي الشائع المسيطر على عقول عامة الشعب من مشرق العالم العربي إلى مغربه. ومعه الحق في الواقع. فبما أن هذا الفهم للإسلام مسيطر منذ ألف سنة تقريباً، فإنه لم يعد أحد بقادر على زحزحته أو تصور إمكانية وجود تأويل آخر غيره. لقد تحول إلى حقيقة مطلقة راسخة يصعب اقتلاعها من العقول. لقد أصبح هو والإسلام شيئاً وحداً. لقد أصبح هو الإسلام. من هنا استحالة نقد الأصوليين أو مهاجمتهم لأنك إذا ما هاجمتهم فكأنك هاجمت الإسلام ذاته! هذا في حين أنه مجرد تأويل من جملة تأويلات أخرى. بل وتأويل متخلف وغير صالح لهذا العصر، لأنه يصطدم بقيمه الأكثر رسوخاً كقيم التسامح وحرية الضمير والمعتقد والمفهوم الحديث للدين وتجاوز الطائفية والمذهبية وبقية حقوق الإنسان. من هنا صعوبة مواجهة الإخوان المسلمين حالياً، هذا إضافة إلى الأصولية الشيعية أيضاً. ومن هنا ضراوة المعركة التي ستدور رحاها الآن ولمدة خمسين سنة قادمة على الأقل. فأنت تناضل ضد ألف سنة من الانحطاط أوالانغلاق الفكري، لا ضد عشر سنين أو مئة سنة! ميزة الربيع العربي هي أنه وضعنا في مواجهة مباشرة مع الأصوليين الذين اكتسحوا الانتخابات ووصلوا إلى سدة السلطة ديمقراطياً! وبالتالي المعركة أصبحت محتومة لا مفر منها.

عفواً نسيت شيئاً ثالثاً أساسياً بل وأكثر من أساسي في التعليق على كلام السباعي وهو الآتي:

بما أن التيار السلفي الانغلاقي هو الذي انتصر في الماضي البعيد على التيار الفلسفي العقلاني الإنساني المدعو "تيار الزنادقة"، فإن صاحبنا يعتقد بأن الشيء نفسه سيحصل اليوم. فهو يفتخر بتصفية الحلاج وابن المقفع وبشار بن برد وهزيمة ابن الراوندي والسهروردي والتوحيدي والمعري والمعتزلة والفلاسفة وكل المبدعين العرب والمسلمين. ولكنه واهم جداً إذ يفتخر ويفرح كل هذا الفرح بل ومستلب عقلياً كبقية السلفيين. هذه المرة سينتصر "الزنادقة" عليكم، أو بالأحرى سوف تتحولون أنتم إلى زنادقة! سوف تكونون زنادقة العصور الحديثة المارقين المحاربين من قبل الحضارة العالمية ككل. سوف تنكشفون أكثر فأكثر على حقيقتكم: أي كأشخاص معادين لقيم العصور الحديثة. هذه المرة لن يعيد التاريخ نفسه، أو قل إنه سيعيدها،

ولكن بالمعكوس. ولذلك فلا مهرب لكم. أنتم أعداء الإنسانية الذين تعرقلون تقدم الشعوب العربية والإسلامية. لقد أصبحتم عبئا علينا، بل وعاراً نخجل به ونعتذر عنه أمام الأمم.

محاكم التفتيش العربية في منظور علم الأصوليات المقارنة

لا يمكن أن نفهم حجم هذه المعركة بكل أبعادها إن لم نضعها ضمن منظور المقارنة الواسعة. بمعنى آخر، فإننا بحاجة لوضع محاكم التفتيش العربية أو الإسلامية في مواجهة محاكم التفتيش المسيحية التي جرت في أوروبا لكي نرى القواسم المشتركة ونضيء الإشكالية بشكل أفضل. لإعداد هذا المقال، اضطررت إلى استشارة بعض المراجع. وقد أثلج صدري كلام الفيلسوف الفرنسي المشهور ميشيل سير عندما قال إنه عندما اطلع على تاريخ الفلسفة الفرنسية منذ أربعة قرون حتى اليوم لم يجد فيلسوفاً واحداً تقريباً إلا وهو منبوذ أو مضطهد أو ملاحق أو محاصر أو حتى مهدد بالتصفية الجسدية[١]. وهذه هي ضريبة الفكر النقدي الحر التي لا بد من دفعها بشكل أو بآخر. ففولتير عاش معظم حياته خارج حدود المملكة الفرنسية بسبب غضب لويس الخامس عشر واليسوعيين، أي الإخوان المسيحيين عليه. وقد فكروا أكثر من مرة في إرسال كوماندوس لاغتياله، هناك حيث يعيش على الحدود السويسرية. وفي إحدى المرات اضطر إلى الاختفاء مدة ثلاثة أشهر عند البروتستانتيين "الزنادقة" أو المعتبرين كذلك من قبل الفاتيكان والكاثوليك الذين لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم... وأما جان جاك روسو فقصته معروفة. فقد عاش طيلة النصف الثاني من حياته تحت التهديد ملاحقاً مضطهداً منبوذاً. وأما كوندورسيه فقد انتحر في السجن. وقس على ذلك... وعموماً، فإن فلاسفة التنوير دفعوا الثمن بشكل أو بآخر.

وقد اطلعت أخيراً على ما يدعى بقائمة الكتب المحرمة التي كانت تنظمها محاكم التفتيش المسيحية وهالني الأمر. فقد اكتشفت أن معظم الكتب التي شكلت مجد فرنسا

١ انظر مقدمة كتابه: **ثناء على الفلسفة في اللغة الفرنسية**. منشورات فايار. باريس. ١٩٩٥. وخاصة من الصفحة ١٣ إلى الصفحة ٢٥.
Michel Serres: *Eloge de la philosophie en langue francaise*. Fayard 1995. pp 13-25.

لاحقاً، وكذلك إنكلترا وألمانيا، كانت مدانة وموضوعة على لائحة المنع بحجة أنها كافرة زنديقة، أو تشجع على الكفر والزندقة. وفوجئت بأنه حتى كتاب كانط **نقد العقل الخالص** لم ينجُ من هذا المصير. وهو أحد أعظم كتب الفلسفة على مر القرون. فقد وضع على اللائحة الشهيرة بعد موته بعشرين سنة فقط. وقل الأمر ذاته عن كتب ديكارت وديدرو وأوغست كونت وأرنست رينان ومونتسكيو، وبالطبع كتب فولتير وروسو، بل حتى كتب الأب مالبرانش أدينت ومنعت على الرغم من أنه مسيحي مؤمن ولكن بطريقة فلسفية ديكارتية عقلانية مستنيرة، لا بطريقة مسيحية تقليدية. وهذا الإيمان العقلاني المتصالح مع الفلسفة كان ممنوعاً آنذاك من قبل الفاتيكان ومحاكم التفتيش الظلامية المسيحية. وكذلك مُنعت كتب الأب لامنيس لأنه كان مسيحياً ليبرالياً وصديقاً لأوغست كونت. فكتابه: **كلام رجل مؤمن**، منع عام ١٨٣٤. وقل الأمر ذاته عن كتابه: **مناقشات نقدية وأفكار متنوعة عن الدين والفلسفة**، فقد منع عام ١٨٤١. بل حتى رواية **مدام بوفاري** الشهيرة لفلوبير أدانتها الكنيسة ومُنعت بتهمة "الانتهاك لحرمة الأخلاق العامة والدينية وكذلك لحرمة العادات والتقاليد الحسنة"، ووضعت على قائمة الكتب المحرمة: أي التي يمنع على المسيحيين المؤمنين قراءتها منعاً باتاً. وكان ذلك بتاريخ ٣١ يناير ١٨٥٧. ويمكن أن نقول الشيء ذاته عن ديوان أزهار الشر لبودلير. وقس على ذلك شيئاً كثيراً... هذه المؤلفات أصبحت الآن مجد الفكر والآداب الفرنسية والأوروبية. والفاتيكان بعد أن تطور لاحقاً أصبح يخجل مما فعله سابقاً. إنه غير فخور بإدانته لهذه الروائع، ولكن بعد فوات الأوان. من هنا اعتذارات بابوات روما المعاصرين عما فعلته الكنيسة سابقاً. فهل سيخجل الأصوليون العرب يوماً ما عن إدانتهم لمؤلفات المبدعين العرب؟ هل سيعتذرون لنجيب محفوظ الذي حاولوا قتله وليس فقط منع رائعته الشهيرة **أولاد حارتنا**؟ هل سينشر الإخوان المسلمون عام ٢٠٥٠ بيان إيضاح واستدراك؟ هل سيعتذرون لفنان كبير يدعى: عادل إمام؟ أو لكاتب حر كفرج فودة؟ وماذا عن المؤمن الرائع محمود محمد طه وآخرين؟

قبل أن أختم هذا المقال سوف أكرر هنا السؤال الوجيه الرائع الذي طرحه ميشيل سير في كتابه المذكور آنفاً: لماذا لم يُقتل أحد على مدار التاريخ باسم الفلسفة؟ لم نسمع أن أحداً قُتل باسم مونتيني أو باسكال أو مين دو بيران أو بيرغسون ولا باسم الحقائق التي توصلوا إليها. هذا في حين أن الآلاف المؤلفة – وربما الملايين – قتلوا باسم الدين والأصولية المسيحية.

وبالطبع كان يمكن أن يضيف: ولا أحد قتل باسم ديكارت أو فولتير أو جان جاك روسو أو عشرات غيرهم. وكان يمكن أن يضيف: و لم يُقتل أحد باسم الفلسفة اليونانية ولا باسم الفلسفة العربية الإسلامية. على حد علمنا لم نسمع أن أحداً قُتل باسم الفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد، بل إن العكس هو الصحيح. انظر تكفير المعتزلة والفلاسفة وإباحة دمائهم... و لم نسمع أحداً قتل باسم سقراط أو أفلاطون وأرسطو، بل إن سقراط هو الذي قتل. لم يقتل إذن أحد على مدار التاريخ باسم الفلسفة، هذا في حين أن الآلاف المؤلفة قتلوا باسم ابن تيمية وبقية الأصوليين الإسلامويين.

الجواب الذي يقدمه ميشيل سير عن هذا السؤال هو الآتي: لأن الفلاسفة عندما كتبوا ما كتبوه خاطروا بحياتهم ووضعوا أنفسهم على حد السكين أو الموت أو السجن أو النفي والطرد من البلاد. ولهذا السبب فإنهم لم يشاؤوا تحويل أتباعهم إلى أصوليين دمويين متعصبين بشكل أعمى. على العكس، لقد جعلوا منهم أناساً أحراراً يفكرون بأنفسهم لا نعاجاً مطيعة كما تفعل الأيديولوجيات الدينية. الفيلسوف دفع غالياً ثمن التفكير بحرية، ولذلك فهو لا يريد أتباعاً مغلقي العقول يسيرون وراءه بشكل أعمى، ويتعصبون له كما يفعل الشيخ مع المريد الديني. الفيلسوف يريد تلامذة أحراراً مثله لا أناساً دوغمائيين. ولذلك فإن الفلسفة لم تنتج أبداً قتلة أو أشخاصاً متعصبين على مدار التاريخ[١].

الفلسفة تنتج عقولاً متفتحة لا تواكلية ولا عبودية.

نستنتج من ذلك أنه لا حرية من دون فلسفة، ولا ديمقراطية من دون فلسفة، ولا حضارة من دون فلسفة. ليس غريباً إذن أن تكون الحضارة العربية الإسلامية قد ماتت بموت الفلسفة وتكفير الفلاسفة!

---

١ المصدر السابق. ص ٢٧. النقل بتصرف.

الفصل السادس

نظرية المؤامرة

ربيع عربي أم خريف أصولي؟

على هامش كتاب ميزري حداد[1]

ربما أحدث هذا الكتاب ضجة في الأوساط العربية والفرنسية. ربما انفجر في وجوهنا كالقنبلة الموقوتة، وغيّر الصورة المثالية التي نشكلها عن الربيع العربي. فقبل ظهوره في المكتبات الباريسية أول ديسمبر، راحت مواقع الإنترنت تنشر صفحات طويلة منه وتجري المقابلات مع صاحبه. وعلى أي حال، فإنه يمشي عكس التيار، وقد قدم له سمير أمين. وسواء اتفقنا معه أو اختلفنا فإن أطروحاته تستحق العرض والنقاش والأخذ والرد... وإلا فما معنى النقاش الديمقراطي؟ أنت لا تتناقش فقط مع من يتفق معك! لكن من هو ميزري حداد مؤلف هذا الكتاب الإشكالي؟ إنه فيلسوف تونسي مقيم في باريس ومتخرج في جامعاتها وأستاذ فيها بعد تخرجه. وهو أحد المسلمين القلائل المتخصصين في اللاهوت المسيحي وليس فقط الإسلامي. عنوان كتابه هو الآتي: **الوجه المخفي للثورة التونسية، الأصولية والغرب: تحالف محفوف بالمخاطر الكبرى.** ويعتبر ميزري حداد مثقفاً غير نمطي بالقياس إلى بقية المثقفين العرب أو غير امتثالي. إنه حائز شهادة

---

1 Mezri Haddad: *La face cachée de la révolution tunisienne. Islamisme et Occident, une alliance à haut risque.* ed. Apopsix, Paris 2011.

الدكتوراه من السوربون في مجال الفلسفة الأخلاقية والسياسية. إنه مسلم ولكنه حارب دائماً التيارات الإسلاموية أو الأصولية. نقول ذلك بالرغم من أنه دافع دائماً عن مناضليهم الحركيين عندما قمعهم بن علي في تونس. وكان أحد أوائل المقاومين لبن علي عندما اعتلى عرش السلطة عام ١٩٨٧. ولذا نفى نفسه إلى باريس لمدة اثني عشر عاماً، ثم تصالح مع النظام والتحق به عام ٢٠٠٢ مفضّلاً إصلاحية الدولة التدريجية على التحالف مع الإسلاميين، على عكس ما فعله تقدميون آخرون كالمنصف المرزوقي مثلاً. وفي عام ٢٠٠٩ عيّنوه سفيراً لتونس في اليونيسكو، ولكنه استقال بكل شجاعة من هذا المنصب عندما اندلعت ثورة الياسمين. ما هي الأطروحة الأساسية للكتاب؟ يرى المؤلف أن انتفاضات الربيع العربي التي قدموها لنا على أساس أنها عفوية، طبيعية، ليست عفوية إلى الحد الذي يصورونه. فلديه وثائق تثبت بأن الأجهزة السرية الأميركية بدأت منذ عام ٢٠٠٨ بتدريب الشباب العربي أو بعضهم على كيفية تفجير الثورات عن طريق الفيسبوك وبقية أجهزة المعلوماتية الحديثة. هذا إضافة إلى البروباغندة الهائلة التي تمارسها قناة الجزيرة. يضاف إلى ذلك أنه من المؤكد أن أوباما هو الذي ضغط على قادة الجيش لكي يتخلوا عن بن علي في تونس وحسني مبارك في مصر. وكان له ما أراد. من يستطيع أن يقاوم ضغوط زعيم الإمبراطورية العالمية؟ وبالتالي هذا الربيع العربي تم التخطيط له بشكل مسبق ووقع الجميع في الفخ من دون أن يدروا. بل إن تسمية الربيع العربي ليست عربية، بل كان أول من استخدمها الإعلام الفرنسي والغربي عموماً. ويرى ميزري حداد أن هذا الربيع سوف يتحول إلى خريف بل وشتاء أصولي قارس. فالمستفيد الوحيد منه الذي سيقطف ثمرته هو الحركات الإسلاموية. وأخيراً، يرى أن الغرب سيندم كثيراً على فعلته تلك، إذ قبل التحالف مع الإخوان المسلمين. هذا باختصار شديد ملخص الأطروحة الذي يذكرنا بنظرية المؤامرة التي يتبناها محمد حسنين هيكل. لكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه على ميزري حداد وهيكل هو الآتي: هل يمكن المؤامرة أن تنجح لولا أن هناك عوامل مساعدة على نجاحها؟ للحق والأمانة ينبغي الاعتراف بأن المفكر التونسي لا ينكر اطلاقاً وجود هذه العوامل الموضوعية. وبالتالي، على الرغم من توكيده لنظرية المؤامرة، يعترف بمشروعية الانتفاضات الثورية العربية. ففي رأيه، إن حكم الاستبداد المخابراتي للحزب الواحد أو حتى للعائلة الواحدة على

الصعيد السياسي، والفساد والرشوة والمحسوبية على المستوى الاقتصادي، والبطالة الكثيفة الهائلة التي تصيب الشباب العربي من جهة ثالثة، كل ذلك يشكل عوامل موضوعية لانفجار الربيع العربي. وبالتالي الأرضية كانت مهيأة تماماً لذلك الانفجار. وأميركا على الرغم من جبروتها لا تستطيع أن تخلق الأشياء من عدم. وهذا يعني أنه بمؤامرة أو من دون مؤامرة كان الوضع ينتظر شرارة فقط لكي ينفجر. وهذا ما حصل عندما ضغطت الأجهزة الأميركية على الزر واندلعت شرارة الثورات. على هذا النحو تصبح نظرية المؤامرة مفهومة وتتخذ أطروحة المؤلف جدية ومعقولية. فالمؤامرة ضمن هذا التفسير لم تعد مؤامرة تقريباً، بل أصبحت عبارة عن استغلال ذكي لوضع جاهز للاستغلال.

الغرب يغيّر استراتيجيته تجاه الأصوليين العرب

ثم يردف ميزري حداد قائلاً: على هذا النحو نفهم سر ذلك التحالف الغريب العجيب بين العواصم الغربية من جهة، وحركات الإسلام السياسي من جهة أخرى. ففي الماضي كان ممنوعاً منعاً باتاً أن تتحدث مع أي قائد أصولي تونسي أو غير تونسي في باريس مثلاً. ويرى أوليفييه روا، أحد كبار المطلعين على الموضوع، أنه كان يستحيل علينا أن نشرب فنجان قهوة مع أي قائد من قادة حركة النهضة التونسية، سواء أكان الغنوشي أم سواه. أما الآن، فأصبح الغنوشي يستقبل بكل سرور في أروقة وزارة الخارجية الفرنسية وتحت الثريات والأضواء اللامعة، وكذلك يستقبل في واشنطن بكل حفاوة وترحيب تمهيداً لتدجينه وتطويعه، كما يفعل الغرب عادة مع الذين لهم مستقبل أو ثقل سياسي. وهذا ليس عيباً على الإطلاق. فالدنيا لا تسير أمورها إلا على هذا النحو، والمرور بمركز الإمبراطورية العالمية إجباري لمن يريد أن يحتل مسؤولية عليا في بلاده.

هذا وقد أعطيت الأوامر للسفراء الغربيين في تونس والقاهرة وسواهما من العواصم لكي يستقبلوا قادة الإخوان المسلمين متى شاؤوا أو لكي يزوروهم في مكاتبهم ومقارهم، وأصبحت العلاقة بين الطرفين أحلى من العسل! وسبحان مغيّر الأحوال... ولم يعد وزراء خارجية الغرب يحلفون إلا باسم الإخوان المسلمين. وأصبحوا يشيدون

ليلاً ونهاراً بمزايا "الإسلام المعتدل". ووصل الأمر بآلان جوبيه إلى حد أنه قال لقادة الحركات الإسلامية الذين جمعهم في معهد العالم العربي بباريس: فاجئونا نفاجئكم! بمعنى: اعتدلوا أكثر فأكثر واستمعوا إلى وصايانا تجدوا ما يسركم. سوف نتخلى عن الأنظمة فوراً من أجل سواد عيونكم. وسوف تحكمون العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، مشرقاً ومغرباً. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

يرى ميزري حداد أن هذا الموقف الجديد يعني حصول متغير جيوبوليتيكي أعظم بالقياس إلى كل المراحل السابقة. وسوف تترتب على ذلك انعكاسات كبرى لم نستوعب حجمها وضخامتها بعد. إنه منعطف تاريخي بكل ما للكلمة من معنى. ثم يضيف قائلاً: على الرغم من هذه الوقاحة الغربية، فإني مصرّ على القول إن شباب تونس ومصر لم يصنعوا الثورة من أجل التوصل إلى "الديمقراطية الإسلامية"! والسؤال المطروح هو الآتي: ما الذي دفع الغرب إلى اتخاذ هذا الموقف غير المتوقع وتغيير استراتيجيته ١٨٠ درجة؟ والجواب شيئان اثنان: البراغماتية السياسية ونزعة الجشع التجارية. من المعلوم أن الفلسفة الذرائعية البراغماتية التي بلورها ويليام جيمس تسيطر على العقلية الأميركية وربما الغربية ككل. وهي تمثل رد فعل على الفلسفة المثالية الأخلاقية الكانطية. ويمكن اختصارها بالعبارة الشهيرة الآتية: الأفكار ليست صحيحة أو خاطئة، بل هي مفيدة أو غير مفيدة، عملية أو غير عملية، فعالة أو غير فعالة. نقطة على السطر... فإذا كان السياق التاريخي العربي الحالي يفرض علينا التعاون مع الإخوان المسلمين، إذا كانوا هم الذين يمثلون الثقل الشعبي، وإذا كانت مصلحتنا تقتضي ذلك فلم لا؟ صحيح أننا لا نحبهم، ولكن المصلحة العملية تفرض ذلك. لا ريب في أن هذا الموقف مضاد لاقتناعاتنا أو لميولنا الطبيعية. ولكن ينبغي ألا نكون مثاليين أكثر من اللزوم، ينبغي أن نكون براغماتيين. ولكن هذا موقف قصير النظر في رأي ميزري حداد. إنه يعبر عن جهل كامل بحقائق الإسلام، بل وعن احتقار عميق للمسلمين على عكس ما نظن. لماذا؟ لأن هذا الموقف ماهوي، ثقافوي، جوهراني: أي عنصري في نهاية المطاف. ينبغي العلم بأن الكليشيهات التي تقف خلف الإسلاموفوبيا، أي كره الإسلام، هي ذاتها التي تقف خلف الحب الظاهري للإسلام. فإذا كان الجنس البشري على اختلاف أعراقه ومذاهبه واحداً في نهاية المطاف، إذا كانت الحضارة هي عبارة عن مزيج من كل الثقافات، إذا

كانت النزعة الإنسانية واحترام حقوق الإنسان هي أشياء كونية، فلا مبرر للقول بأن هناك نمطاً أعلى من الديمقراطية يناسب العالم الغربي المتحضر، ونمطاً آخر أدنى مستوى يناسب العالم العربي المتخلف. لا مبرر للقول بأنه ينبغي تعديل الديمقراطية الغربية لكي تتأقلم أو تتلاءم مع الخصوصية الدينية والثقافية للعالم الإسلامي. نقول ذلك اللهم إلا إذا كان الغرب يتبع وصايا برنارد لويس وصموئيل هانتنغتون اللذين يقولان بأنه لا توجد حضارة بشرية مشتركة بل حضارات مختلفة. وبسبب اختلافها والتفاوتات الأنطولوجية والأخلاقية الكائنة بينها فإنها مرشحة للصدام والعراك عاجلاً أو آجلاً.

الغرب يقول: للمسلمين "ديمقراطيتهم" ولنا ديمقراطيتنا!

وبالتالي، المنطق الغربي يقول ما يأتي: إذا كان المسلمون في أغلبيتهم غير مستنيرين دينياً، إذا كانوا يريدون الإخوان المسلمين والسلفيين في السلطة، فبأي حق نمنعهم من ذلك؟ باسم الديمقراطية المقدسة، وباسم الاعتراف بالخصوصية الثقافية التي تميزهم عن الشعوب المتحضرة المستنيرة، أي نحن بالذات، فإنه ينبغي على الغرب أن يدعم وصول الإخوان إلى السلطة بشرط واحد: أن يظلوا محصورين داخل نطاقهم الجغرافي وألا يتعدوه أبداً. ليفعلوا ما يشاؤون داخل بلدانهم: ليفرضوا الحجاب على المرأة إذا شاؤوا، ليمنعوا الناس من شرب الكحول إذا أرادوا، ليفصلوا بين الذكور والإناث في المدرسة وفي كل مجالات الحياة، ليفرضوا النظام الإسلامي الصارم طبقاً لمقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذه مشكلتهم لا مشكلتنا. ولكن لا يحق لهم أن يفرضوا ذلك خارج نطاق الدول العربية أو الإسلامية. لا يحق لهم أن يفرضوه مثلاً على الجاليات الإسلامية في أوروبا أو أميركا. هذا خط أحمر. في بلاد الحضارات لا يسود النظام الإسلامي أو النظام المسيحي، بل يسود نظام الحداثة والديمقراطية الكاملة: أي النظام العلماني المحكوم بشريعة حقوق الإنسان والمواطن والفلسفة السياسية الحديثة لا بالشريعة الدينية القروسطية. هذه هي خطة الصقر ذي الأجنحة الملائكية باراك حسين أوباما، وعلى النهج نفسه تمشي السيدة هيلاري كلينتون: عندليب الربيع العربي. فما تنفك تتغنى به على مدار الساعة... وهكذا كانت خطة سلفه في البيت الأبيض جورج

دبليو بوش. فقط اختلف الأسلوب: من فظ خشن، إلى أملس ناعم. ولكن النتيجة واحدة والفلسفة واحدة: بمعنى آخر، فإنهم لا يخرجون من منطق صدام الحضارات إلا ظاهرياً. كان ينبغي عليهم أن يخرجوا منه عن طريق دمج الحضارات بعضها مع بعض، وذلك بغية تحقيق البراديغم الحضاري الأعلى: أي التوصل إلى حضارة إنسانية كونية تلتقي على أرضيتها الواسعة كل شعوب الأرض. أو قل إنهم يخرجون من منطق صدام الحضارات عن طريق الفصل بين الحضارات! إنهم يقيمون جدراناً عازلة بين حضارتهم وحضارتنا: فهم هم، ونحن نحن، ولا علاقة بيننا، ولا يمكن أن نصبح متساوين أو من حضارة واحدة. كيف يمكن المتقدم أن يندمج مع المتخلف أو يتعامل معه من موقع الند للند؟ وهذا ينطوي ضمنياً على نظرة استعلائية مبطنة لا تفصح عن نفسها. إنها تعيدنا إلى منطق كيبلنغ الاستعماري قبل أكثر من قرن: الشرق شرق والغرب غرب وأبداً لن يلتقيا!

ولكن يبدو كلام المؤلف مبالغاً فيه هنا. فالسيدة كلينتون والسيد آلان جوبيه يركزان على ضرورة أن تحترم الحركات الإخوانية الحد الأدنى من حقوق الإنسان والحريات العامة وحقوق المرأة إذا ما تسلّمت السلطة، كما ينبغي أن تحترم حقوق الأقليات وألا تضطهدها بعد أن تتسلم الحكم ويفرغ لها الجو. ويقولان إنهما سيكونان يقظين ولن يسمحا للأنظمة الجديدة بتطبيق الشريعة مثلاً كالجلد والرجم وتعدد الزوجات ونشر الأفكار التكفيرية ضد الآخرين... آلان جوبيه يكرر دائماً أن هناك خطوطاً حمراً لا ينبغي تعديها من قبل الأنظمة الجديدة ذات الأغلبية الإخوانية.

يعترف ميزري حداد بأن معادلة: إما الديكتاتورية وإما الأصولية، كانت قد استخدمتها الأنظمة الاستبدادية العربية لتبرير طبيعتها البوليسية الإجرامية وإقناع الغرب بها عن طريق استخدام الفزاعة الإسلامية. وهي فزاعة أصبحت مخيفة جداً بعد ١١ سبتمبر كما هو معلوم. ولكن إذا كان ذلك صحيحاً، فإنه ينبغي على الغرب ألا يقلب موقفه ١٨٠ درجة لمصلحة الإخوان كرد فعل على موقفه السابق الداعم لأنظمة الاستبداد والفساد والإجرام. ينبغي ألا ينتقل من النقيض إلى النقيض. وهو يفعل ذلك إما بسبب شعوره بالذنب جراء دعمه لهذه الأنظمة البوليسية لفترة طويلة، وإما بسبب نزعته البراغماتية الانتهازية.

ولكن لماذا لا نأخذ الأمور بإيجابية؟ لماذا لا نحاول مساعدة الحركات الإخوانية

والسلفية على التطور المتدرج المعقول بدلاً من الصدام معها وجهاً لوجه؟ بما أنها هي التي تمثل الأغلبية الشعبية كما هو واضح من كل الانتخابات التي جرت، فقد يكون موقف جوبيه وهيلاري كلينتون هو الحل الأفضل. فتجربة الحكم والاحتكاك بالواقع المر سوف تجبر حركات الإسلام السياسي على التأقلم مع الظروف والتخلي عن أطروحاتها المتشددة المضادة لروح العصر بشكل صارخ. وعلى أي حال، لا يمكن أن نضع جميع الإسلاميين في خانة واحدة ونحكم عليهم بالإعدام من دون أي تمييز. فهناك إسلاميون مثقفون يرغبون فعلاً في تحقيق المصالحة بين الإسلام والحداثة، كبعض قادة النهضة في تونس مثلاً، وهناك ظلاميون تكفيريون لا ينفع معهم أي حوار... وعلى أي حال، فإن الغرب لم يعد يعرف كيف يتعامل معنا: إذا تعامل مع الأنظمة الديكتاتورية هاجمه الإسلاميون بعنف بل وقاموا بالتفجيرات الإرهابية حتى داخل عواصمه! وإذا تعامل مع الإسلاميين المعتدلين هاجمه الليبراليون العرب كما يفعل المؤلف هنا. وبالتالي، لم يعد يعرف على أي رجل يرقص؟ إنه يعلم علم اليقين أن الجماهير العربية أمية، فقيرة، جاهلة، في قسم كبير منها، وأن الشيخ القرضاوي يؤثر عليها أكثر من كل الأحزاب العربية التقدمية مجتمعة. وبالتالي، فهو مضطر إلى التعامل مع الشيخ القرضاوي واتخاذه كمحاور مباشر أو غير مباشر. في انتظار أن تستنير الشعوب العربية وتخرج من فقرها وعذابها، في انتظار أن يصبح الليبراليون العرب شعبيين لا نخبويين فقط، لا يوجد حل آخر. ينبغي أن نعترف بالحقيقة المرة: نحن لا نمثل الشعب، يمثله شيوخ الجوامع والفضائيات والمثقف الأصولي... والشرعية في العالم العربي لا تزال دينية لاهوتية وليست علمانية فلسفية. نحن لسنا في أوروبا التي لا يتجرأ رجال الدين فيها على فتح فمهم مخافة أن يسخروا منهم! كما يلاحظ القارئ، أحاول هنا أن أعرض أطروحات المؤلف والأطروحات المضادة له، بغية إضاءة الإشكالية إذا أمكن...

هل تستطيع قطر الوهابية تعميم النموذج الإخواني – السلفي على العالم العربي؟

ذكرنا أن الأطروحة الأساسية للكتاب تقول بأن الربيع العربي ليس "عفوياً" إلى الدرجة التي نتوهمها. فالولايات المتحدة قررت إعادة ترتيب بيت الشرق الأوسط الكبير بما

يتناسب مع مصالحها في المنطقة. وقد استخدمت الاستخبارات المركزية الأميركية لهذا الغرض عدة منظمات "خيرية" غير حكومية كواجهة لتحريك الأمور من خلف الستار. وهذه المنظمات عرفت كيف تتلاعب بعقول الشباب القائمين على الفيسبوك والإنترنت أو بعضهم على الأقل. وعلى هذا النحو انطلقت شرارة الحريق، وراحت تنتقل من بلد إلى بلد كما لو بقدرة قادر. والغرب يراقب كل ذلك ويحرك الخيوط... لكن ما علاقة دولة قطر بكل ذلك؟ يرى المؤلف في أطروحته المركزية أن قطر تلعب دور حصان طراودة لمصلحة الولايات المتحدة وإسرائيل. ولكن علاوة على ذلك، فإنها تشتغل أيضاً لمصلحتها. فقد وجدت في هذه الانقلابات الثورية فرصة سانحة لفرض أيديولوجيتها السلفية الوهابية على العالم العربي، وجيّشت طاقات الجزيرة و"البابا المعصوم" يوسف القرضاوي لهذا الغرض. فراح يوزع الفتاوى الإلهية يميناً وشمالاً كيفما اتفق، وعلى هوى تقلبات السياسة الخارجية القطرية ورغبات الأمير. وقبل الغرب بذلك بشرط أن تظل مصالحه ومصالح ربيبته مضمونة. وهكذا تم الاتفاق على الصفقة: كل واحد من الطرفين رابح. وبالتالي، هذا الربيع القطري القرضاوي السلفي الأميركي ليس هو الربيع الحقيقي الديمقراطي الذي تنتظره الشعوب العربية منذ عقود.، أو قل كان مستهلاً ولكنهم صادروه وحرفوه عن مساره الصحيح الأولي. ووقع الشباب السذج في الفخ. وأكبر دليل على ذلك أن شباب ميدان التحرير الذين قاموا بالثورة خرجوا منها بخفي حنين. فقد أسقطوا الاستبداد، وحسناً فعلوا، وتحدوا الشرطة والمجلس العسكري وكل شيء، وحسناً فعلوا أيضاً. ولكنهم غفلوا عن الحقيقة الآتية: وهي أن عدوهم الأساسي هو القوى السلفية والإخوانية الظلامية التي راحت من تحت أنوفهم تقطف ثمار ثورتهم وربيعهم وتضحيات كل الشهداء الذي سقطوا. ويرى المؤلف أن الغرب يرتكب خطيئة عظمى إذ يتحالف مع هذه القوى الأصولية التي كانت في حالة هبوط وانحسار قبل اندلاع الانتفاضات الثورية. فلماذا أعادها إلى الواجهة من جديد ونفخ فيها الروح فأخذت تتفرعن وتسيطر وتهدد وتكتسح الساحة انتخابياً؟ لماذا أجهض الحلم الديمقراطي العربي وفرغه من محتواه وأعطاه كهدية لأعداء الحرية والديمقراطية وكل الفلسفة الإنسانية الحديثة؟ ماذا يريد الغرب؟ هل يريد أن يظل العرب خارج التاريخ يتخبطون في غياهب القرون الوسطى؟ هل يريد أن يشغلهم بالتوافه والثانويات

كلبس الحجاب ومنع الاختلاط وتطبيق الحدود وتعدد الزوجات لكي يتأخر دخولهم إلى ميدان الحضارة؟ هل يخشى أن ينافسوه إذا ما اكتشفوا أول الخيط الذي يقود إلى المستقبل؟ هل يريد لهم أن ينتقلوا من ديكتاتورية عسكرية إلى ديكتاتورية لاهوتية أشد وأدهى؟ هل يعجبه أن يظلوا حيث هم في مستنقع تخلفهم، وهكذا يبقى هو سيد العلم والحضارة والفلسفة والاستنارة؟ ماذا يريد الغرب بالضبط؟ ويصل غضب ميزري حداد على فرنسا إلى حد قول ما يأتي: إذا ما وضعت فرنسا نفسها تحت الحماية الوهابية لقطر فإنها لن تخشى على نفسها من النظام الطالباني الذي سينبثق حتماً في ليبيا، والذي ساهم السيد ساركوزي وفيلسوفه الكبير برنار هنري ليفي في انبثاقه وانتصاره. ثم يردف قائلاً في ما يخص تونس: حركة النهضة التونسية سوف تختار من بين الأحزاب التقدمية واليسارية التي تحالفت معها منذ نهاية التسعينات شخصية معينة لرئاسة الجمهورية، تماماً كما فعل الخميني مع بني صدر. والنتيجة معروفة (هذا الكلام كتب قبل تعيين المنصف المرزوقي لرئاسة تونس، وقبل حصول الانتخابات أصلاً). ثم يردف قائلاً: لن يقطع الأصوليون التونسيون يد السارق، ولن يتراجعوا فوراً عن حقوق المرأة المثبتة في قانون الأحوال الشخصية، والذي هو الأرقى في كل أنحاء العالم العربي. ولن يغلقوا الفنادق، ولكنهم سيشجعون السياحة الإسلامية. لن يجبروا النساء على لبس الحجاب ولكن الضغط الاجتماعي الذي سيمارسونه بشكل "عفوي" أي من تحت لتحت سوف يجبرهن. لن يغيروا راديكالياً القانون المدني وقانون العقوبات، ولكنهم سيحاولون جاهدين "شرعنته"، أي إدخال الشريعة إليه عن طريق لمسات جزئية بسيطة متدرجة على طريقة طيب رجب أردوغان في تركيا. وهو تكتيك ماكر برع فيه "الإسلام المعتدل"! وقد أصبح أردوغان زعيم مدرسة البراغماتية الإسلامية كما هو معلوم. لقد أصبح النموذج الأعلى لكل قادة الإخوان العرب من بنكيران إلى الغنوشي إلى الآخرين... هذه هي البراغماتية الإسلامية الجديدة المعمدة من قبل الكهنة في جامع تركي! كل قادة الحركات الإسلامية العربية أعلنوا أن أردوغان هو نموذجهم الأعلى الذي يحتذى. ولذا أصبح الرجل يتصرف بشكل إمبراطوري تجاه العالم العربي، تماماً كما السلطان العثماني أيام زمان...

أردوغان والعلمانية: مكرهٌ أخوك لا بطل!

ثم يستدرك ميزري حداد قائلاً: ولكن هل يعلمون أن هذه الإسلاموية المخففة أو ما يدعونه بالإسلام المعتدل لن ينتصر في ليبيا أو مصر ولا حتى في تونس كما انتصر في تركيا؟ لماذا؟ لأسباب تاريخية وسيكولوجية وسوسيولوجية أولية. ثم لسبب آخر: وهو أن أردوغان أو حزب التنمية والعدالة التركي لم يختر صيغته التحررية الحالية بل أجبر عليها إجباراً! أردوغان كان أصولياً إخوانياً مثلهم وكان يتمنى لو بقي أصولياً إخوانياً، وحزبه يحتوي على الكثير من الإخوان المتشددين الذين يكرهون العلمانية والحداثة كره النجوس... ولكن عدة عوامل داخلية وخارجية أجبرته على التطور والتغير غصباً عنه. نعم لقد أجبرته الجمهورية التركية العلمانية على التطور والتخلي عن المواقف الإخوانية الأصولية السابقة، كما أجبره الجيش التركي، ذلك الساهر الأمين على إرث مصطفى كمال أتاتورك. يضاف إلى ذلك، أن حزب أردوغان اضطر إلى التأقلم مع تراث ديمقراطي كان موجوداً سابقاً في تركيا، وهو معدوم في العالم العربي. وبالتالي، لا ينبغي أن نخلط بين الأمور. تركيا ليست ليبيا ولا مصر ولا تونس. يضاف إلى ذلك أيضاً أن نزعة الهيمنة لأردوغان يتصدى لها حزب قوي هو حزب الشعب الجمهوري الذي أسسه أتاتورك شخصياً عام ١٩٢٣. أما حزب بورقيبة المؤسس عام ١٩٣٤ فكان يمكن أن يلعب الدور نفسه تجاه النهضة والغنوشي لولا أنهم فككوه وقطعوا رأسه بعد الثورة. وقل الأمر ذاته عن الحزب الوطني الديمقراطي لمبارك في مصر... كل هذه العوامل المتوافرة في تركيا والمشجعة على الانفتاح والتحرر من عقلية الإخوان المسلمين الانغلاقية الضيقة غير موجودة في أي بلد عربي. من هنا الخوف على مصير هذه البلدان بعد الربيع العربي الذي قد يتحول إلى خريف خائب أو حتى شتاء قارس.

وقد يتساءلون: لماذا ربحت "النهضة" الانتخابات في تونس؟ وجواب المؤلف هو الآتي: لأن التونسيين مهيأون سيكولوجياً وثقافياً لاستقبال الأصوليين وكأنهم منقذون أرسلهم الله لكي يعيدوا للإسلام دوره ومجده في تونس المحروسة بعد طول كسوف وغياب. لقد أنقذوا الروح التونسية من اللعنة الأبدية التي أصابتها طيلة العهود السابقة. في الماضي كنا شعباً كافراً زنديقاً، والآن مع النهضة سوف نعود إلى القيم "الحقيقية" للإسلام! سوف نصبح طاهرين، مطهرين. وعلى هذا النحو، سنخرج من الجاهلية نهائياً

ونقلب تلك الصفحة السوداء للمرتدين الذين أهانوا الإسلام في عقر داره منذ عام ١٩٥٦. باختصار شديد: منذ الاستقلال كنا قد أصبحنا شعباً وثنياً مبتعداً عن الله من دون أن نعي ذلك... على هذا النحو يفكر الشعب التونسي البسيط الطيب... والذنب ليس ذنبه، بل ذنب الفقر والجهل والظروف. ثم يردف مزري حداد قائلاً:

ينبغي العلم بأنه لا بورقيبة ولا بن علي قاما بتهيئة الشعب التونسي للامتحان الديمقراطي الذي لا يمكن أن يحصل إلا بعد تدرب طويل على العلمانية الدنيوية التي لا نطابق بينها وبين العلمانية الفرنسية بالضرورة. فهناك عدة أنواع من العلمانية لا نوع واحد. هناك عدة طرق لإقامة علاقات حديثة بين الدين والدولة أو للفصل بين هذه العلاقات. على العكس من ذلك، لقد حاول كلاهما، أي بورقيبة وبن علي، أن يستغلا العاطفة الدينية للشعب التونسي لأغراض سياسية، مثلما يفعل كل حكام العرب والمسلمين. لماذا فعلا ذلك؟ لكي يعوضا عن نقص المشروعية الديمقراطية لنظامهما. فما دام النظام غير ديمقراطي، أي غير منتخب بشكل حر من قبل الشعب، فلا يمكن إلا أن يستغل الحاكم هيبة الدين ومشروعيته العظمى لنيل بعض المشروعية في أنظار شعبه. هذه بدهية. ويمكن أن نضيف إلى كلام ميزري حداد ما يأتي: ما دام الدين لم يتعرض للنقد التاريخي كما حصل للمسيحية في أوروبا، وما دامت العلمانية لم تحل محله كذروة عليا للمشروعية السياسية، فإن الأمر سيظل هكذا إلى أبد الآبدين...

ويمكن أن نضيف مع المؤلف ونزيد عليه قائلين: ليس المقلق أن يكون التونسيون والعرب عموماً بحاجة إلى وقت طويل قبل التوصل إلى تشكيل دولة علمانية ديمقراطية حديثة. فهذا شيء طبيعي ولا ينبغي أن يدهش أحداً. أوروبا ظلت تصارع ذاتها وتراثها الديني طيلة أربعة قرون حتى توصلت إلى ذلك. هذه قصة طويلة وصعبة ومتعرجة ومليئة بالمطبات والتقدم إلى الأمام والتراجع إلى الخلف بغية التقاط الأنفاس في كل مرة، إلخ. ولكن المقلق فعلاً هو ذلك الزمن القصير جداً الذي لزم على قوى الارتكاس أن تستخدمه لكي تحقق بعض الانتصارات الرمزية، ولكي تقنع الشعب التونسي بأنها هي المستقبل! على الرغم من كل الفرحة الغامرة الآن، والإجماع الشامل غرباً وشرقاً، فإني مصرّ على القول بأن الأصولية ليست المستقبل بل الماضي الذي لا يمضي... إنها عبارة عن حاضر عجوز يرفض أن يصبح ماضياً. فكيف اكتسى أثواباً براقة أخيراً؟ كيف خدع

كل الناس بمن فيهم المثقفون؟ وكل ما نخشاه هو أن يغطي ضباب الخريف والشتاء قريباً على الربيع العربي.

شبح الاستعمار الجديد يتراءى خلف الربيع العربي

علاوة على ذلك فإني سأقول ما يأتي: وراء هذا الكرنفال الديمقراطي الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج ألمح شبح مشروع الاستعمار الجديد. هناك تحالف يجري تجميعه وحشده الآن لسحق آخر معاقل المقاومة العربية، ولعزل إيران التي أصبحت قوة إقليمية عظمى مزعجة للكثيرين. بم يتمثل المشروع الاستعماري الجديد؟ ما هي الأدوات التي سيستخدمها لتحقيق هدفه؟ إنه يحاول بعث النزاع المذهبي المفتعل بين السنة والشيعة، كما ويحاول اللعب على وتر الصراع التاريخي بين الإمبراطورية الفارسية الصفوية والإمبراطورية العثمانية. وبعد ذلك كله يريد أن يضع كل الأنظمة الإخوانية العربية التي ستخرج من صناديق الاقتراع تحت مظلة أردوغان والهيمنة التركية. لماذا؟ لأن القائد التركي لا يتمرد على الأوامر مثل الإيرانيين. وأكبر دليل على ذلك هو أنه أذعن لنشر شبكة الدرع الصاروخية الأميركية على أراضيه (بين قوسين وكتعليق على كلام ميزري حداد القائل بأن الصراع السني – الشيعي مفتعل من قبل الغرب أقول إنه مخطئ تماماً هنا. فهذا الصراع الذي اخترق تاريخ الإسلام كله لا يمكن القول بأنه مفتعل.على العكس، إنه شرخ في تاريخ طويل... ولو كان سورياً أو عراقياً أو لبنانياً أو خليجياً أومشرقياً لما قال هذا الكلام. لا. الصراعات المذهبية والطائفية والعرقية موجودة فعلاً على أرض الواقع، وهي تغلي في النفوس غلياناً في هذه اللحظة بالذات. ولا يمكن أن تلوم الغرب على استغلالها لتقسيمك، بل ينبغي أن تلوم حالك لأنك لست قادراً على تجاوزها عن طريق فكر تنويري جديد). لكن لنواصل رحلتنا الطويلة مع ميزري حداد. يقول: هناك مخطط لتقسيم ليبيا في حالة أن النظام الجديد لمصطفى عبد الجليل لم ينجح في مهمته. وعندئذ، قد يتعرض هذا البلد الذي يغص بالثروات الطبيعية للمصير نفسه الذي تعرض له العراق من قبل. فهو مقسم عملياً إلى ثلاث دول بعد الاحتلال الأميركي، وذلك تلبية لرغبات إسرائيل وأوامرها. وعلى غرار السودان، فإن كل البلدان العربية ذات المساحة

الواسعة سوف تتعرض للتقسيم طبقاً لمعايير طائفية وعرقية، بغية تحقيق أهداف اقتصادية تشبع نهم الغرب الذي لا يشبع (بترول، غاز، مياه). ويعتقد ميزري حداد أن موقف الجزائر من الصراع الليبي يشرف أحفاد الأمير العظيم عبد القادر الجزائري. فقد رفضت أن تلعب اللعبة القذرة: لعبة المخطط الكولونيالي الجديد. ولأنها رفضت ذلك، فإنها أصبحت مستهدفة من قبل بدو قطر وحماتهم الأميركيين - الإسرائيليين. ولهذا السبب، فإن لورنس العرب الجديد برنار هنري ليفي أصبح يسنّ أسنانه على الجزائر ترقباً لاندلاع الربيع العربي فيها. ومعلوم أنها بلده الأصلي، حيث ولد فيها عام ١٩٤٨، وذلك قبل أن تنتقل عائلته إلى المغرب ثم فرنسا. وبالتالي، فالهجوم على الجزائر وتقسيمها إلى دولة عربية ودولة بربرية يهمه جداً.

قد يقول قائل: ولكنك تفسر كل شيء عن طريق نظرية المؤامرة. ويجيب المؤلف: أعترف بأنه لا يكفي أن يضغط الأميركان على الأزرار لكي يهيجوا كل جيوشهم المحلية على الفيسبوك والتويتر والإنترنت والفضائيات، ويشعلوا ثورة ربيع عربي في هذا القطر أو ذاك. فلو لم تكن الظروف الاجتماعية والسياسية مهيأة لذلك لما انتفض الشباب العربي بالغضب ضد أنظمة الفساد، ولما كان الربيع العربي. هذا شيء مفروغ منه. وبالتالي، فللربيع العربي أسباب واقعية موضوعية، هي الديكتاتورية والفساد والرشوة والمحسوبية والبطالة التي تصيب نسبة هائلة من شباب العرب. وهذا يعني أن كل شروط الانفجار العربي كانت جاهزة ومتوافرة، ولكن مبارك وبن علي وسواهما من الديكتاتوريين غضوا البصر عنها ودفنوا رؤوسهم في الرمال كالنعامات. فكان أن كنستهم الانفجارات كنساً. ولكن هذه الحالة من الغضب الاجتماعي للشبيبة العربية استغلها الاستراتيجيون الأميركان لقلب الأنظمة وتجديد الطبقة السياسية العربية، وقطع الطريق على الديمقراطية الحقيقية والعدالة الاجتماعية الحقيقية.

وبالتالي، فإن المؤلف يوجه النصيحة الآتية إلى كل الأنظمة الواقعة في مرمى الهدف الفرنسي - الأميركي: سارعوا إلى إجراء الإصلاحات الحقيقية قبل فوات الأوان. فعلاج الثورات الحقيقي ليس القمع الدموي المجرم بل الإصلاح الفعال. فهو وحده القادر على إيقافها. تلزم إصلاحات ديمقراطية واقتصادية واجتماعية ملحة، وإلا فأمامكم الطوفان! وقد أعذر من أنذر...

ثم يختتم المؤلف كلامه قائلاً: يريدون إقناعنا بأن كل هذه الثورات عفوية، بأن هذه الفتنة الكبرى شيء جيد بالنسبة إلى العالم العربي... ولكن وراء هذا الانتشاء بالحرية والفرح بالديمقراطية يقبع شبح ثلاثة مخاطر قاتلة: الأصولية الظلامية، والفوضى الشاملة، وفقدان السيادة الوطنية لمصلحة الأجانب. ينبغي أن يعلم العرب أن هناك ما هو أخطر من الديكتاتورية: الفوضى الشاملة بعد انهيار الدولة، وما هو أخطر من الفوضى الشاملة: الحرب الأهلية، وما هو أخطر من الحرب الأهلية: عودة الاستعمار.

أسئلة وأجوبة

عندما طرحوا على ميزري حداد هذا السؤال: هل تعتقد بأن حزب الغنوشي قد أصبح ديمقراطياً وقطع مع كل فكر توتاليتاري؟ أجاب: لا أعتقد ذلك. فالأيديولوجيا التي قام عليها هذا الحزب تخلط بشكل كامل بين الدين والسياسة. وبالتالي، لا يمكن حزباً كهذا أن يكون إلا استبدادياً توتاليتارياً.

ولكن السؤال المحير المطروح في الواقع هو الآتي: لماذا صوّت كل هذا العدد الكبير من نساء تونس وشبابها المعولم الحداثي المنكب على الفيسبوك والتويتر لمصلحة حزب أصولي هو حزب النهضة؟ السؤال نفسه ينطبق على كل البلدان العربية الأخرى من مصر إلى المغرب إلى ليبيا حتماً... الجواب: يرى ميزري حداد أن الشباب الحداثي المتطور لم يصوّت للغنوشي. هذا غير صحيح. ولكن ماذا يمثل سوسيولوجياً، أي عددياً، في المجتمع التونسي؟ ليس قسماً كبيراً من الناس على عكس ما تتوهمون. الأغلبية العظمى التي صوّتت لهم هي من فقراء الأرياف والأحياء الشعبية والناس البسطاء والأميين. وهؤلاء يشكلون أغلبية الشعب. الشعب التونسي لا يزال فقيراً ومتأخراً في شرائح واسعة منه. هذه حقيقة. وأغلبية هؤلاء الناخبين يعتقدون عن جد بأن الأصولية تجسد فعلاً الطهارة الأخلاقية. وبالتالي، فالتصويت لهم واجب ديني، بل إن التصويت للعلمانيين يعتبر خطيئة وحراماً. إن هذا الخلط الذكي بين الإسلام والإسلاموية، بين الدين الروحاني - الأخلاقي والأيديولوجيا السياسية المنبثقة عنه، هو الذي لعب عليه تيار الغنوشي وكل تيارات الإسلام السياسي بمهارة. وهو سبب

نجاحهم واكتساحهم لكل الانتخابات التي تجري. فالناس البسطاء بل وحتى أنصاف المتعلمين لا يستطيعون التفريق بين الدين وبين التأويل الأصولي له. إنهما شيء واحد بالنسبة إليهم. على هذا النحو نجح حزب الغنوشي في احتكار الإسلام كله لوحده، فأصبح الإسلام وحزب النهضة متطابقين. هنا تكمن القوة الهائلة لحزب الغنوشي وكل أحزاب الإسلام السياسي كما قلنا. إذا كان التصويت مشروطاً منذ البداية بالخوف من النار والطمع في الجنة، فإن اللعبة الديمقراطية مزيفة مسبقاً ومحسومة سلفاً للتنظيمات الدينية أو التي تستخدم الدين بكل فعالية كأيديولوجيا سياسية. ولا يستطيع التيار العلماني التقدمي أن يفعل شيئاً. دوره لم يجئ بعد ولن يجيء قبل سنوات طويلة، عندما تستنير العقول...

والسؤال المطروح الآن هو الآتي: كيف ترى مستقبل تونس؟ هل المكتسبات التقدمية التنويرية لعهد بورقيبة مهددة؟

الجواب: في علم السياسة كما في علم الرياضيات هناك معادلات ذات مجاهيل عديدة، وهناك خفايا ودقائق ومفاجآت. كل شيء يمكن أن يحصل في تونس. ولكن كل شيء أيضاً يعتمد على مقاومة قوى التقدم والمجتمع المدني والمسلمين المستنيرين حقاً. من المؤكد أن جماعة النهضة يحقدون على بورقيبة بشكل أعمى.، وبالتالي فمكتسبات المرأة التونسية ليست خطاً أحمر بالنسبة إليهم. وقد يتراجعون عنها أو عن بعضها إذا ما استسلم لهم المجتمع وقواه الحية. ولكن هذه المكتسبات ليست مهددة فوراً. ينبغي أن تستتب الأمور لهم تماماً قبل أن يحاولوا التحرك والضرب. الإسلاميون أصبحوا أذكياء ومحترفي سياسة، ولا يكشفون أوراقهم دفعة واحدة. سوف يستخدمون التكتيك التدريجي كما قلنا. يضاف إلى ذلك أن الأميركان لا يزالون بحاجة إلى النموذج التونسي الجيد قبل أن ينتقلوا إلى المرحلة التالية من الربيع العربي: إسقاط سوريا وربما الجزائر من بعدها. وكما كان البابا يوحنا بولس الثاني يقول للمسيحيين: لا تخافوا! كونوا مطمئنين! أنا هنا والروح القدس معي أحميكم، فإن أوباما يقول للعرب: لا تخافوا يا عرب. الأصولية هي المستقبل. هذا أفضل الموجود. اقبلوا بحظكم في الحياة و"بديمقراطية دينية" على قدكم ومقاسكم ومستوى تطوركم، أو بالأحرى تخلفكم وتزمتكم. لا تستحقون أكثر من ذلك. لكم الشريعة، ولنا البترول. لكل دينه!

سؤال: في رأيك هل سيكون الشتاء الأصولي أسوأ في ليبيا ومصر منه في تونس؟

حداد: من دون شك. في مصر سيربح الإخوان الانتخابات النيابية بشكل صارخ، أكثر مما فعلته النهضة في تونس (هذا الكلام قيل قبل الانتخابات المصرية). أما بالنسبة إلى ليبيا فالوضع سيكون أسوأ وأسوأ. إذا ما استطاعت المحافظة على وحدة أراضيها ودولتها القومية، فإن نظامها إما أنه سيكون نسخة طبق الأصل عن وهابية قطر، أو نسخة طبق الأصل عن وهابية الطالبان في أفغانستان. ويا له من خيار! في كل بلد يتعرض لظاهرة الربيع العربي سنلاحظ أن الأصولية ستتخذ الطابع السوسيولوجي والسيكولوجي، أي الاجتماعي والنفساني، لمعطيات القطر المعني. هناك معطيات محلية موجودة في ليبيا غير تلك الموجودة في تونس أو مصر إلخ. والعكس صحيح أيضاً.

ينبغي العلم بأن الأصولية المعتدلة عبارة عن سمفونية مضللة للعقول. وقد اخترعها الغرب منذ بضع سنوات لتخديرنا. لا ريب في أن الإسلام التركي على طريقة أردوغان مختلف عن إسلام الطالبان وإسلام قطر، ولا علاقة له بإسلام إيران الخمينية. ولكن على الرغم من ذلك، يبقى صحيحاً القول إن الأصولية هي الأصولية! إنها عبارة عن عقيدة لاهوتية - سياسية يتخذ فيها الإيمان الديني صفة القانون الملزم. إذا كانت الأصولية المعتدلة موجودة، فلماذا لا يعترف بها السيد ساركوزي هنا في فرنسا. ألا يوجد في فرنسا مسلمون أكثر مما يوجد في قطر بخمسين مرة؟ وعندئذ يصبح البرلمان الفرنسي مفتوحاً لنائبة تلبس البرقة الأفغانية ونائب يلبس الطربوش العثماني. شيء حلو! ألن يكون ذلك تجسيداً للتعددية الثقافية وحق الاختلاف؟!

الفصل السابع

خواطر حول الديمقراطية والدولة المدنية

سؤال سبينوزا: هل الشعب مازوشي؟

بادئ ذي بدء أحب القول إن كثرة التحدث عن الديمقراطية بمناسبة ومن دون مناسبة سوف يؤدي إلى ابتذالها، مثلما حصل لبقية الشعارات والمفردات الخاصة بالخطاب السياسي العربي. كلنا يعلم أننا أصبحنا عاجزين عن استخدام كلمات من نوع الوحدة والحرية والاشتراكية إلخ، لأنها صدئت من كثرة الاستخدام بلا فائدة. كل فكرة ترفع كشعار ليلاً ونهاراً ولا تطبق على أرض الواقع، أو قل يطبق عكسها، تفقد مصداقيتها. أقول ذلك على الرغم من أهمية الديمقراطية، وأنها تمثل "نهاية التاريخ" كما قال فوكوياما وبحق. فحتى الآن، لم يظهر أي نظام آخر أفضل منها، ولا يتوقع ظهوره في المدى المنظور. وما انتفاضة الشعوب العربية الجارية حالياً إلا دليل على مدى تعطشها للمشاركة السياسية، ورغبتها في وضع حد للأنظمة الشمولية التي لم تعد تقنع أحداً بخطابها الامتثالي البائس، الفارغ، الفاقد لكل مصداقية. والناس جميعاً غاضبون على هذه الأنظمة الشمولية التي تسلمت الحكم بعد الاستقلال، وفشلت على كافة الأصعدة والمستويات. فلا تنمية حقيقية حصلت، ولا تنوير فكرياً تحقق، ولا جهل تراجع... ولكن ينبغي العلم بأنه ليس من السهل الانتقال من حالة الاستبداد والعبودية إلى حالة الحرية والديمقراطية. الكلام سهل والفعل هو الصعب. فمن كثرة تعودنا العبودية على مدار التاريخ أصبحنا ننكر طعم الحرية. ومن

كثرة تعودنا الاستبداد والقمع أصبحنا ننكر طعم التشاور والديمقراطية. هذه أشياء معروفة في علم النفس. العبيد يصرون على عبوديتهم ويتمسكون بها أكثر من الأسياد إذا ما فكر أحدهم في تحريرهم فجأة منها. إنهم يفضلون البقاء في ظل أسيادهم خاضعين، خانعين، بل ويجدون متعة مازوشية عجيبة في هذا الخضوع والخنوع. والشعوب أيضاً قد تكره الحرية والديمقراطية من كثرة ما فعست وقمعت وأرهبت من قبل المخابرات والملاحقات. كان الفيلسوف الفرنسي جيل ديلوز قد كتب دراسة ممتعة عن سبينوزا. وفيها ترد العبارة الآتية: إن أحد الأسئلة الأساسية التي طرحها سبينوزا في كتابه عن اللاهوت السياسي هو الآتي: لماذا يناضل الشعب من أجل عبوديته وكأنها الحرية[١]؟ لنضرب على ذلك مثلاً ركض الشعب الإيراني كله تقريباً وراء الخميني، على الرغم من أنه يعيده إلى القرون الوسطى ويقيد حريته بالتشريعات الفقهية واللاهوتية القديمة. هل يمكن المرأة الإيرانية التي تمثل نصف السكان أن تقبل بمجتمع من هذا النوع: مجتمع يفرض عليها الحجاب أو التشادور بالقوة؟ هذا فضلاً عن الرجم المرعب والوحشي للمرأة العاشقة. بل هل يمكن الرجل الإيراني أن يقبل بتطبيق الحدود بما فيها حد الجلد إذا ما شرب كأساً من البيرة أو الخمرة في أحد المقاهي؟ وقل الأمر ذاته عن حركات الإسلام السياسي والإخوان المسلمين والسلفيين بشكل عام. الشعب يتبعهم أكثر مما يتبع التيارات الليبرالية التحديثية التي تحاول تحريره وتبغي تقدمه. لماذا؟

١ انظر كتاب سبينوزا لجيل ديلوز. المطبوعات الجامعية الفرنسية. ١٩٧٠. ص ١٤.
Gilles Deleuze. *Spinoza*. P.U.F. Paris 1970. p 14.

لكي نوضح الإشكالية أكثر ينبغي القول إن الشعب إذ يخضع لرجال الدين يشعر وكأنه يطيع الله ذاته من خلالهم. وبالتالي فهو يشعر بسعادة كبيرة وطمأنينة حقيقية في هذا الخضوع. إنه بحاجة إلى هذا الخضوع لكي يتحاشى غضب الله عليه. وإذا ما غضب عليه الشيخ الكبير المبجل فإنه يشعر بالرعب واختلال التوازن نفسياً. ولكن علاقة التبعية والخضوع هذه يستغلها الشيخ لكي يقنع الناس بالخضوع للحكام موهماً إياهم بأن طاعتهم من طاعة الخالق عز وجل. على هذا النحو استطاع رجال الدين المسيحيون إخضاع الشعوب الأوروبية للملوك الحق الإلهي المطلق، وذلك حتى اندلاع الثورة الفرنسية. ولهذا السبب، فإن الثورة الكبرى لم تكن ضد لويس السادس عشر فقط بل ضد الكنيسة الكاثوليكية أيضاً. ضمن هذا الجو يمكن أن نفهم تساؤل سبينوزا الغاضب: هل الشعب مازوشي؟ في الواقع إنه ليس مازوشياً، ولكنه مغلوب على أمره... أو قل إنه بحاجة إلى هذه المازوشية، إلى هذا الخضوع المذعن لرجال الدين، لأنهم يدخلون الطمأنينة إلى قلبه في هذه الحياة الدنيا، كما ويعدونه بالنجاة في الدار الآخرة عن طريق الدعاء له لا عليه. ينبغي ألا نتحدث عن المازوشية هنا فقط بل عن علاقة الاستلاب أيضاً. فالتدين قد يتحول إذا ما زاد عن حده وأغرق في الغيبيات والخرافات إلى نوع من التخدير للشعوب وإلهائها عن رؤية الواقع كما هو. ولهذا السبب، فإن بعض الأنظمة المحافظة تضخ البرامج الدينية على مدار الساعة لكي تصرف أنظار الشعب عن المسائل الحقيقية وتجاوزات الحكام...

لأنهم يخاطبونه بلغة تراثية يفهمها، لغة مغروسة في عقليته الجماعية أباً عن جد منذ مئات السنين. وحتى لو قيدوه بالأصفاد وطبقوا عليه الحدود كحد الرجم والجلد وقطع الأيدي والأرجل من خلاف وسوى ذلك، فإنه لا يزال يتبعهم حتى الآن باعتبار أنهم يمثلون القدرة الإلهية. بل إنه يتبع حتى الطالبان! والسبب هو أن الشعوب العربية والإسلامية من كثرة ما فقدت الحرية على مدار التاريخ لم تعد تعرف طعمها. بل إنها لا تعرف معناها لأنها لم تذقها يوماً ما. التاريخ العربي - الإسلامي يلخصه هذا البيت الشهير لأبي العلاء المعري:

تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا صدقنا فقلنا نعم!

هنا تكمن جذور الاستبداد العميقة في تاريخنا. وهي جذور عميقة، مشرشة في الأعماق والأقاصي. من هنا صعوبة اقتلاعها وزرع بذور الحرية والديمقراطية في حاضرنا.

ينبغي أن نحفر عن هذه الجذور اللاهوتية - السياسية القمعية المغروسة في أعماق أعماقنا بغية تحريرنا منها. أين هو الحفار الأركيولوجي الأكبر عن جذور الاعتقاد الإسلامي؟

ومعلوم أن الإنسان المستعبد إذا ما أعطيته الحرية فجأة فإنه يختل توازنه للوهلة الأولى، ولا يعرف ماذا يفعل بها أو كيف يتصرف ويمشي في الشارع. إنه قد يسقط في أي لحظة ويفقد توازنه. يلزمه بعض الوقت لكي يستعيد هذا التوازن ويستسيغ طعم الحرية. يضاف إلى ذلك أن الحرية مسؤولية والعبودية راحة لأنه لا مسؤولية فيها. كلنا يلقي بهمّ المسؤولية على كاهل الأب أو الشيخ أو الزعيم أو الديكتاتور الذي يفكر نيابة عنا، إلخ... لهذا السبب يقول بعض المفكرين إن شعوبنا ليست مؤهلة حتى الآن لنيل الحرية والديمقراطية. والدليل على ذلك أنه إذا ما أتيح لها أن تمارس الديمقراطية بحرية فإنها سوف تختار التصويت للإخوان والأصوليين، لا لدعاة الحداثة والأحزاب العلمانية. انظر قادة السلفيين في مصر وتهليلهم لغزوة صناديق الاقتراع بعد ثورة ٢٥ يناير... من يستطيع أن يوقف هذا الزحف؟ وهل سيخيم علينا شبح القرون الوسطى كلياً؟ إنهم ينتصرون في كل مكان... تذكرت تديّن والدي أو تزمته المرعب الذي لا يزال يلاحقني. أنا نتاج العصور الوسطى بالمعنى الحرفي للكلمة. بل والعصور الوسطى الواطية لا العالية: أي التي ليس فيها بصيص نور... منذ أربعين سنة وأنا أهرب من ذلك الشبح الأسود، من تلك الطفولة المظلمة، تلك القرون المعتمة، ولكن من دون جدوى... كلما خرجت منها عادت إليك. بعد القومية والماركسية والليبرالية والاشتراكية والحداثة وما بعد الحداثة ها نحن نعود من جديد إلى حضن الإسلامية

الإخوانية! يا له من تقدم وتطور! ويمشي إلى الوراء الوراء... شكراً نزار قباني، إحدى الشموس المضيئة في تاريخنا. سوف تطبق علينا إذن الأيديولوجيا الأصولية بشكل أو بآخر... من يستطيع أن يهرب من تراثه، من طفولته؟ من يستطيع أن يخرج من جلده[١]؟ وانظر حثّ القرضاوي المصريين للإقبال الجم على التصويت واعتباره فريضة شرعية، ولكن بشرط ألا يصوّتوا للعلمانيين وغير المسلمين. متى كان القرضاوي وبقية المشايخ مغرمين بالديمقراطية؟ حتى الأمس القريب كانوا يكفرونها ويعتبرونها بدعة شيطانية غربية مضادة للحاكمية الإلهية[٢]. فالحكم لله، والأمر لله لا للشعب. من هو الشعب؟ طز بالشعب! طز بمصر كما كان يقول زعيم الإخوان السابق محمد مهدي عاكف. ولا يزالون يعتبرونها كذلك. ولكن من أجل القفز على السلطة فإن كل شيء يهون، كل التخريجات الفقهية الإلهية مباحة... فالإسلام السياسي أصبح محترف سياسة تماماً، وله تكتيكات واستراتيجيات وتخريجات...

معضلة الديمقراطية في العالم العربي الإسلامي

ولذا فهناك وجهة نظر أود إيرادها هنا من دون أن يعني ذلك أني أتبناها بالضرورة. تقول ما

١ أنا شخصياً قررت الذهاب إلى الجامع بدءاً من العام المقبل. وقررت الإقلاع عن الموسيقى بما فيها روائع باخ وموزار وبيتهوفين... وشطبت على المسرح والسينما والفنون الجميلة كلها. وحرقت كتب نجيب محفوظ دفعة واحدة بعد أن أصبح عاراً على مصر والأمة العربية بأسرها. ومزقت أفلام عادل إمام... وقررت ألا أسترق النظر بعد اليوم إلى أي امرأة في العالم حتى ولو كانت أجمل من مارلين مونرو. وهذا أصعب قرار اتخذته في حياتي... ولا أعرف كيف سأعيش بعد الآن... وقررت ألا أشرب بعد اليوم قطرة كحول واحدة. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ هل أذبح نفسي؟!

علاوة على ذلك أخبركم بأن زوجتي المقبلة ستكون محجبة أو حتى منقبة تلمع عيناها من خلف النقاب لمعاناً أو تقدحان شرراً. وحتى لو أنزلتم السماء على الأرض فلن تروا منها ظفراً واحداً. خابت آمالكم وخسئت نياتكم الشريرة. موتوا بغيظكم، أو انتحروا أشرف لكم. حرمي المصون! وحتى أنا لن أراها لأننا سنطفئ الضوء في آخر لحظة. من سيرى المحروسة إذن في نهاية المطاف؟ لا أحد. سوف تعود من حيث جاءت كما هي راضية مرضية. عليها رحمة الله تعالى. التوقيع: آية الله العظمى، فضيلة الشيخ الدكتور هاشم صالح، نفعنا الله بعلمه وتقاه، وإيمانه وهداه، وجعله لنا قدوة ونبراساً إلى يوم الدين. آمين يا رب العالمين.

٢ ولكن مع ذلك، فإن دعوة الشيخ القرضاوي للتصويت تظل إيجابية ومفيدة ضمن مقياس أنه اعترف كما لو غصباً عنه بممارسة سياسية غربية لا وجود لها في تاريخنا. وهكذا خلع عليها المشروعية الفقهية أو الإلهية وأصبحت حلالاً بعد أن كانت حراماً... انظر تكفير علي بلحاج لها... من المعلوم أن الظواهري يحتقر أيضاً هذه البدعة الغربية ويلوم الإخوان على الانخراط فيها...

معناه: قبل أن نعطي شعوبنا الديمقراطية أو حق التصويت، ينبغي تثقيفها وتهذيبها وتعليمها ومحو الأمية من أوساطها لكي تعرف كيف تنتخب على هدى من أمرها. ينبغي بالأخص تنويرها فكرياً لكي لا تنتخب المتطرفين والسلفيين الظلاميين في كل مرة. وبشكل عام فلكي نتوصل إلى الديمقراطية ينبغي المرور بمرحلتين:

الأولى سلبية، والثانية إيجابية. الأولى تفكيكية والثانية تركيبية. ونحن لما ننخرط بعد في المرحلة السلبية – التفكيكية للأفكار الأصولية، فما بالك بالمرحلة البنائية – الإيجابية؟ لم نفكك تراكمات الماضي بعد فكيف يمكن أن نبني المستقبل؟ وعلى أي أساس؟ كل الأفكار العتيقة البالية الموروثة عن الماضي ينبغي أن تتفكك وتنهار لكي تحل محلها أفكار الحداثة والتنوير والتسامح والحرية واحترام الكرامة الإنسانية لأي شخص كان، وليس فقط لأبناء طائفتنا أو ديننا... هل يفهم القرضاوي ذلك؟ أم انه يظل سجين السياج الدوغمائي المغلق للمذهب والطائفة كمعظم مشايخ العرب والمسلمين؟ أين هو فيلسوف التنوير الأكبر في تاريخنا؟ من المعلوم أن نيتشه كان يتفلسف والمطرقة في يده! هل يعقل ذلك؟ لماذا المطرقة؟ هل هو حداد أو نجار؟ نعم، وأكثر من ذلك. إنه كسار للرؤوس: رؤوس العقائد القديمة والتصورات الراسخة التي تحولت إلى أصنام جامدة ينبغي تقويضها. لقد أصبحت تفرض نفسها على الملايين وكأنها إلهية مقدسة في حين أنها بشرية محضة. كل ما تعتقدونه سماوياً إلهياً هو في الحقيقة أرضي "بشري بل وبشري أكثر من اللزوم"، كما يقول نيتشه في عنوان أحد كتبه الشهيرة. ولكن أغلال التقديس وتكريس الأزمنة المتطاولة غطّيا على بشرية هذه العقائد وتاريخيتها. هذا لا يعني أن كل شيء في ماضينا أو تراثنا خطأ، وأنه ينبغي محو التراث محواً كاملاً! ولكنه يعني أن هناك عقبة تراثية هائلة تقف في وجه الانطلاق والتحرر. هناك ركام هائل من العقائد التعصبية المنتشرة لدى كافة الطوائف والمذاهب، أقلية كانت أو أكثرية، وهي التي تمنع تحقيق الوحدة الوطنية. وبالتالي ينبغي تعزيلها وتكنيسها أولاً. لا يمكن تشكيل الدولة المدنية الوطنية الحديثة قبل ذلك. ينبغي أن نغربل الماضي فنطرح القشور اليابسة والرواسب المتعصبة المتراكمة ونبقي على الجوهر فقط: أي على القيم الروحية والأخلاقية العليا للتراث العربي الإسلامي وكذلك التراث العربي المسيحي. وهي كثيرة وعديدة. وبعدئذ يمكن أن ننتقل إلى المرحلة الإيجابية المتمثلة: في إعطاء الشعب كامل الحرية والمسؤولية. لماذا؟ لأنه يكون

قد أصبح عندئذ قادراً على تذوق الحرية وممارسة الديمقراطية بشكل صحيح وسليم.

ولكن هناك رأي وجيه آخر ومعاكس يقول ما معناه: ينبغي أن نمارس الديمقراطية فوراً لأن شعوبنا تستحقها حتى ولو لم تستنر بعد بما فيه الكفاية. نحن لا نستطيع أن ننتظر الاستنارة التي قد تستغرق ثلاثين أو أربعين سنة لكي نمارس الديمقراطية! وحتى لو كانت هذه الديمقراطية ناقصة في البداية وتؤدي إلى نجاح السلفيين فلا بأس... فالأصولية لا يمكن تجاوزها إلا بعد المرور بها والاكتواء بحر نارها: وداوني بالتي كانت هي الداء... ينبغي أن نتيح للجدلية الاجتماعية التاريخية أن تفعل مفعولها وتمارس عملها بشكل طبيعي.

هكذا نلاحظ أن الأمور أكثر تعقيداً مما نظن، وأن الدولة المدنية الحديثة ليست مبرمجة غداً، بل بعد غد. فالسؤال الأساسي المتخوف من تطبيق الديمقراطية فوراً يبقى مطروحاً: كيف يمكن أن نعطي حق التصويت الديمقراطي الحر لتنظيمات تكفيرية لا تؤمن بأي حوار مع الآخر؟ كيف يمكن أن تتحاور مع شخص يعتقد جازماً بأنه يمتلك الحقيقة الإلهية المطلقة، وأنه هو وحده المؤمن وجميع الناس كفار؟ وبالتالي يحق له أن يقتلك، بل من واجبه أن يقتلك ويتقرب إلى الله تعالى بتصفية المارق الزنديق؟... هنا تكمن المعضلة الأساسية للديمقراطية في العالم العربي والإسلامي ككل. وإضافة إلى الأنظمة الشمولية البوليسية ذات الحزب الواحد، فهنا تكمن العقبة الأساسية في وجه تشكيل الدولة المدنية الديمقراطية. وبالتالي نحن بين نارين: نار الأصولية الإخوانية ونار الديكتاتورية البوليسية... انظروا ما فعله آيات الله المحافظون في إيران، أو ما يفعله الأصوليون في السودان، حيث لا همّ لهم إلا جلد النساء الشريفات المستنيرات كالسيدة لبنى أحمد الحسين، إلخ... هذا من دون أن نتحدث عن الطالبان وغير الطالبان... وانظروا ما يحصل في ميدان التحرير الآن، حيث تحاول الثورة الحقيقية أن تقاوم بكل يأس هيمنة العسكر وهيمنة الإخوان. وتدفع بكل بطولة ضريبة الدم... الليبراليون التحرريون بين فكي كماشة. وفي سوريا هل يحصل شيء آخر؟ وفي ليبيا، وفي كل مكان... وحدها تونس استطاعت أن تنجو بجلدها، على الأقل حتى الآن. وذلك لأن أصوليتها مثقفة ولم تعد إخوانية... وإذا ما استطاعت تونس في الفترة القادمة أن تحقق تلك المعادلة المستحيلة، أن تجد تلك الحلقة الضائعة (قصدت المصالحة بين الإسلام والحداثة) فسوف يسير على هديها كل العرب[١].

١ هذا لا يعني أنه لا توجد مخاطر حتى في ما يخص التجربة التونسية. فالتيار المتشدد داخل "النهضة" ذاتها =

العلاقة بين الفلسفة والديمقراطية والدولة المدنية

أولاً: لا ديمقراطية من دون فلسفة أو انتشار الفكر الفلسفي النقدي العقلاني الحر في أوساط واسعة من الشعب المثقف المتعلم المستنير. وكذلك لا دولة مدنية حديثة من دون فلسفة تنويرية. ما دام اللاهوت القديم مسيطراً فلا يمكن أن تتشكل دولة علمانية مدنية تساوي بين الجميع: المتدين وغير المتدين. هذا ما تعلمنا إياه تجربة الدول المتقدمة. لا ديمقراطية من دون حلول الفلسفة الإنسانية الحديثة محل اللاهوت الطائفي القديم كمرجعية معرفية عليا للشعب. ينبغي أن تحل الفكرة الديمقراطية وفلسفة حقوق الإنسان محل الحاكمية الإلهية وولاية الفقيه في كلا اللاهوتين السني والشيعي. أما في ظل الفكر الأحادي الجانب، سواء أكان أصولية دينية أم أحزاباً توتاليتارية فاشية، فلا مجال للديمقراطية أو التعددية أو النقاش الحر في المجتمع. لماذا؟ لأن الأصولية الدينية تزعم أنها تمتلك الحقيقة المطلقة المقدسة المتعالية بين يديها. وبالتالي لا مجال لمعارضتها أو مناقشتها. والحوار الديمقراطي في مثل هذا الجو مستحيل أو حتى يعتبر كفراً وزندقة وخروجاً على شرع الله. وكذلك الأمر في ما يخص الأيديولوجيات التوتاليتارية ذات الطابع الدنيوي، فاشياً كان أو شيوعياً، فهي أيضاً ترفض المناقشة وتعتبرها خروجاً على حقيقة الحزب الواحد والقائد الأوحد، سواء أكان الفوهرر هتلر أم الرفيق ستالين. من هنا حقدها على النظام البرلماني التعددي والليبرالية الغربية ذات الأحزاب المختلفة. بل إنها تعتبر المناقشات البرلمانية تضييع وقت ليس إلا. ولذلك فأول شيء يفعله هؤلاءعندما يصلون إلى الحكم هو إغلاق البرلمان وحل الأحزاب والقضاء على حرية الصحافة وكمّ الأفواه تماماً (نقول ذلك على الرغم من أن هتلر وصل إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع. ولكنه أغلقها وختم عليها بالشمع الأحمر بعد وصوله!)... هذا في حين أن النظام الديمقراطي الليبرالي قائم أساساً على التعددية الحزبية والصحافية وحرية النقاش، بل وتقليب الأمور على كافة جوانبها لكي تتضح المشاكل تماماً ويسهل اتخاذ القرارات الصائبة بشأنها. من هنا إعطاء البرلمان فرصة كبيرة لمناقشة مختلف القضايا،

= قد يلجأ إلى نسف كل الإنجازات التحررية بشكل موارب وخفي وتكتيكي ومن تحت لتحت، كما يبرع إخواننا الأصوليون في ذلك عادة. ولهذا السبب ينبغي على القوى العلمانية والتقدمية التونسية أن تكون يقظة تماماً وأن تقاوم هذه "الردة" التدريجية الناعمة للمجتمع. سوف نرى ماذا سيفعلون ببرامج التعليم التي حدثها ونورها الراحل الكبير محمد الشرفي... هل سيبقون عليها أم سيحرفونها في الاتجاه المعاكس؟...

بل وحصول الحوار العنيف الحاد بين السلطة والمعارضة حول كل مسألة من المسائل. وأحياناً يصل الحوار الساخن إلى حد الاشتباك بالأيادي تحت قبة البرلمان. من هنا أهمية التناوب على الحكم. فالسلطة اليوم قد تصبح المعارضة غداً والعكس صحيح. بل إن السلطة تستفيد كثيراً من انتقادات المعارضة لحل مشاكل البلاد. وبالتالي، المعارضة السياسية الذكية تخدم السلطة في الواقع وتلعب دوراً إيجابياً وليس فقط نقدياً أو هجومياً على السلطة. وعموماً، فإن مصلحة البلاد العليا تكون هي الشغل الشاغل لكلا الطرفين في نهاية المطاف. ولكني أتحدث هنا عن الدول المتقدمة التي حلت مشاكلها الأساسية وتجاوزت مرحلة الحروب الأهلية الطاحنة واللاهوت السياسي الطائفي، وفككت العراقيل التراثية والتراكمات الماضوية، وأصبحت تحل مشاكلها عن طريق الحوار العقلاني الديمقراطي. وهي المجتمعات التي نظّر لها هابرماس في أطروحته الشهيرة عن الممارسة التواصلية أو العقلانية التواصلية: أي الحوارية والديمقراطية[١].

لكن لنعد إلى مجتمعاتنا الفقيرة الطيبة التي لم تتوصل بعد إلى تأمين لقمة الخبز لأبنائها، فما بالك بالنقاش العقلاني والديمقراطي الحر؟ إنه ترف ما بعده ترف. أين هي مما يحصل في المجتمعات المتطورة لأوروبا الغربية أو أميركا الشمالية أو حتى الهند واليابان والبرازيل وبقية الدول الصاعدة حالياً والسائرة على طريق الدمقرطة المتسارعة أو المتدرجة. قلت إذن إن هناك ثرثرات كثيرة عن الديموقراطية في العالم العربي بل وتشدقاً سطحياً رخيصاً مضاداً للمعنى الحقيقي للديموقراطية ولكل الفلسفة الإنسانية الحديثة التي أبدعتها: فلسفة جان جاك روسو وإيمانويل كانط وبقية الكبار. وأخشى ما نخشاه هو أن تتحول الديموقراطية إلى شعار فضفاض "يقول كل شيء عن اللاشيء أواللاشيء عن كل شيء" كما يقول عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو في إحدى صياغاته الناجحة التي كان يبرع فيها. فيصبح شعار الديمقراطية عندئذ مائعاً ويفقد جوهره ومحتواه، كما حصل لبقية الشعارات التي فرغت من مضمونها إلى درجة أنها أصبحت تبدو مكرورة مجترة لم تعد صالحة للاستخدام

١ انظر بهذا الصدد كتابه الشهير والعويص: **نظرية الممارسة التواصلية**.

Jurgen Habermas: *Theorie de l'agir communicationnel*. Fayard. Paris 1987.

ولكن قبل هذا الكتاب كان هابرماس قد أصدر في بداية حياته العلمية كتاباً عن: **الفضاء العام: أركيولوجيا الإعلان بصفتها بعداً أساسياً مشكلاً للمجتمع البورجوازي**. منشورات بايو. باريس ١٩٩٧.

Jurgen Habermas: *L'espace public: archeologie de la publicite comme dimension constituve de la societe bourgeoise*. Payot. Paris 1963.

وهنا يشرح لنا كيف تشكل المجتمع الديمقراطي البورجوازي في أوروبا بدءاً من عصر التنوير.

بتاتاً. أليس من المضحك والمبكي أن الأصوليين أصبحوا الآن من عشاق الديمقراطية ولا يحلفون إلا باسمها؟ متى كان السلفيون يعتبرون الديمقراطية فريضة شرعية؟ بالأمس القريب كانت كفراً صراحاً كغيرها من الأفكار الغربية... ألم يكن علي بلحاج يلعنها ويلعن حتى ذكرها؟ ولكن شهوة السلطة لا تقاوم. وبالتالي لا يستطيع أحد أن يمنع الوصوليين والانتهازيين بل وحتى الطائفيين من السطو على أجمل المصطلحات وأفضلها؟ وحده الفكر الجاد والمسؤول يستطيع أن يكشف عن حجم الزيف الموجود في ساحتنا الثقافية والسياسية حالياً. وهو وحده القادر على تفكيك الأيديولوجيا العربية الرثة وتوضيح الأمور جيداً أو إعادتها إلى نصابها.

الديمقراطية كفلسفة متكاملة لا كمجرد آلية اقتراع

ذلك أن الديموقراطية هي ثمرة ثلاثمئة سنة أو أكثر من عمر الحداثة والتنوير الفكري الأوروبي . بل إنها ثمرة ألفين وخمسمئة سنة إذا ما عدنا بها إلى عهد اليونان القديمة وانبثاق الفلسفة والديموقراطية في آن واحد، على يد سقراط وأفلاطون وأرسطو وسواهم. ولكنها كانت ديموقراطية ناقصة بالطبع، لأنها لا تشمل إلا الرجال الأحرار وتستثني النساء والعبيد والأجانب. وأما الشورى التي نتبجح بها كثيراً في عالمنا العربي فهي على أهميتها نواة مصغرة للديموقراطية، لأنها كانت محصورة بعدد قليل من الصحابة الأجلاء المبشرين بالجنة، ولا تشمل جميع المسلمين، هذا فضلاً عن أتباع الديانات الأخرى وبقية "المواطنين"، إذا صح لنا أن نتحدث عن مواطنين في ذلك الزمان... ينبغي توسيعها كثيراً وتفريغها من محتواها اللاهوتي الديني لكي تقترب من مفهوم الديموقراطية بالمعنى العلماني الحديث للكلمة. ذلك أنه لا ديموقراطية من دون حكومة مدنية علمانية: أي من دون مساواة كاملة في الحقوق والواجبات بين مختلف السكان العائشين في المجتمع، أياً تكن أصولهم العرقية أو الدينية أو المذهبية. في النظام العلماني الديموقراطي الحديث المتولد عن فلسفة الأنوار لا يوجد ابن ست وابن جارية أو ابن فرقة ناجية وابن فرقة مهرطقة كما تقول كتب البدع والنحل القديمة، وكما لا يزال يعتقد جمهور المسلمين حتى هذه اللحظة. في الأنظمة الديموقراطية يتساوى الأقلوي البروتستانتي ليونيل جوسبان أو ميشيل روكار مع

ابن الأغلبية المذهبية جاك شيراك أو فرانسوا ميتران أو شارل ديغول. أما في العهد القديم السابق على التنوير والثورة الفرنسية فكان من المستحيل على البروتستانتي أن يرفع رأسه في فرنسا. كان يعتبر مهرطقاً زنديقاً ناقص الحقوق ومشبوهاً في كل حركاته وسكناته. كان مجرد وجوده يعتبر إزعاجاً ولا يحتمل إلا على مضض من قبل أبناء الأغلبية المذهبية، أي الكاثوليكية في ما يخص فرنسا. لهذا السبب لا معنى لطرح فكرة الديموقراطية في العالم العربي إن لم تحل أولاً مشكلة الطائفية والمذهبية، وتحل الفلسفة السياسية الحديثة المنبثقة عن فلسفة الأنوار محل اللاهوت السياسي السائد أو الفقه الطائفي القديم الذي لا يزال يتحكم في رقابنا في العالم العربي والإسلامي حتى هذه اللحظة. كلمة الديموقراطية تصبح لغواً للاستهلاك المحلي أو للمتاجرة السياسية لا أكثر ولا أقل. إنها عبارة عن إجراء صوري شكلاني محض. إنها مجرد وسيلة للقفز على السلطة، وسيلة يستخدمها الحاكم والمعارض على حد سواء، وهي من كليهما براء. حتى التنظيمات الأصولية أصبحت تقول إنها ديموقراطية! الكل أصبح ديموقراطياً عندنا. لا يوجد شخص واحد غير ديمقراطي في العالم العربي الآن!... ولكن عندما تقول لهم إن الفلسفة التي ترتكز عليها الديموقراطية تتطلب منا أولاً الاعتراف بالمساواة الكاملة بين المواطنين وأنه لا يوجد مواطن درجة أولى ومواطن درجة ثانية أو ثالثة، فإنهم يتراجعون قليلاً. ثم يقولون لك لطمأنتك أو بالأحرى لإقلاقك أكثر: لا تخف، سوف نحافظ على حقوق الأقليات! ولكن يا سادة: لا يوجد أقليات أو أكثريات في ظل الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة. إما أنه توجد مواطنية أو لا توجد. إما أنه يوجد مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات أو أنه لا يوجد! نقطة على السطر. الأقلية والأكثرية عندئذ تصبحان على أساس سياسي وخيار ذاتي لا على أساس ديني أو عرقي أو طائفي حيث لا حيلة لك بالأمر. لا أحد يختار مكان ولادته... والتدين عندئذ يصبح مسألة شخصية تخص الضمير الحميمي الحر للفرد ليس إلا. وعندما تقول لهم إن فلسفة الديموقراطية تتطلب منا الاعتراف الكامل بحرية الضمير والمعتقد: أي حرية أن تتدين أو لا تتدين، أن تؤدي الفرائض والطقوس أو لا تؤديها على الإطلاق، فإنهم يتراجعون أكثر ويصبح عدد الديموقراطيين أقل بكثير. عندما تقول لهم إن فلسفة الديموقراطية تعني الفصل الكامل بين المواطن والمتدين باعتبار أن كل متدين مواطن بالضرورة ولكن ليس كل مواطن متديناً بالضرورة فإن عدد الديمقراطيين ينقص أيضاً مرة أخرى. عندما تقول لهم إنه في

النظام الديموقراطي الحقيقي السني قد يصبح رئيساً لإيران إذا كان كفواً، والقبطي رئيساً لمصر والمسيحي رئيساً لسوريا والأمازيغي رئيساً للجزائر والكردي رئيساً للعراق، فإنهم يرتعدون رعباً ويقولون: لا، لا، لا نريد هذه الديموقراطية! هذا هراء. إنها لا تناسبنا. هذه أشياء خلقت للغرب فقط. انظر كيف يهاجم القومجيون الزعيم الكردي جلال الطالباني لأنه أصبح رئيساً للعراق، في حين أنه أرقى بألف مرة من صدام حسين! وهذا بحد ذاته دليل على مدى الانحطاط السياسي بل والأخلاقي في العالم العربي. إنه دليل على أن العهد القديم للفكر لا يزال مهيمناً. ولكن الشعب الأميركي يقبل بأن يصبح باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة، في حين أن السود محتقرون تاريخياً ويشكلون أقلية قليلة لا تتجاوز عشرة في المئة من عدد سكان البلاد. لماذا؟ لأنه مواطن بحسب الدستور مثله في ذلك مثل جورج بوش أو بيل كلينتون لا أكثر ولا أقل. إنه يتمتع بالدرجة نفسها من المواطنية، وله الحقوق نفسها، وعليه الواجبات نفسها. وإذا ما نجح في خدمة أميركا فإنهم سيصفقون له، وإذا ما فشل فإنهم سيعزلونه. هنا تأخذ كلمة المواطنية معناها الحقيقي ووزنها، وليست مجرد حبر على ورق[1]. هذا شعب ديموقراطي وبلاد لا يخشى عليها لأنها ذات مؤسسات ديموقراطية راسخة. عندما طرح هذا التخوف على توماس جيفرسون أو الآباء المؤسسين الذين كتبوا الدستور العلماني الشهير الذي يساوي بين جميع المواطنين ويفصل الدين عن السياسة: وما ذا لو وصل شخص محمدي، أي مسلم، أو حتى شخص ملحد إلى رئاسة الدولة؟ أجاب: فليكن! إذا انتخبه الشعب الأميركي السيد الحر المستقل فإننا سنقبل به. ولكنهم كانوا يقصدون أيضاً الشعب الأميركي المتعلم المستنير الذي يعرف ما يريد وما لا يريد، لا الشعب الأمي الجاهل المتعصب الذي يتبع الكهنة والقساوسة بشكل أعمى كما تفعل جماهيرنا مع شيوخ الفضائيات... ذلك أنه قبل أن تعطي حق الديموقراطية للشعب ينبغي تثقيفه وتهذيبه وتعليمه ومحو الأمية فيه إلى أقصى حد ممكن لكي يمشي على هدى من أمره ويعرف أن يقرأ البرامج الانتخابية ويميز بين الأمور وينتخب على بصيرة. وإلا فإنه سوف ينتخب الأصوليين والعنصريين والطائفيين[2]... ولهذا السبب، فإن الثورة الفكرية

١ الشيء الذي نلاحظه هو أن الخطاب العربي عندما يتحدث عن الديمقراطية فإنه يتحاشى عموماً هذه القضايا الحساسة التي لا معنى لكلمة ديمقراطية من دونها. من هنا سطحيته وهشاشته وعدم جديته أصلاً.

٢ ومع ذلك، فإني مصر على القول بأنه حتى هذه الديمقراطية الشكلانية الصورية تظل أفضل من الأنظمة الاستبدادية العسكرية الحالية ذات الحزب الواحد. لماذا؟ لأنها تتيح للجدلية الاجتماعية – التاريخية بين =

أو التنويرية سبقت الثورة السياسية في أوروبا وأميركا الشمالية وكل العالم المتقدم، ما عدا في العالم الإسلامي حيث فوجئنا بثورات دينية أصولية في إيران وأفغانستان الطالبان والباكستان والسودان والحبل على الجرار... ما معنى الثورة الدينية، يتساءل داريوش شايغان؟ المصطلح بحد ذاته متناقض ويلغي نفسه بنفسه. ولكن الخميني انتصر بثورته الارتكاسية التي تعود بالشعب إلى الخلف لسبب بسيط: هو أن الامور تسير بالمقلوب في العالم الإسلامي أو العربي. أقصد أن الثورات السياسية تحصل قبل الثورات الفكرية. هذا في حين أنه في فرنسا حصل العكس تماماً: ثورة التنوير الفلسفية لفولتير وجان جاك روسو وديدرو والموسوعيين سبقت الثورة الفرنسية ومهدت لها الطريق وأنارت العقول وأنضجت الظروف. ولذلك جاءت ثورة تحريرية تقذف بالشعب إلى الأمام مسافات ولا تعود به إلى الخلف كما فعلت ثورة الخميني الإسلامية، وكما قد تفعل الثورة المصرية إذا ما وصل الإخوان إلى السلطة حتى قبل نشر هذه الدراسة[١]... فلنعد إذن إلى مقاعد الدراسة من جديد أو حتى إلى الصف الأول الابتدائي! نحن لم نتقدم بعد خطوة واحدة على طريق التنوير الديني والفلسفي. أو قل تقدمت النخبة المتعلمة المثقفة وبقي الشعب بأغلبيته الساحقة في أيدي الأصوليين والتيارات الشعبوية التي تغذيها الفضائيات الغوغائية. بل حتى داخل المثقفين العرب ليست الأمور محسومة. ولذلك لا يمكن أن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام في أي مجال من المجالات. لنعد إذن إلى نقطة الصفر ولنتساءل: ما معنى التنوير الديني؟ هنا تكمن العلاقة بين التنوير الفلسفي والديموقراطية. لا ديموقراطية لأعداء

= مختلف الفئات أن تندلع بشكل طبيعي، أن تنطلق وتتحرر من عقالها. كما وتتيح للصراع الفكري – السياسي الخلاق أن يحصل بشكل حر بين الليبراليين والإسلاميين. صحيح أنه سيكون هناك ثمن باهظ لهذا الصراع وسوف تسقط ضحايا لا يعلم إلا الله عددها، ولكن هذا هو الطريق الأنجع للتطور. لا يوجد طريق آخر أصلاً. لا يمكن حل المشاكل جذرياً إلا بعد المرور بها ومعاركتها ومصارحتها. أما التغطية على المشاكل الطائفية والمذهبية أو القفز فوقها أو منع الخوض فيها فلا يزيد الأمور إلا استفحالاً واشتعالاً. لتندلع كل المشاكل إذن دفعة واحدة وليقذف المجتمع بكل تراكمات أحشائه المكبوتة. ولندفع الثمن ولنتحمل المسؤولية...

١ لماذا يرحب الشيخ القرضاوي بالديمقراطية ويعتبرها فريضة شرعية؟ لأنه يعرف أن الإخوان والسلفيين سوف يكتسحون الساحة اكتساحاً. أما إذا جاءت بالعلمانيين والمستنيرين والأقباط المسيحيين فلعنة الله عليها! عندئذ تصبح كافرة ومدانة شرعاً. ينبغي العلم بأن المواقف غير متكافئة على الإطلاق. فالعلمانيون لا يزالون أقلية خائفة. والأخطر من ذلك أنهم لا يمتلكون منبراً فعالاً وكاسحاً لنشر أفكارهم وبرامجهم كالجامع! من يمتلك الجامع في العالم العربي والإسلامي ككل يمتلك الديمقراطية والسلطة وكل شيء، لأنه سيربح الانتخابات حتماً.

الديموقراطية، ولا حرية لأعداء الحرية. شعار الثورة الفرنسية...

طرح لاتاريخي؟

بعد أن وصلت بالأمور إلى هذه النقطة، أعترف بأن طرحي للمسألة مزعج وهجومي جداً، بل وشبه تعجيزي إذا صح التعبير. فأنا أطالب الشعوب العربية أو الإسلامية بأن تقبل بأشياء يستحيل عليها القبول بها في المدى المنظور. أطالبها بتحقيق نقلة ضخمة ودفعة واحدة في وقت قصير جداً. وهذا شيء غير ممكن بل ولاإنساني في الواقع. فأنت لا تستطيع أن تقتلعها من جذورها هكذا. والمفكرون الكبار يحذروننا عادة من عواقب التسرع وحرق المراحل، وذلك لأن شعوبنا لم تعش بعد المرحلة التنويرية للدين، و لم تهضم الثورات العلمية والفلسفية والسياسية التي هضمتها الشعوب الغربية من أوروبية وأميركية على مدار ثلاثمئة سنة من عمر الحداثة وجدليتها الصراعية الخلاقة. وبالتالي، على مهلك أيها الرجل! خذنا بحلمك ولا تطالبنا بما يطاق وما لا يطاق! اصبر علينا قليلاً. لكي تتحقق أمانيك دفعة واحدة ينبغي أن تستورد شعوباً حضارية من الخارج تعرف كيف تحترم القانون والنظام، وتحلها محل شعوبنا العربية أو الإسلامية الفقيرة الأمية الجاهلة التي تستمع إلى شيوخ الجوامع كل يوم. نحن لا نستطيع أن نستورد الشعب الهولندي محل الشعب السوري، ولا الشعب الألماني محل الشعب المصري أو الجزائري! إلخ... وهذا صحيح. إني أعرف أن ذلك لن يتحقق قبل أربعين أو خمسين سنة قادمة في العا لم العربي والإسلامي. وليست عندي أي أوهام حيال الوضع القائم. ولكن التذكير بالمبادئ الكبرى شيء ضروري حتى ولو لم نستطع تحقيقها فوراً على أرض الواقع، وذلك لكي تظل أفقاً مستقبلياً لنا. أما التعتيم على الأمور وعدم الصراحة في طرح المشكلة فإنه يؤدي إلى الخلط بين مفهوم الديموقراطية أو الأغلبية السياسية من جهة، ومفهوم الأغلبية الطائفية من جهة أخرى، وذلك بعد تحويل الديموقراطية إلى مجرد صناديق اقتراع فقط وتفريغها من كل الفلسفة السياسية الحديثة وحقوق الإنسان. في هذه الحالة، فإن الأغلبية المذهبية في إيران سوف تظل تنتخب رئيساً مسلماً شيعياً إلى أبد الدهر، وكذلك الأغلبية الطائفية في مصر رئيساً مسلماً سنياً إلخ... وهذا مناقض تماماً للمفهوم الحديث للديموقراطية وللفلسفة التي

تقبع خلفها. هذا يعني أنه لا توجد ديموقراطية بالمرة. أو قل إنه لا يوجد منها إلا الآلية الصورية الشكلانية: أي التصويت وصناديق الاقتراع. واختزال الديموقراطية إلى مجرد صناديق الاقتراع، يعني أننا لم نفهم شيئاً عن فكرة الديموقراطية كفلسفة عميقة وإنسانية. فحيث يسود هذا المفهوم، أي في فرنسا وألمانيا وبقية البلدان المتقدمة، فإن التصويت لا يتم إطلاقاً على أساس طائفي أو مذهبي، بل على أساس سياسي محض: أي على أساس برامج انتخابية من سياسية واجتماعية واقتصادية. وعندئذ قد أصوّت لشخص لا ينتمي إلى طائفتي بالمرة ولا حتى إلى ديني. في هذه الحالة قد تصوّت أغلبية الشعب الألماني مثلاً لرجل ينتمي إلى الأقلية المذهبية كهيلموت كول الذي حكم ألمانيا لفترة طويلة بل ووحّدها بعد سقوط الشيوعية. ومعلوم أنه كاثوليكي الأصل في بلاد لوثر ذات الأغلبية البروتستانتية، وإن كانت أغلبية نسبية. وربما لم يكن الشعب الألماني الذي انتخبه يعرف أنه كاثوليكي، لأن الأمر لم يعد يهمه على الإطلاق! هذه أشياء تجاوزها الزمن. فالرواسب الطائفية أو المذهبية انتهت الآن في ألمانيا المستنيرة المستضيئة بنور العقل والحوار الديمقراطي. ألمانيا ما بعد لايبنتز وكانط وفيخته وشيلنغ وهيغل وبسمارك وسواهم غير ألمانيا القرون الوسطى. ولكن ليست هذه هي حالتنا في الأقطار العربية والإسلامية. كذلك لا يهم الشعب الألماني الآن أن يعرف أن أنجيلا ميركل هي ابنة قس بروتستانتي من ألمانيا الشرقية... الشيء الوحيد الذي يهمه هو أنه، أي هيلموت كول، مواطن ألماني ورجل كفء ويخدم مصلحة ألمانيا... نقطة على السطر... وقل الأمر ذاته عن السيدة ميركل... أما عندنا فأول شيء يتساءلون عنه عندما يصعد شخص إلى سدة السلطة هو: ما هي طائفته؟ ما هو مذهبه؟ ما هي قبيلته؟ ما هي عشيرته؟ هل هو من جماعتنا أم لا؟ إلخ. وذلك قبل أن يعرفوا هل في رأسه شيء أم لا؟ هل هو كفء قادر على تحمل المسؤوليات أم لا؟ هل هو شخص نزيه أم لا؟ كيف يمكن أن تتقدم الشعوب في مثل هذه الحالة؟ ولذا فإن الذين يطنطنون بالديموقراطية عندنا صباح مساء هم أبعد الناس عنها وعن الفلسفة السياسية الحديثة التي بلورتها، لأنهم يخلطون بينها وبين الأغلبية الطائفية التي ستصوّت حتماً في صناديق الاقتراع لمرشحي هذه الأغلبية بالذات. وهكذا نكون قد خلعنا المشروعية الديموقراطية على النظام الطائفي الذي جاءت الديموقراطية أصلاً لاستئصاله وتخليصنا منه! هنا يكمن الخلط الخادع والخطر بين المفاهيم. ولذا أردت في مقدمة هذه الدراسة أن أجلو الغموض الضبابي أو الإشكالي

المحيط بمفهوم الديموقراطية، لكي لا يسطو عليه الطائفيون والديماغوجيون الشعبويون والمروجون للأيديولوجيا العربية الرثة... فما الحل؟ ما العمل إذن؟ إما ديمقراطية شكلانية صورية يربحها الأصوليون حتماً، وإما استبداد سياسي بوليسي مقطوع عن الشعب تقريباً أو حتى مضاد له أو لقسم كبير منه على الأقل... ألا يوجد حل آخر، حل ثالث؟ كيف يمكن الخروج من هذه المعضلة المحيرة؟ كيف يمكن فتح ثغرة في جدار التاريخ المسدود؟ هذا ما سأحاول أن أستجليه في دراسات قادمة[١].

---

١ على مدار هذه الدراسة يلاحظ القارئ أنها مسكونة بصوتين متضادين يتصارعان. ولكن إذا أدى ذلك إلى إلقاء بعض الضوء على الإشكالية الكبرى فلم لا؟ يلومني إدريس شرود على هذا الانبهار بالغرب وبالتجربة الفرنسية على وجه الخصوص. وأعترف بأن الصراع الجدلي الخلاق الذي دار بين الحزب الكاثوليكي والحزب العلماني على مدار القرن التاسع عشر يدهشني ويعجبني. معارك فيكتور هيغو ولامارتين وجورج صاند وسان سيمون وأوغست كونت وأرنست رينان وإميل زولا وعشرات غيرهم تحرك مشاعري وأجد نفسي فيها تماماً. ولكن معه حق عندما يقول إن التجارب لا تستنسخ، وإن الشعوب الإسلامية عربية كانت أو أمازيغية أو كردية إلخ بحاجة إلى أن تلتقط أنفاسها بعد كل ما تعرضت له من ضغوط واعتداءات، سواء من قبل أنظمة الاستبداد والفساد في الداخل أو من قبل الهجمة الخارجية. إنها بحاجة إلى أن تلتصق بهويتها، بتراثها، بدينها وعقيدتها. وهذا شيء مفهوم ومشروع. وبالتالي، لا نستطيع أن نبني نهضتنا المقبلة بناءً على تجارب الآخرين فقط حتى ولو كانت جميلة ورائعة كالتجربة الفرنسية أو الأوروبية بشكل عام. بل ينبغي أن ننطلق من واقعنا وأعماقنا التاريخية. ينبغي أن ننطلق من هنا: من هذه الصخرة الصلبة، من هذا التراث الطويل العريض الذي يتسرب إلى خلايانا والذي يجري في دمنا وشراييننا. مهما حاولنا أن نهرب منه فإنه يلاحقنا... ولكن كل ترجماتي لأركون لم تكن إلا عبارة عن التحام عضوي بالتراث بغية التحرر من التراث أو بالأحرى من النزعة التراثية الانغلاقية! هكذا تلاحظ يا صديقي أني أعيش تجربة التحرر مرتين: مرة عند الفرنسيين المسيحيين قبل أن يصبحوا علمانيين، ومرة أخرى عند العرب المسلمين الذين سيصبحون علمانيين أو مدنيين متحضرين يوماً ما. ولا أجد في ذلك أي نقيصة. على العكس، إني أجد فيه غنى ما بعده غنى... إني أحب الآفاق المفتوحة والمقارنات الواسعة...

الفصل الثامن

محمد أركون والفلسفة السياسية في الإسلام

لا ديمقراطية من دون ثقافة فلسفية

كيف يطرح محمد أركون مسألة العلاقة بين الفلسفة والديموقراطية؟ في دراسة ممتعة له بعنوان: الإسلام والديموقراطية. أي ديموقراطية؟ وأي إسلام؟[1]، يقول صاحب **نقد العقل الإسلامي** ما معناه:

سوف أبتدئ أولاً بتحديد شروط إمكانية وجود الديموقراطية أو الفكر الديموقراطي الحر في العالم الإسلامي عربياً كان أو تركياً أو فارسياً أو باكستانياً إلخ... فالفلسفة الكانطية والإبستمولوجيا النقدية تعلماننا أن الشيء لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن تنضج الظروف وتتوافر شروط إمكانية وجوده في بيئة ما ومجتمع ما. الديموقراطية لا تحصل هكذا صدفة أو بشكل ارتجالي. ولكي توجد عندنا ينبغي أن نتجاوز أولاً كل الانسدادات العقلية والثقافية والقانونية الفقهية والمؤسساتية التي تعرقل وجودها أو تمنعه. هناك عقبات تؤخر من تحقق التجربة الديموقراطية التحررية في السياقات الإسلامية وأولها سيطرة النموذج الأصولي الشعبوي على الفكر والعقليات وسده للآفاق.

نفهم من كلام أركون أن المجابهة بين الإسلام والديموقراطية تحيلنا بالضرورة على تلك

1 M.Arkoun : Islam et démocratie. Quelle démocratie? quel Islam?
النص موجود على الإنترنت وتمكن طباعته أو استشارته بسهولة.

الصراعات التاريخية المحسوسة التي حصلت بين العقل الديني والعقل الفلسفي. ومعلوم أن الأول انتصر على الثاني في الإسلام حتى سحقه سحقاً وصفّاه منذ القرن الثالث عشر حتى اليوم. نقول ذلك على الرغم من أن عالم الإسلام شهد انبثاق تراث فلسفي خصب، بدءاً من القرن الثامن الميلادي واستمر حتى موت ابن رشد في أواخر القرن الثاني عشر عام ١١٩٨ م. ولكن هذا التراث الفلسفي الكبير اضمحل بعدئذ ومات. وبتصفية العقل الفلسفي في الإسلام لم تعد المناقشة الديموقراطية ممكنة الوجود في العالم العربي الإسلامي.

لماذا؟ لأن العقائد الدينية لا تُناقش، بل يُسلّم بها تسليماً وإلا قُطعت عنقك كما فعلوا مع المعتزلة مثلاً بسبب مقولة خلق القرآن. عندئذ انتهت المناظرات الخلافية المبدعة في العالم الإسلامي وانتصر الصوت الواحد والرأي الأوحد وحديث الفرقة الناجية ولا يزال. هنا نلمح العلاقة المباشرة ما بين الفلسفة والديموقراطية. لا يمكن الديموقراطية أن تفرض نفسها في مجتمع خال من الحرية الفلسفية أو من الفكر العقلاني - النقدي الذي وحده يقبل بالمجادلة والأخذ والرد وتنظيم المناظرات والمناقشات حول القضايا الكبرى التي تهم المجتمع. فالمجتمع الذي يسيطر عليه الفكر الواحد والجريدة الواحدة والمذهب الواحد وتُخمد فيه كل الأصوات المغايرة لا يمكن أن يكون ديموقراطياً. وهنا تكمن أزمة المجتمعات العربية والإسلامية في معظمها. هنا يكمن السبب الأساسي لاندلاع انتفاضات الربيع العربي والثورات الحالية، ولكنه ليس الوحيد. فهناك سبب آخر هو: الفقر والجوع والنقمة على الأغنياء وبطانة السلطة الفاسدة التي تنهب المال العام وتكدسه في جيوبها، حارمة أغلبية الشعب من حق العمل والتوظيف والحياة الكريمة.

كان الفيلسوف الفرنسي روجيه بول دروا قد كلفته اليونيسكو بتقديم تقرير عن وضع تعليم الفلسفة في شتى أنحاء العالم. وقد نشرته اليونيسكو عام ١٩٩٥ تحت عنوان: "الفلسفة والديموقراطية في العالم"[1]. وتبين منه أن الدول التي تعلم الفلسفة على مستوى المدارس الثانوية قليلة جداً ومحصورة عموماً بالدول الغربية المتقدمة. ويرى هذا الباحث الفرنسي الذي يشرف على ملحق الكتب في جريدة "اللوموند" أن العلاقة بين الفلسفة والديموقراطية وثيقة وتأسيسية. بمعنى أنه لا فلسفة من دون ديموقراطية ولا ديموقراطية من دون فلسفة. لماذا؟ لأن الفلسفة تعلمنا أسلوب المناظرة والجدل وحق الاختلاف واصطراع

1 Roger Pol Droit: *Démocratie et Philosophie dans le monde.* Préface de Federico Mayor. UNESCO. Paris 1995.

الآراء والأفكار بشكل سلمي عقلاني. والمناقشة الديمقراطية بحاجة إلى كل ذلك. أما إذا ما فرضت رأيي عليك بشكل مسبق بالقوة ومن دون أي نقاش، فلا يمكن أن تكون هناك ديموقراطية. وينبغي العلم بأنه لا يوجد كلام مهما علا صاحبه إلا وهو خاضع للمناقشة والنقد والاعتراض ومحاجات الآخرين. وهذا الشيء ينطبق على الآراء الفلسفية كما على المواقف السياسية. لا يوجد شيء اسمه كلام معصوم في مناخ الفلسفة والديموقراطية. ضمن هذا المعنى، فإن الأصولية الدينية هي المضاد القطعي للفكرة الديموقراطية، لأن مرجعياتها معصومة لا تناقش ولا ترد.

يضاف إلى ذلك أن الديمقراطية تفترض المساواة بين البشر. كل شخص له الحق في التدخل في النقاش بغض النظر عن أصله وفصله أو عرقه ودينه ومذهبه. لا أحد أحسن من أحد هنا إلا بفضل مواهبه وإمكانياته وإخلاصه وخدمته للمصلحة العامة. لا يوجد ابن ست وابن جارية أو ابن الفرقة الناجية وأبناء الفرق الضالة... هذا كلام كان مقبولاً في العصور الوسطى ولكنه مرفوض قطعياً من قبل الفلسفة السياسية الحديثة لحقوق الإنسان والمواطن. كل إنسان مزود بعقل عموماً وله الحق في أن تُحترم كرامته بصفته تلك. أما في الماضي، أي في ظل سيطرة اللاهوت المسيحي، فلم يكن يحق للبروتستانتي أن يفتح فمه في فرنسا الكاثوليكية، كما لم يكن يحق للكاثوليكي أن يفتح فمه في إنكلترا الأنغليكانية البروتستانتية. كان يعتبر مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة، تماماً كما هي عليه الحال الآن في العالم العربي والإسلامي. ولهذا السبب نقول إن الأصولية الدينية هي العدو اللدود للديموقراطية كما وللفلسفة أيضاً. وهنا نلمس لمس اليد المأزق التناقضي للديموقراطية في العالم العربي والإسلامي. فإذا ما أعطينا حق التصويت الحر للناس، فمن المرجح أنهم سينتخبون أغلبيات أصولية طائفية كما حصل في الجزائر مثلاً بداية التسعينات، وكما حصل في فلسطين مع حماس، وكما حصل في إيران إلخ... وهكذا باسم الديموقراطية ندفن الديموقراطية في مهدها، وباسم الحرية نقتل الحرية. والسبب هو أننا نختزل الديموقراطية إلى مجرد صناديق الاقتراع في حين أنها أعمق من ذلك وأوسع بكثير. ولهذا السبب، فإن الشعب لم ينل حق التصويت في إنكلترا، أعرق ديموقراطية في العالم، إلا على مراحل. في البداية كان حق التصويت محصوراً بالنخب الثقافية والسياسية والصناعية، ثم توسع الأمر تدريجاً على مدار قرن ونصف حتى نال الشعب الإنكليزي أخيراً كله حق التصويت،

بعد أن استنار وتعلم وتخلص من الأمية والجهل والتعصب الديني. فالوعاء ينضح بما فيه. والشعب إذا كان متخلفاً أصولياً أمياً سينتخب المتخلفين المتعصبين، إما دينياً وإما شوفينياً قومياً وإما الاثنين معاً. ميلوزوفيتش الفاشي انتخبه الشعب الصربي ديموقراطياً، وكذلك هتلر! هتلر وصل إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع. وبالتالي، حذار من الخلط بشكل أوتوماتيكي بين الديموقراطية والحرية. فالديموقراطية الصورية أو الشكلانية قد تؤدي إلى أبشع أنواع الأنظمة الديكتاتورية. وهنا تكمن المفارقة الكبرى. وهذا ما شرحه بشكل واضح ومقنع المفكر الأميركي من أصل هندي مسلم: فريد زكريا في كتابه: **مستقبل الحرية. الديموقراطية الغير ليبرالية في أميركا وبقية أنحاء العالم**[1].

هل تعتقدون بأنه لو تسلم علي بلحاج وعباسي مدني والجبهة الإسلامية للإنقاذ السلطة في الجزائر عام ١٩٩١ فإن الحرية كانت ستغمر الشعب الجزائري رجالاً ونساءً؟ كانوا سيطبقون نظاماً يشبه نظام الطالبان تقريباً... والآن ماذا يحصل في مصر؟ ألا يحاول الإخوان المسلمون الاستفراد بالقرار على كافة الأصعدة والمستويات بما فيها كتابة الدستور؟ ولهذا السبب نقول إن المهم في المرحلة الأولى هو وجود الدولة الليبرالية الدستورية: أي دولة القانون والمؤسسات التي تحافظ على مصالح الناس وتعاملهم على قدم المساواة وتطبق القانون على الجميع وتحمي الحريات الفردية. بعدئذ تجيء الديموقراطية، أي التصويت الشعبي الحر، بشكل تدريجي. ودول أوروبا الغربية المتقدمة لم تصبح ديموقراطية وليبرالية دستورية في آن واحد إلا بعد الحرب العالمية الثانية. في البداية كانت فقط ليبرالية دستورية تحترم القانون وتتقيد به. وحق التصويت لم يعطَ للنساء في فرنسا إلا من قبل الجنرال ديغول عام ١٩٤٦. من يصدق ذلك؟ وفي عام ١٨٣٠ كان يحق لاثنين في المئة فقط من الشعب الإنكليزي، ومن علية القوم، أن يصوّتوا. ولكن بعد مئة سنة من ذلك التاريخ، أصبح حق التصويت مضموناً للشعب الإنكليزي بمجمله من دون استثناء، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً. وبالتالي، على مهلكم قليلاً أيها السادة. الديموقراطية ليست مزحة بسيطة ولا كلاماً رخيصاً يلقى على عواهنه هكذا في الهواء... الديموقراطية تجربة تاريخية ضخمة ومعقدة ويصعب على الإنسان أن يتقبلها بسهولة. الإنسان بطبعه ميال إلى الاستبداد لا إلى الديموقراطية، لأنه يكره من ينتقده

1 Fareed Zakaria: *The future of Freedom: illiberal Democracy at Home and Abroad*. New york 2007.

أو يخالفه في الرأي. والكلمة المنسوبة إلى فولتير: قد أخالفك في الرأي ولكني مستعد لأن أضحي بروحي لكي تستطيع التعبير عن رأيك، هي مثالية جداً ورائعة بالطبع... ولكن يصعب علينا تطبيقها أو التقيد بها. وحدها المجتمعات العريقة التي ترسخت فيها الممارسات الديموقراطية منذ زمن طويل كالسويد والدنمارك وإنكلترا وبقية الدول المتقدمة تستطيع تطبيقها. وبالتالي، إني آسف لأني سأزف إليكم هذا النبأ المزعج: إن دمقرطة العالم العربي لن تتم بين عشية وضحاها، بل ستستغرق زمناً طويلاً. الديموقراطية ليست غداً بل بعد غد... وكلما تقدمنا خطوتين إلى الأمام رجعنا خطوة إلى الخلف لكي نلتقط أنفاسنا ونبلع أو نهضم الخطوة التي قطعناها وأنجزناها. هذا هو ثمن التقدم: إنه غال ويدفع مقابله عرق ودم. وتحضرني في هذا الصدد كلمة تشرشل الشهيرة التي وجهها إلى الشعب الإنكليزي إبان الحرب العالمية الثانية: ليس عندي شيء أقدمه إليكم إلا الدم والعرق والدموع! وأضيف أنا: والحروب الأهلية والمجازر. ما الذي يحصل في العراق الآن؟ وكم يدفع ثمن حريته باهظاً؟ وكم هي مرعبة تلك المجازر التي ترتكبها "قاعدة" التطرف والإجرام بحق شعبه يومياً؟

نعم إن الطريق نحو الديمقراطية مزروع بالألغام ومليء بالعقبات الهائلة. وأهم شيء بالنسبة إلينا الآن ليس الديموقراطية، بل الانتقال من حكم التعسف والاعتباط والاستبداد إلى حكم القانون المطبق على الجميع، والذي يحفظ حقوق الناس. أهم شيء هو بناء المؤسسات التي تطبقه. ينبغي أن يوجد قانون ينطبق على الجميع بالتساوي . وينبغي أن توجد مؤسسات تطبق هذا القانون على الجميع، لا فرق بين كبير وصغير، أو غني وفقير، أو متدين وغير متدين، أو ابن الأغلبية وابن الأقلية أو ابن رئيس الدولة وابن عامة الشعب إلخ... كلهم واقعون تحت حكم القانون أو ينبغي أن يكونوا. بعدئذ تجيء الديموقراطية على مراحل كما قلنا. ولكن إذا أمكن تطبيقها فوراً فسيكون أفضل، بشرط أن تمارس على قاعدة القانون المدني وفلسفة حقوق الإنسان والمواطن لا على أساس القانون الديني أو الفقه القديم. لماذا؟ لأن هذا الفقه القديم كما ذكرنا سوف يطبق فتاوى العصور الوسطى، وسوف يميز بالضرورة بين المتدين وغير المتدين، بين المسلم والمسيحي، بين الشيعي والسني إلخ... ويقضي بالتالي على فكرة المواطنية من أساسها. اللهم إلا إذا قبلنا بفكرة مواطن درجة أولى ومواطن درجة ثانية وربما ثالثة داخل المجتمع، كما كانوا يفعلون في العصور

القديمة السابقة على الثورات السياسية الحديثة: أي الثورة الإنكليزية والثورة الأميركية والثورة الفرنسية...

هل نريد لاهوت القرون الوسطى أم الفلسفة التنويرية الحديثة؟

السؤال المطروح الآن على العالم العربي والإسلامي هو الآتي:

هل سنعود إلى قانون الجزية وأهل الذمة في بدايات هذا القرن الواحد والعشرين؟ هل سنعود إلى حديث الفرقة الناجية وفقه القرون الوسطى الذي كفّر المعتزلة والفلاسفة وبعض المذاهب الإسلامية الأخرى؟ هل سنطبق الحدود البدنية حرفياً على النساء والرجال كحد الرجم والجلد وقطع الأيدي والأرجل من خلاف كما فعلت الطالبان وإيران والسودان؟ أم اننا سنقبل بالمساواة الكاملة بين المواطنين ونحل الدولة المدنية وقوانينها محل الدولة الدينية وتشريعاتها القروسطية التي لم تعد صالحة لهذا العصر؟ هل سنجدد فهمنا للدين الإسلامي جذرياً كما فعل فلاسفة التنوير في أوروبا؟ هل نحن متفقون على أن التفسير السلفي الحالي السائد عن الإسلام منذ العصور الوسطى والانحطاطية يعرقل تطبيق الديموقراطية أم لا؟ أتمنى لو يجيبني المثقفون العرب الذين يتشدقون بالديموقراطية صباح مساء عن هذا السؤال أو عن هذه الأسئلة كلها. كيف يمكن أن أتحدث عن الديموقراطية ثم أتحالف سياسياً مع التنظيمات الأصولية التي تكفر شرائح بأكملها من الشعب، بل وتدعو إلى التمييز ضدها إن لم يكن إباحة دمها على الهوية الطائفية؟ المعتزلة أبيحت دماؤهم من قبل الحنابلة قبل ألف سنة و لم تقم لهم قائمة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا. نقول ذلك على الرغم من أنهم أكثر المذاهب عقلانية في الإسلام. ومع ذلك فقد صنفوا في خانة الفرق الضالة المنحرفة... وماذا يفعله السلفيون في مصر الآن؟ ألا يهددون المجتمع المدني بل وحتى شيوخ الصوفية؟ ألا يشعلون الحرب الطائفية ضد الأقباط؟ وإذا ما استمرت الأمور على هذا النحو، ألن يجعلونا نتأسف على نظام مبارك على الرغم مما حصل فيه من فساد وتجاوزات وثراء غير مشروع؟

المفكر الإسلامي الوسطي المستنير محمد الطالبي يدعو بكل جرأة إلى تحييد الشريعة أو إعادة تأويلها من أجل تحييدها وتعليق تطبيق الحدود. فهو يعتقد أنه لا معنى إطلاقاً لجلد

التونسي الذي يشرب كأساً من الويسكي أو الخمر ثمانين جلدة. لماذا؟ لأننا إذا ما منعناه عن الشرب جهاراً فسوف يشرب سراً ونعوّد المجتمع النفاق والازدواجية والشيزوفرينيا... فهل هذا ما نريده؟ وقل الأمر ذاته عن رجم المرأة المخطئة التي لم يقبل طارق رمضان بتأجيل حد الرجم، وليس بإلغائه، إلا على مضض وبعد أن حشره نيكولا ساركوزي في الزاوية في تلك المناظرة الشهيرة. ولكنّ أخاه المتشدد هاني رمضان ظل مصراً على القراءة الحرفية للقرآن الكريم، أو بالأحرى للحديث النبوي، وطالب بتطبيق حد الرجم تماماً كالطالبان وبعض المتعصبين في إيران والسودان وسواهما... والواقع أنه على عكس ما يتوهم جمهور المسلمين، فإن حد الرجم ليس قرآنياً، بل هو موجود في الحديث النبوي فقط. وقد كان موجوداً في الشريعة اليهودية قبل الإسلامية، ولكن اليهود تطوروا لاحقاً وعقلنوا دينهم وألغوا تطبيقه بطبيعة الحال بسبب طابعه المرعب. لحسن الحظ، فإن حكومة القائد الإسلامي العقلاني طيب رجب أردوغان سحبت قانون الرجم والجلد من البرلمان بعد أن كاد الأصوليون الأتراك يصوّتون عليه ويعودون بالبلاد قروناً إلى الوراء، كما ألغى قانون الردة الذي كان يحكم بالإعدام على من ينتقل من الإسلام إلى دين آخر كالمسيحية أو سواها. ومعظم القوانين التركية أصبحت وضعية مدنية حديثة في ظل الحزب الأصولي الحاكم! وهنا تكمن المفارقة الكبرى أيضاً، وربما مكر التاريخ كما يقول هيغل. ولكن هل لا يزال أردوغان أصولياً إخوانياً يا ترى؟ هنا يمكن أن نأخذ التجربة التركية كمثال على التيار الإسلامي المنفتح على الحداثة والقوانين العصرية. إنها تزاوج بشكل موفق وناجح بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث الإسلامي العريق والتجديد الأوروبي المبتكر. وهذا هو الإسلام الليبرالي المستنير الذي يدعو إليه أركون، والذي يعتبره استمرارية وتطويراً لفكر الفارابي ومسكويه والتوحيدي وكل التنوير العربي في العصر الذهبي الكلاسيكي. وقد حصل ذلك عندما كانت حضارتنا العربية الإسلامية تشع على العالم بأنوارها إبان عصر الرشيد والمأمون، وكذلك عصر البويهيين والفاطميين والأندلسيين... ولا أعرف لماذا لا يمشي إخوان سوريا في هذا الاتجاه وهم الأقرب عقائدياً وجغرافياً ومذهبياً لإخوان تركيا الذين يحكمون الآن بكل ذكاء وألمعية. إذا ما مشوا فيه فإني أول من يقبل بهم ويصافحهم بل ويعانقهم. أما قبل ذلك فمستحيل. إذا أصروا على تكفير المذاهب الأخرى غير السنية، فلا أعرف كيف يمكن أن تتحقق المصالحة الوطنية في البلاد. بل إنهم يكفرون التيارات

السنية التنويرية ذاتها ويهاجمونها بعنف. ولكن يبدو أنهم غيروا موقفهم أخيراً وتطوروا فأصدروا وثيقة العهد في إسطنبول. وهي تمثل خطوة إيجابية أولى في الاتجاه الصحيح. ولكنها ليست كافية، بل يخشى البعض أن تكون تكتيكية.

في الواقع، يوجد هنا انسداد تاريخي خطير لا يتجرأ أحد على فتحه حتى الآن. أقصد بالانسداد التاريخي تحكم فتاوى القرون الوسطى في رقابنا، وفي طليعتها مقولة الفرقة الناجية وتكفير كل الفرق الإسلامية الأخرى. هذه مقولة فقهية قديمة ينبغي تغييرها أو تفكيكها لكي تحصل المصالحة بين مختلف الفرق الإسلامية يوماً ما. هذا ما علمنا إياه محمد أركون. إنها ليست مقدسة ولا معصومة ولا إلهية بل بشرية. ولكن القائد الأصولي المغربي عبد الإله بنكيران الذي أصبح أخيراً رئيساً للوزراء يعترف بكل نزاهة بأن تنظيمه غير جاهز الآن لأن يقلد التجربة التركية المتجرئة على التجديد أكثر من اللزوم. ثم يضيف قائلاً: الشروط لم تتوافر بعد في المغرب لتحقيق مثل هذه القفزة الكبيرة في المجهول... شكراً للصراحة والوضوح. هذا رجل أصولي يحترم نفسه ولا يزاود ولا يكابر. ولكن ما هو مستحيل اليوم قد يصبح ممكناً غداً كما علمتنا التجربة التاريخية. لا ريب في أن الأصوليين الأتراك اضطروا إلى إحداث كل هذا التطور أو البدع الخطيرة الرائعة لسببين أساسيين: أولهما مراقبة الاتحاد الأوروبي لهم عن كثب، وثانيهما قوة التيار العلماني في بلاد أتاتورك وهيمنته على القطاعات العليا البورجوازية والمثقفة من المجتمع التركي.

الثمن الغالي للديمقراطية

ولكن يبقى السؤال المطروح هو الآتي: هل سنستطيع تحقيق الديموقراطية من دون معركة كسر عظم؟ ألن نمر بمرحلة الاضطرابات والقلاقل وربما الحروب الأهلية قبل أن نصل إلى شاطئ الأمان؟ ألن ندفع الثمن باهظاً كما حصل للشعوب الأوروبية؟ عندنا مثل عامي يقول: إذا ما كبرت ما بتصغر... في الواقع، إن هذا ما هو حاصل بشكل صريح أو مضمر في أكثر من بلد عربي أو إسلامي. فالاحتقان تفاقم إلى درجة أنه لن ينحل إلا بالانفجار. الانسداد التاريخي المزمن والمتراكم منذ ألف سنة قد لا ينحل إلا بانفجارات بركانية

هائلة[١]. ينبغي العلم بأن العالم العربي يعيش مرحلة الانتقال الكبير والمخاض العسير: أي المخاض الذي سينتقل به من مرحلة ما قبل الحداثة إلى مرحلة الحداثة: أو من مرحلة الحكم الفردي الاستبدادي الأصولي المطلق إلى مرحلة الحكم الدستوري الليبرالي الديموقراطي المدني الحديث. وكذلك ينبغي الانتقال من مرحلة الحزب الواحد أو القائد الأوحد إلى مرحلة التناوب السلمي على الحكم بين السلطة والمعارضة. وعندئذ يمكن أن تتنافس كلتاهما على تنمية البلاد وليس على نهب ثرواتها وخيراتها وإيداعها في البنوك الأجنبية لصالح الأبناء والأحفاد. وعندئذ ينتهي مسلسل الانقلابات العسكرية والدم والقتل... وهذه المرحلة الانتقالية العسيرة استغرقت من الشعوب الأوروبية عشرات السنين. بعدئذ أصبحت حضارية مسالمة تحل مشاكلها بهدوء عن طريق الحوار الديموقراطي من أعلى المستويات إلى أدناها، وليس عن طريق الحرب والضرب. ونحن لا نزال في بدايات هذا التحول. وسوف نتعثر كثيراً ونتخبط أكثر قبل أن نصل إلى نتيجة. ينبغي أولاً أن نتفق على معنى الديموقراطية. إنها مشتقة كما هو معلوم من كلمتين إغريقيتين: الأولى ديموس أي الشعب، والثانية كراتوس أي حكم أو سلطة، فيصبح معناها إذن: سلطة الشعب أو حكم الشعب. هذا هو المعنى الحرفي للكلمة. ولكن المعنى الاصطلاحي الحديث كان قد بلوره جان جاك روسو في كتابه الشهير: **العقد الاجتماعي**. وملخص فكرته التي لا تزال سائدة حتى الآن في دول الغرب المتقدمة هو الآتي: الإنسان يتخلى عن إرادته الفردية طواعية لمصلحة الإرادة الجماعية المنبثقة عن التصويت الحر للشعب المثقف المستنير. وعندئذ يشعر المواطنون الذين ينطبق عليهم القانون كأنهم هم مؤلفو هذا القانون بالذات أو مشاركون في بلورته. إنه ليس مفروضاً عليهم من فوق أو من الخارج كما كان يحصل سابقاً إبان سيطرة الشريعة المسيحية أوالقانون الإلهي المقدس الذي كان يخلع المشروعية على ملوك فرنسا. وإنما هم الذين بلوروه بحسب حاجاتهم وإمكاناتهم، وتعاقدوا عليه ورضوا بأن يُحكموا به ومن خلاله. وبالتالي، فهو قانون مدني وضعي بالكامل، ويمكن تغييره أو تعديله كلما استدعت الحاجة وسنة التطور هذا الشيء، وذلك على عكس القانون الكنسي المقدس الذي لا يتغير ولا يتبدل حتى يرث الله الأرض ومن عليها... وكذلك على عكس الشريعة التي يتوهم جمهور المسلمين أنها إلهية بالكامل لا بشرية. وبالتالي يقول لك الأصولي عادة:

١ هذه هي فلسفة التاريخ التي ينطلق منها هذا الكتاب.

يا أخي حيث يوجد نص لا مجال للتملص منه. النص يقول كذا، وبالتالي، نحن مضطرون إلى تطبيقه حرفياً إلى أبد الآبدين. هناك حد للسرقة هو قطع اليد، وحد لشرب الخمر هو الجلد، وحد للزنى هو الرجم حتى الموت، إلخ... هذا هو الانسداد التاريخي بالمعنى الحرفي للكلمة: النص المقدس لا يتطور ولا يتغير ولا يتعدل حتى ولو تغيرت الظروف والمعطيات والحيثيات. نحن محكومون به إلى أبد الدهر. النص في واد والواقع في واد آخر. ولكننا نعلم أن الخليفة الكبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه علق تطبيق حد السرقة في عام المجاعة. ثم لماذا نعاقب الفقير الذي يسرق رغيف خبز لكي يسد رمقه ولا نعاقب الغني الذي يسرق الملايين ويودعها في البنوك الأجنبية؟ ولماذا نعاقب المرأة العربية ونجبرها على لبس زي لم يعد صالحاً لهذا العصر؟ انظر حالة المناضلة والصحافية السودانية المحترمة: لبنى أحمد الحسين. لقد أرادوا تطبيق حد الجلد عليها لأنها تلبس البنطلون! بالطبع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يوجد بنطلون للمرأة. فماذا نفعل؟ هكذا تلاحظون أنهم يأخذون من الدين قشوره وينسون الجوهر. إنهم محكومون بحرفية النص لا بمقاصده العليا. ولكن في عهد الحداثة الفكرية والسياسية تنتهي فكرة الحاكمية للمودودي أو فكرة ولاية الفقيه للخميني، وتبطل الأحكام الفقهية القديمة وكل التصورات اللاهوتية القروسطية. فالذي يحكم البشر هم البشر في نهاية المطاف، ولا يحق لأحد أن يزعم أنه يمثل ظل الله على الأرض، أو أنه الناطق الرسمي باسم الله عز وجل. ولكن القوانين ينبغي أن تكون متوافقة مع المبادئ الأخلاقية والروحانية العليا للدين الإسلامي. هذا شيء مفروغ منه. ما عدا ذلك كل شيء قابل للتطور والتغير بتطور الأزمان وتغيرها. هنا تكمن القطيعة المعرفية والسياسية الكبرى للعصور الحديثة بالقياس إلى العصور الوسطى القديمة كما يقول أركون. وهي ما نرفض حتى الآن الاعتراف به في العالم العربي الإسلامي. لماذا؟ لأنه يصعب علينا أن نقطع حبل السرة مع اللاهوت القديم الذي تربينا عليه منذ نعومة أظفارنا، وتغلغل في أرواحنا وشراييننا منذ مئات السنين، وترسخ في عقولنا رسوخ الجبال. يضاف إلى ذلك أنه يؤمّن لنا طمأنينة نفسية كبيرة ويشعرنا بمرضاة الله. وبالتالي، القطيعة الفجائية معه تترك فراغاً مرعباً وتزلزل الشخصية الجماعية زلزلة. إنها صعبة جداً ومكلفة نفسياً، لأنه يرافقها نزف داخلي حاد ككل القطيعات الكبرى في التاريخ. كيف يمكن أن تقطع مع قداسة رافقتك أو هيمنت عليك طيلة ألف سنة أو يزيد؟ من المعلوم أن فرنسا ظلت تتخبط مئة سنة بعد الثورة الفرنسية

حتى هضمت هذه القطيعة المرة وبلعتها، وقطعت حبل السرة مع اللاهوت المسيحي. وقد اضطر اليمين الكاثوليكي إلى أخذ فتوى من البابا في أواخر القرن التاسع عشر لكي يستطيع القبول بالنظام الجمهوري العلماني الديموقراطي الذي طالما حاربوه ولعنوه في صلواتهم. من هنا الاختلاجات الهائجة والأصوليات المزمجرة التي يشهدها العالم الإسلامي حالياً. ومع ذلك، فإن هذه القطيعة أصبحت الآن إجبارية بالنسبة إلينا. ولكنها ستتم على مراحل لا دفعة واحدة لكي نستطيع أن نبلعها ونهضمها. فنحن في عصر العولمة الكونية أصبحنا محاصرين بالحداثة السياسية من كل الجهات، وما عدنا بقادرين على تطبيق التشريعات القديمة التي تفرق بين الناس بحسب انتماءاتهم الطائفية أو التي تدعو إلى تطبيق الحدود البدنية المرعبة، كقطع اليد والجلد والرجم وتقطيع الأوصال وسوى ذلك... وكم شعرنا بالرعب ونحن نرى الطالبان ينفذون حكم الرجم بالمرأة المخطئة المسكينة التي تقاد إلى حتفها في الساحة العامة بشكل وحشي مرعب وهي محجبة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها! الكثيرون منا لم يستطيعوا تحمل المشهد فغيّروا القناة التلفزيونية فوراً... هذه ممارسات تصدم العقلية الحديثة وتسبب لنا مشاكل مع كل الأمم المتحضرة. ولهذا السبب فإنهم في الغرب يلحون علينا كثيراً لكي نغير برامج التعليم القديمة والقوانين المجحفة بحق المرأة والأقليات إلخ... ولكن بما أن الفكر السلفي الأصولي لا يزال مهيمناً على عقولنا بسبب التربية البيتية أو المدرسية أو خطبة الجمعة إلخ... فإننا نجد صعوبة في التخلي عن عاداتنا وتقاليدنا الراسخة...

من أركون إلى مارسيل غوشيه

يقول أركون في الدراسة المذكورة سابقاً بعنوان: الإسلام والديموقراطية. أي ديموقراطية؟ وأي إسلام؟ ما معناه:

> إن العقل الحديث يتيح لنا أن نميز بين رهانات الخيار الديني ورهانات الخيار السياسي ونعيد تحديد مكانة الدين ووظائفه في المجتمع. فلم يعد العامل الديني يسيطر على العامل السياسي. لقد تحررت السياسة في أوروبا من ربقة اللاهوت المسيحي القروسطي الذي كان مسيطراً عليها طيلة قرون وقرون.

> ولم يعد المطارنة ولا الخوارنة ولا حتى البابوات هم الذين يخلعون المشروعية السياسية على السلطة بل تصويت الشعب السيد الحر المستقل. وهذه هي أكبر ثورة سياسية في العصور الحديثة.

نلاحظ هنا أن أركون يستشهد بكلام للفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه يقول فيه ما معناه:

> كانت السلطة في العصور القديمة إبان هيمنة المسيحية ورجال الدين على أوروبا تنزل من فوق إلى تحت، كانت تنزل من أعلى السماوات على رؤوسنا، وتفرض نفسها على إرادة البشر. ثم جاءت الثورات السياسية الحديثة وأعادتها إلى الأرض، إلى مستوى البشر. كانت المشروعية عمودية شاقولية فأصبحت أفقية. كانت إلهية فأصبحت بشرية. وهكذا انتهت الحاكمية المسيحية إذا جاز التعبير، وبطلت ولاية الفقيه المسيحي. بل أكثر من ذلك: لقد أصبحت المشروعية تخرج من تحت بفضل هذه الثورات الثلاث، أي الإنكليزية والأميركية والفرنسية. بمعنى آخر، فإنها أصبحت تصدر عن إرادة البشر أو تصويت الشعب والمواطنين. وعلى هذا النحو انسحبت الشريعة المسيحية من الساحة وحلت محلها الشريعة البشرية: أي القانون الوضعي الذي يصوّت عليه الشعب في البرلمان بل ويغيّره ويعدّله كلما اقتضت الظروف والحاجة إلى ذلك كما قلنا آنفاً. هذا في حين أنه يستحيل تغيير القانون الكنسي لأنه معتبر إلهياً صالحاً لكل زمان ومكان.

انتهى كلام مارسيل غوشيه[١]. نستنتج من كل ذلك أن نظرية أركون ومارسيل غوشيه

---

١ للمزيد من الاطلاع على نظرية مارسيل غوشيه عن فلسفة الديمقراطية نحيل القارئ على المرجع الآتي: **حلول عهد الديمقراطية** بجزءين: الأول بعنوان: الثورة الحديثة أو ثورة الحداثة، والثاني بعنوان: أزمة الليبرالية. وكلاهما صادر عن غاليمار عام ٢٠٠٧.

Marcel Gauchet: *L'Avènement de la démocratie*. Gallimard 2007.

هذا إضافة إلى كتبه الأخرى عن ثورة حقوق الإنسان والعلاقة بين الدين والعلمانية في العصر الديمقراطي وكيفية الخروج من المسيحية التقليدية ولاهوت القرون الوسطى إلخ... ومارسيل غوشيه الذي ولد عام ١٩٤٦ في عائلة فقيرة بشمال فرنسا، استطاع أن يصل إلى أعلى المراكز العلمية بفضل المدرسة الجمهورية العلمانية والنظام الديمقراطي الحديث. ولولا ذلك لظل فلاحاً فقيراً أو عاملاً صغيراً ولما تجرأ على منافسة =

تلخص كل الفلسفة السياسية الحديثة قياساً إلى العصور الوسطى الإسلامية كما المسيحية. هنا بالذات تتموضع القطيعة الإبيستمولوجية والسياسية الكبرى للحداثة.

ولكن المشكلة هي أن كلامهما ينطبق على أوروبا التي شهدت التنوير الديني وتطورت عقليات شعوبها وأصبحت تصوّت على أساس القوانين المدنية الحديثة التي تتيح التقدم إلى الأمام في كل مرحلة، و لم تعد مرتبطة بالأصولية المسيحية أو القانون الكنسي المقدس. أما عندنا، فلو أعطيت حق التصويت للشعب لطالبوا بتطبيق الشريعة فوراً ولصوّتوا للأصوليين ووضعوهم على سدة السلطة، باعتبار أن "الإسلام هو الحل" أو الشريعة هي الحل... وهذا ما حصل حالياً في مصر بعد الانتصار الساحق للإخوان والسلفيين. فما العمل؟ هكذا نجد أنفسنا وقد عدنا إلى معضلة الديموقراطية في العالم العربي من جديد. وهي معضلة محيرة وتناقضية، وكنا قد توقفنا عندها سابقاً. فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن نطبق الديموقراطية فوراً ونعطي السلطة للأصوليين لكي يطبقوا برنامجهم المضاد لكل الفلسفة السياسية الحديثة التي أنجبت الديموقراطية ذاتها، وإما أن نلغي نتائج التصويت الشعبي كما حصل في الجزائر عام ١٩٩١ وندخل في حرب أهلية طاحنة ومدمرة. فقلت: هما أمران أحلاهما مر... حيرة ما بعدها حيرة... بلى هناك حل ثالث: هو أن نرضى بالأنظمة الحالية على الرغم من فسادها وتقلص قاعدتها الاجتماعية أو انقطاعها عن الشعب باعتبار أنها أهون الشرين، وأن المستبد المستنير أفضل من المستبد الأصولي الظلامي. كل الأنظمة على علاتها أفضل من الإخوان المسلمين، كما يقول بعضهم... ولكن العديد من الأنظمة فاسدة وتذبح شعبها. فهل هذا حل؟ وهناك حل رابع هو الخيار التركي ويبدو أنه الأفضل. لماذا؟ لأنه يعطي السلطة لأصوليين أذكياء مرنين يقبلون بالتطور التدريجي ولا يطبقون الشريعة حرفياً، بل القوانين الأوروبية. وعندئذ نخرج من الأصولية عن طريق الأصولية ذاتها، أي كما قال الشعر: تداويت منها بها، أو: وداوني بالتي كانت هي الداء...

بعد كل هذا الاستطراد نطرح السؤال الآتي:

كيف يعلق أركون على كلام مارسيل غوشيه السابق الذكر؟ يقول بما معناه: على الرغم من أن المؤلف كان يفكر بالمسيحية إذ يقول هذا الكلام، إلا أن ما يقوله عن انعكاس الأدوار بين الدين والسياسة في الغرب يتيح لنا أن نفهم بشكل أفضل الوضع الصعب والمتأزم

= أبناء العائلات البورجوازية والصناعية الغنية بل والتفوق عليهم.

للإسلام حالياً. فالسيد غوشيه يرى أن المسيحية هي الدين الوحيد الذي رافق هذه الطفرة المعرفية المتمثلة بخروج الدين من الساحة العامة للمجتمع وانفصاله عن السياسة وتحوله إلى قضية شخصية تهم وعي الفرد فقط. وهكذا فقد الدين طابعه القمعي الذي كان يتميز به إبان محاكم التفتيش القروسطية، وأصبح روحانياً خالصاً لا يلزم أحداً غصباً عنه ولا يقمع أحداً. وهذا يتوافق مع المبدأ القرآني الأسمى: لا إكراه في الدين.

ثم يردف أركون قائلاً: ولكن المشكلة هي أن هذه الثورة الفكرية والسياسية لم تحصل بعد في العالم العربي الإسلامي، بل حصل العكس تماماً. فمنذ خمسين سنة ما انفكت الوظيفة الأسطورية – الأيديولوجية للدين تتفاقم وتخرب القيم الروحانية العالية للدين الإسلامي. لقد حصل تسييس للدين لم يسبق له مثيل منذ أن كان حسن البنا قد شكل حركة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨. وبالتالي فإن كل الحركات الأصولية الناتجة من الإخوان لا تتيح لنا التحدث عن عودة الدين بالمعنى الروحاني للكلمة ولا عن ارتفاع الإسلام إلى مستوى النموذج الأعلى القادر على أن يكون بديلاً للنموذج الديموقراطي الغربي. كل هذا وهم وسراب. الإسلام كما يفهمونه ليس هو الحل، الإسلام بالمعنى الأصولي السلفي للكلمة هو المشكلة لا الحل. إنه تعقيد للمشكلة وتمهيد للحرب الأهلية لا أكثر ولا أقل. الإسلام الأصولي السلفي الانغلاقي عاجز عن أن يكون مشروعاً ناجحاً للمستقبل. ولا يمكن أن يحل مشاكل المجتمعات العربية والإسلامية. ولا يمكن أن يتقدم بها خطوة واحدة إلى الأمام. على العكس، فإنه يعقد مشاكلها ويعود بها سنين إلى الوراء. والأيام سوف تثبت فشله بل وقد أثبتته منذ الآن. انظر حالة إيران أو السودان أو الطالبان أو كل بلد تسيطر عليه التيارات السلفية بشكل كبير. إنها تكبل طاقاته وتشل إبداعه في كافة المجالات. وحده الفكر الإسلامي المستنير المتصالح مع الحداثة بلا إفراط أو تفريط يمكن أن يكون المنهاج الصحيح والحل. وحده تجديد الفكر الإسلامي راديكالياً وانفتاحه على الحداثة العلمانية والديموقراطية يمكنه أن يمشي بنا على طريق التقدم والرقي . وحده الإسلام الليبرالي يمكن أن يرافق هذه النقلة الحضارية القادمة إن شاء الله. وعسى أن تقودنا التجربة التركية إليه. ينبغي العلم هنا بأن فك الارتباط بين الدين والسياسة لا يعني إطلاقاً القضاء على الدين كما يتوهم بعضهم. على العكس تماماً. فالدين لن يزدهر روحانياً وأخلاقياً وإنسانياً وتعالياً ربانياً إلا بعد أن يتخلى عن الجوانب السياسية والسلطوية والمنفعية وكل ملابساتها ومناوراتها

ومقتضياتها. الدين ينبغي أن يكون فوق السياسة منزهاً متعالياً ربانياً. ولا ينبغي تلويثه في كل شاردة وواردة من أحابيل السياسة وتقلباتها ومناوراتها وتكتيكاتها. والدليل على ذلك أن المسيحية حاربت هذا التطور في الغرب في البداية، ولكنها الآن ترحب به بعد أن اكتشفت فوائده وأنه يحررها من الهموم السياسية ويجعلها تتفرغ للشؤون الدينية والروحية بشكل كامل. وبالتالي، أكبر المدافعين عن النظام العلماني الآن في فرنسا وعموم أوروبا هم المسيحيون أنفسهم. من يصدق ذلك؟ أقصد المسيحيين الليبراليين أو المستنيرين بالطبع، لا المسيحيين المتزمتين أو الأصوليين الذين ما عادوا يشكلون إلا أقلية قليلة على أي حال. وعلى هذا النحو تصالحت المسيحية مع العصر ومع فلسفة التنوير والقيم الديموقراطية العلمانية المتسامحة بعد أن كانت قد حاربتها زمناً طويلاً.

لماذا يسير العالم الإسلامي بالمقلوب؟

أما عالم الإسلام فقد شهد، للأسف الشديد، مساراً معاكساً تماماً بحسب ما يقول أركون في نظريته الشهيرة. فمنذ الخمسينات، وبالأخص السبعينات، حتى اليوم، فإن الفكر الأصولي المتزمت هو الذي انتصر وانتشر. هذا في حين أن الفكر العلمي والفلسفي تراجع بعد أن كان قد شهد انطلاقة واعدة إبان العصر الليبرالي العربي أو عصر النهضة على يد بطرس البستاني وجرجي زيدان وشبلي شميل وإسماعيل مظهر وسلامة موسى وطه حسين وأحمد أمين ومحمد كرد علي والعقاد والمازني والزيات وزكي مبارك ومحمد حسنين هيكل ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم وفرح أنطون وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة إلخ... هذا من دون أن ننسى الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم والطاهر بن عاشور والطاهر حداد والثعالبي وعلال الفاسي إلخ... كل هذا التوجه الانفتاحي للفكر العربي والإسلامي تم التراجع عنه بعد انتصار حركة الإخوان المسلمين وسيطرتها على الشارع... وهكذا رحنا نسير في حركة معاكسة للعالم كله: العالم يتقدم إلى الأمام ونحن ننكص على أعقابنا إلى الوراء ونتشبث بالقديم والنزعة السلفية الضيقة التي تجد دائماً الكمال في الماضي لا في المستقبل، على عكس الفكر البشري كله. نحن نتقدم إلى الخلف، وهم يتقدمون إلى الأمام. هذا لا يعني بالطبع أن الماضي كله خطأ! على العكس تماماً. فأركون يعتقد أن في

التراث العربي الإسلامي قيماً أخلاقية وروحانية راسخة وعالية المستوى. ولكن المشكلة أنها غارقة في بحر من التقليد وخرافات القرون الوسطى التي عفّى عليها الزمن. وبالتالي ينبغي أن نعرف كيف نفرز الأمور بعضها عن بعض لكي نميز بين الصالح والطالح. وهذه هي مهمة نقد العقل الإسلامي أو تجديد الفكر العربي. ينبغي على القشور التراثية الميتة ألا تقضي على القيم الحية والأصيلة التي خلفها لنا التراث، وبخاصة إبان عصره الذهبي المجيد.

لنضرب على ذلك مثلاً مذهلاً حقاً: في عام ١٧٨٩ اندلعت الثورة الفرنسية الشهيرة وراح الفرنسيون يلغون النظام الملكي المطلق الصلاحيات والقائم على الحق الإلهي، باعتبار أن ملك فرنسا هو خليفة الله على الأرض. وكانوا يرون أن كلامه لا يناقش ولا يرد، وبالتالي، لا ديموقراطية ولا من يحزنون. نفذ ثم لا تعترض! هذا هو النظام الذي أطاحته الثورة الفرنسية وأحلت محله النظام الجمهوري الجديد القائم على احترام إرادة الشعب والانتخابات والتصويت الحر والبرلمان، حيث تجري المناقشات الحرة بشكل ديموقرطي عنيف أحياناً. بالطبع، فإن هذا لم يتم إلا بعد مراحل دموية وتصفيات رهيبة، ولكنه تم في نهاية المطاف. بل ووصل الأمر بالثوار الفرنسيين إلى حد أنهم قطعوا رأس مليكهم المسكين الطيب لويس السادس عشر ضمن الظروف المأساوية التي نعرفها. بل وقطعوا رأس زوجته ماري أنطوانيت. والآن، يشعر الكثيرون بالندم على هذا العمل الوحشي الشنيع. ولكن الثورة على الرغم من كل هذه الأعمال الإجرامية، حققت قفزة إلى الأمام، وتمخضت عن نظام جديد يتلخص في الشعار الشهير: حرية، مساواة، إخاء.

هذا ما حصل في عالم الغرب. ولكن ماذا حصل في عالم الإسلام؟ على هذا السؤال يجيب أركون قائلاً: لقد حصل العكس تماماً. ففي عام ١٩٧٩، أي بعد مئتي سنة من الثورة الفرنسية، حصل شيء مضاد في بلد إسلامي كبير هو إيران. فالخميني أشعل ثورة شعبية عارمة، واستطاع أن يعود مظفراً إلى طهران لكي يتسلم السلطة ويقيم نظاماً ثيوقراطياً ضمن خط اللاهوت السياسي الشيعي الإمامي. نقصد به نظاماً يتحكم فيه رجال الدين الذين انتقلوا فجأة من الجوامع إلى قصور السلطة ودوائر الحكم. ثم راح يلاحق الشاه في كل مكان لكي يقطع رأسه لو استطاع الوصول إليه، أو لو لم يمت هذا الأخير بسرعة بداء السرطان. كان سيقتله باعتباره رمزاً للسلطة الطاغوتية البعيدة عن الله في نظره. الفرنسيون يقتلون ملكهم لأنه رمز للسلطة اللاهوتية المسيحية المتجسدة في شخصه، والخميني يريد

أن يقتل الشاه لأنه رمز للسلطة الدنيوية العلمانية المفرغة من الإيمان الديني. شيء معاكس تماماً. ثورتان متضادتان... والأنكى من ذلك هو أن العديد من المثقفين العرب والمسلمين راحوا يصفقون للخميني وللثورة الدينية التي دشنها. بل وحتى الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو وقع في الفخ على الرغم من ألمعيته وعبقريته، وذلك قبل أن يتراجع لاحقاً ويشعر بأنه ارتكب خطأً فادحاً إذ أيّد ثورة دينية قمعية[١]. ويقال إنه لم يخرج من شقته الباريسية لفترة من الزمن خجلاً مما فعل، ولكي لا يراه الناس ويسائلونه عن هذه السقطة: كيف يمكن أن يتحمس لثورة يقودها رجال الدين الظلاميون؟... هذا الكلام لا يعني إطلاقاً الدفاع عن الشاه أو عن نظامه الذي بلغ الذروة في الاستبداد والتعذيب في عهد السافاك السيّئ الذكر. فالأنظمة الشمولية الاستبدادية لا يمكن الدفاع عنها. من هنا أهمية الانتفاضات العربية التي جرت في تونس ومصر وسوريا واليمن إلخ. ولكنه يعني أن الأمور تمشي بالمقلوب في العالم الإسلامي. فالأوروبيون يقومون بثورات علمانية تحديثية تمشي إلى الأمام، ونحن نقوم بثورات دينية أصولية تعود بنا إلى الوراء. برافو!... ولكن إذا ما عرف السبب بطل العجب. فنحن، على عكس الفرنسيين، لم نشهد الثورة التنويرية للدين قبل الثورة السياسية. في فرنسا التنوير الفكري حصل قبل التغيير السياسي ومهد له الطريق كما ذكرنا سابقاً. أما نحن، فقد حصلت عندنا ثورة شعبية سياسية عارمة لا تقل أهمية عن الثورة الفرنسية من حيث التجييش والتعبئة الجماهيرية، ولكن من دون أي استنارة دينية أو فلسفية. من هنا الخطر الذي يحيق حالياً بالانتفاضات العربية الضرورية على الرغم من كل شيء. فيخشى أن يحصل لها ما حصل للثورة الإيرانية التي وصلت إلى طريق مسدود وأصبحت عالة على الشعب الإيراني... انظر ما يحصل حالياً في مصر مثلاً، فهي تشبه إيران على الرغم من أنها سنيّة المذهب وإيران شيعية. ولكن الفرق بين السنة والشيعة ليس ضخماً إلى الحد الذي يتوهمه البعض. فالنبي واحد، والكتاب واحد، وأركان الإسلام واحدة. فقط هناك خلاف على الخلافة أو الإمامة، أي على فروع الدين وليس على أصوله. ينبغي العلم بأن اللاهوت الإسلامي الشيعي ظل هو نفسه بعد الثورة كما كان عليه الحال منذ مئات السنين. وقل الأمر ذاته عن اللاهوت الإسلامي السني. والبعض لا يزال يحلم بعودة

---

١ للمزيد من التوسع حول هذه النقطة نحيل القارئ على المرجع الآتي لديدييه أريبون، الفصل السادس، ص ٢٩٨.

Didier Eribon: *Michel Foucault*. Flammarion. Paris 1989. Chap 6.

المهدي المنتظر كما ينتظر الأطفال في أعياد الميلاد ورأس السنة بابا نويل! لا ريب في أنها أسطورة جميلة صدقناها عندما كنا أطفالاً صغاراً، ولكنها انكشفت عن سراب الأساطير وأقمنا عليها الحداد... في كل يوم نقيم الحداد على إحدى أساطير الطفولة الجميلة... فمتى ستنتهي يا ترى؟ وهكذا حصدنا ولاية الفقيه وحكم الخميني والغيبيات والخرافات بدلاً من الفكر العقلاني والإسلام المستنير... والآن أصبح الشعب الإيراني مضطراً إلى القيام بثورة معاكسة والانقلاب على نظام ولاية الفقيه الذي أسسه الخميني. ولكن هذه المرة ستكون ثورة تنويرية كما كان يحلم أركون. وقد أمضى عمره في تنوير العقول الإسلامية وتحريرها من التصورات الخاطئة الموروثة عن الماضي. لا ريب في أن الإسلام دين عظيم، وينبغي على المسلمين التقيد بمبادئه الأخلاقية السامية. هذا هو موقف أركون. ولكنّ هناك تأويلين للإسلام: التأويل المنفتح الذي ساد العصر الذهبي والنزعة الإنسانية العربية، والتأويل المنغلق الذي ساد عصر الانحطاط. وهذا التأويل الثاني المتزمت هو الذي ينتقده أركون ويعتبر أنه لم يعد صالحاً للعصور الحديثة. لقد تناقشت معه أكثر من مرة وقال لي: الإسلام زائد العقلانية الفلسفية التنويرية وليس من دونها. هذا هو الشيء الذي يلزمنا حالياً.

وبالتالي، من السهل أن نصرخ ويزاود بعضنا على بعض قائلين: ديموقراطية، ديموقراطية، ديموقراطية، نريد الديموقراطية فوراً!... فهي كلمة حق أريد بها باطل، وبخاصة عندما تصدر عن أشخاص ذوي خلفيات استبدادية مضادة لجوهر الفلسفة السياسية الحديثة، وللمساواة الكاملة بين المواطنين، ولِلُبّ الديموقراطية... الثورة الفرنسية صدّرت إلى العالم "الإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن" والمستلهم في قسم كبير منه من أفكار جان جاك روسو وبقية فلاسفة التنوير. صحيح أن الغرب خانه أكثر من مرة، ولكنه موجود على الأقل. أما الثورة الإيرانية وبقية الحركات الأصولية الحالية فماذا صدّرت إلى العالم؟ لا شيء. اللهم إلا العنف والدم والتفجيرات الانتحارية واحتقار المرأة، على الرغم من أنها تمثل نصف الشعب. فهل يمكن تنمية المجتمع من دون مساهمة نصف أعضائه؟ من سيفكك هذا اللاهوت الظلامي الاستلابي الغيبي الذي يسيطر على عقلية الكثيرين ويمنع التقدم والتطور. من سيصالح الإسلام مع العقل؟ الإسلام هو دين العقل أساساً، فكيف أصبح مضاداً له؟ من الذي فسر رسالته السمحة بشكل خاطئ؟ أين هو التنوير العربي الإسلامي؟ لا يزال أمنية بعيدة في ضمير الغيب... أين هو الفهم الجديد للدين؟ متى ستنتقل البشرية العربية الإسلامية

من مرحلة الطفولة والقصور العقلي إلى مرحلة النضج وسن الرشد؟ وهذا هو تعريف كانط للتنوير حرفياً. نعم للدين وألف نعم، ولكن بالمعنى الروحاني والأخلاقي العالي للكلمة لا بالمعنى الإكراهي الظلامي. لا إكراه في الدين. نعم للدين "ضمن حدود العقل فقط" كما كان يحلم كانط، أحد أساتذة أركون الكبار. كانط ألف **نقد العقل الخالص**، وأركون أمضى عمره في تأليف **نقد العقل الإسلامي** اللاهوتي التقليدي. فالحضارة الإسلامية لم تعطِ أفضل ما عندها، ولم تشع على العالم بأنوارها إلا عندما سمحت للعقل بأن يشتغل ويتفاعل مع اليونان وغيرهم، وإلا عندما أتاحت للعلوم أن تتفتح وللعبقريات أن تفكر وتبدع في كافة المجالات... هذا هو الدرس الأساسي الذي خلفه لنا أركون من خلال كتابه الشهير: **النزعة الإنسانية والعقلانية في الفكر العربي الإسلامي. جيل مسكويه والتوحيدي**[1].

---

1 M.Arkoun: *L'Humanisme arabe au IV siècle de l'hegire/X siècle: Miskawayh philosophe et historien*. Vrin. Paris 1982.

الفصل التاسع

روح إدوارد سعيد ترفرف فوق الربيع العربي

لا ديمقراطية ولا حضارة من دون نزعة إنسانية

أتيح لي أخيراً أن أحضر ندوة ممتعة وغنية عن الهموم الفكرية العربية في جامعة مولاي إسماعيل بالرشيدية[١]: تلك المدينة المغربية الواقعة على أبواب الصحراء والواحات الخلابة... وقد حفلت بالمداخلات المتنوعة من شتى أنحاء العالم، إضافة إلى الأقطار العربية. وكان الهدف منها هو استكشاف إمكانية بلورة فكر جديد في العالم العربي بعد غربلة الفكر السابق وتمحيصه ونقده. فنحن لا نستطيع أن نعيش إلى الأبد على مائدة الفكر القديم الذي رافق المرحلة الاستعمارية وتلاها، من الأربعينات حتى التسعينات. كل الأيديولوجيا العربية السابقة أصبحت بين قوسين بفضل الانتفاضات العربية الجارية حالياً من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد والأنظمة المغلقة الشمولية. لكن ينبغي الاعتراف بأن مراجعة الأيديولوجيا العربية الرثة، إذا جاز التعبير، ابتدأت قبل ذلك. أقصد تلك الأيديولوجيا المعروفة بكل مقولاتها وشعاراتها الديماغوجية. منذ زمن طويل ونحن ندعو للانتقال من المرحلة الأيديولوجية إلى المرحلة الإبيستمولوجية: أي المعرفية والفلسفية العميقة. لقد طرحنا ذلك كشعار عريض لكل المرحلة القادمة. نعم لقد آن الأوان لكي ينتقل العرب من

---

١ بتاريخ ٢٤-٢٥ مايو ٢٠١١.

عصر الصراخ والندب والعويل إلى عصر التفكير المتزن والرصين والمسؤول، وإلا فإن العالم لن يأخذنا على محمل الجد أبداً. سوف يظل ينظر إلينا كأطفال من الناحية العقلية لمّا نبلغ سن الرشد بعد، كما يقول كانط عن البشرية الأوروبية قبل أن تستنير وتتقدم وتتحرر من سقف القرون والوسطى ووصاية اللاهوت والكهنوت. على مدار يومين متتاليين أتيح لنا أن نتحدث عن ذلك بكل حرية بفضل الأجواء الرحبة التي وفرها لنا الإخوة المشرفون على هذه الندوة المغربية الحرة. ينبغي الاعتراف بأن الأيديولوجيا العربية القديمة سقطت بسقوط صدام والقذافي وبن لادن... وبسقوط هذه الأيديولوجيا القومجية - الأصولية الغوغائية (ولا أقول القومية - الإسلامية بالمعنى النبيل والعالي للكلمة) انفتحت أمامنا أبواب الفكر النقدي الحر على مصراعيها. وإذ أقول ذلك فهذا لا يعني أن كل الأفكار العنصرية أو الشوفينية والطائفية قد زالت من العالم العربي دفعة واحدة! ينبغي أن يكون الإنسان مجنوناً أو مستلباً عقلياً بشكل كامل لكي يعتقد ذلك.على العكس، فإنها أفلتت من عقالها في هذه الفوضى الخلاقة العارمة وأطلق لها العنان. كل ما كان مكبوتاً سابقاً أصبح ينفجر في وجوهنا كالبراكين. وهذا ما كنا نتوقعه أصلاً ونخشاه منذ زمن طويل. ولكن أقصد أن هناك هامشاً من الحرية ينفتح أمامنا ونستطيع استغلاله لكي نفكك هذه المقولات العنصرية والطائفية بالذات. وهنا تكمن مهمة الفكر العربي الجديد المتحرر من براثن الأيديولوجيا الغوغائية التي هيمنت علينا طيلة ستين سنة: أي منذ سقوط الفكر الليبرالي العربي مع عصر النهضة (١٨٠٠-١٩٥٠) حتى اليوم. وهي أيديولوجيا توتاليتارية لا تعترف بوجود عناصر التنوع والتعددية في العالم العربي، بل تكبتها وتغطي عليها وكأنها غير موجودة. وبما أنها لا تعترف بها فإنها تشعر بالغبن والحرمان والتهميش الظالم. وعلى هذا النحو تستفحل المشاكل العرقية والمذهبية وتتفاقم وتنفجر كما هو حاصل حالياً. وبدلاً من أن يكون التنوع نعمة يصبح نقمة. وبدلاً من أن تكون التعددية غنى وثروة لبلادنا تصبح كأنها عالة علينا. بحياتنا كلها لم نعترف بالتعددية الدينية أو المذهبية قديماً، فكيف يمكن أن نعترف بالتعددية السياسية والديمقراطية حديثاً؟ نقول ذلك ونحن نعلم أن الأحزاب السياسية حاضراً هي المعادل الموضوعي للمذاهب الدينية سابقاً. كيف يمكن أن نصبح ديمقراطيين ونحن نرفض التعددية ونخشاها ونكرهها كره النجوس؟ مستحيل. لقد حاولنا طمس المختلف بأي شكل، بل وسحقه، فتحول إلى مشكلة رهيبة تكاد تستعصي على الحل.

وهكذا أصبحت بلداننا على شفا حرب أهلية بعد أن أصبح التعايش بين مختلف فئات الشعب كأنه ضرب من المعجزات. بل وأصبح التقسيم كأنه الحل الوحيد الممكن! وعليه يراهن العدو الخارجي. إلى أين وصلنا؟ من المعلوم أن أول شرط لحل المشكلة هو أن نعترف بوجودها على الأقل ونشخصها بشكل صحيح. طمس المشاكل لا يعني حلها. وهنا يكمن الفرق بين الفكر الأيديولوجي أو المؤدلج أكثر من اللزوم والفكر العلمي. لم يعد يكفي التحدث عن الاستعمار والإمبريالية لكي نقنع الآخرين بصحة كلامنا وخطاباتنا. هناك ما هو أخطر من الاستعمار والإمبريالية. هناك الرواسب القروسطية والحركات التكفيرية والأنظمة العسكرية – البوليسية التي تسحق شعوبها سحقاً. ونحن بين فكي كماشة لا حول لنا ولا طول. حقاً إنها لمعضلة رهيبة.

لحسن الحظ فإن الانتفاضات العربية الأخيرة تخلت عن هذه الطريقة الديماغوجية وألقت بمسؤولية الفشل على الداخل لا على الخارج. من هنا شعاراتها المفاجئة لنا التي تختلف عن كل شعارات المرحلة السابقة. وهذا دليل على نضج سياسي ينبغي أن نعترف به لشعوبنا أو على الأقل لشبيبتنا. إنهم يقولون لنا إن المرض في الداخل والعلة في الاستبداد المحلي في الدرجة الأولى. المشكلة تكمن في أن الأنظمة الشمولية عاجزة عن الاعتراف بالمعارضة وما تمثله من ثقل شعبي في الشارع ومشروعية تاريخية. وعن هذا الرفض العقيم الخاطئ ينتج الانسداد السياسي، فالتفاقم، فالانفجار. ثم نلقي بمسؤولية فشلنا كله على كاهل الاستعمار!... ولكن ما عدا الاستعمار الاستيطاني المتواصل في فلسطين حتى هذه اللحظة، لم يعد هناك أي استعمار في العالم العربي منذ استقلال الجزائر عام ١٩٦٢. فهل سنظل نلقي بمسؤولية تخلفنا وانحطاطنا على كاهل الاستعمار إلى أبد الآبدين؟ هل سنظل أسرى ذلك الخطاب القديم المهترئ والأيديولوجيا الفارغة التي ملّ منها حتى أطفال المدرسة الابتدائية؟

إدوارد سعيد ضد أصولية الغرب والشرق

أمام الأحقاد المندلعة في المشرق العربي خصوصاً، أمام القنابل الموقوتة المتفجرة من كل حدب وصوب، لا أجد نصاً أجمل من ذلك الذي كتبه المفكر الفلسطيني والعالمي الكبير

إدوارد سعيد. وهو ما استشهدت به أمام ندوة الرشيدية الدولية. فقبيل موته بأسابيع قليلة نشر هذا النص في مجلة اللوموند ديبلوماتيك. ولذا يمكن اعتباره بمثابة وصيته الأخيرة فكرياً وسياسياً. إنه يمثل صرخة شبه يائسة ولكن تحريرية ضد هذا الإرهاب الفكري المفروض علينا من قبل المتطرفين في كلتا الجهتين: الغربية والعربية. إنه يمثل نقداً لاذعاً للاستشراق الجديد العدواني المتمثل بالمحافظين الجدد من جهة، وللحركات المتزمتة السائدة في العالم العربي - الإسلامي من جهة أخرى. لأول مرة نلاحظ أن إدوارد سعيد لا يكتفي بإدانة الغرب واستشراقه المسيس، بل يدين أيضاً تخلف الشرق. بل ويصل به الأمر إلى حد اعتبار إغلاق باب الاجتهاد بمثابة كارثة عظمى بالنسبة إلى كلا العالمين العربي والإسلامي. ونحن ندفع الآن فاتورة هذا الانغلاق اللاهوتي- الفكري عداً ونقداً. انظر انفجار الأحقاد الطائفية والمذهبية كالسيل الجارف. انظر ازدهار السلفيين في مصر وغير مصر... بل ويصل الأمر بإدوارد سعيد إلى حد التعالي على جراحاته كفلسطيني والاعتراف بالآلام التاريخية للطرف المسؤول عن جراحاته ونكبته بالذات: أي اليهودي! من يستطيع أن يفعل ذلك؟ من يتجرأ عليه في عصر نتنياهو والتطرف الإسرائيلي البشع؟ ينبغي أن تكون إدوارد سعيد لكي تستطيع التحليق عالياً إلى مثل هذا المستوى والنظر إلى البعيد، أو بعيد البعيد... من يستطيع أن يتجاوز نفسه، أن يرتفع فوق نفسه؟ من يستطيع أن يكون أكبر من نفسه ومن عدوه في الوقت ذاته؟ يقول بالحرف الواحد:

> طيلة الخمسة والثلاثين عاماً الأخيرة أمضيت قسماً كبيراً من حياتي في الدفاع عن الشعب الفلسطيني وحقه في الحرية وتقرير المصير. ولكني فعلت ذلك مع الأخذ كلياً بعين الاعتبار لعذابات الشعب اليهودي على مدار التاريخ، بدءاً من الاضطهادات المعروفة وانتهاءً بالمجزرة الكبرى. وبالتالي، أنا أدعو إلى التفاهم والتعايش المشترك لا إلى مواصلة الأحقاد والصراعات إلى ما لا نهاية. والحل لن يكون إلا بتبني فكر عالمي، عقلاني وإنساني. فإما النزعة الإنسانية وإما البربرية![١].

---

١ انظر مجلة لوموند ديبلوماتيك، عدد سبتمبر ٢٠٠٣.
L'humanisme, dernier rempart contre la barbarie. Par Edward W. Said.in: Le Monde diplomatique. Septembre 2003.

هل يدرك الإسرائيليون معنى هذه اللفتة الكريمة من طرف إدوارد سعيد؟ هل يدركون ثمنها وقيمتها؟ ربما المستنيرون منهم فقط، ولكن ليس الجناح المتطرف الذي أعمته غطرسة القوة والدعم الغربي اللامشروط. بالطبع فكلام إدوارد سعيد هذا لا يعني إطلاقاً أن آلام اليهود التاريخية تبرر اغتصاب فلسطين! ولكنه يعني أنه - كمفكر كبير - يستطيع فرز الأشياء بعضها عن بعض والاعتراف بالحقيقة التاريخية أياً تكن، سواء لمصلحة اليهود أو غير اليهود. وهنا تكمن عظمته ونزعته الإنسانية الكونية. وهذا يخدم قضيته ولا يضرها، على عكس ما يتوهم المؤدلجون والديماغوجيون. لكن كلام إدوارد سعيد الذي رفعت الندوة صورته كشعار ورمز لها موجه إلينا أيضاً. فإذا كان قد نصح بـ"أنسنة" حتى العدو الغاصب، أو قل أنسنة أسلافه الذين عانوا واضطهدوا، فما بالك بنا نحن بالذات؟

أقصد بذلك أنه يطالب المثقفين العرب بالتخلي عن نزعاتهم الفئوية الضيقة في هذه الظروف العصيبة والارتفاع إلى مستوى أعلى: أي إلى مستوى الفكر التنويري الإنساني الكوني الذي يحترم كرامة الإنسان أياً كان. فنحن جميعاً في نهاية المطاف عيال الله أو مخلوقاته البشرية. ونحن جميعاً نستحق أن تحترم كرامتنا وألا تداس بالأقدام. لقد انتهى عهد الاحتقار والتهميش على أساس عرقي أو طائفي في كل أنحاء العالم المتحضر. فمتى سينتهي في عالمنا العربي الإسلامي؟ متى ستحترم كل مكونات المجتمع وليس فقط العنصر الغالب والمهيمن تاريخياً؟ متى ستعامل على قدم المساواة؟ وهل يمكن أن تستقر الأمور وتتحقق الوحدة الوطنية من دون الاعتراف بكل مكونات الأمة وعناصرها؟ لحسن الحظ، فإن الملك المستنير محمد السادس اعترف بالمكون الأمازيغي العريق كجزء لا يتجزأ من الأمة المغربية جنباً إلى جنب مع المكون العربي، ويجمع بينهما كليهما الإسلام الحنيف. وقد جاء ذلك في مقدمة الإصلاحات الدستورية الجريئة التي أعلنها يوم ٩ مارس آذار ٢٠١١. هذه هي بعض القضايا المهمة التي طرحتها ندوة الرشيدية والتي يطرحها بشكل مباشر أو غير مباشر كلام إدوارد سعيد وفكره الواسع العميق. لقد أعطانا درساً في الانفتاح والنزعة الإنسانية قل نظيره. وهو الدرس الذي تجلى في المظاهرات الشبابية الطيبة، حيث تعانق الإسلام مع المسيحية، والهلال مع الصليب في وحدة وطنية رائعة. إنه الدرس الذي تجلى في بدايات الربيع العربي قبل أن تسطو عليه القوى الأصولية.

الفصل العاشر

فلاسفة التنوير والنزعة الإنسانية

فولتير، مونتسكيو، روسو، كانط...

كان التنوير الأوروبي قد بلور النزعة الإنسانية بالمعنى الحديث للكلمة. وهي النزعة التي ينتمي إليها ادوارد سعيد وسواه من كبار المفكرين. فقد أكد هذا التنوير لأول مرة على كونية العقل والجنس البشري والحقوق البشرية. وهو الذي أطاح اللاهوت المسيحي القروسطي الطائفي (أي الذي ما كان يعترف إلا بحقوق الإنسان المسيحي، أو حتى الكاثوليكي إذا كان البلد ذا أغلبية كاثوليكية، والبروتستانتي إذا كان ذا أغلبية بروتستانتية)، وأحل محله الفلسفة السياسية الحديثة التي تعترف بالإنسان كإنسان بغض النظر عن مشروطياته العرقية أو الدينية أو المذهبية... انظر: مونتسكيو، فولتير، روسو، الموسوعيين، كانط، والمنفعيين الإنكليز الذين يعتبرون أن معيار أي سلوك وقيمته هو الشيء الآتي: خدمة الفرد والمجتمع ككل وليس خدمة الطائفة أو العشيرة فقط. ينبغي العلم بأن عصر الأنوار دشن العولمة الأولى كما يقول الفيلسوف الفرنسي لوك فيري في كتابه الممتع الأخير الذي نعتمد على بعض أطروحاته الآن[1]. وهي عولمة كونية متفائلة

---

[1] انظر كتاب لوك فيري الأخير: **المثقف اللاامتثالي. سيرة ذاتية – فكرية**. منشورات دونويل. باريس. ٢٠١١ ص ٢٥٤.

وهو عبارة عن سلسلة مقابلات متواصلة مع الباحثة أليكسندرا لينييل – لافاستين.

Luc Ferry: *L'Anticonformiste. Une autobiographie intellectuelle. Entretiens avec Alexandra Laignel-Lavastine.*=

بمستقبل الإنسان والجنس البشري. فالفكر الذي أسسه علماء تلك الفترة وفلاسفتها كان يعتقد بإمكانية التحسين البطيء والمتدرج ولكن المحتوم للوضع البشري. وهذا التحسين يتم عن طريق العلم والسياسة في آن واحد. فالعلم كما قال ديكارت هو الذي يجعل الإنسان سيداً على الطبيعة ومتحكماً فيها. فهو الذي يؤدي إلى اختراع الآلات التكنولوجية التي تخفف من الجهد العضلي للإنسان أو حتى تلغيه تماماً، وتعفي الإنسان منه ومن تعبه المضني. مع التنوير تجاوز الفكر الأوروبي العصر اللاهوتي المسيحي الذي كان يحصر همه في مصلحة المؤمن المتدين المعتنق للمسيحية. فهو وحده الإنسان الكامل المتكامل في المنظور اللاهوتي. وأصبح يتوجه بالخطاب إلى الإنسان أينما كان، وبغض النظر عن حيثياته الدينية أو العرقية أو المذهبية. أصبح الإنسان العلماني (أو المدني كما يقال حالياً) بحد ذاته قيمة، ولم تعد القيمة محصورة بالإنسان اللاهوتي. بهذا المعنى، فإن خطاب التنوير كان يخترق كل الأديان والأعراق والطوائف ويتجاوزها تماماً. من هنا عالميته أو كونيته. ثم مع اكتشاف مبدأ العطالة الذاتية والجاذبية الكونية راحت الثورة العلمية في أوروبا تدشن لأول مرة في تاريخ البشرية خطاباً موجهاً إلى البشر كلهم في ما وراء الحدود الفاصلة بينهم. في السابق، كان الخطاب موجهاً إلى أبناء ديني أو عرقي فقط، ولم يكن يشمل الجنس البشري بل ولا يخطر على باله ذلك. بل حتى داخل الدين الواحد كان الخطاب موجهاً إلى أبناء مذهبي أو طائفتي من دون كل المذاهب والطوائف الأخرى. فإذا كنت في بلد ذي أغلبية كاثوليكية فإن الإنسان الكامل الحقوق هو الإنسان الكاثوليكي. وإذا كنت في بلد ذي أغلبية بروتستانتية فالعكس هو الصحيح. وقل الأمر ذاته عن الإنسان السني أو الإنسان الشيعي داخل العالم الإسلامي. أما بعد عصر التنوير، فقد أصبح الخطاب موجهاً إلى البشرية بأسرها. إن إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي دشنته الثورة الفرنسية لم يكن موجهاً إلى المسيحيين فقط أو إلى الكاثوليكيين داخل المسيحية، بل كان ينطبق على الإنسان أياً يكن دينه أو مذهبه: مسيحي، مسلم، يهودي، كاثوليكي، بروتستانتي، سني أو شيعي، إلخ. وقل الأمر ذاته عن الإعلان العالمي الذي أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ والذي كان أكثر نضجاً واكتمالاً. هنا تكمن قطيعة الحداثة الكبرى أو قطيعة التنوير. وهي قطيعة لم تحصل بعد

= Denoel 2011. p 254.

في العالم العربي أو الإسلامي. وأكبر دليل على ذلك ما يحصل حالياً في بلداننا. فنحن لا نزال ندعو في خطاباتنا وصلواتنا: اللهم انصر الإسلام والمسلمين... ولا نقول اللهم انصر المظلومين أجمعين أو أرفق بهم أينما كانوا وإلى أي نحلة أو دين انتسبوا... نادراً ما نقول: اللهم انصر المستضعفين في الأرض حتى ولو كانوا من غير ديننا أو طائفتنا. هذا شيء يتجاوز وعينا ويجرح مشاعرنا أو يصدم عواطفنا الإيمانية التقليدية التي تربينا عليها منذ طفولتنا ونعومة أظفارنا.

ولكن التنوير على الرغم من إنجازاته الكبرى راح يتأقلم مع الظاهرة الاستعمارية، ومع الإمبريالية الغربية، بل وحتى مع العنصرية أحياناً كما يعترف بذلك لوك فيري شخصياً (المصدر السابق. ص ٢٥٥). أو قل إنه لم يستطع أن يمنع كل ذلك[١].

بعض فلاسفة التنوير يدينون استعباد السود والاستعمار

لا ريب في أن هناك فلاسفة تنويريين ضد الاستعمار كروسو والأب راينال وديدرو وسواهم... يقول روسو مثلاً:

> "نظام الرق لا غ. ليس فقط لأنه غير شرعي، وإنما أيضاً لأنه عبثي ولا معنى له. لا يمكن لنظام العبودية والقانون أن يجتمعا. إنهما متناقضان. لو كنت زعيماً لأحد شعوب أفريقيا السوداء لنصبت مشنقة على الحدود وعلقت عليها أول أوروبي يتجرأ على دخول البلاد".

١ في القرن الثامن عشر كانوا يتصورون مصير البشرية على أساس أنه مسار متقدم تدريجاً إلى الأمام. كان الفلاسفة يعتقدون بأن المسار الطويل للبشرية منذ مرحلة الهمجية حتى مرحلة الحضارة هو مسار صاعد وفقاً لأيديولوجيا التقدم المتفائلة لعصر الأنوار. ما عادوا ينظرون إلى الهمج المتوحشين ككائنات صماء بكماء لا تفقه شيئاً، بل كبشر متخلفين قادرين على تعلم بعض المهن والحرف. بالطبع فإن الإنسان البدائي كان دائماً محتقراً سواء من قبل العالم بوفون أو من قبل الفيلسوف فولتير. ولكنه لم يكن ميؤوساً منه ولكن كانوا يعتقدون بإمكانية تحسنه. وفي المحصلة، فإن الخطاب الفلسفي لعصر التنوير كان يشرح كيف يمكن استعمار البدائيين بشكل أفضل وتسيير أمورهم بشكل أحسن بل والسيطرة عليهم. ولكنهم كانوا يدعون إلى استعمار أكثر عدالة وإنسانية عن طريق احترام القانون.

انظر الفصل الأول من كتاب الباحثة الفرنسية ستيفاني كوديرك – موراندو: **الفلسفة الجمهورية والاستعمار**. منشورات لارماتان. 2008.

Stephanie Couderc-Morandeau: *Philosophie republicaine et colonialisme.* L'Harmattan 2008.

ويقول مونتسكيو:

"نظام الرق والعبودية مضاد للقانون الطبيعي الذي بموجبه فإن كل الناس أحرار مستقلون. وبالتالي فيحق للعبد الأسود أن يهرب ويربح حريته. إن حرب سبارتكوس هي أكثر الحروب مشروعية في التاريخ".

هذا الكلام الجميل لم يمنع مونتسكيو من احتقار العرق الأسود كمعظم فلاسفة التنوير كما سنرى لاحقاً.

ويقول جان جوزيف دو بيشميرجا:

"أي شخص يبرر نظام الرق الشنيع هذا لا يستحق من الفيلسوف إلا الاحتقار الشديد، ومن الزنجي إلا ضربة خنجر"!

ويقول ديدرو:

"لقد أجبرناهم لا أقول على وضع العبد وإنما على وضع الدابة. ثم نزعم بعدئذ بأننا عقلاء وأننا مسيحيون!".

ثم يردف قائلاً:

"إن شراء الزنوج وإخضاعهم لوضعية العبد والمتاجرة بهم يشكل انتهاكاً لمبادئ الدين والأخلاق والقوانين الطبيعية وكل حقوق الكائن البشري[١]".

هذا الموقف المبدئي من نظام الرق يمثل مجد فلاسفة التنوير ومفخرتهم. ولكن المشكلة هي أنه لا يعني المساواة بين البيض والسود على الرغم من إدانته لنظام الرق. فهذه فكرة (أي فكرة المساواة بين الأبيض والأسود) كانت سابقة لأوانها، بل وتمثل اللامفكر فيه بالنسبة إلى فلاسفة القرن الثامن عشر. فعلى الرغم من إدانة معظمهم لنظام الرق العبودي، كان بعضهم يجد له جوانب إيجابية. لنضرب على ذلك مثلاً فولتير ومونتسكيو. صحيح

١ للمزيد من الاطلاع حول الموضوع يمكن استشارة المرجع الآتي للباحث ايف بينو الذي أمضى عمره في تفكيك الأيديولوجيا الاستعمارية: **الأنوار، نظام الرق، الاستعمار**. منشورات لاديكوفيرت ٢٠٠٣.
Yves Benot: *Les Lumières, l'esclavage, la colonisation*. La Découverte 2003.

أنهما كانا يعتقدان بأن الاستعمار والمتاجرة بالعبيد هما مضادان للعقل والعدالة البشرية، ولكنهما كانا يعتقدان أيضاً بأن هذين الشيئين هما سبب التقدم المادي في أوروبا. وهو تقدم أدى إلى ازدهار العقل وتراجع العقلية الغيبية الخرافية المسيحية. من هنا الطابع التناقضي للمسألة.

ولكن البعض الآخر برر الاستعمار بحجة تحضير الشعوب!

ولكن كان هناك آخرون مع الاستعمار ويبررونه بحجة تحضير الشعوب: أي إدخال الشعوب المتخلفة في الحضارة... ينبغي العلم بأن لامارتين وفيكتور هيغو وجول فيري وكيبلنغ وحتى الاشتراكي ليون بلوم كانوا يشيدون بالرسالة الحضارية لبلدانهم، وضرورة أن تقوم بتحضير الشعوب البدائية "الهمجية"، كما كانوا يقولون آنذاك. وبشكل عام، كانوا يعتقدون بأن أوروبا الحضارية المستنيرة سوف تجدد البشرية. وأما جول فيري فقد صرخ قائلاً أمام البرلمان الفرنسي: "ينبغي أن نقولها بكل صراحة: الأعراق العليا تقع على كاهلها مسؤولية تجاه الأعراق الدنيا: إن عليها واجب تحضيرها وترقيتها ونقلها من حالة الهمجية إلى الحالة الحضارية"[١]... أياً يكن من أمر، فإن الاستعمار يشكل أكبر خيانة للتنوير في أعلى ذراه إنسانية على الأقل. ولكن كما قلنا، فإن التنوير الأول الذي قضى

١ كان الرئيس الفرنسي الجديد فرانسوا هولاند قد دشن عهده بالوقوف أمام تمثال جول فيري الكائن في حدائق التويلري القريبة من الشانزيليزيه (بتاريخ ٢٠١٢/٥/١٥)... وقد ألقى خطاباً أشاد فيه بالأب المؤسس للمدرسة العلمانية الابتدائية المجانية والإجبارية. ولكنه فرق بين جول فيري التقدمي هذا، وبين جول فيري المنظر للتوسع الاستعماري الفرنسي. فبقدر ما أشاد بالأول هاجم الثاني. ينبغي العلم بأن جول فيري وفيكتور هيغو ولامارتين إلخ ما كانوا عنصريين بالمعنى الحقير للكلمة. العنصري الحقيقي هو ذلك الشخص الذي يعتقد بأن الشعوب غير الأوروبية ليست فقط متخلفة، بل ستظل متخلفة إلى أبد الآبدين. فمهما حاولت وفعلت فإنها ستظل همجية وغير حضارية لأن عنصرها الأسود أو الأسمر يستعصي على الحضارة والرقي على عكس العنصر الأوروبي الأبيض أو الأشقر. هذا هو موقف اليمين المتطرف الفرنسي والغربي عموماً. ولكنه ليس موقف جول فيري، وإلا لما دعا إلى تحضير الشعوب المتأخرة. مجرد دعوته إلى ذلك يعني أنه كان يعتقد بمقدرتها على دخول الحضارة والخروج من مستنقع التخلف. لكن يبقى صحيحاً القول إن الظاهرة الاستعمارية كانت إجرامية لأن الاستعمار لم يكن نزهة سلمية في واد من الزهور... يضاف إلى ذلك أنه سلب الشعوب حريتها وإرادتها، وبدلاً من أن يدخلها في الحضارة ويساعدها على تحقيق التقدم راح يسلبها وينهبها... وبالتالي، الظاهرة الاستعمارية على عكس ما توهم جول فيري أو فيكتور هيغو كانت لاإنسانية بالمرة... والغريب العجيب أن موقف كليمنصو كان أفضل بكثير...

على التعصب الطائفي ومحاكم التفتيش المسيحية لم يكن قادراً على توسيع نظرته الإنسانية المتسامحة لكي تشمل السود مثلاً. والآن عندما نعرض آراء بعض الفلاسفة فيهم، نجد أشياء تصدمنا وتفاجئنا ولا نتوقعها على الإطلاق. يقول مونتسكيو مثلاً:

"هؤلاء الذين نتحدث عنهم سود من أعلى رأسهم إلى أخمص قدميهم. وأنفهم أفطس إلى درجة أنه لا يمكن أن تحزن عليهم أو تتعاطف معهم. إنه لمن المستحيل أن تعتقد أن أشخاصاً من هذا النوع هم بشر"!

وأما فولتير فيقول عنهم ما يأتي:

عيونهم المدورة، وأنفهم الأفطس، وشفاههم الغليظة دائماً، وآذانهم المختلفة، وصغر دماغهم، كل ذلك يضع بينهم وبين بقية البشر اختلافات ضخمة. وهذا الاختلاف ليس مرده البيئة الأفريقية الحارة على عكس ما نتوهم. والدليل على ذلك أنه حتى لو نقلنا الزنوج والزنجيات من بيئتهم الأصلية إلى بلاد أخرى باردة فإنهم يظلون ينجبون حيوانات من أشكالهم!...

وحتى كانط العاقل الرصين كان يقع أحياناً في مطب الأحكام العنصرية عندما يقول:

"من بين مئات الآلاف من الأفارقة الذين نقلوا إلى خارج بلدانهم لا يوجد شخص واحد نبغ في أي علم أو فن... وذلك على عكس البيض الذين ينبغون حتى ولو نقلوا إلى خارج بيئاتهم الأصلية بمسافات بعيدة."...

ومعلوم أن كانط كان يضع السود في أسفل السلم البشري، ويصف اليهود بأنهم مرابون ونصابون وغشاشون...

وأما تلميذه فيخته فكان يمجد العرق الألماني إلى أقصى الحدود، ويعتبره عصارة العرق الأبيض أو جوهره: إنه لب اللباب. ومن شدة كرهه لليهود كان يعتقد بأن القديس يوحنا كان يشك في الأصل اليهودي ليسوع المسيح. وهكذا ساهم في خلق أسطورة المسيح الآري أو الأوروبي على الأقل. إنه مسيح أوروبي أشقر، لا شرقي أسمر!

وأما هيغل، فكان يعتبر أن الأعراق السوداء متدنية بطبيعتها وعاجزة عن التطور. وكان

يعتقد مثل فيخته بتفوق العرق الآري على العرق السلافي والعرق اللاتيني. وكان يهاجم اليهود بعنف شديد.

أما موسوعة ديدرو ودلامبير فكانت تدعو إلى المساواة بين كافة الأعراق البشرية، كما كانت تدعو إلى إلغاء الرق والعبودية. وعلى الرغم من أن ديدرو كان يحب منتجات التجارة الاستعمارية كالقهوة والشوكولاتة والسكر، كان يدين المتاجرة بالسود بشكل قاطع. وقد اتخذ موقفاً واضحاً جداً ضد الاستعمار.

هناك أيضاً أحكام عنصرية عنيفة جداً ضد اليهود وخاصة لدى فولتير. يقول مثلاً:

"كيف يمكن أن يوجد شعب حقير كهذا الشعب على وجه الأرض؟"،

أو:

لو قرأنا تاريخ اليهود مكتوباً من قبل مؤرخ ينتمي إلى أمة أخرى معادية لهم لما صدقنا كل هذه الفظائع المنسوبة إليهم. بالكاد نستطيع التصديق بأن هذا الشعب قدم من مصر بأمر مباشر من الله لكي يدمر سبع أو ثماني أمم صغيرة ما كان يعرفها سابقاً. لقد راح يذبح من دون أي رحمة أو شفقة النساء والأطفال والشيوخ العجائز غير موفر إلا الصبايا البالغات من أجل سبيهن. بالكاد نصدق أن هذا الشعب عوقب من قبل إلهه لأنه وفر شخصاً واحداً من الذبح!عندما نطلع على كل ذلك فإننا لا نكاد نصدق أن شعباً حقيراً كهذا وجد على سطح الأرض. سوف نتخيل أن مؤرخاً معادياً كتبه لتشويه سمعتهم. ولكن بما أن اليهود أنفسهم يروون كل ذلك في كتبهم المقدسة عن أنفسهم، فإننا مضطرون لتصديقهم!

أو:

"إنه شعب الخرافات، جشع لأرزاق الآخرين، همجي".

أو:

"اليهود هم أعداء الجنس البشري"

ثم يقارن زعيم التنوير الأوروبي بين العرب واليهود معطياً الأفضلية للعرب:

إذا كان الإسماعيليون (أي العرب) يشبهون اليهود من حيث الهيجان والتعطش للنهب والسلب، إلا أنهم يتفوقون عليهم بما لا يقاس من حيث الشجاعة والأريحية والكرم وسمو النفس (...) هذا في حين أننا لا نرى في تاريخ الشعب العبراني أي مثل على الكرم والشهامة. فهم لا يعرفون معنى الضيافة ولا السخاء ولا الرأفة ولا التسامح. ذلك أن سعادتهم العظمى تكمن في ممارسة الربا مع الأجانب واستغلالهم إلى أقصى حد ممكن. وروح الربا هذه مغروسة في أعماق أعماقهم. وهي كما نعلم أصل كل خسة وجبن ودناءة (...). إن كل أمجادهم تكمن في استباحة القرى التي يستولون عليها بالحديد والنار ذابحين الأطفال والشيوخ غير موفرين إلا الصبايا البالغات. إنهم يقتلون أسيادهم عندما يكونون عبيداً وتسنح الفرصة لهم. وهم لا يعرفون أبداً الغفران عندما يكونون أقوياء، منتصرين. إنهم أعداء الجنس البشري!

إلخ.

غني عن القول إن هذا التعميم خاطئ، ظالم، ولا ينطبق إلا على متعصبي اليهود والصهاينة الغلاة. فاليهود قدموا للحضارة البشرية الكثير من العباقرة في شتى المجالات العلمية والفلسفية والموسيقية إلخ.

وهناك أحكام عنصرية أو طائفية مسبقة عديدة ضد المسلمين. وهي كليشيهات خاطئة لا تزال سائدة حتى الآن. فمثلاً شاتو بريان يقول ما معناه:

"الإسلام يجبرهم على الجهل والجمود مدى الحياة".

وإميل زولا يقول:

"المسلمون متعصبون بطبيعتهم وجوهرهم"[١].

---

١ كل هذه الاستشهادات يمكن القارئ أن يجدها على الإنترنت بسهولة. في ما يخص فولتير عن اليهود فهي مقتطعة من كتابيه: **مقالات عن أخلاق الأمم وروحها**، و**القاموس الفلسفي**. مادة: يهود أو يهودي. أما في ما =

وأما أرنست رينان فكان يعتقد بأن العرق السامي لم يخلق للحضارة والفلسفة والفكر العقلاني. وكان يقصد بالساميين هنا العرب وليس فقط اليهود. وهذا الاعتقاد كان شائعاً في القرن التاسع عشر. فهناك أعراق بشرية خلقت للحضارة وأعراق أخرى لم تخلق لها. وربما انقرضت طبقاً لنظرية داروين في الاصطفاء الطبيعي: البقاء للأقوى أو للأصلح... فما فائدة أعراق غير حضارية على هذه الأرض؟ لسنا بعيدين جداً عن هتلر هنا...

كان يقول عن الإسلام مثلاً:

> الإسلام هو النقيض المطلق لأوروبا الحضارية المبدعة. الإسلام هو التعصب الأعمى. الإسلام هو احتقار العلم وإلغاء المجتمع المدني. إنه يجسد التبسيط الرهيب للروح السامية. إنه يقلص الدماغ البشري ويغلقه ضد كل فكرة رقيقة ناعمة، وضد كل عاطفة راقية، وضد كل بحث عقلاني، لكي يضعه أمام لغو أبدي يتمثل في العبارة التالية: الله هو الله[١].

ثم يقول:

> "بالنسبة إلى العقل البشري فإن الإسلام لم يكن إلا ضرراً. لقد اضطهد الفكر الحر لا أقول أكثر من الأديان الأخرى ولكن بفعالية أكثر. لقد جعل من البلاد التي انتشر فيها مناطق مغلقة على الثقافة العقلانية للروح".

ولكن الغريب العجيب أن رينان الذي يقول هذا الكلام ضد الإسلام يقول أيضاً هذه العبارة المعجبة جداً بالإسلام:

= يخص النظرة السلبية المشكلة عن الإسلام والمسلمين، فتقتضي منا الأمانة القول بأن كبار مفكري أوروبا وأدبائها كشاتوبريان وإميل زولا وسواهما ما كانوا سيّئين في جوهرهم. ولكن عندما اكتشف الأوروبيون عالم العرب والإسلام في القرن التاسع عشر، كنا قد دخلنا في عصر الانحطاط منذ زمن طويل. وبالتالي هم لم يعرفونا عندما كنا أصحاب حضارة عظيمة تشع على العالم، بل بعد أن هجرتنا الحضارة وأصبحنا جامدين وهامدين... وهذا ما يفسر إلى حد كبير الأحكام السلبية والكليشيهات النمطية التي شكلوها عنا.
Voltaire: *Essais sur les mœurs et l'esprit des nations, Dictionnaire philosophique.*

١ انظر خطابه في الكوليج دو فرانس عام ١٨٦٢.
موجود في كتابه: **خطابات ومحاضرات**. باريس ٢٠١٠. طبعة جديدة.
Ernest Renan: *Discours et Conférences*. Paris 2010.

"بحياتي كلها لم أدخل إلى مسجد إلا وانتابتني قشعريرة إيمانية، بل وتأسفت لأني لست مسلماً"!

وكان يعترف بعظمة الحضارة الإسلامية في الماضي وأنها أشعت على العالم وأنجبت كبار العلماء والفلاسفة وكانت أستاذة لأوروبا[١]. ولكنه في الوقت ذاته لا يستطيع التخلص من أسر النظرية العنصرية التي هيمنت على القرن التاسع عشر والتي تقول بأن الجنس الأوروبي هو وحده المبدع فلسفياً وحضارياً! من هنا الطابع التناقضي المحير لفكر أرنست رينان في ما يخص العرب والمسلمين على الأقل... وعلى أي حال هذه نقطة تحتاج إلى تعميق أكثر.

ليس غريباً إذن أن يكون هتلر قد وضع العرب واليهود والسود والغجر في مؤخرة تصنيفه للأجناس البشرية التي يقع على رأس هرمها العرق الآري الجرماني. فهل كان تلميذاً مباشراً لفيخته؟ هذا لا يعني إطلاقاً إننا نساوي بين مجرم شهير كهتلر وبين الفلاسفة الكبار المذكورة أسماؤهم بمن فيهم رينان. فلا مجال للمقارنة والعياذ بالله!

أوروبا والتنوير الثاني

يضاف إلى ذلك أنه ينبغي أن نموضع كل هذه الاستشهادات ضمن سياقها التاريخي قبل مئتي سنة أو أكثر، لكي لا نسقط على مؤلفيها أفكارنا التحررية اليوم. وإلا فسوف نظلم بعضاً من أهم المفكرين في تاريخ البشرية. هذا من جهة. وأما من جهة أخرى، فلم يعد يوجد مفكر أوروبي واحد يتبنى هذه النظرة الاحتقارية للشعب الأسود، اللهم إلا إذا كان ينتمي إلى تيار اليمين المتطرف أو النازي. بل حتى الناس العاديين في أوروبا أصبحوا يستهجنونها، فما بالك بالمثقفين؟ وكثيراً ما تجد أوروبية شقراء في أحضان أفريقي أسود في شوارع باريس أو لندن أو بقية العواصم الأوروبية. وهذا الشيء كان مستحيلاً في القرن التاسع عشر. لنفكر ولو للحظة ببودلير والفضيحة الكبرى التي أحدثها عندما عشق الزنجية الحسناء جان دوفال وكان يتبختر معها في شوارع باريس لإغاظة البورجوازية الفرنسية

١ انظر محاضرته الشهيرة في السوربون عام ١٨٨٣ عن الإسلام والعلم والتي رد عليها جمال الدين الأفغاني. وقد نشرت أخيراً في طبعة جديدة مرفقة بمقدمة للباحث فرانسوا زبال،
Ernest Renan: *L'Islam et la Science*. Paris 2005. Préface de Francois Zabbal.

والاستمتاع بحرق أعصابها. شكراً بودلير! ولكن ليس كل الناس مجانين مثل بودلير: أقصد سابقين لأوانهم بكثير... وهنا نلمس لمس اليد الفرق بين التنوير الأول، والتنوير الثاني. فما كان التنوير الأول عاجزاً عن تحقيقه حققه التنوير الثاني الذي مشى في اتجاه التحرر والنزعة الإنسانية خطوة إضافية إلى الأمام. ولولا التنوير الثاني أصلاً لما تمكن شخص أسود كباراك حسين أوباما من اعتلاء عرش البيت الأبيض.

هكذا نجد أن معركة التنوير طويلة، معقدة، لا يمكن حسمها إلا على مراحل متتالية... وبالتالي لا يمكن أن نطالب مجتمعاتنا العربية بتحقيق مبادئ التنوير الديني والفلسفي في سنوات معدودات. هذا شيء يتجاوز طاقتها وإمكانياتها في الظروف الحالية الشديدة الصعوبة والمعاناة. ويمكن القول إنه إذا لم تحل قضية فلسطين بشكل عادل أو نصف عادل أو حتى ربع عادل، فإن الأيديولوجيا الأصولية سوف تظل منتصرة على الفلسفة التنويرية إلى أجل غير مسمى. وقل الأمر ذاته عن الأمية والفقر المدقع والجهل الذي يصيب شرائح واسعة من شعوبنا، هذا فضلاً عن الحروب الأهلية والعصبيات الطائفية والمذهبية التي تشعلها وتعصف بمعظم بلداننا حالياً أو تهدد وحدتها الداخلية. فكلها عوامل سلبية تحول دون انتشار الأفكار التنويرية عن التراث والدين في أعماق الجماهير. ولهذا السبب، فإن أغلبية الشعب تظل مخلصة لرجال الدين والفضائيات الأصولية التي تبث الأفكار التعصبية والفتاوى الفقهية القديمة على مدار الساعة. قلت "قديمة" ولكنها لم تفقد ذرة من مصداقيتها حتى الآن. على العكس، فإنها تفرض نفسها على الجماهير وكأنها معصومة وإلهية. ولو أن التنوير انتصر لزالت هذه العصبيات الطائفية وتلك الفتاوى القروسطية من الوجود، أو لضعفت كثيراً على الأقل. غني عن القول إن الاستبداد السياسي - البوليسي وحكم الحزب الواحد والجريدة الواحدة تسهم أيضاً في هذا الانسداد التاريخي الذي نعيشه منذ عقود (إن لم يكن منذ قرون!) والذي أدى أخيراً إلى هذا الانفجار الكبير...

الفصل الحادي عشر

هل التنوير هو الذي صنع الثورة الفرنسية؟

الفكر أولاً: أطروحة دانييل مورنيه

يهدف هذا البحث إلى إيضاح إشكالية واحدة محددة بدقة: نوعية العلاقة بين الفكر والسياسة، أو بين التغيير الفكري والتغيير السياسي. وبداية، أودّ طرح هذا السؤال: هل فكر التنوير هو الذي صنع الثورة الفرنسية، أم أن الثورة الفرنسية هي التي صنعت عصر التنوير بشكل إسقاطي واسترجاعي؟ بمعنى آخر: هل الثورة الفكرية هي التي تصنع الثورة السياسية أم العكس؟ الأطروحة السائدة في كل فرنسا هي أنه لولا التنوير لما كانت الثورة الفرنسية. وقد لخص هذه الأطروحة بشكل رائع المؤرخ دانييل مورنيه في كتابه الشهير الذي أصبح كلاسيكياً الآن: **الأصول الفكرية للثورة الفرنسية**[1]. كان هذا الكتاب قد صدر لأول مرة عام ١٩٣٣، أي قبل ثمانين عاماً تقريباً. ثم أعيدت طباعته مرات عديدة كان آخرها عام ٢٠١٠. وفيه يقول المؤلف إنه لولا الثورة الفكرية التي أحدثها فلاسفة التنوير في العقول، لما كانت الثورة الفرنسية. في الواقع، إن هذه الأطروحة تعتبر بمثابة بدهية أو تحصيل حاصل بالنسبة إلى مثقفي فرنسا. وبالتالي فمجرد طرحي لهذا السؤال في عنوان المقال يعتبر استفزازاً ما بعده استفزاز. فالتنوير هو الذي فكك مشروعية الكنيسة

1 Daniel Mornet: *Les origines intellectuelles de la Révolution francaise.* Paris. Le Tallandier. 2010.

الكاثوليكية وكل الأفكار الطائفية المتعصبة التي كانت تبثها في المجتمع. ولولا هذا التفكيك لما استطاعت الثورة الفرنسية أن تطيح النظام الملكي الاستبدادي المطلق الذي كان يستمد مشروعيته من هذه الكنيسة بالذات. فهي التي كانت تخلع عليه المشروعية "الإلهية" وتقنع جماهير الفرنسيين بتقديم الطاعة له والخضوع لمشيئته على الرغم من كل تعسفه واستبداده. انظر إلى دور رجال الدين في تخدير عامة الناس وجعلهم يقبلون بالظلم والقهر عن طريق استخدام ترسانة كبيرة من المواعظ الدينية والحيل اللاهوتية. وبالتالي، فالتغيير لم ينجح سياسياً إلا بعد أن نجح فكرياً. وهذا كلام منطقي لا غبار عليه. هل يمكن إنجاز ثورات حديثة بعقول قديمة؟ ولكن البرهنة عليه تطلبت من المؤلف القيام بأبحاث ضخمة ومعمقة استغرقت سنوات عديدة. لقد تطلبت منه تأليف كتاب ضخم يتجاوز خمسمائة صفحة من القطع الكبير (في المناسبة لا أعرف لماذا لم يترجم إلى العربية حتى الآن؟ هذا وقته!).

أطروحة روجيه شارتييه

ولكن هاهو مؤرخ جديد يظهر في فرنسا، لا لكي ينقض أطروحة مورنيه الراسخة، بل لكي يجري عليها بعض التعديلات المهمة، وبالأخص لكي يسلط على الإشكالية بعض الأضواء الجديدة. وهذه هي ميزة البحث العلمي: إنه يتقدم باستمرار إلى الأمام ويكتشف أشياء جديدة لم تكن ملحوظة في السابق أو لم تكن مرئية. الأطروحة الكلاسيكية تقول كما ذكرنا بأن فلسفة التنوير ولّدت الثورة الفرنسية كما يولد السبب النتيجة أو الدجاجة البيضة: أي بشكل مباشر وحتمي. يرى هذا الباحث الجديد[1] المتأثر بفكر ميشيل فوكو أننا وإن كنا لا نستطيع إنكار العلاقة بين التنوير والثورة الكبرى، إلا أنه ينبغي تعديل النظرية الكلاسيكية شيئاً ما بناءً على آخر مكتسبات فلسفة العلوم التاريخية (الإبيستمولوجيا التاريخية). وأهم هذه المكتسبات هو أن مشكلة الأصول والسببية لم تعد تطرح بنفس الحدية أو الحتمية التي كانت تطرح بها في القرن التاسع

1 Roger Chartier: *Les origines culturelles de la Révolution francaise*. Paris. Seuil 1991.
نلاحظ أن عنوان كتاب شارتييه يتطابق حرفياً مع عنوان كتاب مورنيه الذي سبقه إلى الظهور بحوالى ستين سنة ما عدا في كلمة واحدة. وبالتالي فهو استعادة لأطروحته مع نقد وتصحيح وتكملة.

عشر أو حتى في النصف الأول من القرن العشرين. نقصد بذلك أن ارتباط الحدث السياسي (أي الثورة الفرنسية) بالأسباب أو الأصول الفلسفية التنويرية لم يعد مباشراً ولا حتمياً ولا خطياً كما كان يتوهم المؤرخون السابقون. لماذا؟ لأن للحدث التدشيني (وبخاصة إذا كان كبيراً وضخماً كالثورة الفرنسية) بداهته الأولية أو ابتكاريته الأصلية أو فرادته الذاتية التي لا يشبهها أي شيء سابق أو لاحق. إن الحدث التاريخي الكبير يشبه القطيعة التي تحصل فجأة في مسار التاريخ، فتفصل ما كان عما سيكون. الثورة الفرنسية انفجرت كالزلزال أو كالبركان، ولا يمكن اختزالها إلى أي شيء آخر. لا يمكن اختزالها كلياً إلى أسباب أو أصول سابقة عليها. يضاف إلى ذلك أن الثورة الفرنسية هي التي شكلت عصر التنوير وصاغته بقدر ما شكلها هو وصاغها. هناك علاقة جدلية بين الطرفين لا علاقة أحادية. لقد شكلته بشكل استرجاعي وإسقاطي من أجل إيجاد المبرر الثقافي لذاتها. لقد أرادت أن تخلع المشروعية على ذاتها فلم تجد أفضل من التنوير كفلسفة فعالة وقادرة على مواجهة المشروعية الراسخة للكنيسة الكاثوليكية التي كانت تكره الثورة كره النجوس وتحاول إجهاضها بأي شكل. لهذا السبب بالذات فإن فلسفة الأنوار شكلت صورة مثالية رائعة عن عصر التنوير، وبالأخص عن شخصيات كبرى من أمثال فولتير وروسو ومونتسكيو وديدرو والموسوعيين إلخ. وراحت تستخدم شهرتهم ومصداقيتهم لمواجهة أعدائها. وهذا شيء طبيعي: فالحرب تكون أيديولوجية أيضاً وليس فقط عسكرية أو جسدية. والحرب بين المشروعية المسيحية السابقة والمشروعية الفلسفية اللاحقة كانت ضارية بكل معاني الكلمة. وهكذا استطاعت الثورة الفرنسية أن تجد مفكرين كباراً ذوي وزن، ومفكرين قادرين بشهرتهم الضخمة على مواجهة مطران باريس (قرضاوي العرب!) وكل أقطاب المشروعية التقليدية التي ظلت راسخة حتى بعد اندلاع الثورة. كيف لا وهي التي تشكل هوية فرنسا التاريخية على مدار أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمن. ففرنسا هي "البنت الكبرى للكنيسة الكاثوليكية" كما يقال عادة. وقد ظل لهذه الكنيسة ذات المشروعية المقدسة والضخمة أنصار كثيرون معادون للثورة ويريدون إطاحتها في أقرب فرصة ممكنة. وبالتالي، فالمعركة بين الطرفين لم تكن فقط جسدية أو قصة حياة أو موت، بل كانت أيضاً ثقافية رمزية: أي مرجعية ضد مرجعية، مرجعية رجال الدين المسيحي وعلى رأسهم البابا والمطران وعموم رجال

الدين مقابل مرجعية فولتير أو روسو أو مونتسكيو أو عباقرة التنوير كلهم. نعم لقد كانت معركة المرجعيات: مرجعية قديمة راسخة رسوخ الجبال، ضد مشروعية حديثة صاعدة واعدة ولكنها لما تترسخ كلياً بعد. وقد استغرق هذا الصراع قرناً كاملاً بعد الثورة قبل أن يخضع الحزب الكاثوليكي للأمر الواقع في نهاية المطاف ويعترف بالنظام الجمهوري الجديد المتولد عن الثورة. وبالتالي، فالقصة ليست سهلة على الإطلاق. نستنتج من ذلك أنه إذا كان فلاسفة التنوير هم الذين صنعوا الثورة، فإن الثورة هي التي صنعت أيضاً في خط الرجعة فلاسفة التنوير. كيف؟عن طريق نشر صورهم على أوسع نطاق، وبخاصة صور روسو وفولتير، بل ورفع كتاب روسو **العقد الاجتماعي** على رؤوس الأشهاد بصفته إنجيلاً للثورة. فمنه استمدت روح ذلك الإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن. وهو الإعلان الذي قدمته الثورة الفرنسية كهدية للعالم أجمع ولا تزال فرنسا تفتخر به حتى الآن. نقول ذلك على الرغم من أنها خانته وانحرفت عنه أكثر من مرة، وبخاصة إبان فترة الاستعمار. ولكن هذه قصة أخرى تستحق معالجة مستقلة. وإذن، فإن الثورة الفرنسية هي التي شكلت أسطورة فلاسفة التنوير، وهي التي ثبتت صورتهم بشكل مثالي رائع في الوعي الجماعي الجديد للأجيال القادمة.

الخلاصة التوفيقية بينهما

هذا هو ملخص أطروحة روجيه شارتييه، وهذه هي الإضافة التي قدمها قياساً إلى كتاب مورنيه الذي ظهر قبل ستين سنة من كتابه. والآن ماذا يمكن أن نقول عن أطروحته التي سوف تتضح أبعادها أكثر فأكثر على مدار هذا الحديث؟ على الرغم من جاذبية هذه النظرية الحديثة المعتمدة على علم الإبيستمولوجيا التاريخية لميشيل فوكو(أي فلسفة المعرفة التاريخية أو فلسفة علم التاريخ) إلا أنها لا تنقض أطروحة مورنيه، بل تكملها. فعلى الرغم من جانب الصحة الذي تنطوي عليه هذه النظرية الجديدة، إلا أنه لا يمكن إنكار الدور الكبير الذي لعبه فلاسفة عصر التنوير في التمهيد للثورة الفرنسية. وهنا يكمن عمل مورنيه الأساسي. فقد كشف بكل جلاء عن عظمة فلاسفة التنوير وأهمية الثورة الفكرية التي أحدثوها في العقول والتي سبقت اندلاع الثورة السياسية. والواقع أن روجيه شارتييه

لا ينكر ذلك. بل هذه هي النتيجة التي توصل إليها في نهاية المطاف بعد لف ودوران طويلين. لكن العلاقة بين الطرفين (أي التنوير والثورة) لم تعد أحادية الجانب كما قلنا. و لم تعد مباشرة جداً أو خطية كما كانت تتوهم النظرية الكلاسيكية لمورنيه، بل أصبحت علاقة جدلية متبادلة. لقد أصبحت عبارة عن تفاعل جدلي خلاق يحصل داخل نفس الصيرورة الكبرى لحركة التاريخ. ماذا يعني كل ذلك؟ إنه يعني أن فلسفة التنوير والثورة الفرنسية كلتيهما مندمجتان داخل الحركة الكبرى نفسها للتاريخ: أي حركة العصور الحديثة التي لا تقهر ولا ترد. وقد تنبه إلى ذلك الناقد الأدبي الفرنسي هيبوليت تين على الرغم من أنه كان أحد أعداء الثورة الفرنسية. فقد كان محافظاً من الناحية السياسية ومدافعاً عن النظام الملكي الكاثوليكي القديم. ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون نافذ البصر من الناحية الفكرية وقادراً على رصد حركة التاريخ بشكل موضوعي. وهذا يشبه موقف الروائي العظيم بلزاك الذي كان محافظاً على الصعيد الشخصي ومؤيداً للنظام الملكي، ولكنه كان تقدمياً على الصعيد الروائي. يقول هذا الناقد الكبير، إحدى مرجعيات طه حسين، في كتابه المعروف **العهد القديم: أصول فرنسا المعاصرة** (١٨٧٦):

> ينبغي العلم بأن بوالو وديكارت ولوميتر ودو ساسي وكورني وراسين وفليشييه إلخ هم أسلاف قادة الثورة الفرنسية من أمثال سان جوست وروبسبيير. وإذا كان هؤلاء الأدباء والمفكرون يبدون لنا الآن عقلاء وهادئين وأبعد ما يكونون عن روح الثورة والانقلابات العنيفة، فإن هذا مظهر خادع. فالواقع أن الشيء الذي كان يمنعهم من الثورة على الأوضاع القائمة هو أن العقيدة الملكية والدينية المسيحية كانت راسخة في العقول في زمنهم. ولكن ما إن أصبحت هذه العقيدة بالية مستهلكة بسبب أخطائها وتجاوزاتها الفاحشة، وما إن استطاعت الرؤية العلمية للعالم أن تفككها وتقلبها عن طريق استيراد نيوتن من إنكلترا على يد فولتير، حتى آتت الروح الجديدة بالضرورة ثمارها: أي نظرية الإنسان الطبيعي المجرد، والعقد الاجتماعي[١].

---

١ نقلاً عن كتاب روجيه شارتييه الآنف الذكر. ص ١٨.
أما كتاب الناقد الشهير "تين" المشار إليه هنا فهو التالي:
Hippolyte Taine: *L'Ancien Régime. Les Origines de la France contemporaine.*
والأسماء المذكورة من أشهر الشخصيات الفكرية والأدبية والسياسية الفرنسية.

كلهم خرجوا من معطف ديكارت!

وإذن فإن روح الثورة الفرنسية لا تعود فقط إلى الأنوار بالمعنى الحرفي للكلمة (أي القرن الثامن عشر)، بل تعود إلى زمن أبعد من ذلك بكثير. إنها تعود إلى لحظة ديكارت بالذات؟ ولكن أليس ديكارت هو مؤسس الأنوار كلها؟ ألم يخرجوا جميعاً من معطفه؟ نعم، إن ديكارت هو أبو الثورة الفرنسية بحسب هذا المنظور، تماماً مثل فولتير أو روسو، أو قل إن الأسباب البعيدة للثورة الفرنسية تعود إلى القرن السابع عشر، والأسباب القريبة المباشرة إلى القرن الثامن عشر. فعصر ديكارت لم يكن يسمح بتجاوز حد معين من الشك والتشكيك. كانت العقيدة المسيحية الكاثوليكية تشكل خطاً أحمر لا يمكن أحداً أن يقترب منه، اللهم إلا إذا قرر المجازفة بحياته. وبالتالي، فإن ما لم يقله ديكارت عن هذه النقطة الحساسة أهم بكثير مما قاله بحسب رأي البعض. فقد كان يتبع مذهب الحيطة والحذر والتقية لحماية نفسه. ولذلك فإنه فصل بين دائرتين في ما يخص تطبيق منهجية الشك التي اكتشفها: الأولى هي دائرة "الحقائق الإيمانية" التي لا ينبغي للشك المنهجي أن يقترب منها على الإطلاق، فهي فوق النقاش وفوق التساؤل وفوق النقد. وأما ما تبقى من عقائد وأفكار ورثها عن بيئته وطفولته ومدرسته اليسوعية فيمكن الشك المنهجي أن يضعها على محكه ويغربلها غربلة دقيقة ويمحصها بغية فرز الخاطئ عن الصحيح فيها. ولذلك تظاهر بأنه يحترم عقائد بلاده ويطيع عاداتها وتقاليدها. هذا ما أعلنه صراحة لكي "يحلّوا عن ربه" ويتركوه يفكر ويشتغل بسلام. كان يعرف في قرارة نفسه أنه يبلور عقيدة فلسفية رهيبة سوف تطيح كل ما هو موجود يوماً ما، ولكنه ما كان قادراً على التصريح بذلك علناً. ولذلك قال أحدهم عنه: ديكارت كشخص كان حذراً جداً بل وجباناً. ولكن الفلسفة الديكارتية التي بلورها كانت جريئة جداً بل ومتهورة. والواقع أنه حاول بكل الوسائل إظهار نفسه كشخص تقي نقي يحترم الدين بكل عقائده وطقوسه. بل وحلف بأغلظ الأيمان بأنه ملتزم كلياً بالأرثوذكسية الدينية المسيحية الكاثوليكية. وكل ذلك لكي يحمي نفسه من الاغتيال أولاً، ثم لكي يضمن نجاح ثورته العلمية والفكرية ثانياً. فقد كانت أعز عليه من روحه. وهذه سمة كل العظماء في التاريخ. إنهم لا يبحثون عن إطالة عمرهم بغية الاستمتاع بالحياة فقط، بل في الدرجة الأولى من أجل أن يتاح لهم الوقت الكافي لبلورة نظريتهم وإحداث ضربتهم الفلسفية الكبرى. أما بعد ذلك فليموتوا، لا بأس... كان أكبر

شيء يخشاه هو أن يموت قبل أن يتمكن من وضع نظريته. ولكن ديكارت أفصح عن نيّاته الحقيقية في رسالة خاصة إلى صديقه بورمان حيث يقول ما معناه: لقد كنت مجبراً على التصريح بذلك لأني كنت خائفاً أن يقولوا بأني رجل بلا دين ولا إيمان. وأخشى ما أخشاه أن يعتقدوا إني أريد هدم الدين والايمان بمنهجيتي هذه...

والواقع أنه في القرن السابع عشر ما كان ممكناً إطلاقاً التشكيك في العقائد الدينية اللهم إلا إذا كان الإنسان مجنوناً تماماً. لم تكن الظروف قد نضجت للقيام بهذه العملية الجراحية الشديدة الخطورة. ولكن في القرن الثامن عشر، أي عصر فولتير، فإن ذلك أصبح ممكناً. ومع ذلك، فإن فولتير نفسه كان - عندما تحمر عليه الأعين - يتظاهر بالايمان والتقى والورع لكي ينجو بجلده. ولكن وقته مع ذلك كان أفضل من وقت ديكارت، حيث تفصل بينهما مسافة مئة سنة على الأقل. وبالتالي، فحرية التفكير توسعت أكثر بطبيعة الحال. ولذا فالدائرة الأولى (أي دائرة العقائد الايمانية) أصبحت هي الأخرى أيضاً خاضعة للنقد والشك المنهجي[١]. بمعنى آخر، فإن ما كان مستحيلاً التفكير فيه في عصر ديكارت، أصبح ممكناً التفكير فيه في عصر فولتير وكانط وديدرو وروسو... فقد تشكل في القرن الثامن عشر "فضاء عام" بحسب تعبير الفيلسوف الألماني المعاصر يورغين

١ لاحظ الفرق بين لحظة ديكارت ولحظة كانط. ديكارت يضع العقائد الدينية فوق النقد: أي فوق منهجية الشك العلمي أو التفحص العقلاني النقدي. هذا في حين أن كانط يخضعها له تماماً وبكل وضوح. يقول في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه الشهير **نقد العقل الخالص**:

"إن قرننا هو بالذات قرن النقد الذي ينبغي أن يخضع له كل شيء. فقط الدين بقداسته، والتشريع بجلالته وعظمته، يحاولان التملص منه أو عدم الخضوع له. ولكنهما عندئذ يثيران الشكوك المشروعة حولهما أو ضدهما. ولا يمكنهما أن يحظيا بالاحترام الصادق الذي لا يمنحه العقل إلا لمن يقبل بالخضوع إلى تفحصه العلني الحر".

انظر مقدمة الطبعة الفرنسية:

Kant: *Critique de la raison pure*. Bordas 1988. Traduction: Patrice Henriot.

وبالتالي فما كان مستحيلاً التفكير فيه في عصر ديكارت أصبح ممكناً التفكير فيه في عصر كانط. وهذا هو معنى التقدم في تاريخ الفكر. كم هي الأشياء التي يستحيل على المثقف العربي أن يفكر فيها حالياً خوفاً من السيف المصلت فوق رأسه من طرف رجال الدين؟ معظم العقائد واليقينيات المعصومة خارج ليس فقط النقد وإنما التفكير مجرد تفكير. ولكن بعد خمسين سنة هل ستبقى كذلك؟ مستحيل. هنيئاً للأجيال المقبلة لأنها سوف تكتشف عندئذ أشياء عجيبة تدوخ العقل... ولكن يمكن أن تكتشفها منذ الآن. يكفي أن تطلع على ترجمات فكر محمد أركون...

أضيف إلى كل ذلك أن المسافة الزمنية الفاصلة بين لحظة ديكارت ولحظة كانط تبلغ قرناً ونصف قرن بالضبط. وفي هذا القرن والنصف حصلت أشياء وأشياء واستنار العقل الأوروبي كثيراً وأصبح نقد العقائد الدينية المسيحية أمراً ممكناً...

هابرماس. وأتاح هذا الفضاء العام للمفكرين أن يتناقشوا في ما بينهم بحرية، وأن يعالجوا أهم القضايا وأخطرها، بما فيها القضايا التي تخص المسألة الدينية والمشروعية السياسية والمشاكل الطائفية التي تمزق المجتمع والوحدة الوطنية. وهذا الفضاء العام الحر يختلف عن البلاط الملكي ودائرة السلطة العامة من جهة، كما يختلف عن دائرة الشعب أو "العوام" من جهة أخرى. لماذا؟ لأن الشعب كأن أمياً في معظمه وبالتالي غير قادر على الارتفاع إلى مستوى المناقشة النقدية والعقلانية للأمور. ولهذا السبب دعا هابرماس هذا الفضاء الثقافي الجديد بالفضاء العام البورجوازي. وذلك لأن أصحابه ما كانوا ينتمون إلى دائرة الطبقة الأرستقراطية العليا والبلاط الملكي كما ذكرنا (السلطة وأبناء العائلات الإقطاعية: أعلى السلم الاجتماعي)، ولا إلى دائرة الشعب والفلاحين والفقراء وهم أغلبية الشعب آنذاك (أسفل السلم الاجتماعي)، بل كانوا ينتمون إلى دائرة الطبقة الوسطى من سكان المدن: أي البورجوازيين بالمعنى الحرفي للكلمة[1] لا بالمعنى الاصطلاحي والأيديولوجي الذي ساد

---

[1] في نهايات القرون الوسطى كانت البورجوازية تشكل الطبقة الاجتماعية المتوسطة بين طبقة النبلاء العليا من جهة، وطبقة الفلاحين السفلى من جهة أخرى. وكانت مستوطنة أساساً في المدن التي ساهمت في نهضتها. وكانت تمارس المهن الحرة كالتجارة والشؤون المالية المصرفية والصناعات الحرفية. كانت البورجوازية مشكلة من الناس الأحرار الذين يمتلكون حقوقاً خاصة في سكنى المدن كما ويمتلكون ملكية خاصة من بيت وسواه. ثم تطورت البورجوازية أكثر مع حركة التصنيع التي غيرت وجه أوروبا عندما انتقلت بها من مجتمعات ريفية فلاحية إلى مجتمعات صناعية مليئة بالمعامل والآلات التكنولوجية. ومعلوم أن البورجوازية كانت هي أساس أندلاع الثورة الفرنسية وتشكل دولة القانون على أثرها: أي الدولة المدنية الحديثة كما هي موجودة في الغرب حالياً. فقبلها كانت توجد دولة إقطاعية أصولية تحتكر امتيازاتها طبقة النبلاء وطبقة الإكليروس المسيحي أي كبار رجال الدين. هؤلاء كانوا فوق القانون. وبالتالي فقد كانت دولة امتيازات مجحفة وتعسفية. كما وكانت دولة مذهبية طائفية. وهذا هو الشيء الذي غيرته الثورة الفرنسية. من هنا عظمتها وأهميتها. لقد كانت ثورة إلى الأمام لا إلى الخلف! نعم لقد تمكنت البورجوازية بفضل ديناميكيتها الحيوية الرائعة من أن تقلب الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية وتحل محلها كطبقة قائدة للمجتمع الفرنسي. وأخيراً ينبغي ألا ننسى أن البورجوازية هي الطبقة التي تبنت فلسفة التنوير، ولولا ذلك لما استطاعت تشكيل دولة مدنية حديثة بكل المقاييس. لولا ذلك لشكلت دولة أصولية تماماً كثورات الربيع العربي الحالية التي تبتدئ أول إنجازاتها بمحاكمة عادل إمام وشتم نجيب محفوظ! وسوف تلاحق حتماً كل روائع الأدب العربي بحجة أنها "تخل بالآداب العامة وتحض على الفجور"... وهذا يعني أن الثورة السياسية بدون مضمون فكري جديد لا معنى لها. لاحظ الثورة الإيرانية مثلاً... وأصلاً لولا أن البورجوازية تبنت فكر التنوير لما استطاع الانتصار على الأصولية المسيحية الكاثوليكية التي كانت تهيمن على الفرنسيين طيلة قرون وقرون إبان العهد القديم. بهذا المعنى يمكن القول بأن الثورة الفرنسية صنعت التنوير في خط الرجعة بدورها بقدر ما صنعها هو وأضاء لها الطريق. لقد صنعته عندما رفعت راياته على رؤوس الأشهاد وجعلته ينتصر على الفكر الديني الأصولي الراسخ في الوعي الجماعي الفرنسي منذ مئات السنين. لقد انتقمت الثورة الفرنسية لجان جاك روسو الذي لاحقه المتعصبون من كلتا الطائفتين (أي طائفته والطائفة الأخرى المضادة) وقضوا =

في ما بعد. فكلمة بورجوازي في اللغات الأوروبية متولدة عن بورج: أي مدينة. وسكان المدن هؤلاء كانوا من الطبقة الوسطى كما ذكرنا ويمارسون المهن الحرة أو الليبرالية. وكانوا متعلمين ومثقفين على عكس الشعب. وكانت هذه الدائرة السياسية العامة والبورجوازية متولدة مباشرة عن الدائرة الأدبية بكل صالوناتها ومقاهيها وجرائدها... وكانت هذه الأماكن تضج بالمناقشات والمجادلات الفكرية والأدبية والسياسية وسواها: تماماً مثل مقهى الهافانا في دمشق أيام زمان... ويقدم هابرماس تعريفه لهذه الدائرة بقوله: "إن الدائرة العامة البورجوازية يمكن اعتبارها أولاً وقبل كل شيء بمثابة دائرة الأشخاص الخصوصيين أي العاديين وغير الرسميين الذين يجتمعون في مكان ما وبشكل علني للتسامر والتحاور فيما بينهم"[١]. وهذه الدائرة العامة السياسية أو البورجوازية يتميز أفرادها بالاستخدام العلني للعقل من أجل مناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية ويتخذون عادة مواقف نقدية من السلطة. ولهذا السبب يمكن أن ندعوها بالدائرة العلنية أيضاً، ولكننا فضلنا استخدام كلمة العامة أو العمومية لأنها مضادة لكلمة الخاصة. ومعلوم أن حياة الإنسان مقسومة إلى قسمين: الحياة الخاصة، أي العائلية الحميمة مع زوجته وأولاده، والحياة العامة مع الناس حيث يخرج إلى العمل أو يساهم في نشاطات ومناقشات خارج حدود البيت وتخص الجماعة أو المجتمع. أياً يكن من أمر، فإن هذه الدائرة السياسية العامة والعلنية لا السرية أو الشخصية أخذت في التبلور والتشكل في أوروبا بدءاً من النصف الثاني للقرن الثامن عشر: أي في عز عصر التنوير. وهي التي أدت في ما بعد إلى تشكيل الرأي العام كما هو معروف حالياً في المجتمعات الأوروبية المتقدمة والذي يخشاه الحكام أشد الخشية ويحسبون له

= عليه مضجعه طيلة الثلث الأخير من حياته. ولولا العناية الإلهية لقتلوه، كما انتقمت لفولتير الذي أرعبه اليسوعيون أو الإخوان المسيحيون بعد أن ظل يناوشهم طيلة حياته كلها... وبالتالي، سبب إجهاض النهضة العربية وثورات الربيع العربي هو عدم وجود طبقة اجتماعية قوية ومتماسكة بما فيه الكفاية، أقصد طبقة تكون متحمسة للفكر الجديد وقادرة على مواجهة جحافل الفكر القديم ذي المشروعية "الإلهية" الراسخة. ينبغي الاعتراف بأن المشكلة مشكلة فكر أيضاً وليس فقط مشكلة وجود طبقة اجتماعية أو عدم وجودها. فالمثقفون العرب، على عكس فلاسفة التنوير الأوروبي، لم يستطيعوا حتى الآن تفكيك الفكر الأصولي وإطاحة مصداقيته. نقول ذلك على الرغم من المحاولات الجادة هنا أو هناك. ولكن المعركة الفكرية لم تحسم بعد. هذا أقل ما يمكن أن يقال...

١ انظر كتاب هابرماس: **الفضاء العام: أركيولوجيا العلنية والإعلان بصفتهما بعداً من الأبعاد المؤسسة للمجتمع البورجوازي**. الترجمة الفرنسية. ص ٣٨.

Jurgen Habermas: *L'espace public. Archéologie de la publicité comme dimension constituve de la société bourgeoise.* Paris. Payot 1978.

الحساب، على عكس الحكام العرب (ما قبل الربيع العربي على الأقل). وهذه الدائرة العلنية إبان تشكلها لم تكن خاضعة لسلطة الملك، و لم تكن تتقيد بالمراتبيات الهرمية للعهد القديم: أي لم تكن تقيم وزناً لتقسيم المجتمع إلى طبقة النبلاء، وطبقة الإكليروس، وطبقة الشعب في أسفل السلم الهرمي. لم تكن تنظر إلى المشاركين في النقاش على أساس أن هذا ابن ست وذاك ابن جارية، أو هذا "ابن عائلة" كما يقال عندنا وذاك ابن صعاليك إذا جاز التعبير. لا، أبداً. كان الجميع متساوين لا يفرق بينهم إلا مدى جدارتهم وألمعيتهم وبراعتهم في النقاش ومقدرتهم على استخدام ملكة العقل النقدية. وبالتالي فعامل النبالة أو الأرستقراطية الوراثية الذي كان يحكم فرنسا ما قبل الثورة لم يكن يلعب أي دور هنا. لقد تم إلغاؤه قصداً لكي تفضح البورجوازية قيم الطبقة الأرستقراطية القائمة على الكسل والوراثة لا على الميزات الشخصية للفرد. ومعلوم أنه كان يكفي في العهد القديم السابق على الثورة الفرنسية أن تكون ابن عائلة لكي تحتل أعلى المراكز في المجتمع حتى ولو كنت تافهاً بليداً. أما الطبقة البورجوازية فقد أسست قيماً جديدة مختلفة كلياً. لم يعد رأي المرء مهماً لأنه ابن عائلة أرستقراطية كبيرة بل لأنه ذكي أو مفكر أوعاقل أو نزيه يكرس جهوده لخدمة المجتمع والارتقاء به. من هنا الطابع الديناميكي والتقدمي الهائل للطبقة البورجوازية في ذلك الوقت والذي أثنى عليه كارل ماركس. بعدئذ سوف تصبح محافظة ولكن ليس الآن.

حركة العصور الحديثة حبلت بالتنوير والثورة الفرنسية في آن واحد

أياً يكن من أمر فإن عصر التنوير والثورة الفرنسية، كليهما، كانا تتويجاً لحركة تاريخية واسعة وطويلة الأمد استغرقت عدة قرون. إنها حركة روحية وسياسية واقتصادية واجتماعية تحررية ابتدأ نجمها يبزغ في أوروبا منذ بدايات عصر النهضة. ثم أخذت تمتد وتنتشر وتتفاعل حتى توجت بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. ولهذا السبب قال المؤرخ الفرنسي المعاصر ألفونس دوبرون ما يأتي:

> إن عالم الأنوار والثورة الفرنسية هما حدثان متمايزان ومترابطان في آن. إنهما عبارة عن تجليين (أو ظاهرتين عرضيتين) عن صيرورة أكثر كلية وشمولية: أقصد الصيرورة التي أدت إلى ظهور مجتمع يتمتع أفراده بالاستقلالية الذاتية.

ونقصد بها استقلاليتهم عن الأساطير والأديان أو تحررهم منها (بالمعنى التقليدي للكلمة). إنها الصيرورة التاريخية الكبرى التي أدت إلى ظهور مجتمع "حديث": أي متحرر من الماضي والتراكمات والتقاليد الموروثة. إنه مجتمع الحاضر: أي الحاضر المنفتح كلياً على المستقبل والذي يدير ظهره للماضي. وبالتالي فالعلاقات الحقيقية بين ظاهرتي التنوير والثورة الفرنسية، أقصد علاقات السبب بالنتيجة، تتلخص في تبعيتهما المشتركة لهذه الصيرورة التاريخية الكبرى التي تحتضنهما معاً والتي هي أكثر اتساعاً وشمولية منهما كليهما[١].

ثم يفسر كلامه بشكل أوضح إذ يقول ما معناه: ليست الثورة الفرنسية صورة طبق الأصل عن فلسفة التنوير كما قد نتوهم... الشيء المهم في ما يخص هذه النقطة هو دمج الثورة الفرنسية وفلسفة التنوير، كليهما، داخل مجرى التطور التاريخي الأوروبي الأكثر اتساعاً. وهذا المجرى التاريخي أو الحركة التاريخية الصاعدة هي التي تمثل الثورة الحقيقية. ماذا تعني هذه الصيرورة التاريخية العامة؟ إنها تعني أساساً الانتقال من الشبكة الأسطورية التقليدية (أي أسطورية الدين والمقدسات المسيحية والهيبة الدينية والسياسية المرتبطة بهما)، إلى شبكة أسطورية جديدة وإيمان مشترك ومنبعث من رقاده: هو إيمان الحداثة العلمانية المتحررة من الكهنوت المسيحي والمستقلة عنه كلياً. وأكثر مبادئ هذا الايمان الجديد أو المتجدد صرامة هو عدم رغبته في أن يكون أسطورياً، أو عدم وعيه بأنه يشكل أسطورة جديدة بدوره.

ماذا يعني هذا الكلام العميق؟ باختصار شديد: إنه يعني أننا انتقلنا من أسطورة الدين إلى أسطورة التنوير، أو من مقدس المسيحية إلى مقدس الحداثة والعلمانية، وما بينهما تكمن القطيعة الإبيستمولوجية والسياسية الكبرى التي لم تتحقق حتى الآن إلا في نطاق الحضارة الأوروبية. التنوير كان يمثل القطيعة الإبيستمولوجية أي الفكرية والمعرفية العميقة، والثورة

---

١ انظر كتاب المؤرخ الفرنسي ألفونس ديبرون: **الآداب والعلوم والدين والفنون في المجتمع الفرنسي إبان النصف الثاني من القرن الثامن عشر. باريس.** منشورات مركز الوثائق والمراجع الجامعية ١٩٦٤. ص ٢١.

Alphonse Dupront: *Les Lettres, les Sciences, la Religion et les Arts dans la société francaise de la deuxième moitié du XVIII siècle*. 1964. P 21.

الفرنسية كانت تمثل القطيعة السياسية مع العالم القديم، وكلاهما متولد عن ظاهرة أضخم وأكبر بكثير: هي ظاهرة العصور الحديثة التي ابتدأت منذ عصر النهضة والتي استطاعت القضاء على العصور الوسطى المسيحية أو التحرر من براثنها... وإذن، يمكن القول بأن الحدث السياسي الأكثر أهمية في العصور الحديثة (أي الثورة الفرنسية) كان نتاج عوامل عديدة مباشرة وغير مباشرة، قريبة وبعيدة. وبالتالي يمكن إرجاعه إلى عصر النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر وليس فقط إلى عصر ديكارت في القرن السابع عشر... لقد لزم أربعة قرون من الاستيقاظ الفكري والنقد التفكيكي للعقائد اللاهوتية المقدسة لكي تصبح الثورة الفرنسية العلمانية أمراً ممكن الحصول. القصة طويلة...

وفي الختام نطرح هذا السؤال:

كيف نفهم ظاهرة الربيع العربي على ضوء كل ذلك؟

أولاً: نسجل الملاحظة المهمة الآتية: العصور الحديثة لم تنتصر بعد على العصور القديمة في العالم العربي كما حصل في أوروبا. بل إن العكس هو الصحيح: فلا تزال العصور الوسطى هي المنتصرة بما لا يقاس على الحداثة العربية البدائية، الجنينية، الخائفة. لا تزال عصور الحداثة العربية في بداياتها. يكفي أن ننظر إلى أي بلد عربي أو إسلامي وإلى برامج تعليمه لكي ندرك هذه الحقيقة الواقعة.

ثانياً: لم تتعرض العقائد الإسلامية الدوغمائية حتى الآن للتفكيك التاريخي والفلسفي كما حصل للعقائد الدوغمائية المسيحية في أوروبا. وبالتالي فلا تزال لها مصداقية كاملة وهيمنة مطلقة على الساحة الثقافية العربية أو الفارسية أو حتى التركية.

ثالثاً: تفكيك العقائد المسيحية القروسطية تطلّب من مفكري أوروبا نضالات هائلة على مدار ثلاثة قرون متواصلة: من القرن السادس عشر إلى نهايات القرن التاسع عشر بل وحتى بدايات القرن العشرين (قانون العلمانية الفرنسية الذي فصل الكنيسة عن الدولة وأسس المواطنية بالمعنى الحديث للكلمة عن

طريق فصلها عن الطائفية صدر عام ١٩٠٥ كما هو معلوم).

رابعاً: لا يمكن الانخراط في تفكيك العقائد الدوغمائية الإسلامية حالياً لأسباب داخلية وخارجية. فما دامت شعوبنا رازحة تحت نير الأنظمة البوليسية الاستبدادية فإنها ستظل متمسكة بهويتها وتراثها العريق، لأنه وحده الذي تبقى لها لكي تستعصم به وتستنجد في أوقات الشدة والضيق. انظروا الحالة السورية من جملة أمثلة أخرى. فكيف يمكن أن تقبل بنقد التراث وهو الملاذ والملجأ؟ الظروف غير مؤاتية على الإطلاق. يضاف إلى ذلك أن هذه الأنظمة مدعومة من قبل الخارج الذي لا مصلحة له في استيقاظ العرب وانخراطهم في خط الحداثة والتنوير ما داموا لم يقبلوا عن جد بوجود إسرائيل كما هي. لهذا السبب، ولأسباب أخرى عديدة، فلا يتوقع أن ينتصر التنوير العربي في المدى المنظور. الشيء المتوقع هو العكس تماماً: أي انتعاش الأيديولوجيات الأصولية والطائفية المحضة بعد سقوط الأيديولوجيات التقدمية، بعد أن فقدت مصداقيتها ولم تعد تقنع أحداً. الشيء المؤكد هو عودة كل واحد إلى بيت الطاعة غصباً عنه: أي إلى أحضان الطائفة والمذهب، أو القبيلة والعشيرة.

خامساً: وحدهم قلة من المجانين المتهورين سوف يظلون متعلقين بمشروع التنوير الذي يخترق كل الطوائف والمذاهب ويتجاوزها. وحدهم هؤلاء سيرفضون العودة إلى بيت الطاعة الطائفي الضيق أو الانصياع لمنطق القطيع. إنهم صعاليك العرب في العصر الحديث. فكما أن الصعاليك القدامى قطعوا كل علاقة مع انتماءاتهم القبلية وأصبحوا مشردين وسارحين في البرية من دون أي حماية، فإن الصعاليك الجدد قطعوا كل علاقة مع انتماءاتهم الطائفية وأصبحوا أيضاً مشردين في الآفاق والبلدان.

سادساً: كان يمكن طائفة الأغلبية (أي الإسلامية السنية بالنسبة إلى سوريا) أن تشكل الحل البديل عن طريق التفاف الجميع حولها طوعاً أو كرهاً. ولكن هذا الحل لن ينجح ويترسخ إلا إذا تغلب التيار المستنير في هذه الأغلبية بالذات على التيار الإخواني السلفي القديم. وهذا شيء لا يمكن أن يحصل

في المدى المنظور. يضاف إلى ذلك أن النزعات الطائفية لدى الأقليات لا تزال قوية أيضاً. الطائفية ليست حكراً على الأكثرية! لا ريب في أن الناس المتنورين ذوي النيات الطيبة موجودون ومن كافة الفئات. ولكن المشكلة هي أنهم لا يزالون أقلية بالقياس إلى التيار العام الذي لا يزال متعلقاً بالأفكار والعصبيات القديمة. من هنا الخوف على سوريا. على أي حال، لكي تبقى سوريا موحدة ينبغي على الأغلبية أن تعطي الأقليات الشيعية والمسيحية بعض الحقوق الجديدة (قياساً إلى العصور الوسطى)، ليس لضمان المساواة الكاملة مع الأغلبية (شيء مستحيل في الوقت الراهن)، وإنما على الأقل للسير في هذا الاتجاه بغية التوصل إليه يوماً ما. لا ريب في أن قادة الاستقلال السوري انتهجوا هذا الخط الصحيح الطيب إبان الخمسينات وحققوا بعض النجاحات في خلق عاطفة وطنية سورية وعروبية تتجاوز العصبية الطائفية وتشمل الجميع. ولكن هذه العاطفة الوطنية الوليدة ظلت هشة وجنينية لأن إرث العصور الوسطى كان أكبر منهم ومن نياتهم الطيبة. ولذا أخفق المشروع الوطني وعادت العصبيات الطائفية والعرقية إلى الانبثاق مجدداً وبقوة رهيبة. هذا ما نشهده حالياً بشكل صارخ. انظر ما يكتبه بعضهم على صفحات الإنترنت حيث يخلو لهم الجو ويطلقون لعصبياتهم الطائفية العنان... ونحن هنا أمام حلين: إما تقسيم الدولة إلى عدة دول على أساس عرقي وطائفي (دولة كردية سنية، دولة عربية علوية، دولة عربية درزية، دولة كبرى عربية سنية...)، وإما أن تنجح الأغلبية العربية السنية في إجبار الجميع على الخضوع لها مجدداً والعودة إلى بيت الطاعة كما كان سائداً سابقاً طيلة مئات السنين مع إجراء بعض التحسينات الشكلية. في رأيي كلا الحلين وارد وهناك سباق محموم بينهما حالياً. أرجح انتصار الحل الثاني، لأن الأغلبية تتوصل في نهاية المطاف إلى فرض قانونها وهيمنتها. ولكن المشكلة هي أن هذا الحل لن يدوم طويلاً. لماذا؟ لأننا لم نعد في العصور الوسطى لكي تقبل الأقليات بوضع مهين يتناقض مع حقوق الإنسان وكرامته. في القرون الوسطى كان المنطق اللاهوتي القديم يفرض نفسه بشكل بدهي لا يناقش. كان حديث الفرقة

الناجية يتخذ شكل الحقيقة المطلقة، وكان الأقلوي مذهبياً مداناً دينياً وبالتالي سياسياً أيضاً. أما اليوم؟ ينبغي ألا ننسى أننا محاصرون بالحداثة العالمية من كل الجهات. وعاجلاً أو آجلاً سوف يطالب العلوي أو الدرزي أو الإسماعيلي أو الشيعي عموماً وكذلك الإباضي بالمساواة الكاملة مع أبناء الفرقة الناجية: أي السني. وسوف يطالب الأكراد والأمازيغ بالمساواة الكاملة مع الناطقين بلغة أهل الجنة: أي العرب. عاجلاً أو آجلاً سوف يتغلب منطق العصور الحديثة على منطق العصور الوسطى: أي منطق إعلان حقوق الإنسان والمواطن (وكل الفلسفة السياسية الحديثة التي تقف وراءه) على منطق الشريعة والفقه القديم وحديث الفرقة الناجية والتمييز بين الناس على أساس مؤمن وكافر، أو مسلم صحيح أرثوذكسي ومسلم زنديق منحرف عن الأرثوذكسية... ولكن في انتظار أن يحصل ذلك بعد ثلاثين أو أربعين سنة، سوف نعيش حالة تمزق هائلة وربما حروب أهلية طاحنة. هكذا نلاحظ أنه لا مهرب من إشكالية التنوير في نهاية المطاف كحل منقذ للجميع. صحيح أنه الحل الأطول والأصعب، ولكنه الأنجع والأكثر ديمومة. كما أنه الأكثر معانقة لحركة التاريخ والأكثر توافقاً مع قيم الحداثة العالمية. الفرق الوحيد بينه وبين التنوير الأوروبي هو أنه لن يكون تنويراً إلحادياً مادياً صرفاً. وإنما سيكون تنويراً مؤمناً ولكن بالمعنى الواسع للكلمة وليس بالمعنى الطائفي الضيق. أستدرك قائلاً بأن التنوير الأوروبي ليس كله إلحادياً. فولتير لم يكن ملحداً، ولا كانط، ولا جان جاك روسو... وعلى أي حال لا تزال هناك شرائح مؤمنة عديدة في أوروبا ولكن بشكل لاطائفي ومختلف عن إيمان العصور الوسطى. انظر التيارات الليبرالية المسيحية والأحزاب الديمقراطية المسيحية أيضاً. هل فرانسوا بايرو، زعيم حزب الوسط الفرنسي، شخص متخلف أو رجعي؟ على العكس، إنه من أفضل ما أنجبته الطبقة السياسية الفرنسية من حيث اتساع الأفق والنزعة الإنسانية العميقة. نقول ذلك على الرغم من أنه مؤمن مسيحي كاثوليكي. ولكنه إيمان ما بعد التنوير لا ما قبله! هنا يكمن الفرق الأساسي. فلم يعد يكره مواطنه البروتستانتي ويعتبره زنديقاً كما كان يفعل

أسلافه الكاثوليك طيلة قرون وقرون. لم يعد يضطهده ويحتقره إطلاقا لأنه أقلوي وليس كاثوليكياً مثل أغلبية الفرنسيين. و لم يعد يدين المسلم الفرنسي لأنه مسلم وليس مسيحياً. على العكس، أنه يعتبره مواطناً بالكامل له الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها بشرط أن يعتنق هذا المسلم قيم الحداثة ويتخلى عن الأصولية. وقس على ذلك... وبالتالي فهو، أي فرانسوا بايرو، مسيحي علماني لا مسيحي أصولي. إنه مسيحي ديمقراطي مستنير يعرف كيف يفصل بين الإيمان الشخصي من جهة، وحقوق المواطنية من جهة أخرى. ولا يخطر على باله إطلاقاً أن يدين الفرنسي الملحد لأنه غير مؤمن بالمسيحية أو بأي دين من الأديان... هذه قضية شخصية بينه وبين ربه ولا علاقة لأحد بها. يضاف إلى ذلك أن الملحد ليس ملحداً في الواقع: أقصد بأنه ليس خالياً من القيم العليا على عكس ما يتوهم الناس. إنه مواطن صالح في معظم الأحيان وملتزم بقيم الفلسفة الإنسانية الحديثة. بل وكثيراً ما يكون مفيداً للمجتمع وصادقاً يؤدي واجبه بإتقان أكثر من المتدين. نعود إلى فرانسوا بايرو: ما الذي يزعجنا في إيمان شخص من هذا النوع؟ ماذا يخيفنا في تدينه؟ لا شيء. ولكن فرانسوا بايرو وكل التيار الديمقراطي المسيحي المستنير هما نتاج ثلاثمائة سنة من صعود الحداثة والفكر النقدي والتأويل الجديد للدين. وراء ظهره عشرات الفلاسفة الذين فككوا الدوغمائية المسيحية من جذورها. وراءه ايراسموس، ومونتيني، وبيير بايل، وسبينوزا،وفولتير، وكانط، وهيغل، إلخ... وأما نحن فماذا وراءنا؟ لا شيء تقريباً. كم تزن مشروعية الفارابي أو المعري بالقياس إلى مشروعية الغزالي أو ابن تيمية؟ لا شيء، صفر تقريباً! أين هم نظراء ديكارت وسبينوزا ولايبنتز وبيير بايل وفولتير وديدرو وروسو وهيغل ونيتشه وهيدغر وبول ريكور إلخ في الفكر العربي؟ لا أحد تقريباً، صحراء من الفكر... (أبالغ قليلاً لتوضيح الصورة). وبالتالي فالوضع معكوس تماماً بيننا وبينهم. الأصولي المسيحي في الغرب هو الشذوذ، والمسيحي الليبرالي أو العلماني الحديث هو القاعدة. أما عندنا، فالإنسان الأصولي هو الإنسان الشرعي وهو القاعدة العمومية المسيطرة على الشارع، هذا في حين أن النخب الليبرالية

هي الشذوذ ("الليبراليون دخلاء على مصر" كما يقول الشيخ القرضاوي). وبالتالي، لا مجال للمقارنة بين الوضعين. وسيظل الأمر كذلك حتى ينجح التنوير العربي في تفكيك النواة الصلبة للأصولية الإسلامية، تماماً كما نجح التنوير الأوروبي في تفكيك النواة الصلبة للأصولية المسيحية. موعدنا بعد خمسين سنة قادمة!

الفصل الثاني عشر

نهاية الاستشراق

الفرق بين الاستشراق الرصين والأيديولوجيا الاستشراقية

قد يتساءل أحدهم مستنكراً: يا أخي ما علاقة الانتفاضات العربية بالاستشراق؟ لماذا تزعجنا في كل مرة بموضوع لا معنى له؟ لماذا كل هذه التعقيدات السوفسطائية؟ ألا يكفينا ما نحن فيه من متاعب وغموض وضباب؟ في الواقع إن الموضوع ليس من عندي ولكن استلهمته من مناقشات مؤتمر فرنسي يعقد سنوياً تحت عنوان: موعد مع التاريخ. ويبدو أن موضوع هذا العام تركز على الشرق، ربما بسبب الانتفاضات العارمة التي يشهدها حالياً والتي هزت العالم. ولكن مفهوم الشرق هنا يشمل أيضاً الهند والصين واليابان والشرق الأقصى وليس فقط العرب والمسلمين. فماذا يقول الآخرون عنا يا ترى؟ يعتقد الباحث الفرنسي المستعرب جان بيير فيليو الذي أدهش المشاركين بمداخلته القيمة، إن إحدى ميزات هذه الانتفاضات الصادرة من أعماق الشعوب أنها وضعت حداً للاستشراق أو قل للنظرة الاستشراقية تجاه العرب والمسلمين. كيف؟ كنا نعتقد أنها وضعت حداً للأنظمة البوليسية الديكتاتورية الفاسدة وليس للاستشراق. ما علاقة الاستشراق بكل ذلك؟ هنا ينبغي أن ننتبه للأمر جيداً. فالرجل لا يهاجم الاستشراق بالمعنى الفني والأدبي الذي أنتج روائع مدهشة من دولاكروا إلى شاتوبريان وجيرار دونيرفال وبقية الرحلات الممتعة إلى الشرق... ولا يقصد الاستشراق الأكاديمي العالي المستوى الذي طبق لأول مرة المنهج

التاريخي على تراثنا العربي الإسلامي، فنفض الغبار عنه وأضاءه وقدم له بذلك خدمة جلّى، بل يهاجم الأيديولوجيا الاستشراقية المسيّسة التي كان إدوارد سعيد قد أدانها أيضاً في أطروحته الشهيرة. نقول ذلك على الرغم من نواقص كتاب سعيد والانتقادات المهمة التي وجهت إليه، وبالأخص عدم قدرته دائماً على التفريق بين الاستشراق كعلم محترم رصين، والأيديولوجيا الاستشراقية المرتبطة عضوياً بإرادة القوة والإدارة الاستعمارية السلطوية. فهذا الاستشراق الأيديولوجي الرخيص كان ينظر إلى العالم العربي وكأنه عالم آخر مختلف كلياً عن العالم الحضاري المحصور بالغرب طبعاً. إنه عالم إكزوتيكي، غرائبي، عجائبي، نذهب إليه في زيارات سياحية من وقت لآخر لكي نستمتع "بجماليات التخلف" ورؤية هؤلاء الناس البدائيين المسلين والمضحكين الذين يذكروننا بالعصور الوسطى أو عصر ما قبل الصناعة. إنهم يعيدوننا إلى براءاتنا الأصلية التي فقدناها ونسيناها... إننا نذهب إليه من أجل الاستجمام والترويح عن النفس ورؤية الطبيعة البكر التي انقرضت في الغرب بسبب التدجين التكنولوجي الشامل الذي أرعب هيدغر يوماً ما... هذه النظرة الاستعلائية والاحتقارية لنا أسقطتها انتفاضات الربيع العربي ضد أنظمة الخطاب الواحد والكلام الفارغ والأيديولوجيا الجوفاء المضجرة إلى حد الموت[1]. فقد أثبت شباب العرب أنهم

---

١ عهد الأنظمة الشمولية انتهى إلى غير رجعة ولا يمكن أن يستمر. هذه نقطة أصبحت بدهية بعد اندلاع انتفاضات الربيع العربي المعمد بالدم القاني، وكذلك بعد انتفاضات شعوب أوروبا الشرقية وسقوط جدار برلين عام ١٩٩١ وإقامة الأنظمة التعددية الليبرالية الدستورية على أنقاض الأنظمة الشيوعية التوتاليتارية للحزب الواحد. لا يمكن بعد الآن أن تحكم أي شعب ضد إرادته أو من دون استشارته. هذا هو التوجه العالمي كله، هذه هي حركة التاريخ ولا يستطيع أحد أن يقف في وجهها... الشعب يريد أن يتنفس ورياح الحرية هبت عليه... لا يمكن آلة القمع البوليسي – العسكري أن توقف حركة التاريخ لا في سوريا ولا في غير سوريا. وحتى لو نجحت في ذلك فإن النظام الحاكم لا يمكن أن يستمر إلا إذا لبّى مطالبها وأجرى الإصلاحات اللازمة وخضع لصناديق الاقتراع التي تبقى الحكم النهائي في نهاية المطاف. ولكن ديمقراطية صناديق الاقتراع لا تعني أن كل المشاكل قد حلت دفعة واحدة بضربة عصا سحرية! فقد يخرج منها منتصراً تنظيم أصولي مضاد للفلسفة الإنسانية الحديثة ويريد العودة بنا إلى فتاوى القرون الوسطى التكفيرية. انظر هجوم الدكتور القرضاوي على الليبراليين واعتبارهم دخلاء على مصر! وهذا يعني أنهم دخلاء على كل العالم العربي وليس فقط على مصر الرائدة والسباقة عموماً. يشكر الشيخ القرضاوي على أنه وضع المناقشة على المستوى الذي ينبغي أن توضع عليه. فالواقع أن المعركة الأساسية للمستقبل ليست بين الشيعة والسنة ولا بين المسلمين والمسيحيين العرب، بل بين الليبراليين السنة والأصوليين السنة، بين الليبراليين الشيعة والأصوليين الشيعة، بين الليبراليين المسيحيين والأصوليين المسيحيين، إلخ. في الواقع، إن كلام الداعية الشهير كشف القناع بشكل غير مقصود عن الخطر الذي يتهدد مصر حالياً. وأقصد به تضخم التيار السلفي – الإخواني الذي ينتمي إليه على حساب التيار الليبرالي التحرري . وهو تيار متطرف على ما يبدو على عكس التيار التونسي الغنوشي المعتدل إلى حد ما. فهذا التيار السلفي – الإخواني يحاول السطو على الربيع =

يحبون الحرية ويتوقون إليها مثل بقية شعوب الأرض. بل إنهم أصبحوا نموذجاً يحتذى لشباب الغرب الحضاري نفسه، هذا الشباب الذي يستلهمهم عندما ينزل إلى الشارع لكي يتظاهر في نيويورك أو مدريد إلخ... وهذا يعني أن الجنس البشري واحد، وأنه يحب الكرامة والعدالة والشفافية والحرية، ويكره المحسوبية والرشوة وكل أنواع الفساد الأخرى. وهنا تكمن القيم الكونية التي يجتمع عليها النوع البشري على اختلاف أعراقه وأديانه ولغاته ومذاهبه. لكن ما علاقة الأيديولوجيا الاستشراقية بكل ذلك؟ ولماذا يهاجمها جان بيير فيليو؟ ثم ما هو مقصوده بالضبط؟

برنارد لويس كزعيم للمحافظين الجدد

إنه يقصد مؤلفات باحثين رجعيين كبار يقف على رأسهم برنارد لويس[1] وتلامذته من

= العربي وتوجيهه في اتجاه مضاد للدولة المدنية الديمقراطية الحديثة التي تحترم الحريات العامة، بما فيها حرية الإبداع الأدبي والفكري والسينمائي إلخ. ومعلوم أن وثيقة الأزهر الشهيرة كانت قد مشت خطوة إيجابية في هذا الاتجاه المنفتح. ولكن إسلام الإخوان غير إسلام الأزهر والليبراليين على ما يبدو. من هنا محاولتهم للاستفراد بكتابة الدستور... فما العمل عندئذ؟ هذا من جهة. وأما من جهة أخرى، فالسؤال المطروح هو الآتي: ما هي المشاكل الداخلية التي تعرقل انبثاق نظام ديمقراطي حقيقي ملتزم بمبادئ حقوق الإنسان والمواطن وقادر على إقامة المصالحة التاريخية بين الإسلام والحداثة، كما يحاولون أن يفعلوا في تونس؟ بمعنى آخر: كيف يمكن أن نجمع بين الدولة المدنية الدستورية الحديثة والديمقراطية؟ كيف يمكن أن نخرج من الديكتاتورية الغاربة والأصولية الزاحفة في آن معاً؟ وهل ستطبقان علينا كفكي كماشة: إما الديكتاتورية وإما الأصولية؟ ألا يوجد خيار آخر؟ بكلمة أخرى: كيف يمكن أن نتوصل إلى نظام جديد يجمع بين فلسفة حقوق الإنسان من جهة، وديمقراطية صناديق الاقتراع من جهة أخرى؟ عندئذ يصبح للديمقراطية محتوى ملموس ومحسوس، وإلا فإنها تظل مجرد حبر على ورق: أي عبارة عن إجراء صوري، شكلاني ليس إلا. وبدلاً من تغيير الأمور إلى الأمام تعود بنا إلى الخلف كما حذر أحمد عبد المعطي حجازي في مقالاته المتلاحقة والرائعة. من هنا الخوف على مصر وغير مصر... كل ما نأمله هو أن تكون مخاوفنا في غير محلها وأن تنجح عملية الانتقال الديمقراطي في بقية الأقطار كما نجحت في تونس الخضراء. هذا لا يعني أن تجربة تونس مثالية أو أنها لا تعاني من مشاكل حقيقية. ولكنها تبدو نسبياً أفضل من غيرها. تحاول هذه الدراسة القيام بحفر أركيولوجي عميق على هذه المشاكل بغية إلقاء بعض الضوء عليها. غني عن القول إنها مجرد اجتهاد شخصي مغامر من جملة اجتهادات أخرى ممكنة...

[1] هذا الكلام الانتقادي لا يعني إطلاقاً التقليل من أهمية برنارد لويس كباحث كبير وضليع. فهو مطلع على تاريخ الإسلام بتفاصيله أكثر منا نحن! ويعرف تقريباً كل شاردة وواردة عنه. كما أن أسلوبه سلس، مرن، وقراءته ممتعة إلى أقصى الحدود. ولكن منهجيته كما ذكر محمد أركون أكثر من مرة تظل تقليدية: أي تمثل الاستشراق التقليدي لا العلم التاريخي الحديث الذي دشنته مدرسة الحوليات الفرنسية. ومعلوم إن المنهجية التقليدية لم تتحرر من الأحكام العرقية والطائفية المسبقة كالمنهجية الحديثة التي دشنها أيضاً مفكرون كبار =

المحافظين الجدد. فهؤلاء ينظرون إلى العرب والمسلمين وكأنهم يمثلون الآخر في المطلق: أي الآخر المضاد للغرب، وبالتالي، الذي لا يمكن أن يتبنى القيم الحضارية حتى لو حاول ذلك. فهذا الآخر الشرقي محكوم بالجمود والتخلف والتحجر والتعصب الطائفي إلى أبد الدهر. هكذا كان وهكذا سيبقى... وذلك لأن عقيدته وثقافته التاريخية تمليان عليه ذلك. وتالياً، فلا داعي لأن تشتغلوا أيها العرب أو تحاولوا النهوض والتحلحل والتغير. فسوف تظلون متخلفين ومتعصبين مهما فعلتم، لأن التخلف يشكل جزءاً لا يتجزأ من جيناتكم الوراثية. لقد خلقكم الله هكذا وسوف تظلون هكذا إلى قيام الساعة. وكفى الله المؤمنين شر القتال...

هذه هي أطروحة صدام الحضارات، لخصناها بكلمات معدودات. ومعلوم أن برنارد لويس هو الذي بلورها منذ عام ١٩٦٤ أي قبل صموئيل هانتنغتون بثلاثين سنة. ومع ذلك فالناس يعتقدون بأن صاحبها الأوحد هو هانتنغتون! أياً يكن من أمر، فإن الباحث الفرنسي جان بيير فيليو يعتقد بأن هذه النظرة الاستشراقية بالمعنى السلبي للكلمة كانت قد ألهمت سياسة المحافظين الجدد تجاه العراق والمنطقة كلها. وهي سياسة تتلخص بكلمة واحدة: العرب لا يفهمون إلا لغة القوة. وهكذا يختصرون العرب كلهم بصدام حسين أو معمر القذافي أو بقية المستبدين الديكتاتوريين. ينتج من ذلك أن الديمقراطية لا يمكن أن تنبت من داخلهم بشكل عفوي، طبيعي، بل ينبغي أن نفرضها عليهم بالقوة من فوق. بما أنهم لا يستطيعون أن يصبحوا مهذبين، حضاريين، من تلقاء أنفسهم فلماذا لا نغزوهم في عقر

= ككلود ليفي ستروس وجورج بالانديه وميشيل فوكو وبيير بورديو وسواهم كثيرون، هذا إضافة إلى فرنان بروديل وجورج دوبي وجاك لو غوف وسواهم في ما يخص علم التاريخ الجديد أو مدرسة الحوليات في فرنسا... برنارد لويس كالعديد من المستشرقين التقليديين لا يعتقد بضرورة الاطلاع على هذه الطفرة المعرفية والمنهجية التي طرأت على فرنسا والغرب كله في النصف الثاني من القرن العشرين. فمنهجية القرن التاسع عشر تكفيه. ونحن نقول: لا ريب في أنها مهمة وضرورية ومفيدة ولكنها لم تعد كافية. ينبغي أن نضيف إليها كل منهجية العلوم الإنسانية والاجتماعية التي ظهرت بعدها فاستوعبتها وتجاوزتها. ينبغي أن نضيف إلى المنهجية السردية – الوصفية التي يتبعها لويس المنهجية التفكيكية – الأركيولوجية.

انظر كتابه الأخير الصادر في الترجمة الفرنسية تحت العنوان الآتي:

السلطة والإيمان (أو السلطة والدين). مشاكل الإسلام في أوروبا والشرق الأوسط. منشورات أوديل جاكوب. باريس ٢٠١١.

Bernard Lewis: *Le Pouvoir et la Foi. Questions d'Islam en Europe et au Moyen- Orient.* Odile Jacob. Paris 2011.

ولكن العنوان الإنكليزي الأصلي مختلف قليلاً:

الإيمان والسلطة. الدين والسياسة في الشرق الأوسط

Faith and Power. Religion and Politics in the Middle- East. Oxford University Press 2010.

دارهم ونجبرهم على ذلك؟ لماذا لا نهذبهم ونشذبهم ونقوّم اعوجاجهم؟ ولكن الشيء الملاحظ هو أن التدخل الأميركي في العراق زاد من اشتعال العصبيات العرقية (عرب – أكراد)، والطائفية (سنة – شيعة)، بدلاً من أن ينقصها أو يحجمها على الأقل. لقد أفلتت كلياً من عقالها... فهل بهذه الطريقة سيجعلوننا حضاريين مستنيرين يا ترى؟ هل هذا تقدم إلى الأمام، يا أسياد الحضارة، أم عودة إلى الوراء؟ أنا لا أتهمكم بأنكم سبب وجود الانقسامات العرقية والطائفية كما يفعل الخطاب الأيديولوجي الديماغوجي العربي الذي فقد كل مصداقية. فهي موجودة منذ مئات السنين. ولكن ثبت بالدليل القاطع أن المحافظين الجدد لا يريدون تقدم العرب ولا دمقرطتهم على عكس ما هو معلن، بل يريدون إعادتهم إلى عصبياتهم القديمة لكي يسهل تفكيكهم إلى دويلات متناحرة يسهل استغلال ثرواتها والهيمنة عليها، كما وتصبح مشغولة عن مواجهة إسرائيل وتوسعها الاستيطاني السرطاني في الأراضي العربية. هذا هو لب المشروع وجوهره. ولكنهم لا يستطيعون التصريح به علناً بشكل فج فيمارسونه سراً.

لماذا لا يتحدث أحد عن المحافظين الجدد في العالم العربي؟

والغريب العجيب أن المحافظين الجدد من عرب ومسلمين يسهلون لهم هذه العملية كل التسهيل على الرغم من أنهم أعداؤهم. وهذا ما يدعى عادة بالتحالف الموضوعي بين الألداء... فنحن أيضاً عندنا محافظون جدد، بل وقدامى جداً جداً في عقليتهم... وهم طائفيون وعنصريون ولا يقلون خطورة عن صقور واشنطن وتل أبيب على حركة التقدم العربي والتنوير الإسلامي. انظر كيف يبثون سمومهم الطائفية وفتاواهم التكفيرية القروسطية على صفحات الإنترنيت وشاشات الفضائيات العربية[١]. انظر كيف يزرعون

١ كل ما أريد قوله هو إن المكبوت التاريخي ينفجر الآن. وهو مكبوت عميق وسحيق. دعوه ينفجر ويشبع انفجاراً. بعدئذ يمكن أن نجلس على الطاولة جميعاً ونحل المشاكل عن طريق الحوار العقلاني التواصلي الديمقراطي كما يقول هابرماس وكما تفعل الشعوب الراقية المتحضرة... كنا نتمنى لو نستطيع حل المشاكل بدون المرور بمرحلة الانفجارات والمجازر والحروب الأهلية المندلعة في كل مكان تقريباً أو التي هي على وشك الاندلاع... ولكن ماذا تريدوننا أن نفعل؟ هذه هي مسيرة التاريخ وهذه هي طبيعة البشر: فهم لا يتعلمون إلا بعد دفع الثمن الغالي. التاريخ أيضاً بحاجة لأن ينفجر ويتنفس الصعداء تماماً كطبقات الأرض الجيولوجية عندما تحتقن فتنفجر بالزلازل والبراكين. على أي حال هذه هي فلسفة التاريخ التي أنطلق منها =

بذور الفتنة والبلبلة في النفوس ويهيجون الناس بعضهم على بعض حتى تشتعل الحروب الأهلية في كل مكان. من يطلع على كل ذلك إضافة إلى العديد من المقالات الصحافية يهاله حجم التخلف الفكري، أو بالأحرى الجمود الفكري السائد في العالم العربي. فما عدا استثناءات بسيطة وواعدة، نجد أن معظم الكتاب يقعون في فخ المسلمات اللاهوتية القديمة التي تنتمي إلى القرون الوسطى. والسبب هو أن تراثنا الديني لم يتعرض للغربلة والنقد التاريخي كما حصل للتراث المسيحي في الغرب. سوف أوضح ما أقصده أكثر في الفقرات اللاحقة.

عودة إلى هيغل وأهمية العامل السلبي في التاريخ

للأمانة الفكرية، ولكي أعمق الفكرة أكثر، سوف أقول ما يأتي: ربما كان المرور بمرحلة

= لفهم الواقع العربي ولا أجد شيئاً آخر غيرها لفهم ما يحصل... ولكن للتخفيف من حدة هذا الكلام أضيف قائلاً إن الأكثرية تتمتع بمشروعية تاريخية وحقوق لا تتمتع بها الأقلية عادة. وهذه المشروعية التاريخية لا يمكن تغييرها بين عشية وضحاها. ولا يمكن الأقلية أن تتساوى مع الأكثرية إلا إذا تغيرت طبيعة هذه المشروعية. بمعنى آخر، ينبغي أن تحل الفلسفة السياسية التنويرية الحديثة محل اللاهوت السياسي القديم لكي تحصل المساواة بالفعل بين أبناء الأقلية وأبناء الأكثرية، ولكي يكون لمفهوم الدولة المدنية المستخدم كثيراً هذه الأيام مضمون حقيقي أو معنى. هذا الشيء لم يحصل حتى الآن في العالم العربي والإسلامي ككل. وبالتالي، في انتظار أن يحصل ذلك يوماً ما فإني أقول: ليس من مصلحة الأقلية أن تتحدى الأكثرية أكثر من اللزوم، لأن ذلك قد يؤدي إلى ردود فعل هائجة وانتقامية لا يعلم إلا الله مداها. أقول ذلك وأنا أفكر بسوريا بالطبع. فالأكثرية نفسها لا تستطيع أن تغير القوانين التاريخية للمشروعية القديمة حتى لو أرادت. وفيها عناصر ليبرالية مستنيرة عديدة تريد ذلك بالفعل ولكنها لا تستطيع. لماذا؟ لأن عامة الشعب لا تتجاوب معها ولا تستطيع أن تستوعب هكذا قفزة نوعية في الحالة الراهنة للأمور. فهذه القوانين التاريخية للهيمنة الضمنية راسخة جداً في العقلية الجماعية وتتمتع بمشروعية قدسية. إنها مغروسة في أذهان "المؤمنين" منذ مئات السنين إلى درجة أنها أصبحت بدهية لا تقبل النقاش. وبالتالي فتغييرها أو تعديلها على الأقل يتطلب وقتاً طويلاً وحصول تطورات تنويرية متدرجة على العقول. وهذه صيرورة معقدة ومتعرجة مليئة بالمفاجآت والصراعات والتقدم والتراجع قبل أن تتوصل إلى نتيجة حاسمة في نهاية المطاف. إن تجربة فرنسا ومختلف بلدان أوروبا المتقدمة لأكبر شاهد على ما أقول. فأبناء الأقلية البروتستانتية في فرنسا أو أبناء الأقلية الكاثوليكية في إنكلترا وشمال أوروبا لم ينالوا حقوقهم في المساواة مع أبناء الأغلبية إلا بعد جهد جهيد... يضاف إلى ذلك أن الفتاوى اللاهوتية التكفيرية القديمة تتمتع بقدسية ومعصومية في أوساط العامة ولا يمكن المساس بها لأنها تعتبر إلهية نازلة من السماء: أي لاتاريخية أو فوق التاريخ. وحدها الشرائح المثقفة والمستنيرة من المجتمع السني تقبل بمناقشتها أو تغييرها أو التخلي عنها. بل وحتى داخل المثقفين أنفسهم لا يزال يوجد أناس يؤمنون بها ويقدسونها... وبالتالي، فالاستنارة لم تشمل المثقفين كلهم فما بالك بأغلبية الشعب؟ قصة طويلة...

الصراعات الطائفية والعرقية والمذهبية أمراً ضرورياً بل وإجبارياً لكي نتخلص منها، وذلك طبقاً لقانون هيغل عن أهمية الدور الإيجابي الذي يلعبه العامل السلبي في التاريخ. فلولا السلبي لما كان الإيجابي، لولا الشوك لما كان العسل... وأنت لا تستطيع أن تتحرر من مشكلة ما قبل أن تواجهها وجهاً لوجه وتدفع غالياً ثمن التحرر منها. لا يمكن أن تتجاوزها عن طريق القفز فوقها أو تجاهلها، بل بعد خوض معركة المصارحة معها. والمصارحة العربية -الكردية لم تحصل فعلاً في المشرق الكبير، وقل الأمر ذاته عن المصارحة العربية - الأمازيغية في المغرب الكبير. وبالطبع فإن المصارحة السنية - الشيعية تبدو من رابع المستحيلات على الرغم من كل المخاطر التي تتهددنا حالياً. أقصد بالمصارحة هنا ظهور فكر نقدي راديكالي متحرر كلياً من المسبّقات العرقية - العنصرية، أو الطائفية - المذهبية ومتحرر أيضاً من الأيديولوجيا العربية الغوغائية التي تقول كل شيء ولا تقول شيئاً... من يستطيع أن يقوم بذلك حالياً؟ أكاد أقول بأنه لا يوجد مثقف عربي واحد قادر على ذلك، وبخاصة إذا كان مقرباً من الإخوان المسلمين أو خاضعاً لأيديولوجيتهم. فإما أن يسقط في حضن المسلّمات العنصرية ضد الأكراد والأمازيغ غصباً عنه أو على غير وعي منه، وإما أن يسقط في حضن المسلّمات اللاهوتية التكفيرية ضد الطوائف الشيعية برمتها، هذا فضلاً عن المسيحيين العرب. من هو الإنسان الكامل الحقوق في العالم العربي؟ إنه الإنسان العربي المسلم السني. من هو الإنسان الكامل الحقوق في العالم الإيراني؟ إنه الإنسان الفارسي المسلم الشيعي. ماذا نفعل بالبقية؟ أقليات أو حشرات[١]... الشيء نفسه كان سائداً في فرنسا قبل

---

١ أرجو ألا ينزعج الكثيرون من طرحي للأمور بمثل هذه الصراحة الفجة بل والاستفزازية. ولكن المبالغات والاستفزازات ضرورية أحياناً لتوضيح الإشكاليات... فهناك تحولات إيجابية تطرأ على الوعي العربي حالياً، وهناك شرائح مستنيرة أكثر فأكثر. بل وحتى الإخوان المسلمون ليسوا كلهم بالدرجة نفسها من التعصب ورفض الآخر. فقد تعلموا من تجاربهم ومحنهم، وظهرت فيهم أصوات عقلانية مسؤولة نظراً إلى إقامتهم في الغرب واحتكاكهم بالآخر وخروجهم من القوقعة ولو قليلاً. من يعلم كم استفاد راشد الغنوشي من إقامته عشرين سنة في "بلاد الكفار" في لندن؟ والآخرون هل استفادوا شيئاً يذكر؟ ربما. لم لا؟ ولكن يظل الغنوشي متقدماً على كل زعماء الأصوليات الإخوانية العربية لأنه ينتمي إلى مجتمع أكثر انفتاحاً واستنارة من الأساس... ثم لأنه مفكر أيضاً وليس فقط سياسياً، والدليل على ذلك أن مسألة المصالحة بين الإسلام والحداثة تشغله فعلاً. ولكن للأسف ليس كل الإخوان المسلمين راشد الغنوشي! وربما لهذا السبب خرج من صفوفهم ولم يعد ينسب نفسه إلى حركة الإخوان المسلمين. أياً يكن من أمر، فإن ثقل الماضي لا يزال رازحاً وكذلك الجدران السيكولوجية بين الطوائف والمذاهب. أضيف إلى ذلك أن الأقليات هي أيضا طائفية والحق ليس فقط على الأكثريات! انظر الكارثة السورية. وهذا يعني أن الطائفية بنية تاريخية ضخمة لا تزال تتحكم في الجميع وتخترق العصور، ولا يمكن تجاوزها في المدى المنظور... فالسياجات =

انتصار التنوير والثورة الفرنسية. كان الإنسان الكامل آنذاك هو الفرنسي البابوي الكاثوليكي، وأما البروتستانتي فكان يخشى حتى من ظله إذا ما خرج من بيته ومشى في الشارع... أياً يكن من أمر، فإن القفز على هذه المشاكل (أكاد أقول على هذه القنابل الموقوتة) لا يجدي شيئاً. في كل مرة، أو بعد كل فترة، تجدها تترصدك على قارعة الطريق وجاهزة للانفجار. وبالتالي، فلا بد مما ليس منه بد. لا بد من المرور في أتون المعاناة والاحتراق. باختصار شديد: تداويت منها بها... لا يمكن الطائفية (سواء طائفية الأقليات أو الأكثريات) أن تفقد مشروعيتها ومصداقيتها المتجذرة في أعماق الجماهير إلا إذا تصدى لها فكر تنويري حقيقي يكشف الغطاء عن جذورها الدفينة التي تعود إلى مئات السنين. فهي راسخة في الأرض ومتجذرة في أعماق النفوس وليست ظاهرة سطحية أو عابرة كما تدعي الأيديولوجيا العربية الرثة والفاقدة لكل مصداقية. أقصد بذلك يكشف عن تاريخيتها وبشريتها وينزع عنها غطاء القداسة والمعصومية المتراكمة والمترسخة عبر الأجيال. من هنا صعوبة مواجهة المسألة الطائفية والدينية عموماً. لهذا السبب أقول إن الثورة الفكرية لم تحصل بعد في العالم العربي. ولو أنها حصلت، لفككت كل العصبيات القديمة وكل لاهوت العصور الوسطى ولمهدت للثورة السياسية الحقيقية. لا يكفي ذلك الكلام السطحي المعسول للأحزاب التقدمية العربية من بعثية وناصرية وماركسية، التي تتوهم أننا نتجاوز المشكلة الطائفية بمجرد أن نقفز عليها أو نعمي البصر عنها أو نمنع الناس من الخوض فيها أو حتى ذكر اسمها مجرد ذكر. وهذا تفكير ساذج ومغفل ويزيد الأمور تعقيداً والمشكلة استفحالاً بدلاً من أن ينقصها. إنه يؤخر حل المشكلة إلى أجل غير مسمى. كلما كبتنا المشكلة ومنعنا الناس بقرار فوقي من التحدث عنها بحجة أنها توهن عزيمة الأمة أو تهدد وحدتها، كبرت وتضخمت واشتعلت تحت السطح وأصبحت شراً مستطيراً تصعب السيطرة عليه. هذا قانون فلسفي وأكاد أقول فيزيائي تعرفه كل الأمم المتقدمة.

= الدوغمائية المغلقة كما يقول أركون تتحكم في عقلية الأقليات الشيعية والعلوية والدرزية والإسماعيلية بل وحتى المسيحية العربية مثلما تتحكم في عقلية الأكثرية السنية. الجميع مسجونون داخل أقفاصهم العقائدية اللاهوتية شاؤوا أو أبوا. الجميع يعتقدونها حقائق مطلقة تنبذ كل ما عداها. ولا أحد يتجرأ على الخروج من الشرنقة، من القفص... غني عن القول إن تفكيك هذه السياجات العقائدية اللاهوتية المغلقة هو المهمة الكبرى المطروحة على الفكر العربي حالياً ومستقبلاً. ولكن من يستطيع أن يفكك نفسه، أن يتجاوز ذاته؟! المثقفون عاجزون عن ذلك فما بالك برجل الشارع؟ هكذا نلاحظ أننا نقف الآن على عتبة أكبر تحدٍ في تاريخنا...

لماذا استطاع الغرب المسيحي تجاوز انقساماته الطائفية وفشل الشرق الإسلامي؟

الأمم المتحضرة ما إن تشعر بأن مشكلة ما تهددها حتى تسارع إلى مواجهتها وجهاً لوجه وتسميتها باسمها الحقيقي وفتح الأبواب مشرعة أمام المفكرين والسياسيين الأكفاء النزيهين لكي يحللوها ويفككوها على صفحات الجرائد والراديو والفضائيات حتى تصغر من تلقاء ذاتها وتعود إلى حجمها الطبيعي. إنها منهجية معاكسة لنا تماماً. هذه نقطة. وأما النقطة الثانية، فينبغي العلم بأن "المحافظين الجدد العرب"، و"المحافظين الجدد الغربيين" يلتقون حول نقطة واحدة: وهي أن الطائفية داخل الإسلام حقيقة أبدية سرمدية لا تحول ولا تزول، ولا داعي بالتالي لتفكيكها أو نقض مشروعيتها عن طريق الحفر الأركيولوجي عن أعماقها التاريخية. بل إن ذلك ممنوع منعاً باتاً لأنه يعتبر انتهاكاً للمقدسات ونيلاً من ثوابت الأمة في نظر محافظي العرب والمسلمين على الأقل[1]. إنهم يلتقون حول هذه الفكرة الرجعية الكبرى لأسباب وغايات مختلفة بالطبع بل ومتعاكسة. فالغربيون يدعمونها للكشف عن تخلف الإسلام قياساً إلى المسيحية، وتخلف العنصر العربي قياساً إلى العنصر الأوروبي – الأميركي. فهم يعلمون بأن مجتمعاتهم كانت تعاني من الانقسامات الطائفية نفسها قبل انتصار التنوير والثورة الفرنسية ثم تجاوزوها بفضل تلك الطفرة الفكرية – السياسية الكبرى التي صنعت مجد العصور الحديثة، وكانت سبب تفوقهم على كل شعوب الأرض. فقد استطاعوا بفضلها تشكيل وحدتهم الوطنية وتجاوز انقساماتهم المذهبية الكاثوليكية – البروتستانتية التي طحنتهم طحناً. ولكنهم يرفضون فكرة أن يكون المسلمون قادرين على تحقيق القفزة النوعية نفسها وتجاوز العصبيات الطائفية الإسلامية – المسيحية، أو المذهبية

١ ولهذا السبب يمنع تطبيق المنهج التاريخي على التراث الإسلامي حتى هذه اللحظة بحجة أن ذلك يمثل انتهاكاً للمقدسات. وما دام هذا المنع ساري المفعول فإن التأويل السلفي الظلامي للدين الإسلامي سيظل سائداً ومسيطراً ولا يمكن العرب أن يخرجوا من المحنة التي وقعوا فيها. تستحيل مصالحة الإسلام مع الحداثة إن لم يتم تفكيك هذا التأويل الظلامي اللاتاريخي لتراثنا الإسلامي. إنه يشكل حجر عثرة أمام استنارة العرب وانطلاقتهم الحضارية. انظر المشاكل التي تتخبط فيها مصر حالياً. وانظر الإرهاب الفكري الذي يمارسه الإخوان والسلفيون على جميع المثقفين وعلى نهضة الآداب والعلوم والفنون... ولهذا السبب فإن الباحثين المسلمين من عرب وغير عرب اضطروا للهجرة إلى أوروبا أو أميركا للقيام ببحوثهم الطليعية النقدية بكل حرية. فهناك يجدون أنفسهم بمنأى عن ضغط المجتمع وبطش الأصوليين التكفيريين. وهنا يكمن أحد أسباب هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب وحرمان مجتمعاتنا من العقول المفكرة...

السنية – الشيعية. لماذا؟ لأن المسيحية في نظرهم تتفوق على الإسلام من حيث كونها تسمح بالتقدم والتطور وفصل الدين عن السياسة، في حين أن الإسلام عاجز عن ذلك، أو قل لا يسمح بذلك أبداً. والأنكى من ذلك هو أن المسلمين المحافظين يوافقونهم تماماً على هذه النقطة، ولكن مع الاعتقاد بأنها دليل على تفوق الإسلام لا العكس! فإخضاع الدنيوي والسياسي وكل مناحي الحياة وحتى أدق تفاصيلها للديني – اللاهوتي يعتبر ميزة وليس نقيصة، حتى ولو خنق شرارة الإبداع وروح الابتكار الخلاق لدى الإنسان والشعوب في آن واحد. انظر حالة المسلمين منذ الدخول في عصر الانحطاط أو التكرار والاجترار حتى الآن. فالإسلام في رأيهم يرفض أي تمايز، فضلاً عن الفصل بين الشؤون الدينية والشؤون الدنيوية. وما سحقه للعلمانية والفلسفة إلا دليل على أنه دين قوي جداً وليس ديناً[١] ضعيفاً،

١ هنا يكمن الفرق الأساسي بين الثورة الفرنسية والثورات العربية الحالية. وقد تحدثت عن ذلك أكثر من مرة على مدار هذا الكتاب. فالأولى لم تكن فقط ثورة ضد الاستبداد والظلم الاجتماعي والحكم المطلق، بل كانت أيضاً ثورة ضد الأصولية المسيحية وطائفية الأغلبية الكاثوليكية ومحاكم التفتيش. لقد دشنت عهد المواطنية المتساوية بالمعنى الحديث للكلمة محررة أبناء الأقلية البروتستانتية من تهمة الكفر والزندقة وجاعلة منهم مواطنين بالكامل لأول مرة في تاريخ فرنسا. وكل ذلك من خلال إصدار الإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن الذي استلهم أفكار فلاسفة التنوير الكبار وبالأخص جان جاك روسو. وقد حل محل القانون المقدس للشريعة المسيحية. لم تضع الثورة الفرنسية نفسها تحت عباءة بابا روما أو مطران باريس كما فعلت الثورة المصرية عندما خفضت جناحها للقرضاوي وخضعت له. المرجعية الفكرية للثورة الفرنسية هي فلسفة التنوير لا الأصولية الدينية. ولهذا السبب دشنت العصور الحديثة بعد أن قطعت جذرياً مع العهد القديم ومشروعيته اللاهوتية الكاثوليكية. أين نحن من كل ذلك؟ هيهات!... أليست مأساة بل وكارثة أن يكون أول قرار اتخذه رئيس المجلس الانتقالي الليبي مصطفى عبد الجليل هو العودة إلى قانون تعدد الزوجات! ما أعظم هذه الثورة التحريرية؟ هل يعلم هذا العبقري أن تطبيق الشريعة مستحيل في العصور الحديثة لأنها مضادة في معظم بنودها لكل إعلانات حقوق الإنسان والمواطن؟ فهي تفضل سلفاً المسلم على غير المسلم، والمتدين على غير المتدين داخل الإسلام نفسه، بل وتلاحق غير المتدين وتكفره وتخرجه من الأمة والملة وتعيدنا إلى محاكم التفتيش السيئة الذكر، كما وتأمر بقطع يد السارق ورجم المرأة المخطئة حتى الموت، هذا فضلاً عن جلد شارب الخمرة، إلخ. هل سيطبق حكم الطالبان في ليبيا؟ هل هذه ثورة تحريرية؟ ألا يوجد تأويل آخر للإسلام الحنيف غير هذا التأويل القروسطي الطالباني المرعب؟ بل حتى في القرون الوسطى كان يصعب تطبيق الشريعة لأنه كان مشروطاً بشروط تعجيزية أحياناً. انظر مشكلة الزنا: أربعة شهود، إلخ... ألم يقرأ صاحبنا كتب محمد الطالبي أستاذ الجامعة التونسية الذي هو مسلم ملتزم مثله ولكنه يدعو إلى تجاوز الشريعة القروسطية لا إلى تطبيقها بحذافيرها... هنا يكمن الفرق بين المسلم المتنور والمسلم المتحجر المحدود في آفاقه العقلية. ومع ذلك فإنا رحبنا بإسقاط القذافي وتحرير ليبيا من براثنه، ولسنا نادمين على ذلك. ولكن هذه ليست إلا خطوة أولى على طريق التحرير الطويل... الأشياء الجدية أو قل الثورة الحقيقية لما تبتدئ فعلياً بعد... أضيف إلى ذلك أن الشباب العربي لا يستطيع أن يتزوج حتى بواحدة فما بالك بأربعة، لسبب بسيط هو أنه لا يجد سقفاً يؤويه ولا عملاً ولا راتباً... وبالتالي، فالمسألة ملغاة من أساسها ولا يوجد تعدد زوجات حقيقي إلا في منطقة الخليج وعند أغنياء ليبيا المحافظين وسواهم =

رخواً، كالمسيحية التي انهزمت وانحسرت في الغرب أمام صعود الحداثة. إنه دليل على أنه متجذر أكثر من الناحية الأنطولوجية في الحقيقة الإلهية - اللاهوتية. إنه إلهي بالكامل على عكس المسيحية وكل الأديأن الأخرى. وبالتالي، فلا يمكن أفكار الحداثة التي هي بشرية أن تؤثر عليه. كيف يمكن البشري أن يؤثر على الإلهي، أو الأرضي على السماوي؟ إنه يؤثر ولا يتأثر. ولذا ينبغي أسلمة الحداثة لا تحديث الإسلام! فالإسلام غير قابل للتحديث أو التطوير، على عكس المسيحية. إنه دين مطلق وليس ديناً نسبياً كغيره... وهكذا يمنعون تشكيل فقه جديد أو لاهوت تنويري جديد قادر على تجاوز الأفكار الطائفية والمذهبية. فمن الواضح أنه ما دمنا خاضعين للاهوت القرون الوسطى أو فقهها السائد حالياً على أيدي الإخوان والسلفيين فلا يمكن تجاوز الطائفية بأي شكل من الأشكال. إنها قدر محتوم لا فكاك منه. فإذا أنعم الله عليك وولدت في مناطق الأكثرية نجوت بجلدك، وإلا لاحقتك اللعنة التكفيرية إلى أبد الآبدين. يخطئ من يظن أن هذا الكلام يستهدف فقط السنّة في العالم العربي... إنه يستهدف بالدرجة نفسها الشيعة الإمامية في العالم الإيراني حيث لا يستطيع السنّي أن يرفع رأسه وحيث لا يوجد أي مسجد سنّي في طهران! وبالتالي فالتعصب المذهبي مدان من أي جهة جاء ولأي دين انتسب. انظروا إلى وضع البروتستانتيين الفرنسيين المزري طيلة القرون الوسطى حتى انفجار الثورة الفرنسية التي حررتهم منه.

التفاوت الهائل بين تقدم اللاهوت المسيحي وتأخر اللاهوت الإسلامي

إنها لمأساة أن يكون علماء المسيحية في أوروبا وعلى رأسهم البابا (هذا فضلاً عن المجدد الكبير هانز كونغ) ما انفكوا يعمّقون العلاقة بين الدين والفلسفة أو بين الإيمان والعقل[1]، هذا في حين أن شيوخ الإسلام لم يفتحوا في حياتهم كلها كتاباً واحداً في

= من أثرياء العرب. في ما يخص استحالة تطبيق الشريعة أحيل على مقالة محمد عبد المطلب الهوني التي تضيء الأمور بطريقة عكسية ناجحة: تطبيق الشريعة... لكن من دون انتقاء. موقع إيلاف.٢٠١٢/٤/٢.

١ انظر إلى الفرق الشاسع بين عالم لاهوتي كبير كهانز كونغ وبين "رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين" الشيخ يوسف القرضاوي! لا وجه للمقارنة بين الرجلين من حيث العلم الجم والانفتاح الفكري - اللاهوتي على العصر والحداثة... بل حتى البابا الحالي فإنه يتفوق فكرياً على القرضاوي بما لا يقاس. فعلى الرغم من نزعته المحافظة والانغلاقية المتعصبة قياساً إلى هانز كونغ، إلا أن بابا روما مطلع على كل تاريخ الفلسفة منذ اليونان حتى يومنا هذا. أما شيخنا الجليل الدكتور يوسف القرضاوي فيظل محصوراً داخل العلوم الدينية =

الفلسفة. معاذ الله! ما حاجتنا إلى الفلسفة ونحن نمتلك الحقيقة المطلقة؟ لقد ختمنا العلم مرة واحدة وإلى الأبد. إنها تبعد عن الله، وما هي إلا كفر محض... وإنها لمأساة أن علماء المسيحية الأوروبية ابتدأوا يبلورون "لاهوت ما بعد الحداثة" في حين أن مشايخ المسلمين، وبخاصة السلفيين، لا يزالون يسبحون هنيئاً مريئاً في أحضان اللاهوت التكفيري المتخلف للعصور الوسطى. والأنكى من ذلك هو أنهم يعتبرونه إلهياً مقدساً معصوماً، في حين أن المنهجية التاريخية - النقدية الحديثة أثبتت تاريخية الفقه وبشريته وكشفت عن حيثياته وظروف تشكله. لهذا السبب لا يزال فقهاء المسلمين المنقطعون عن حركة العلم والفلسفة والتقدم البشري يرفضون فكرة المساواة في ما بين المسلمين أنفسهم، أو بين المسلمين وغير المسلمين، عن طريق تشبثهم بفتاوى القرون الوسطى التكفيرية والمذهبية التي تعتقد بوجود دين واحد صحيح أو حتى مذهب واحد صحيح وبقية الأديان والمذاهب في النار! انظر حديث الفرقة الناجية... عندما تقول لهم إن اللاهوت المسيحي تغيّر أو تجدد أكثر من مرة على مدار العصور فإنهم يردون عليك

= القروسطية التقليدية التي أكل عليها الدهر وشرب وتجاوزها الزمن. ومع ذلك فإن العامة والجهلة يعتقدون بأنها علم العلوم! لا ريب في أن الدكتور القرضاوي متبحر في العلوم التقليدية، ولكن ليس في العلوم الحديثة للأسف الشديد. سوف أوضح هذه الفكرة لاحقاً من خلال عرض نظرية البارادايغمات اللاهوتية التي كأن للعالم المسيحي الألماني هانز كونغ الفضل في اختراعها وبلورتها. وهي مضيئة جداً بالنسبة للعلوم الدينية وتطورها، سواء في الإسلام أو المسيحية أو اليهودية... أكتب هذه الكلمات في الوقت الذي يدعو فيه البابا لأول مرة مثقفين ومثقفات غير متدينين لمناقشته حول الموضوع. من بين الشخصيات التي قبلت الدعوة والمشاركة في الحوار مع رجال الدين المفكرة الفرنسية المعروفة: جوليا كريستيفا. وفي السابق كان البابا الحالي قد أجرى مناظرة معمقة مع الفيلسوف الكبير الملحد يورغين هابرماس حول العلاقة بين الفلسفة والدين... جوليا كريستيفا مثلت أمام البابا للدفاع عن النزعة الإنسانية لعصر الأنوار. ولكنها دعت أيضاً إلى إقامة الجسور بين النزعة الإنسانية المسيحية والنزعة الإنسانية العلمانية التنويرية. ثم حددت عشرة محاور لبلورة نزعة إنسانية جديدة تليق بالقرن الحادي والعشرين. السؤال المطروح هو الآتي: ألا يمكن المثقف العربي العلماني أن يحاور رجال الدين أيضاً على غرار ما تفعله السيدة كريستيفا مع البابا وكبار المفكرين المسيحيين؟ والجواب هو لا للأسف الشديد. لماذا؟ لأن النزعة الدوغمائية الجبارة في الإسلام لم تتعرض حتى الآن لنقد تفكيكي وتنويري كما حصل للدوغمائية المسيحية التي لا تقل عنها جبروتاً وهيمنة. وهنا يكمن الفرق الأساسي بين الحالتين. جوليا كريستيفا تمثل أمام البابا كعلمانية غير مؤمنة بمعظم العقائد والطقوس المسيحية ولا تخشى على نفسها، إذ تعلن ذلك على الملأ صراحة. فمن هو المثقف العربي القادر على أن يفعل ذلك أمام القرضاوي مثلاً أو حتى أمام أصغر شيخ إسلامي في أصغر جامع؟ مستحيل. إنه يتعرض للتكفير مباشرة وتصبح حياته في خطر. لذلك أقول بأن الحوار بيننا وبين رجال الدين المتشددين غير ممكن قبل انتصار التنوير في الإسلام مثلما انتصر في المسيحية الأوروبية. وهذه قصة طويلة أرى بداياتها ولا أرى نهاياتها... وحده الحوار مع رجال الدين المستنيرين كشيخ الأزهر مثلاً ممكن ضمن حدود معينة. ولكن هذا الحوار ضروري بل وإجباري من الناحية السياسية البراغماتية بغية تسيير أمور المجتمع.

قائلين: لأن المسيحية دين محرف أو مزور أو بشري وليس إلهياً، ولذلك لم تستطع أن تقاوم الأفكار المنحرفة للعصور الحديثة: أفكار لوثر وغاليليو وديكارت وفولتير وروسو وكانط وهيغل وداروين إلخ...

نحن متخلفون دينياً وليس فقط علمياً وتكنولوجياً: نظرية البارادیغمات اللاهوتية

عندما تقول لهم إن اللاهوت المسيحي في البلدان المتقدمة مر بأربعة بارادیغمات متتالية هي: البارادیغم اللاهوتي للعصور الوسطى، فالبارادیغم اللاهوتي لعصر الإصلاح الديني (لوثر)، فالبارادیغم اللاهوتي لعصر التنوير الليبرالي، أي بارادیغم الحداثة، والآن أصبحوا يتحدثون عن بارادیغم لاهوتي يتجاوزه ويليق بعصر ما بعد الحداثة! عندما تقول لهم كل ذلك فإنهم يردون عليك إذا ما فهموا ما تقول: طز فيك وفي كل هذه الأفكار المعقدة! نحن لا نريدها ولا نرغب فيها. نحن عندنا بارادیغم واحد لا يحول ولا يزول حتى يرث الله الأرض ومن عليها... نحن لا نتغير. التغير نفسه ينبغي أن يتغير ويخضع لنا. نحن نمتلك الحقيقة المطلقة التي لا حقيقة بعدها. نحن ختمنا العلم منذ زمن بعيد ولا زائد لمستزيد. نحن نمتلك الحقيقة الإلهية المقدسة التي أنعم بها الله علينا من دون كل البشر. فلماذا تريدنا أن نتغير أو نتطور؟ ما هذا السخف؟ ما فائدة كل العلم البشري بالقياس إلى العلم الإلهي الذي ختمه فقهاؤنا الكبار منذ ألف سنة مغلقين بذلك باب الاجتهاد؟ وهذا يعني أن الإسلام نفسه في أزمة عويصة لا يعلم إلا الله متى يخرج منها ولا كيف. هكذا نلاحظ أن النتيجة واحدة في كلتا الحالتين. النظرة الاستشراقية تجمد الإسلام في قوالب عتيقة بالية متحجرة، والنظرة الإسلامية السائدة تجمده أيضاً في القوالب القروسطية العتيقة نفسها التي تعرقل تقدم المسلمين ولحوقهم بركب الحضارة والعصر. الأولى بحجة أنه دين متحجر يستعصي على التغير والتطور، والثانية بحجة أنه دين الحقيقة المطلقة واليقينيات الراسخة التي لا يمكن أن تتطور، لأن ذلك يعني المساس بثوابت الأمة ومقدساتها. وهكذا يصل الطرفان إلى النتيجة نفسها على الرغم من التضاد في تقييمها: تعددت الأسباب والموت واحد!...

التحالف الموضوعي بين "المحافظين الجدد العرب" و"المحافظين الجدد الأميركان": نحو سايكس بيكو جديدة؟

وبالتالي، يخطئ من يظن بأن إسرائيل هي وحدها التي ستمزق المشرق العربي. الأصولية القروسطية مزقته قبلها بل وأكثر منها. السلفية الانغلاقية الإرهابية فكراً وسلوكاً تكفي وتزيد... من هنا فرح المتطرفين الغربيين بوجود المتطرفين العرب والمسلمين. فهم يسهلون لهم العملية ويقدمون لهم أفضل خدمة لتنفيذ المخطط والمشروع. لذلك أنا أختلف مع هيكل عندما يوهم بأن الخارج هو وحده المسؤول عن تقسيم المقسم بواسطة سايكس بيكو جديدة تعرف كيف تستغل الربيع العربي وتحرفه عن مساره الصحيح وتوظفه لصالح مخططاتها. الداخل أيضاً مسؤول وبقوة. ولكن للحق والإنصاف، ينبغي الاعتراف بأن هيكل واع لأهمية العامل الداخلي عندما ينبه إلى الدور الخطير الذي سيلعبه الإخوان المسلمون في المرحلة القادمة. فقد أسكرهم الاعتراف الغربي بهم أخيراً وشعروا بنشوة الانتصار والظفر بعد أن أصبح سفراء أمريكا والاتحاد الأوروبي يتوافدون إلى مقارهم للتعرف إليهم والتفاوض معهم. وهذا من حقهم بعد عقود من الاضطهاد والملاحقات[١].

---

١ لا ريب في أنه يحق للإخوان المسلمين أن يلعبوا الدور الذي يناسب حجمهم في الحياة السياسية العربية، ولكن بشرط أن يتخلوا عن التكفير من جهة وعن العنف من جهة أخرى، وهما شيئان متلازمان لا ينفصمان. وينبغي أن يعترفوا بأن هناك تفسيراً آخر للإسلام غير تفسيرهم، وفهماً آخر غير فهمهم. ولكن هل سيبقون إخواناً مسلمين إذا ما تخلوا عن ذلك؟ أليس من الأفضل أن يتحولوا إلى أحزاب ديمقراطية إسلامية كالأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبا، وكحزب العدالة والتنمية التركي، أو كحزب الغنوشي في تونس؟ هذا لا يعني أني أعتبر الأحزاب الدينية حتى ولو محدثة على طريقة الغنوشي وأردوغان بمثابة نهاية التاريخ! ولكنها تشكل مرحلة انتقالية إجبارية ينبغي المرور بها واستيعابها قبل التمكن من تجاوزها إلى ما هو أفضل عندما تستنير الشعوب الإسلامية عن جد. ولا يمكن تجاوزها قبل معاركتها ديمقراطياً وحوارياً وصراعياً وذلك بغية استنفاد مشروعيتها وسحب الشرائح الشعبية الواسعة منها. وإلا فإنها سوف تظل تصوت لهم... الغرب يقول على لسان مفكريه وسياسييه إنه سيكون حذراً في التعامل معهم. بمعنى أنه سيقسمهم إلى قسمين: معتدلين ومتطرفين، ولا حوار إلا مع المعتدلين الذين يقبلون بآداب الحوار وحق الاختلاف في الرأي والعقيدة. فلا ديمقراطية بدون القبول بالتعددية الدينية والسياسية ثم بالأخص القبول بحرية الضمير والمعتقد. وهذه هي الطريقة الوحيدة للخروج من الانسداد التاريخي السائد حالياً ومنذ سنوات طويلة. لا يمكن بعد الآن أن نرفض الحوار مع شخص لمجرد أنه متدين! نقول ذلك وبخاصة أنه يمثل قطاعاً كبيراً من المجتمع. الغرب نفسه أصبح يشعر بأن هذا الموقف الذي اتخذه طيلة الفترة السابقة لم يعد يحتمل ولا يطاق. فما بالك بنا نحن؟ فإذا كان الغرب أصبح يقبل بالحوار مع الإخوان المسلمين المعتدلين فهل يعقل أن نرفض نحن المثقفين الحداثيين ذلك؟ هذا بشرط أن يقبلوا هم بالحوار معنا بطبيعة الحال! وهذا ليس مؤكداً على الإطلاق بعد كل الانتصارات الانتخابية التي يحققونها تباعاً. فربما أسكرتهم فرحة النصر =

ولكنهم لم يدركوا أن ثمن هذا الاعتراف باهظ. فالغرب الأميركي - الأوروبي الذي اعترف بهم بناءً على نصيحة الثعلب العجوز والمستشرق الكبير برنارد لويس يريد منهم ثمناً أو مقابلاً واضحاً محدداً: ألا وهو تأجيج الصراع السنّي - الشيعي في المنطقة وإحلاله محل الصراع العربي - الإسرائيلي إذا أمكن. هذا إضافة إلى تأجيج الصراع العربي - الكردي، والعربي - الأمازيغي، أو التركي - الكردي، إلخ... وهذا سيؤدي إذا ما نجح إلى تقسيم المنطقة وتشكيل دويلات صغيرة على أساس عرقي أو طائفي[١]. من هنا العنوان: سايكس

= ودفعتهم إلى ازدراء أتباع كل التيارات الأخرى من يسارية وليبرالية وعلمانية وقومية واشتراكية... انظر هجوم الشيخ القرضاوي عليهم في فتواه التي تمنع المصريين من التصويت لغير الإخوان والسلفيين... لاحظ الروح الديمقراطية التي يتمتع بها شيخنا الكبير! ولاحظ قوله التهديدي بأن الليبراليين دخلاء على مصر... أضيف إلى ذلك أن التيار الديني لا ينحصر بالإخوان المسلمين. فهناك تيارات وشخصيات إسلامية أخرى عديدة تمثله أيضاً وبشكل أكثر انفتاحاً وتسامحاً منهم. على أي حال، فإن الحوار معهم جميعاً يبدو ضرورياً في انتظار أن تكون الشعوب قد استنارت ونضجت فكرياً وحضارياً وأصبحت مسألة الدين مسألة شخصية وفصلت عن الاستخدام السياسي الانتهازي... ثم في انتظار أن يكون قد ظهر تأويل جديد للإسلام قادر على التغلب على التأويل السلفي - الإخواني المهيمن حالياً على الشارع والجماهير. وهنا تكمن معركة المستقبل الكبرى.

١ للأمانة، ولكي لا أسقط أنا أيضاً في الديماغوجية السهلة، ينبغي الاعتراف بأنه ليس كل الغرب كذلك، ليس كل الغرب يريد بنا شراً. لا أعتقد شخصياً بأن كل زعماء الغرب لا همّ لهم إلا الإساءة لنا. هناك تيارات متنوعة في الغرب ومختلفة كثيراً في ما بينها... ولكن هناك اتجاه لدى اليمين الغربي - الصهيوني لاستغلال الربيع العربي وتوجيهه في اتجاه سايكس بيكو جديدة، وتساعده على ذلك الانقسامات الطائفية والعرقية التي لا نستطيع نحن بالذات حلها. فإذا كنا نحن عاجزين عن حل مشكلتنا فلماذا يحلها الغرب لنا؟ ولولا خوفي من أن أحبط الناس كثيراً لقلت بأن هذه المشاكل التاريخية لا حل لها في الوقت الراهن ولا في المدى المنظور. أنا لست رجل سياسة ولا أطمح إلى أي منصب أو زعامة، وبالتالي لماذا أكون ديماغوجياً وأضحي بخطاب الحقيقة؟ ليس عندي أي رغبة في حجب الحقيقة حتى ولو كانت قاسية أو مريرة. ينبغي الاعتراف بأن هناك مشاكل تاريخية ضخمة لا حل لها بالسرعة التي نتوخاها. كان الجنرال ديغول يقول: مشكلتي مع الفرنسيين هي أنهم يعتقدون بأن لكل مشكلة حلاً. لا ريب في أن لكل مشكلة حلاً ولكن ليس على المدى القريب. هناك مشاكل أستطيع حلها في خمس دقائق، وأخرى لن تحل إلا بعد خمسين سنة! وذلك عندما تنضج الظروف. وهذا عين العقل. أضيف إلى كل ذلك أن أبناء الأقليات لن يقبلوا بعد اليوم بأن يعاملوا كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة كما كانت عليه الحال طيلة العصور الوسطى، ولن يقبلوا بالنظرة الاحتقارية السائدة. ربما كان ذلك مقبولاً في العصور القديمة حيث سادت الأحكام الطائفية والعنصرية وكأنها أمر طبيعي أو شرع إلهي لا يناقش ولا يمس. ولكنها لم تعد مقبولة في العصور الحديثة حيث تسود فلسفة حقوق الإنسان والمواطن لا الشرائع الفقهية التقليدية التي عفّى عليها الزمن والتي لن يستطيع أحد نفخ الحياة فيها أو إعادتها إلى الوجود. ضمن هذا المعنى نفهم دعوة الأكراد إلى الانفصال إذا لم يعترف بحقوقهم اللغوية - الثقافية وكرامتهم. زمن الاحتقار التاريخي ولّى إلى غير رجعة أو ينبغي أن يولّي... وبالتالي فالعوامل الداخلية هي التي ستفرض سايكس بيكو جديدة على المنطقة وليس فقط العوامل الخارجية. التحدي المطروح علينا حالياً هو الآتي: إما أننا قادرون على تشكيل دولة مدنية حديثة تعامل الجميع على قدم المساواة بغض النظر عن أصولهم الطائفية أو العرقية - اللغوية وإما أننا عاجزون عن =

بيكو جديدة. كذلك سيطلب منهم تحييد الاتجاه الراديكالي داخل الحركات الإسلامية ذاتها: أي تيار العنف والإرهاب. فأهل مكة أدرى بشعابها... وهم الأقدر على ذلك لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد... وأخيراً، سيطلب منهم الاعتراف بإسرائيل أو على الأقل مراعاتها وعدم المس باتفاقيات السلام الموقعة. فبرنارد لويس العليم بكل تاريخ الإسلام يدرك مدى خطورة الصراع المذهبي أو الشرخ التاريخي ومدى تجذره في أعماق النفس الجماعية الإسلامية. وبالتالي، لكي يخفف الضغط عن شعبه اليهودي، ولكي يصرف الأنظار عن بلع الضفة الغربية وتصفية ما تبقى من القضية الفلسطينية، فإنه ينصح بإثارة هذه الصراعات المذهبية والعرقية التي تخترق كل تاريخ الإسلام، وإلهاء العرب بها إلى أجل غير مسمى... ويبدو أن الكثيرين وقعوا في الفخ أخيراً أو سوف يقعون غصباً عنهم!... وأخيراً سوف أقول ما يأتي: إن مشروع التقسيم هذا سوف ينجح إلا إذا ظهرت قيادات فكرية وسياسية متنورة بما فيه الكفاية داخل طائفة الأغلبية وأمسكت بزمام الأمور. فهي وحدها القادرة على إفشال المشروع وضم الجميع حولها عن طريق طرح مشروع وطني مضاد ومقنع تماماً. ولا أقصد به مشروعاً يقضي كلياً على الطائفية والعنصرية ضد الأقليات من كردية وأمازيغية وشيعية إمامية وعلوية ودرزية وإسماعيلية ومسيحيين عرب... فهذا شيء مستحيل في المدى المنظور. ينبغي أن نكون واقعيين[١].

= ذلك. في الحالة الثانية كل واحد "يدبر حاله" ويحكم نفسه حتى تكون الشعوب قد استنارت ونضجت وأصبحت قادرة على التعايش بعضها مع البعض الآخر في ظل الفلسفة الإنسانية والسياسية الحديثة التي يتسع صدرها للجميع. وعندئذ يمكن أن تعود كل الفئات إلى التوحد بعضها مع بعض من جديد لأن خطر الأصولية الدينية أو العنصرية – الشوفينية يكون قد زال أو خف كثيراً على الأقل. وبالتالي فالتقسيم إذا ما حصل لن يكون نهائياً أبداً بل مؤقتاً في انتظار أن تنضج الشعوب بأقلياتها وأكثرياتها وتصبح قادرة على التعايش في ما بينها...

١ لنقلها صراحة: العربي لا يستطيع في الظروف الراهنة من تخلف الوعي العربي أن ينظر إلى اللغة الكردية أو الثقافة الكردية كأنها مساوية من حيث المكانة للغة العربية أو الثقافة العربية. وقل الأمر ذاته عن اللغة الأمازيغية أو الأرمنية أو السريانية والآشورية، إلخ... فاللغة العربية هي لغة أهل الجنة وبها نزل القرآن الكريم وبالتالي فهي أفضل اللغات بإطلاق... هذه مسلمة لاهوتية مغروسة في الوعي الجماعي ولا يمكن أحداً أن يناقشها مجرد مناقشة... يضاف إلى ذلك أنها ذات تراث ديني وأدبي وفكري طويل عريض. ولكن اللغة الكردية هي أيضاً ذات تراث ثقافي كبير يستحق الاحترام. وقل الأمر ذاته عن اللغة الأمازيغية والآشورية وسواهما. هذا من جهة. وأما من جهة أخرى فإن المسلم السني لا يستطيع في الحالة الراهنة لتأخر الوعي الإسلامي أن ينظر إلى الإسلام الشيعي بكل تفرعاته من إمامية وإسماعيلية وعلوية ودرزية كأنه مساو للإسلام السني من حيث المكانة والمشروعية اللاهوتية والتاريخية. بل إنه لا يعترف بإسلام العلويين والدروز والإسماعيليين على الإطلاق. فهو يعتبرهم مجرد فرق مارقة وضالة ومنحرفة عن الصراط المستقيم: أي =

الأفكار الطائفية والعرقية متجذرة في النفوس منذ مئات السنين. ولا يمكن اقتلاعها بين عشية وضحاها. وهي تتمتع بقداسة تراثية وهيبة لاهوتية - فقهية لا يستهان بها. بل

= الإسلام الأرثوذكسي السني الذي انتصر بعد سحق المعتزلة وتكفير الفلاسفة وحلول عهد السلاجقة. وإذا كان يسمح باستمرارية وجودهم على سطح الأرض "وتلويثها وتدنيسها" فذلك لأنه عاجز عن استئصالهم تماماً... من هنا خصوصية الحالة السورية التي تميزها عن كل الحالات العربية الأخرى. إنها ذات طابع لاهوتي تفجيري مرعب إلى أقصى حد ممكن، ولذلك فهي تستعصي على الحل حتى الآن. بل إن الحالة الطائفية في سوريا أكثر خطورة وتفجيرية من الحالة القبطية في مصر أو المارونية في لبنان. أقول ذلك على الرغم من أن كتاب العلويين هو القرآن ونبيهم محمد ولغتهم العربية تماماً مثل السنة سواء بسواء. ويتشاطرون نفس الشعر والأدب العربي منذ الجاهلية وصدر الإسلام حتى اليوم. ونزار قباني هو شاعر العلويين يترنمون بأشعاره الرائعة مثلما أن بدوي الجبل هو شاعر السنيين سواء بسواء... ولكن المشكلة هي أن العداء التاريخي داخل الدين الواحد أخطر من العداء بين دينين مختلفين ومتمايزين تماماً. والحزازات المذهبية رهيبة بين الطوائف الشيعية والأغلبية السنية. ولا أرى لها مثيلاً إلا العلاقات الإرهابية بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين في فرنسا إبان القرون الوسطى قبل أن يتنوروا ويتحضروا. ومعلوم كم كلفت هذه المشكلة المذهبية فرنسا غالياً حتى حلتها وتجاوزتها عن طريق فكر التنوير والثورة الفرنسية. في ما يخص هذه النظرة الاحتقارية الرهيبة التي تنضح بها الفضائيات وصفحات الإنترنيت ضد كل الطوائف الشيعية انظر بشكل خاص المواقع السلفية. أقول ذلك وأنا أتحدث عن السني الأصولي بالطبع وليس عن السنة ككل! فالشرائح المستنيرة من أهل السنة، وهي عديدة لحسن الحظ، لا تشاطر الأصوليين هذه النظرة القروسطية القديمة. أضيف بأن هناك تداخلات وتفاعلات إيجابية بل وزيجات عديدة بين شباب السنة وشباب العلويين والدروز والإسماعيليين والمسيحيين وهي واعدة بالمستقبل. ولكن إرث الماضي لا يزال قوياً في الأوساط الشعبية غير المتعلمة أو غير المستنيرة بما فيه الكفاية. انظر حديث الفرقة الناجية الذي يكفر الشيعة الإمامية أيضاً وليس فقط العلويين أو الدروز. وانظر فتوى ابن تيمية الشهيرة... أضيف أنه لا يمكن الأصولي السني الذي يعتقد بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة للإسلام كله وللدين كله أن يعتبر المسيحية العربية مساوية للإسلام كدين!... بل إن التنظيمات السلفية والإخوانية تكفرها بسبب التثليث أو في أحسن الأحوال تعتبرها أهل كتاب. انظر ما يحصل للأقباط من اضطهاد ومذابح حتى بعد انتصار الثورة! انظر وصف السلفي وجدي غنيم للبابا شنودة بأنه رأس الكفر حتى بعد موته! وبالتالي هناك مشاكل حقيقية موروثة عن الماضي السحيق ولا أحد يتجرأ على نبشها أو الحفر عن جذورها خوفاً منها. إنها كالبعبع المرعب أو كالقنابل الموقوتة التي قد تنفجر في أي لحظة إذا ما اقتربنا منها مجرد اقتراب. إنها من الحساسية بمكان... وهي التي يراهن عليها المحافظون الجدد لتفجير المنطقة... وحتماً برنارد لويس يعتبرها كنزاً ثميناً لم يستغل بعد بما فيه الكفاية... والمصيبة العظمى هي أنه لا يوجد فكر عربي حديث قادر على طرح المشكلة بشكل صحيح هذا فضلاً عن حلها! أضيف أنه في الحالة الراهنة للأمور لا يمكن الأقليات أن تطالب بالمساواة الكاملة مع الأكثرية. فهذا شيء سابق لأوانه. ولكن يمكن أن تطالب بشيئين: إزالة فتاوى التكفير عن المذاهب غير السنية والاعتراف بمشروعية التعددية المذهبية داخل الإسلام. بل والاعتراف بوجود أناس غير متدينين أو غير ملتزمين بالعقائد والطقوس الدينية ومع ذلك يظلون مواطنين. وهذا الشرط الأخير لا ينطبق فقط على أبناء الأقليات الدينية كما قد نتوهم، وإنما ينطبق أيضاً على الكثير من أبناء الأغلبية المستنيرين والمتحررين من إكراهات التدين القديم. والثاني إزالة النزعة الاستعلائية الاحتقارية للغات والثقافات الأخرى غير العربية. وينبغي اعتبارها لغات قومية وتسجيل ذلك في الدساتير مثلما فعل محمد السادس أخيراً مع اللغة الأمازيغية. لا أعرف لماذا نحترم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية ولا يخطر على بالنا إطلاقاً أن نتعلم اللغة الكردية أو الأمازيغية حتى ولو من قبيل الفضول المعرفي...

إنها لدى العامة والجماهير تتخذ صفة المعصومية. وبالتالي، لا يمكن تفكيكها في المدى المنظور ولا تجاوزها. الثورة الفرنسية نفسها لم تستطع اقتلاعها إلا بعد فترة طويلة من حصولها. والدولة المدنية أو العلمانية الحديثة لم تتشكل في فرنسا حقيقة إلا عام ١٩٠٥: أي بعد أكثر من قرن على حصول الثورة الكبرى. وبالتالي، لا ينبغي أن نعلق آمالاً كبيرة على الربيع العربي، على الأقل في المدى المنظور... فالعصبيات الطائفية والمذهبية لن تختفي من الساحة بعده بضربة عصا سحرية. بل المرجح أنها ستزيد. وقل الأمر ذاته عن العصبيات القبلية في الأردن وليبيا والسعودية واليمن إلخ... ولكن يمكن القيادات المستنيرة، سواء أكانت دينية أم علمانية أن تحجم هذه العصبيات التقسيمية أو تحيدها إلى أقصى حد ممكن حتى ولو خسرت بعض قواعدها الشعبية من جراء ذلك. ينبغي أيضاً على نخب الأقليات المستنيرة[1] أن تناضل ضد الطائفية الخائفة والمزمنة لكي تخطو بعض الخطوات نحو نخب الأكثرية وتلتقي معها على أرضية عقلانية، وطنية، مشتركة. في الواقع، إن هذا ما تفعله عادة وبحماسة واندفاع. فالمثقف الأقلوي لا يطلب إلا شيئاً واحداً: أن يرضى عنه مثقف الأغلبية ويقبل بالتحاور معه أو التنازل قليلاً من موقعه المتفوق لكي يتحاور معه. وبالتالي هذه النصيحة ينبغي أن توجه إلى مثقفي الأكثرية في الدرجة الأولى. عندئذ، وعندئذ فقط، يمكن إفشال المشروع التقسيمي الذي يحظى حتماً بدعم المحافظين الجدد من أمريكان وأوروبيين وإسرائيليين. وعندئذ يمكن ليس فقط الحفاظ على الدول الحالية كما هي، بل تشكيل فضاء أوسع يضم كل المشرق العربي – الكردي، وفضاء آخر يضم كل المغرب العربي – الأمازيغي. كم سيكون ذلك جميلاً؟ كم سيكون رائعاً؟ ولكن أخشى ألا يكون في الظروف الحالية الحالكة السواد إلا حلماً طوباوياً بعيد المنال...

---

١ كلنا يعلم أن مثقفي الأقلية البروتستانتية في فرنسا لعبوا دوراً كبيراً في بلورة العلمانية الفرنسية وانتصارها. لقد كان دورهم فيها أكبر بكثير من حجمهم الحقيقي، أي العددي... ولكن لولا اقتناع قسم لا يستهان به من مثقفي الأغلبية الكاثوليكية بالفكرة لما نجحت وانتصرت. يكفي أن نذكر هنا اسم جول فيري مؤسس المدرسة العلمانية الوطنية المجانية في البلاد. يكفي أن نذكر المعارك التي خاضها ضد رجال الدين الكاثوليك، أي شيوخ طائفته بالذات. ويقال إنهم سبب اختناق نفسه وموته المبكر من كثرة الصراعات التي فرضوها عليه أو أجبروه على خوضها قبل أن يستطيع فرض النظام العلماني الذي كانوا يكرهونه كره النجوس كما يفعل شيوخ المسلمين الآن. وبالتالي فالعلمانية العربية المقبلة لن تكون من صنع الأقليات فقط وإن كانت لها مصلحة كبيرة فيها. ولكن سيسهم فيها بقوة مثقفو الأغلبية السنية الذين ضاقوا ذرعاً بالتقليد الامتثالي الخانق وتشبعوا بالأفكار الفلسفية الحديثة والتحريرية.

هل أردوغان نموذج يحتذى؟

لكي لا أترك القارئ معلقاً في الفراغ أو يائساً من إمكانية وجود أي حل في المدى المنظور، ولكي لا أشعره بأن هذه الدراسة تصل به إلى أفق مسدود، فسوف أقدم له ولنفسي بصيصاً من النور. أو قل إن الذي يقدمه لنا جميعاً هو الزعيم التركي الشاب طيب رجب أردوغان. وشهادته ثمينة جداً لأنها ليست صادرة عن شخص ملحد أو غير متدين، بل عن مسلم حقيقي بل وإخوان مسلمين سابق[١]. وبالتالي، فقيمتها تتخذ أضعافاً مضاعفة بالقياس إلى كل ما عداها. فالرجل لا يجد أي تناقض في أن يكون مسلماً ورئيساً لدولة علمانية. وهو يقول مراراً وتكراراً بأن العلمانية ليست ضد الدين. ولكن الجهل السائد بحقيقة الأمور

١ لاحظ الفرق الكبير بينه وبين الشيخ الجليل الدكتور يوسف القرضاوي. فهذا الأخير يقوي النعرات الطائفية في مصر، إذ يستغل خطبة الجمعة لأغراض سياسية متحيزة عندما يأمر المصريين بعدم انتخاب العلمانيين وغير المسلمين (الجمعة ٢٠١١/١١/١٨). ماذا نفعل بعشرة ملايين قبطي وملايين المسلمين المستنيرين غير الإخوانيين أو غير السلفيين؟ هل نعدمهم؟ ألا يحق لهم الترشح للانتخابات؟ إنه مع الديمقراطية ما دامت تنتخب الإخوان والسلفيين. أما إذا ما انتخبت سواهم فسوف يلعنها ويصدر فتوى بتكفيرها كما فعل الشيخ علي بلحاج في الجزائر أيام التسعينات... يضاف إلى ذلك أنه يخلط بين العلمانية والإلحاد بسبب جهله بفكرة العلمانية أو النظام العلماني الحديث. وللحقيقة، فهو جهل عام وشامل في كل أنحاء العالم العربي الإسلامي ولا يقتصر على الدكتور القرضاوي. لاحظ الفرق بينه وبين البابا شنودة الذي فعل العكس تماماً. فقد دعا الأقباط إلى انتخاب المرشح المسلم الذي يحترمهم كبشر أو كمواطنين ويدافع عن حقوقهم. ولاحظ الفرق أيضاً بينه وبين الدكتور أحمد الطيب شيخ الجامع الأزهر الذي يجمع ولا يفرق. في كل مواقفه يحاول الشيخ الأكبر أن يجمع بين المسلمين والمسيحيين أو بين السنة والشيعة بغية تحقيق الوحدة الوطنية وتحاشي الأخطار التي تحدق بالأمة. والغريب العجيب أن الشيخ القرضاوي يتخذ أحياناً مواقف تقدمية مسايرة للعصر، كالسماح للمرأة بقيادة السيارة أو حتى السماح بشرب القليل من الخمرة أو التخلي عن مصطلح أهل الذمة الذي يجرح حساسية المسيحيين إلخ... وبالتالي فالرجل له مواقف إيجابية أحياناً ولا ينبغي أن ننكر مزاياه على طول الخط. وكنت أنا شخصياً قد أشدت أكثر من مرة بهذه المواقف المستنيرة التي هاجمه عليها عتاة السلفيين. ولكن المشكلة هي أنه سرعان ما يعود إلى مواقعه الخلفية عندما تحتدم الظروف، فيمدح الزرقاوي مثلاً أو يعتبره شهيداً على الرغم من كل المجازر التي ارتكبها بحق العراقيين البسطاء! ثم يهاجم الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي يعيش أصعب الظروف في خط المواجهة الأول. لماذا تمنع المسلمين من زيارة القدس؟ ولمصلحة من؟ ضع نفسك محل الرئيس الفلسطيني المحاصر ولو للحظة واحدة يا شيخنا الكبير! هذا التناقض العجيب لدى العلامة الشهير لا تفسير له سوى أنه عندما يتعرض لضغوط من فوق فإنه يدلي بفتاوى ليبرالية لإرضاء الغرب كإدانة جريمة ١١ سبتمبر مثلاً. وعندما يتعرض لضغوط العوام والسلفيين فإنه يدلي بفتاوى رجعية معاكسة... وبالتالي فهو مضطر إلى مراعاة قواعده المتشددة من جهة، ومراعاة المسؤولين السياسيين المستنيرين في دولة قطر والعالم العربي من جهة أخرى. ولذلك فهو يتأرجح باستمرار بين كلا القطبين والموقفين. وهذا ما يجعله يبدو كأنه مشكل من شخصيتين: شخصية معتدلة وأخرى متطرفة. كان الله في عونه وعوننا جميعاً...

يخلط بين الدولة العلمانية والدولة الكافرة! وهذا خطأ شنيع شائع جداً في العالم العربي للأسف الشديد. فأردوغان المسلم الملتزم لا يتردد عن القول إنه سيدافع عن حق غير المحجبة في حرية سلوكها، كما يدافع عن حق المحجبة في حرية سلوكها أيضاً ودخول الجامعة بحجابها. وتصل به الجرأة إلى حد قول ما يأتي: فكما يجب احترام من يذهب إلى الجامع، فإنه يجب أيضاً احترام من لا يذهب إلى الجامع!

وفي تصريحاته التي أدلى بها إلى الإعلامية المصرية منى الشاذلي، والتي أثارت ضجة كبيرة وخيبة أكبر في أوساط الإخوان المسلمين المصريين والعرب، يقول أردوغان موضحاً: الدستور التركي يعرّف العلمانية بأنها تتعامل مع أفراد الشعب على مسافة متساوية من جميع الأديان، وأن الدولة العلمانية لا تنشر اللادينية أو الإلحاد. فهذا فهم خاطئ جداً للعلمانية أو للدولة المدنية. إنه فهم لا أساس له من الصحة. ثم يوجه كلامه إلى المصريين قائلاً: أقول للشعب المصري ألا يكون قلقاً من العلمانية، وأظن أنه سيفهمها بشكل مختلف بعد تصريحاتي هذه. فالدولة العلمانية لا تعني الدولة الإلحادية. ثم تمنى الزعيم التركي قيام دولة مدنية ترتكز على القاعدة الأساسية الآتية: احترام جميع الأديان والشرائح في المجتمع المصري. ودعا إلى وضع دستور جديد لمصر يقوم على المبادئ التي من شأنها أن ترسي قواعد دولة مدنية حديثة تتيح للجميع أن يدين بالدين الذي يريد. بل ووصل به الأمر إلى حد القول: يستطيع الأفراد في الدولة المدنية الحديثة أن يكونوا متدينين أو ضد الدين أو من أديان أخرى، فهذا حقهم الطبيعي... وأضاف: يحق للمسلم أن يعيش دينه بكل حرية وكذلك المسيحي واليهودي وغيرهما. وينبغي على الدولة أن تضمن كل هذا. ونصح أردوغان الذين يعدون الدستور المصري الجديد بالحرص على ضمان وقوف الدولة على مسافة متساوية من جميع الأديان والفئات الموجودة في المجتمع. بمعنى أنه لا ينبغي أن تفضل أبناء دين الأغلبية على سواهم في مجالات العمل والتوظيف واحترام الكرامة الإنسانية. فجميعهم مواطنون على قدم المساواة. ومن يخدم المجتمع أكثر فهو الأفضل أياً يكن دينه أو مذهبه. فإذا بدأت الدولة بهذا الشكل فإن المجتمع كله سيجد الأمان، المسلمون كما المسيحيون، وغيرهما من الأديان، وكذلك اللادينيون. فحتى الذي لا يؤمن بالدين ينبغي على الدولة أن تحترمه!

والآن نطرح هذا السؤال: ماذا كان ردّ الإخوان المسلمين المصريين على تصريحات

أردوغان هذه؟ لقد فاجأتهم وأزعجتهم وزعزعتهم ونزلت عليهم كالدوش البارد[١]... فقد ردّ عليه الناطق باسم الجماعة الدكتور محمود غزلان قائلاً بأن تجارب الدول الأخرى لا تُستنسخ، وأن ظروف تركيا تفرض عليها التعامل بمفهوم الدولة العلمانية الذي لا يناسبنا ولا يلزمنا. بل رأى أن نصيحة رئيس وزراء تركيا للمصريين هي بمثابة تدخل غير مقبول في الشؤون الداخلية للبلاد... وهذا يعني أنها مرفوضة. هنا نلاحظ مدى تخلف الإخوان المسلمين المصريين عن الإخوان المسلمين الأتراك. وهنا نجد الفرق واضحاً جلياً بين الفهم المستنير للدين والفهم المنغلق القديم[٢].

١ أكتب هذه الكلمات على وقع المخاطر التي تتهدد مصر وسوريا ومعظم بلدان العرب وأتساءل: هل حقاً إنه لا توجد أرضية مشتركة بين الليبراليين والإسلاميين؟ أقصد الإسلاميين العقلاء المستنيرين بالطبع كالشيخ الأكبر الدكتور أحمد الطيب ووثيقة الأزهر الوطنية الرائعة وليس الطائفيين المكشرين عن أنيابهم! هل يعتقد التيار الإخواني والسلفي المتحجر أنه سيسيطر على الساحة بمفرده كما حصل في إيران؟ هل هذا مستحب؟ وماذا سيحصل للعلوم والآداب والفنون عندئذ؟ ماذا سيحصل للنهضة العربية كلها؟ ماذا سيحصل لحقوق المرأة والرجل وكل شيء؟ كيف يمكن أن تتنفس في مثل هذا الجو الخانق؟ ثم هل يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء؟ هل يمكن أن نعود إلى العصور الوسطى السابقة على الحداثة؟ هل يمكن أن نشطّب على كل ما حصل منذ عصر النهضة في القرن التاسع عشر حتى اليوم؟ العالم يتقدم إلى الأمام ونحن نعود إلى الوراء... لماذا لا يقلد إخوان مصر التجربة التونسية والشيخ الغنوشي؟ سمعت بأن شباب الإخوان أكثر انفتاحاً وتنوراً من جيل الشيوخ ولكن يبدو أن السلطة ليست في أيديهم. التاريخ يتأرجح الآن في مصر وغير مصر. ويمكن أن يقلب في أي لحظة في هذه الجهة أو تلك... وعلى أي حال، فإن مصر لم تقل كلمتها الأخيرة بعد. أياً يكن من أمر، فإن الربيع العربي فجر كل المشاكل دفعة واحدة بدلاً من أن يحلها... هذا الكلام لا يعني إطلاقاً إدانة له، على العكس. بل يعني أن المشاكل الكبرى لا تحل بين عشية وضحاها. وكفاه فخراً أنه حرك المستنقع الراكد والماء الآسن وهز عروش الأنظمة الشمولية الاستبدادية. هناك مثل فرنسي يقول: من السهل أن تبدأ الثورات، ولكن من أصعب الصعب أن تنهيها بسلام... والفرنسيون يعرفون عما يتحدثون: فقد أنهكتهم الثورة الفرنسية وأكلت أولادها قبل أن تهدأ وتصل إلى نتيجة إيجابية في نهاية المطاف. فكم ستتعذب مصر قبل أن تصل إلى نتيجة؟ كم ستتعذب سوريا؟ وليبيا؟ واليمن؟ إلخ... على أي حال، هناك أسئلة مقلقة أصبحت تطرح نفسها بإلحاح: هل يمكن أن نعيش في الحالة الثورية إلى الأبد؟ ألن يؤدي ذلك إلى انتشار الفوضى العامة الشاملة؟ وكيف ستعيش مصر إذا ما استمرت هذه الحالة وتعطل الإنتاج وشل الاقتصاد؟ من المعلوم أن الثورة الفرنسية تعرضت للخطر نفسه وكادت أن تودي بفرنسا لولا أنه ظهر في آخر لحظة شخص منقذ وحازم عرف كيف يضع حداً للفوضى الثورية العارمة بعبقريته السياسية والعسكرية. هذا الشخص هو: الجنرال نابليون بونابرت.

٢ هذا المديح للزعيم التركي لا يعني الموافقة على كل سياساته وبخاصة موقفه المتشدد والظالم من الشعب الكردي الذي يشكل خمس سكان تركيا والذي لا يزال مهضوم الحقوق... يضاف إلى ذلك أنه يلاحق الصحافيين والكتاب ويضيق عليهم الخناق. وهو بذلك ينتهك إحدى الحريات الأساسية في المجتمعات الديمقراطية: أي حرية التفكير والكتابة والتعبير. وبالتالي فهو ليس ديمقراطياً بما فيه الكفاية على عكس ما يزعم. يضاف إلى كل ذلك أخيراً أنه يحاول الهيمنة على المنطقة العربية وإعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية مستغلاً ضعف العرب وتشتتهم إن لم أقل هلعهم وضياعهم... ولكن هذه هي حال الدنيا: دائماً القوي =

ورد عليه أيضاً الدكتور عبد المنعم الشحات المتحدث الرسمي باسم الدعوة السلفية قائلاً: "دعوة أردوغان للترويج للنظام العلماني التركي غير مرحب بها على الإطلاق. وأي محاولة لاستنساخ الحالة التركية في مصر غير مقبولة". ثم أضاف الشحات في تصريحات نقلتها الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠١١/٩/١ قائلاً:

> إن الحالة التركية تنتقل الآن من العلمانية المتوحشة الشديدة العداء للدين ولا تقبله حتى داخل المسجد، إلى درجة علمانية يقولون عنها إنها ليست ضد الدين لكن في الحقيقة إنها بمعايير الدين الإسلامي أيضاً ضد الدين الذي يقول: إن الحكم إلا لله.
>
> وبالتالي الإخوان العرب والسلفيون يعتبرونه علمانياً أكثر من اللزوم، في حين أننا – نحن الليبراليين العرب – لا نعتبره علمانياً بما فيه الكفاية! بل ربما لم يكن في قرارة نفسه علمانياً على الإطلاق. وهذا ما سنوضحه، بتفصيل أكثر، في الفقرة التالية.

هل انقلب أردوغان على نفسه؟

نعم. بعد أن فرغت من كتابة هذا الفصل فوجئت بمواقف أخرى متخلفة ومزعجة لطيب رجب أردوغان. فهل تراجع عن تصريحاته المستنيرة في القاهرة يا ترى؟ هذا ما نستشفه من مقالة كتبها الباحث المختص في الشؤون التركية محمد نور الدين في جريدة السفير اللبنانية تحت عنوان: "أردوغان يطلق الثورة المضادة. نريد تنشئة جيل متدين محافظ" (بتاريخ ٢٠١٢/٢/٨). اعتبر معظم الكتاب الأتراك في تعليقاتهم أن أردوغان بهذا الكلام يؤسس لمرحلة جديدة في تاريخ تركيا قوامها شباب مؤمن ومتدين وليس شباباً علمانياً كما يقتضي النظام الأتاتوركي مع احتفاظ كل فرد بحريته في التدين من عدمه. وعلق على ذلك سميح ايديز في جريدة مليبيت قائلاً: اليوم يسير أردوغان على عكس ما قاله في القاهرة عندما صرح أخيراً في شباط ٢٠١٢ بأن على الدولة أن تنشئ جيلاً من المتدينين المحافظين.

= الناجح يحب أن يتوسع ويهيمن على الضعيف الفاشل...

وهذا التصريح يعطي مصداقية للمرشح الرئاسي الأميركي حاكم تكساس الذي انسحب لاحقاً عندما قال: إن تركيا يحكمها إرهابيون إسلاميون! وفي مكان آخر هاجم أردوغان فرنسا بشدة لأنها حظرت النقاب الكامل، أي البرقة الأفغانية، في شوارعها. وقال "إنه لأمر مثير للسخرية حقاً أن نرى العلمانية موضع جدل في أوروبا وتقوض حريات معينة. وأضاف أمام الجمعية البرلمانية لمجلس أوروبا في ستراسبورغ: لا يوجد في فرنسا اليوم احترام للحرية الدينية للفرد". لاحظ كيف قلب الأمور عاليها سافلها! وهي حيلة برع فيها الأصوليون في فرنسا أيضاً وليس فقط أردوغان. فعندما تمنع فرنسا ازدراء المرأة عن طريق تحجيبها من فوق إلى تحت، أو عندما تراقب خطب الجمعة المليئة بالأحقاد الطائفية وفتاوى القرون الوسطى للأئمة المتشددين فإنها تعتدي على حرية الفرد وحقوق الإنسان! لاحظ هذا المنطق الأعوج! عندما تمنع فرنسا رجم المرأة الزانية فإنها تعتدي على مشاعر المسلمين! كلنا يعلم أن التحجيب الكامل للمرأة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها شيء غير شرعي من الناحية الإسلامية. يضاف إلى ذلك أنه مهين لكرامة المرأة بل ويساعد على تشويه صورتها وصورة الإسلام كله في الغرب. ومع ذلك فإن أردوغان يدافع عن البرقة الأفغانية ويعتبرها من الحريات الأساسية للإنسان! وهي حريات أخلت بها فرنسا على ما يزعم... كيف نفهم كل هذه التراجعات المؤسفة؟

في الواقع، إن الرجل كان إخوانياً متعصباً كسواه. ثم تطور غصباً عنه تحت ضغط العلمانية التركية والاتحاد الأوروبي في آن واحد، كما ذكرنا أكثر من مرة على مدار هذا الكتاب (انظر بشكل خاص: الفصل الخامس عشر والفصل العشرين). ولكنه لا يزال يتذبذب بين مواقعه القديمة ومواقعه الجديدة تماماً كالمجتمع التركي نفسه. فبما أن العلمانية الأتاتوركية ليست نابعة من الداخل بل مستوردة من الخارج ومفروضة على المجتمع بالقوة من فوق، فإنها ليست راسخة كالعلمانية الفرنسية مثلاً أو الأوروبية بشكل عام. وبالتالي يمكن التراجع عنها في أي وقت. وهذه هي حالة تركيا الإسلاموية. المجتمع أهم من الفرد حتى ولو كان بطلاً قومياً يتمتع بكاريزما شخصية كأردوغان. وبالتالي توازنات المجتمع التركي المترجرجة هي التي تملي عليه مواقفه المتغيرة. لا ريب في أنه علماني غصباً عنه، بدليل أنه يصرح حتى في القاهرة: أنا لست علمانياً، أنا مسلم ولكن الدولة علمانية. وهذا دليل على أنه لم يفهم العلمانية جيداً تماماً. فالكثير من العلمانيين متدينون في الغرب المتقدم.

مثلاً فرانسوا بايرو زعيم حزب الوسط في فرنسا مسيحي علماني كما ذكرنا سابقاً. ولا يشعر بأي تناقض أو حرج إذ يعلن ذلك، على عكس أردوغان. العلمانية لا تتعارض إطلاقاً مع الإيمان الديني أو مع التدين. ولكنه لا يستخدم المسيحية كسلاح فعال للوصول إلى السلطة كما يفعل أردوغان وكل قادة الإسلام السياسي في "حزب العدالة والتنمية". وهي تسمية ملطفة للتغطية على تلك التسمية المخيفة: الإخوان المسلمون الأتراك. هنا يكمن الفرق بين العلمانية الحقيقية الراسخة كالعلمانية الفرنسية والأوروبية عموماً، والعلمانية التركية السطحية الهشة الملصقة لصقاً بشكل اصطناعي على جسد مجتمع لم يستنر بعد ولم يخرج من المرحلة الأصولية القروسطية للتدين أو لفهم الدين. وأكبر دليل على ذلك أنه لا توجد حرية دينية حقيقية في تركيا على عكس ما يزعم أردوغان. ولا توجد مساواة بين الأديان والمذاهب كما هي عليه الحال في فرنسا وكل أنحاء أوروبا المتحضرة. لا يزال الاضطهاد الديني أو المذهبي سائداً في تركيا حتى اللحظة. ولا تزال العصبيات الطائفية متأججة تماماً كما هي عليه الحال في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي. وبالتالي لا ينبغي أن نبالغ في أوهامنا عن أردوغان وكل تيار الإسلام السياسي. ولكنه مع ذلك يبقى أفضل من غيره! والدليل على ذلك تصريحاته المدهشة في القاهرة ورد الفعل الإخواني – السلفي الهائج عليها. هذا هو الموجود، هذا هو الممكن أيها السادة في اللحظة الحالية للأمور... هناك الممكن، وهناك المستحيل في تاريخ الفكر والمجتمعات البشرية. وما هو مستحيل الآن قد يصبح ممكناً غداً. وبالتالي السيد أردوغان يمثل مرحلة انتقالية مترجرجة مدعوة للزوال عندما يحصل الربيع الحقيقي وتطل شمس التنوير الفلسفي على تركيا والعالم العربي الإسلامي كله...

إما الفيدرالية وإما التقسيم!

الربيع العربي كشف بشكل غير إرادي عن كل التناقضات العرقية والطائفية التي يعج بها العالم العربي شرقاً وغرباً. وقد شغلني هذا الموضوع على مدار الصفحات السابقة كما يلاحظ قارئ المتن والهوامش، وبخاصة الهوامش... كل ما كان مستوراً، مكبوتاً، انكشف للعيان. كل المشاكل العرقية والدينية والمذهبية تنفجر في وجوهنا الآن كالقنابل

الموقوتة. أقباط ومسلمون، شيعة وسنة، عرب وأكراد، إلخ... والناس أصبحت مرعوبة من اندلاع الحرب الأهلية. ما العمل؟ ما الحل؟ ما الطريق؟ يرى بعض الباحثين أنه لكي نتصدى لمشروع سايكس بيكو الجديد، فإن أفضل حل هو الدولة الفيدرالية. ينبغي أن نتخلى تدريجاً عن وهم الدولة الواحدة الموحدة الأحادية التي لا تحتوي على أي تنوع أو اختلاف في أحشائها ومكوناتها. دولة مشكلة من دين واحد أو حتى مذهب واحد وعرق واحد ولون واحد: هذا مستحيل! حتى في العائلة الواحدة هناك اختلافات: بنت سمراء وأختها شقراء! واحد حداثي والآخر إخوان مسلمون... التماثل النمطي الكامل المطلق شيء طوباوي غير موجود على وجه الأرض، وأصلاً غير مستحب. معظم دول العالم تحتوي على مكونات مختلفة إما عرقياً - لغوياً، وإما دينياً - مذهبياً وإما الاثنان معاً. وهذا ليس شيئاً سلبياً بحد ذاته وليس مشكلة مستعصية إذا ما عرفنا كيف نتصرف تجاهه ووسعنا عقولنا قليلاً... فالتنوع يقضي على النمطية والرتابة ويجعل البلد أكثر جمالاً وغنى وجاذبية. التنوع نعمة لا نقمة. اختلاف أمتي رحمة! ولكننا لا نرى فيه إلا الجانب السلبي بسبب عقليتنا المتحجرة وكرهنا لكل تنوع أو اختلاف. ثقافتنا الاستبدادية على مدار التاريخ غير متعودة قبول الاختلاف. ومع ذلك فإننا نريد أن نكون ديمقراطيين! هل نعلم بأن أرقى دول العالم هي دول فيدرالية؟ أقوى دولة في العالم وأكثرها ازدهاراً على كافة الأصعدة والمستويات هي دولة فيدرالية: قصدت الولايات المتحدة الأميركية. سويسرا أرقى دولة في العالم هي دولة فيدرالية أو كونفدرالية: الاتحاد الكونفدرالي السويسري الذي يجمع بين المكون الألماني والمكون الفرنسي والمكون الإيطالي إلخ. ثلاث لغات أو أربع داخل دولة واحدة لا أحد فيها يعتدي على أحد ولا يحتقره بسبب الاختلاف اللغوي. كل مكون له احترامه وخصوصيته. السياسة الخارجية والدفاعية مشتركة. ألمانيا دولة فيدرالية مشكلة من ١٦ ولاية، وكل ولاية تعتبر دولة بحد ذاتها، لها دستورها وبرلمانها وحكومتها. ومع ذلك تظل ألمانيا دولة موحدة ولا أحد ينظر إليها من الخارج كدولة مقسمة. السياسة الخارجية موحدة وكذلك الدفاع. ما عدا ذلك كل واحد أدرى بشؤونه. هذا هو التقدم، هذا هو الرقي... وكندا دولة فيدرالية مشكلة من أغلبية إنكليزية وأقلية فرنسية في إقليم كيبك وعاصمته مونتريال، إلخ... الهند دولة فيدرالية مشكلة من عشرات الدول... أين هي المشكلة؟ لماذا كل هذا

الخوف من كلمة فيدرالية؟ هل تريدون التقسيم الكامل أو الانفصال كبديل؟ عجيب!

وبالتالي بدلاً من أن يذبح بعضنا بعضاً على الهوية في ظل الدولة المركزية الصارمة، بدلاً من أن يجبر بعضنا بعضاً على الاتحاد الانصهاري والتوحيد القسري الذي ستقهر فيه حتماً فئة معينة بقية الفئات في عقر دارها، لماذا لا نحاول أن نجد صيغة للتعايش لا تكون طلاقاً انفصالياً، ولا زواجاً كاثوليكياً؟ حتى فرنسا أكثر الدول مركزية ويعقوبية في العالم تخلت أخيراً عن المركزية الصارمة وتبنت اللامركزية وأعطت الأقاليم صلاحيات واسعة لإدارة شؤونها الداخلية بنفسها. ذلك أن أهل مكة أدرى بشعابها... إسبانيا لا تعتبر رسمياً دولة فيدرالية، ولكنها عملياً فيدرالية حيث أعطت استقلالاً ذاتياً لمنطقة كاتالونيا، ومنطقة الباسك، من دون أن تنفصلا عن الدولة الأم. لو طبق هذا النظام الفيدرالي على دول المشرق العربي لخفت المشاكل والحزازات والحساسيات، ولما شعر أحد بالظلم والقهر لأنه محكوم مباشرة من قبل أشخاص بعيدين عن منطقته ولا يدركون خصوصيتها ولا يفهمون مشاكلها الداخلية جيداً. الحل البديل عن هذا الحل الحضاري الراقي لن يكون إلا غلبة أحد مكونات البلد على بقية المكونات الأخرى وقهرها وسحقها وكل المشاكل الناتجة من ذلك. الحل البديل لن يكون إلا الحروب الأهلية، فالمجازر، فالتقسيم! هل هذا ما نريد؟ لماذا لا نوسع عقولنا قليلاً ونستفيد من تجربة الأمم المتحضرة؟ لماذا نكذب على أنفسنا بأننا شيء واحد أو لون واحد؟ أو بالأحرى إلى متى سنظل نكذب على أنفسنا؟ هناك مشاكل داخلية حقيقية. هناك خصوصيات وتنوعات. هناك مشاكل طائفية ومذهبية وعرقية لغوية. وغالباً ما تجعل التعايش إشكالياً أو أمراً صعباً في نفس الحي أو حتى في نفس المدينة. وسوف يظل الأمر كذلك حتى تكون شعوبنا بكافة فئاتها قد تعلمت واستنارت وتطورت وانخفضت عصبياتها الطائفية والمذهبية إلى درجة النصف على الأقل. وهذه هي مهمة التنوير العربي -الإسلامي الذي أعتبره مشروع المستقبل... فالأفكار الطائفية المغروسة في العقليات الجماعية منذ مئات السنين لن تزول من تلقاء ذاتها بل عن طريق فكر آخر جديد. ولا أقصد بذلك إلغاء الدين! فهذا عبث ومستحيل. وإنما أقصد انتصار الفهم المستنير المتسامح له على الفهم الضيق المتعصب القديم. فالفرنسيون أيضاً كان يذبح بعضهم بعضاً على الهوية بسبب الصراع المذهبي الرهيب الكاثوليكي - البروتستانتي قبل أن ينتصر التنوير الفرنسي على الأصولية المسيحية بفضل جهود فلاسفة كبار كفولتير

وروسو وديدرو والموسوعيين... والألمان أيضاً دمر بعضهم بعضاً مرتين أو ثلاث مرات بسبب الصراع الجهنمي نفسه قبل أن تنتصر حركة التنوير الألماني على أيدي الفلاسفة من أمثال لايبنتز وكانط وفيخته وشيلنغ وهيغل إلخ. وبالتالي فبرامج التعليم المدرسية والجامعية والتلفزيونية وبرامج الفضائيات وكذلك خطب يوم الجمعة في المساجد إلخ ينبغي تطويرها أو تغييرها جذرياً لأنها تبث الأفكار الطائفية حتى من دون أن تدري... ولكن هذا شيء مستحيل بشكل فوري ولا يمكن أن يحصل إلا تدريجاً وعلى مراحل . فزحزحة الجبال أسهل من تغيير العقليات! بعد أن وصلت في الحديث إلى هذه النقطة سوف أقول كلمة سريعة عن موضوع الفلسفة ودورها الكبير في تنوير العقول العربية والإسلامية.

الفلسفة كمنقذ للعرب من الانحطاط والجمود الحضاري

وأخيراً سوف أطرح هذا السؤال:

هل يمكن الفلسفة أن تنقذ العرب من الانغلاقات اللاهوتية، طائفية كانت أم مذهبية؟ هل يمكن أن تفتح آفاقهم وتوسع عقولهم المنغلقة المتحجرة منذ مئات السنين؟

هل يمكنها أن توحد العرب على أرضية واحدة بعد أن مزقتهم الانقسامات الطائفية والمذهبية؟ أقصد هل يمكن أن توحد بين الأقباط والمسلمين، بين السنة والشيعة؟ من المعلوم أن العقل البشري واحد، وكذلك الفلسفة العلمية – العقلانية. فهي واحدة لجميع البشر. ولكن الأديان والمذاهب تختلف. ولهذا السبب أسست الدول المتقدمة الدولة المدنية في العصر الحديث لتحييد العصبيات الطائفية وتقوية اللحمة الوطنية التي تتجاوز كل الانقسامات الطائفية وتشمل الجميع. فالألماني ألماني قبل أن يكون كاثوليكياً أو بروتستانتياً. وقل الأمر ذاته عن الفرنسي والإنكليزي والهولندي والبلجيكي إلخ... ولكن كم عانوا وتعذبوا وذبح بعضهم بعضاً على الهوية الطائفية أو المذهبية قبل أن ينتصر هذا التنوير الفكري أو قل هذا الفهم المستنير لجوهر الدين؟ كم مروا بحروب أهلية ومذابح مروعة قبل أن يتوصلوا إلى الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة التي تعامل الجميع على قدم المساواة من خلال المواطنية الكاملة؟ بالطبع فإن تطوراً كبيراً كهذا لن يحصل بين عشية وضحاها. فهذه قضية تستغرق عدة أجيال. ولكن هل يعني توحيدنا على أساس الفلسفة العقلانية الحديثة

والدولة المدنية أننا سنحذف الدين أو نهمله؟ معاذ الله! الدين ستبقى له مكانته العليا التي لا تضاهيها أي مكانة. ولكن بشرط ألا نلوثه بمناوراتنا السياسية وألا نستغله لغايات تحزبية وفئوية ضيقة مضادة له أو لجوهره. فالدين ينبغي أن يبقى فوق الجميع وفوق الأحزاب كلها لأنه تعال رباني وسمو روحاني وقيم أخلاقية عليا تعلو ولا يعلى عليها. يضاف إلى ذلك أن الدين تعددي بحسب نص القرآن الكريم ذاته، وبالتالي لا بأس في أن نختلف في الأديان والمذاهب. هذه ليست مشكلة يا جماعة! هذه ليست مصيبة! هذه نعمة لا نقمة! اختلاف أمتي رحمة... هناك عدة طرق تقود إلى الله لا طريق واحد. المهم أن تصفو النيات وتصلح الأعمال. المهم من يخدم المجتمع والمصلحة العامة أكثر. المهم من ينتشله من حمأة الفقر والجوع والمرض والأمية والتخلف... هذا هو الجهاد الأكبر! ومن يفعل ذلك فإنه المؤمن الحقيقي المرضي عند الله إيمانه. من ينقذ عائلة واحدة من العوز والحرمان فإنه يقترب من الله درجات. الثري العربي الذي يعلّم على نفقته عشرة طلاب أو طالبات عربيات ينال أجراً عظيماً عند الله... الإيمان ليس الركوع والسجود فقط، بل العمل الصالح أيضاً: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". هذه الآية الكريمة واردة ثلاث مرات في القرآن... وبالتالي الدين المعاملة قبل كل شيء. من يخدم المجتمع أكثر فهو مؤمن أكثر! لقد آن الأوان للتخلص من خزعبلات القرون الوسطى وخرافاتها التي غطستنا في الفقر والجهل والتخلف والانقطاع عن ركب الحضارة والتقدم. ومن سيساعدنا على بلورة هذا الفهم المستنير للدين، هذا التأويل الجديد المنقذ؟ من سيخلصنا من براثن التأويل الانحطاطي القديم الذي لا يزال مهيمناً على جماهير المسلمين حتى اللحظة؟ إنه الفلسفة العقلانية، إنه نور العقل. فالله وهبنا العقل لكي نشغّله لا لكي نلغيه كما حصل طيلة ألف سنة من عصور الانحطاط وإغلاق باب الاجتهاد وتكفير الفلسفة والفلاسفة. وبالتالي إني أدعو إلى إدخال مادة الفلسفة إلى كل مدارسنا الثانوية وجامعاتنا ومعاهدنا العليا من دون استثناء. أدعو إلى أن تخصص لها نفس الحصص المخصصة لمادة التربية الدينية التي تكاد تطغى على برامجنا في بعض أقطارنا. لقد آن الأوان لرفع فتوى التكفير عن الفلسفة، هذه الفتوى التي رافقت دخولنا في عصر الانحطاط والتي ساهمت في انقطاعنا عن ركب الحضارة والتقدم. كذلك أدعو إلى تبسيط النظريات العلمية من رياضية وفيزيائية وبيولوجية وطبية وفلكية وتعميمها

على كل المدارس العربية، بل حتى على الجمهور العريض الذي يريد أن يثقف نفسه. فالنظريات الفلسفية لا يمكن فهمها غالباً إلا إذا ربطناها بالنظريات العلمية. وقديماً قالوا: لولا نيوتن لما كان كانط! على هذا النحو نعيد التوازن إلى برامجنا التعليمية، وبدلاً من تخريج الأصوليين المنغلقي العقلية نخرّج أجيالاً جديدة منفتحة على العالم وقادرة على مواجهة تحدياته. أضيف إلى ذلك أني أدعو إلى إدخال مادة تاريخ الأديان المقارنة أيضاً لكي يطلع الطالب العربي على النظرة الحديثة للدين ولا يبقى منغلقاً داخل النظرة القديمة السائدة. فلا يمكن أن نفهم تراثنا الإسلامي جيداً إلا إذا فهمنا التراث المسيحي والتراث اليهودي: أي تراث الأديان الإبراهيمية التوحيدية. وهذا إذا ما تم فسوف يوسع نظرتنا كثيراً ويجعلنا نفهم بعمق كل أبعاد التراث الإسلامي الكبير. يضاف إلى ذلك أن نظرية البارادیغمات اللاهوتية المتعاقبة بعضها وراء بعض مرتبطة بالنظريات الفلسفية والنظريات العلمية المتتابعة في الزمن أيضاً. كل شيء مرتبط بكل شيء. المعرفة واحدة لا تتجزأ. كوبرنيكوس كان رجل دين أيضاً وليس فقط عالم فلك...

وبالتالي إن جوابي على السؤال المطروح بداية عن دور الفلسفة يختلط فيه الذاتي بالموضوعي، أو السرد القصصي بالمقال الفكري. وسوف يكون على النحو التالي، وبه أختتم هذا الحديث الذي طال:

قال لي أحد الأصدقاء الكبار ممن أحترم وأقدّر في مكالمة هاتفية: يا أخي نحن بحاجة إلى كتب لتبسيط الفلسفة من أجل أن يفهمها الجمهور العريض في العالم العربي. ولا يمكن أن نخرج من العقلية الغوغائية أو الأنغلاقية المتطرفة بدون فكر فلسفي عقلاني. ولكن من يفهم كتب الفلسفة الآن في العالم العربي؟ لا أحد تقريباً، أو قل قلة قليلة أو نخبة محدودة جداً... قلت له بعد أن أثلج كلامه صدري وفاجأني بقوته ووضوحه: كم يسعدني هذا الكلام. نعم إننا بحاجة إلى فلسفة، إلى تبسيط النظريات الفلسفية وينبغي أن نفعل شيئاً ما في هذا الاتجاه إما ترجمة وإما كتابة وتلخيصاً وإما الاثنين معاً. وتشاء المصادفة أنك عندما هتفت لي كنت بصدد قراءة كتاب ممتع للفيلسوف الفرنسي المعروف لوك فيري عن تبسيط النظريات الفلسفية الكبرى للفرنسيين. كم أتمنى لو يترجم أحدهم كتبه الثلاثة أو الأربعة الأخيرة والتي تبسط كل تاريخ الفلسفة منذ اليونان حتى يومنا هذا. فلا يمكن أن نفهم نظرية

الحداثة وما بعد الحداثة إلا إذا اطلعنا على ذلك[1]. وقل الامر ذاته عن منهجية التفكيك وما بعد التفكيك ومكانة هيدغر في تاريخ الفلسفة ونيتشه وهيغل وكانت وديكارت وفوكو وهابرماس الخ..

ولو طالت المكالمة الهاتفية قليلاً لقلت للصديق الكريم ما يأتي: إن محسوبك لم يفعل طيلة الثلاثين عاماً الماضية إلا الاطلاع على الفكر الأوروبي منذ عصر النهضة حتى اليوم. وبالتالي عملي كله تقريباً كان يهدف إلى تسهيل الفكر الفلسفي المعقد ونقله إلى لغتنا بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض. وعندي مخطوطات عديدة لا تزال نائمة في الأدراج عن الموضوع ولا تزال تنتظر أن تطبع وتنشر على الملأ. مثلاً عندي كتاب كامل عن مفهوم القطيعة الإبستمولوجية الذي ملأ الدنيا وشغل الناس منذ أن كان الجابري وسواه قد استخدموه بشكل غير دقيق، والذي لا يزال الجمهور حائراً في معناه ومدلولاته. وهناك مخطوطة أخرى عن فلاسفة الحداثة وما بعد الحداثة. وقس على ذلك... نعم نحن بحاجة إلى كتب تفصيلية تبسيطية تشرح لنا كل هذه النظريات والمصطلحات الفلسفية الكبرى التي تعاقبت على الفكر الأوروبي منذ عصر النهضة حتى اليوم: أي طيلة أربعة قرون من عمر الحداثة الغربية. ينبغي أن يعلم الجمهور ما معنى عصر النهضة قياساً إلى العصور الوسطى، وما معنى النزعة الإنسانية التي سيطرت عليه وحلت محل النزعة اللاهوتية المسيحية أو تعايشت معها أو تصارعت وكيف؟ ينبغي أن يعلم ما معنى الثورة العلمية التي حصلت في النصف الأول

---

١ الكتب المشار إليها هي الآتية:

أولاً: **الإنسان السماوي أو معنى الحياة**. منشورات غاليمار. باريس ١٩٩٧

L'Homme-Dieu ou le sens de la vie. Gallimard. Paris 1997.

ثانياً: ما معنى الحياة الناجحة؟ منشورات.غاليمار. باريس ٢٠٠٥

Qu'est-ce qu'une vie réussie? Gallimard. Paris 2005.

ثالثاً: **التدرب على الحياة: مقالة فلسفية لخدمة الأجيال الصاعدة**. منشورات أوديل جاكوب. باريس ٢٠٠٦

Apprendre à vivre: Traite de philosophie à l'usage des jeunes générations. Odile Jacob. Paris 2006.

رابعاً: **التغلب على الخوف: الفلسفة كمحبة للحكمة**. منشورات أوديل جاكوب. باريس ٢٠٠٧

Vaincre les peurs: la philosophie comme amour de la sagesse. Odile Jacob. Paris 2007.

خامساً: **كانط: قراءة دقيقة لكتبه النقدية الثلاثة**. منشورات غاليمار. باريس ٢٠٠٨

Kant: Une lecture de trois critiques. Gallimard. Paris 2008.

سادساً: **كلام الفلاسفة**. منشورات دالوز – سيري.باريس ٢٠٠٩

Paroles de philosophes. Dalloz - Sirey. Paris 2009.

سابعاً: **ما هو مستقبل المسيحية في الغرب؟** منشورات سالفاتور ٢٠٠٩

Quel devenir pour le christianisme? Salvator. Paris 2009.

ثامناً: **ثورة الحب في عصرنا الراهن. نحو روحانيات علمانية**. منشورات بلون. باريس ٢٠١٠

Révolution de l'amour. pour une spiritualite laique. Plon. Paris 2010.

من القرن السابع عشر على يد فرانسيس بيكون وكيبلر وغاليليو وديكارت وسواهم، والتي شكلت قطيعة إبستمولوجية كبرى مع فلسفة أرسطو الذي هيمن على البشرية الأوروبية والعربية الإسلامية طيلة ألفي سنة. ينبغي أن تعمم دروس الفلسفة على طلاب المدارس الثانوية، وبالطبع طلبة الجامعة في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي لكي نتعلم مناهج التفكير العقلاني المنطقي الذي يهيمن على عقلية الشعوب المتحضرة في ألمانيا أو فرنسا أو هولندا أو سويسرا إلخ... ولكننا نلاحظ أن دروس التربية الدينية هي الطاغية على مناهج التعليم عندنا ولا تفسح إلا مكانة ضئيلة جداً لدروس الفلسفة، هذا إذا ما وجدت... فالفلسفة مدانة عندنا أو مشبوهة منذ أن كان الإمام الغزالي قد هاجمها بعنف وكفرها في كتابه **تهافت الفلاسفة** قبل ألف سنة تقريباً. وهنا تكمن عقبة لاهوتية كبيرة تنبغي إزالتها إذا ما أردنا أن نعيد الاعتبار إلى الفلسفة من جديد في العالم العربي الإسلامي. فالفلسفة تعني الفكر العقلاني الحر الذي لا يقبل بأن تفرض عليه، وبشكل مسبق، قيود دوغمائية من الخارج. وبما أن الفكر الحر انعدم في العالم الإسلامي بعد سقوط الفلسفة وإدانتها، فإن العقلية الغيبية أو التواكلية هي التي هيمنت علينا طيلة عصور الانحطاط حتى اليوم. ثم تلتها العقلية الديماغوجية الغوغائية لاحقاً في عصر الأيديولوجيات والشعارات الحامية. وينبغي أن نعترف بأنها هي المسيطرة على الشارع العربي حتى الآن. وللتأكد من ذلك يكفي أن ننظر إلى ردود فعل الجماهير الأوروبية ضد حدث يجرح مشاعرها وردود فعل الجماهير العربية الإسلامية على حدث يجرح مشاعرها أيضاً. في الحالة الأولى نلاحظ أن رد الفعل يكون ناضجاً محسوباً متزناً، وفي الحالة الثانية يكون هائجاً عنيفاً بدائياً. والسبب؟ إنه انعدام التربية العقلانية الفلسفية عندنا وتوافرها بكثرة في أوروبا. لنفكر هنا ولو للحظة برد فعل جماهيرنا على بعض الرسوم الكاريكاتورية التافهة في الدنمارك، ورد فعل المسيحيين الأوروبيين على أشياء مشابهة وتنال من مقدساتهم. في الحالة الأولى طغى الويل والعويل وحرق السفارات الأجنبية والقنصليات وسقوط قتلى وجرحى عديدين أثناء المظاهرات الحاشدة، بل وكان الهجوم الشائن على الحي العربي المسيحي في الأشرفية ببيروت. وفي الحالة الثانية يأخذون الأمور بنوع من الفلسفة ويكتفون ببعض المقالات الاحتجاجية في الصحف، وأحياناً يقدمون شكاوى إلى المحكمات ضد هذا التجديف الذي ينال من مقدساتهم المسيحية...

نعم ينبغي أن ننقل إلى اللغة العربية[١] كل الفتوحات العلمية والفلسفية التي ظهرت في أوروبا على مدار أربعمئة سنة: أي بالضبط منذ أن كانت الفلسفة العربية قد توقفت وماتت، وكذلك العلم العربي. من يعرف ما هو معنى ديكارت أو سبينوزا أو كانط بالنسبة إلى تاريخ الفكر؟ وما معنى لحظة هيغل: أي الكشف المعرفي الذي يمثله ظهور هيغل في تاريخ الفكر أيضاً؟ وقس على ذلك... فالمفكر الكبير يمثل ظهوراً أو حدثاً صاعقاً. إنه نور كشاف لغياهب الظلمات التي نتخبط فيها. إنه حل للمشكلة والعقدة المستعصية في كل مرة. على هذا النحو أحس الناس عندما ابتدأ كانط ينشر مؤلفاته الكبرى وكذلك هيغل. وقس على ذلك لحظة ماركس أو نيتشه أو فرويد أو هيدغر أو كل تلامذتهم المعاصرين... كانط ونيوتن شكلا القطيعة الإبستمولوجية الثانية في تاريخ الفكر البشري بعد غاليليو وديكارت. وكان ذلك في نهايات القرن الثامن عشر. وأنشتاين مع نيلز بور والميكانيك الكمي والموجي شكل القطيعة الإبستمولوجية الثالثة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين. وقد نظر لها غاستون باشلار في فرنسا بكل تمكن واقتدار. من يعرف من هو غاستون باشلار عندنا ما عدا حفنة من المثقفين في المغرب العربي الكبير؟ وفي كل مرة، كانت هناك انطلاقة جديدة للفكر البشري وفتوحات جديدة. هذا لا يعني بالطبع أن القطيعة كانت عدمية أو أنه لا توجد جسور واصلة بين السابق واللاحق. فالقطيعة تحصل عن طريق هضم ما سبق أن تجاوزه. وفي كل مرة تولد نظرية جديدة لتفسير الواقع والكون من رحم النظرية السابقة أو على أنقاضها. في كل مرة يتسع فهمنا للعالم ويتعمق أكثر فأكثر... وينبغي علينا نحن العرب أن نطلع على كل هذه النظريات المتلاحقة لكي نفهم أين نحن على خارطة العالم المعاصر، ولماذا تأخرنا وتقدم غيرنا. هذا غيض من فيض مما

---

١ في المناسبة، فإن عملية النقل هذه إذا ما نجحت فسوف تسهم في إنقاذ اللغة العربية ذاتها! هل نعلم بأن لغتنا أصبحت مهددة في عقر دارها من قبل اللغات الأجنبية الحديثة كالفرنسية والإنكليزية وربما الإسبانية؟ وكيف يمكن أن ندافع عنها؟ ليس عن طريق التقوقع عليها وخنقها في القوالب القديمة ومنعها من التنفس والتطور والتحلحل كما تفعل الأصولية اللغوية... وذلك لأنه توجد أصولية لغوية وليس فقط دينية، بل عن طريق تسهيلها وتبسيط قواعدها ونفض غبار الزمن عنها، ثم بالأخص عن طريق نقل آلاف المصطلحات الجديدة إليها. إن عملية الترجمة الشاملة سوف تجبرنا على تعريب كل مصطلحات العلوم الإنسانية وكذلك مصطلحات العلوم الدقيقة أو الصحيحة كما يقولون في تونس. وهكذا تغتني لغتنا بكلمات جديدة ومصطلحات جديدة، بل وتراكيب لغوية مرنة وجديدة أيضاً. ولذلك أقول بأن "اللغة العربية ما بعد الترجمة" لن تكون هي "اللغة العربية ما قبل الترجمة". سوف تولد من جديد، سوف تبعث من جديد. سوف نتوصل إذا ما نجحت عملية الترجمة إلى لغة أخرى ديناميكية، غنية، قادرة على مواجهة التحديات...

أثارته في نفسي تلك المكالمة التلفونية الرائعة التي ذكرتها في بداية الحديث والتي نزلت علي كالمطر في صحراء قاحلة... لكن كان يمكن أن أواصل الحديث إلى ما لا نهاية عن هذا الموضوع الخطير. فنحن الذين درسنا في جامعات أوروبا نعرف مدى البون الشاسع بين الفكر العربي والفكر الأوروبي. نعرف مدى تقدم هذا وتأخر ذاك. ولكي نحجم التيار الأصولي الذي يسيطر على الساحة حالياً، ما علينا إلا أن نفتح كلية فلسفة مقابل كل كلية شريعة أو معهد ديني تقليدي في العالم العربي، كما يفعل الألمان مثلاً. وعندئذ سيضطر حتى رجال الدين إلى تحديث مناهجهم وإدخال الفكر العقلاني إلى دراساتهم من أجل توليد تفسير جديد للدين غير هذا التفسير السائد منذ عصور الانحطاط والمطبوع بالتعصب والانغلاق. فالعلاقة الصراعية أو قل الجدلية الخلاقة بين الدين والفلسفة تعود بالخير العميم على الدين والفلسفة في آن واحد. وبما أن هذه العلاقة انقطعت في الساحة العربية الإسلامية نتيجة موت الفلسفة، فإنه لم يبقَ في الميدان إلا حديدان: أي رجال الدين المنغلقين على كل علم أو فلسفة. وهكذا حصدنا كل هذه الحركات المتطرفة التي تهدد الآن لبنان بعد أن دمرت العراق. والحبل على الجرار... ويخطئ من يظن أن الفلسفة سوف تبعدنا عن الدين أو سوف تقضي عليه. فالتعمق في الدين أو فهمه على حقيقته لن يبتدئ في العالم العربي إلا بعد انتشار العلم والفلسفة بشكل واسع في بلداننا. عندئذ سوف تتشكل فلسفة الدين في العالم الإسلامي وسوف يضاء من كل جوانبه كما حصل في العالم المسيحي الأوروبي والبلدان المتقدمة. وعندئذ سوف نعرف لأول مرة ما هو معنى الإسلام وجوهر الإسلام وحقيقة الإسلام... وبالتالي فالفلسفة هي التي ستنقذنا مثلما أنقذت حضارتنا سابقاً وجعلتها أعظم الحضارات في العصر الذهبي المجيد من تاريخها. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ألا وهو الجمع بين ثلاثة أطراف دفعة واحدة: الدين والعلم والفلسفة...

الفصل الثالث عشر

الثمن الباهظ للحرية

انهيار الأنظمة الشمولية في العالم العربي

ينبغي الاعتراف بأن أول فضيلة لهذه الانتفاضات العارمة هي أنها أجبرت الأنظمة البوليسية الشمولية على الانفتاح غصباً عنها. لقد أخافتها لأول مرة وجعلتها تتنازل عن غطرستها وتسلطها ولو قليلاً. لقد أجبرتها على أن تعرف معنى التفاوض والحوار لأول مرة في تاريخها حتى ولو كان الحوار مع نفسها على الأقل! هل سمعتم بأب أسرة عربي أو شيخ عشيرة يحاور العيال والأطفال؟ عيب. لا يجوز. هذا تخفيض من سمعته وهيبته. فما بالك بالرئيس أو بالقائد أو بالزعيم؟! أنا شخصياً لا أتجرأ على محاورة أي شخص في العالم العربي أو الاختلاف معه مخافة أن يشتمني أو ربما يضربني بكل بساطة! ولذلك أصبحت أتحاور مع نفسي فقط. ولكن حتى مع نفسي، فقد أنقسم إلى شخصين أو ثلاثة يقاتل أحدهم الآخر ويبتدئ الصراع والعراك إلى حد الإنهاك. (وهكذا خربت علاقتي مع كل الناس اللهم إلا مع الآنسة "عواطف" حيث يسود الانسجام الكامل الذي لا تشوبه شائبة[1].

---

[1] هذه الكلمات ليست إلا ثرثرة مجانية على هامش تلك الأبيات الرائعة لأبي فراس الحمداني:

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب...

ينبغي العلم بأن رغباتها أوامر وكلامها منزل ومعصوم. هنا لا ديمقراطية ولا حوار وطني ولا من يحزنون... فالحب إما أن يكون ديكتاتورياً طاغياً أو أنه لن يكون. الآنسة عواطف "فرعونة" حقيقية وأنا ضعيف. ماذا تريدونني أن أفعل؟ إما المقاومة والممانعة، أو الصمود والتصدي، وإما الاستسلام. وقد اخترت أهون الشرين . والغريب العجيب أني استمرأت هذا الحكم الديكتاتوري إلى درجة أني أخشى زواله، بل وأطالب بالمزيد!...). لكن لنعد إلى صلب الموضوع بعد هذا الفاصل الموسيقي القصير. ينبغي الاعتراف بأن ثقافة الحوار الديمقراطي غير موجودة في تاريخنا. هذا أقل ما يمكن أن يقال... وبالتالي فأحدث نظرية فلسفية لهابرماس عن الحوار التفاعلي التواصلي الديمقراطي الحضاري لا تنطبق علينا. وأصلاً هو بلورها من خلال تجربة الشعوب المتقدمة ولأجلها. فالعقلاء المستنيرون هم وحدهم الذين يستطيعون التحاور بهدوء بعضهم مع بعض حول طاولة مستديرة. أما الآخرون فيشتبكون بالأيادي ويفعسون بعضهم بعضاً حتى تحت قبة البرلمان! انظروا ما حصل في أوكرانيا من جملة أمثلة أخرى... وبالتالي فلا يكفي أن نردد كلمة ديمقراطية مليون مرة بسبب ومن دون سبب، بمناسبة ومن دون مناسبة، لكي نصبح ديمقراطيين! وإنما ينبغي أن نعرف كيف نمارسها: أي كيف أتحمل اختلافك معي في الرأي من دون أن أقوم عن مقعدي عندما يحتدم النقاش وأكسر الكرسي على رأسك!... ولكن أولى خطوات الديمقراطية تبدأ من هنا. إنها صيرورة طويلة ولا يمكن تعلمها دفعة واحدة. فلنبتدئ من نقطة الصفر إذن، ولنمارسها بالأيدي والأرجل، لا بأس! فبعد ذلك ومن خلال الممارسة يمكن أن نتمدن ونتحضر ونصبح جديرين بكلمة فولتير الشهيرة: "إني أكره أفكارك، ولكني مستعد لأن أموت لكي تستطيع التعبير عنها"!

عندما ذهبت إلى فرنسا لأول مرة فوجئت بمدى اختلاف العقليات. فالأستاذ كان يستشيرنا واحداً واحداً قبل أن يتخذ قراره حتى بخصوص مسائل بسيطة. كنت أقول بيني وبين نفسي: لماذا يضيع وقته في كل ذلك؟ من نحن حتى يستشيرنا؟ لماذا لا يفرض رأيه بسرعة وينتهي الأمر. والسبب هو أنه لا وجود للثقافة الديمقراطية في تربيتي أو حياتي (كلنا يعلم كيف تمارس التربية والتعليم في البيوت والمدارس عندنا). وحتى الآن لا أعرف ما هو معنى كلمة ديمقراطية. فمن كثرة ما تعودت الاستبداد والاستعباد والفعس أصبحت عاجزاً عن الفهم. بل وأصبحت أنكر طعم الحرية وأستعذب الخنوع والمازوشية. بل وحتى

بعد سفرنا إلى فرنسا بسنوات عديدة كنا ننظر إلى من حولنا في المقهى قبل أن نتجرأ على الانخراط في حديث سياسي أو حتى شبه سياسي... وهكذا لاحقتنا تلك العادة السيئة إلى خارج البلاد، ومن المحتمل أن تلاحقنا إلى المريخ! وهذا شيء يصعب على الإنسان الفرنسي أو الأوروبي أن يفهمه لأنه تجاوزه منذ زمن طويل[١]. ينبغي العلم بأن الأنظمة الستالينية لا تحاور شعوبها بل تقودها لأنها تمتلك الحقيقة المطلقة بكل بساطة. وغني عن القول بأن بعض أنظمتنا مركبة على طريقة أوروبا الشرقية إبان المرحلة الستالينية: الحزب الواحد، والجريدة الواحدة، واتحاد الشبيبة، والطلبة، والنساء، وحتى اتحاد الكتاب والأدباء... وكل ذلك مدجن ومؤطر ومرفق باللغة الخشبية الامتثالية المعروفة التي تكتفي بتمجيد القائد الملهم الذي له تماثيل وليس فقط صور في كافة أنحاء البلاد...إنها تكرر الكلام الممل نفسه على مدار الساعة كالببغاوات، بل وتلقنه للأطفال الصغار وتنتج من ذلك أفدح الأخطار... وهذا ما يقتل روح الإبداع والابتكار لدى الشعوب. وهذه الأنظمة كنستها رياح الحرية بعد سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩. وبالتالي فإن انتفاضة شعوبنا على النوعية نفسها من الأنظمة تأخرت في الواقع عشرين سنة عن بقية العالم. والسبب واضح: إسرائيل على الأبواب. وبالتالي ضرورة المقاومة والممانعة والصمود والتصدي وكل تلك المصطلحات التي فرغت من معناها حتى أصبحت مثيرة للاستهزاء والسخرية ولم تعد تقنع أحداً[٢]... والسبب هو أنها مستخدمة كقناع بغية إطالة عمر الأنظمة في الدرجة

١ في نظرية البارادیغمات الشهيرة للفيلسوف الإبيستمولوجي الأميركي توماس كهن، فإن البارادیغم السابق يظل ساري المفعول نفسياً وسوسيولوجياً حتى بعد سقوطه بزمن طويل وحلول بارادیغم جديد محله. والسبب هو أن الناس لا تستطيع تغيير عاداتها ويقينياتها بسهولة، وإنما يلزمها وقت طويل لكي تفعل ذلك وتتأقلم مع المستجدات. فمن كثرة تعودها البارادیغم السابق – أو قل الفكر السابق – تصبح متعلقة به إلى حد التبجيل والتقديس. إنه يتحول إلى حقيقة مطلقة أو نموذج معرفي أعلى لا يناقش ولا يمس. ما أصعب القطيعة وما أمر الانفصال! فمثلا البارادیغم الأرسطوطاليسي – البطليموسي ظل مهيمناً على عقلية الشعوب الأوروبية حتى بعد أن برهن كوبرنيكوس وغاليليو وسواهما على خطئه بشكل قاطع... وقل الأمر ذاته عن بارادیغم الخوف فهو يظل مسيطراً حتى بعد زوال مسبباته الفعلية (كالسفر إلى الخارج مثلا) وذلك لأنه مستبطن من الداخل ومترسخ نفسانياً. إحدى ميزات الانتفاضات العربية الراهنة هي أنها أسقطت بارادیغم الخوف. وربما يكمن هنا أعظم إنجازاتها...

٢ هذا الكلام لا يعني إطلاقاً التقليل من أهمية المقاومة الحقيقية ضد أكبر جبروت طغياني وإرهابي في هذا العصر: إسرائيل والصهيونية العالمية التي تقف خلفها. إنه لا يعني أبداً الاستهزاء بالمقاومة اللبنانية ومعجزتها التي أدهشت العالم في شهر يوليو من عام ٢٠٠٦. فلأول مرة انكشف ظهر إسرائيل أو قل عمقها الجغرافي – السكاني وأصبحت إمكانية قطع رأس الأفعوان تتراءى على الأفق كاحتمالية غير مستبعدة أو غير مستحيلة على الأقل. هل يتعظ الصهاينة المتغطرسون من ذلك ويقبلوا بإقامة دولة فلسطينية إلى جانبهم تكون أكبر =

الأولى. فلولاها، أي لولا القضية المقدسة، لما تحملت الشعوب خنق الحريات طيلة كل تلك السنوات... ثم انكشفت الخدعة للجميع أخيراً. من هنا النقمة العارمة للشعوب العربية، وبالأخص الشعب السوري. وهي نقمة كانت مكبوتة منذ زمن طويل، فانفجرت كالزلزال أو البركان وقذفت بالحمم والشظايا في وجه كل أنواع التدجيل والتسلط والفساد. لقد نهضت الشعوب العربية من أجل حريتها، وهي تدفع ثمنها عداً ونقداً، وسوف تنالها. تحية إذن للشعب السوري الذي يدفع الآن الثمن الباهظ للحرية.

أضيف إلى ذلك أن الشبيبة العربية بشهادات عليا أو من دون شهادات مدانة بالبطالة والعطالة وانسداد الآفاق واليأس القاتل. وهنا تكمن أكبر جريمة إنسانية بحق شبيبتنا لأنها تشعر بأنها مهانة في كرامتها ومصابة في أعماق أعماقها. ما معنى أن تظل طيلة النهار تدور حول نفسك بلا جدوى، وأمك وأبوك وأهلك وجيرانك يعرفون أنك لا تشتغل ولا مستقبل لك؟ ما معنى أن تفقد قيمتك وكرامتك في نظر أعز الناس عليك؟ أعترف بأن أكثر شيء يفجعني في عالمنا العربي هو هذه النقطة. والأنظمة السائدة تتحمل مسؤولية ذلك في الدرجة الأولى. نقول هذا وبخاصة أن نسبة الشباب الذين يقل عمرهم عن خمسة وعشرين سنة تبلغ ٦٠ في المئة على الأقل: أي معظم شعوبنا من الشباب على عكس شعوب أوروبا الحضارية المليئة بالشيوخ والعجائز... وبعض الحكام ليسوا فقط طغاة أثرياء هم وعائلاتهم وحاشيتهم بل هم غير أكفاء وغير قادرين على ممارسة الحكم الرشيد. ولكم أن تتخيلوا حجم الأضرار الناتجة من كل ذلك. إن تراكم هذه العوامل المتعددة وسواها هو الذي أدى إلى انفجار الشعوب العربية. وبالتالي فإذا ما عرف السبب بطل العجب.

هل يمكن أن تتعظ الأنظمة من كل ما حصل وبعد أن وصلت الأمور إلى حافة الهاوية؟ هل يمكن أن تسارع إلى الإصلاحات الملحة وتقبل بتقاسم جدي للسلطة مع المعارضة، أقصد مع القوى الحية التي تمثل الشارع والبلاد؟ لا يمكن أن ينجح الحوار الوطني من دون مصارحة، فمصالحة، تماماً كما حصل في جنوب أفريقيا على يد مانديلا، وكما حصل في المغرب من خلال "هيئة الإنصاف والمصالحة" التي دشنها محمد السادس منذ سنوات

= ضمانة لوجودهم في المنطقة أم إنهم سيركبون رأسهم بعد أن أسكرتهم عربدة القوة والقنابل الذرية التي يمتلكونها؟ هل سيواصلون سياسة احتقار العرب والاستهانة بهم أم سيحسبون حسابات المستقبل وخط الرجعة؟ مصير المنطقة والانتفاضات العربية يتوقف في جزء منه على رد الصهيونية العالمية – وبالتالي الغرب كله – على مثل هذه الأسئلة...

عديدة. لن تهدأ النفوس قبل أن يعاد للمظلومين – وما أكثرهم! – اعتبارهم. لن تهدأ أبداً قبل أن يعاقب المسؤولون عن هذه التجاوزات الإجرامية بحق الأبرياء. لقد طفح الكيل! إذا لم يحصل ذلك فسوف يسهل على الخارج المتربص تنفيذ مخططه في زرع الفتنة والتقسيم والتفتيت. البلاد على مفترق طرق: فإما الخلاص والإنقاذ في آخر لحظة، وإما الجحيم والهاوية! كل ما أخشاه هو أن يكون الجرح قد اتسع وتفاقم إلى درجة أن لأمه أصبح مستحيلاً أو فوق طاقة الجميع. اللهم اجعلني من المخطئين!

هل حقاً تقاعس المثقفون العرب؟

لقد قيل الكثير عن تقاعس المثقفين العرب أو عدم مشاركتهم في هذه الانتفاضات أو عدم إرهاصهم بها. بالمقارنة: يقال إن جان جاك روسو تنبأ بالثورة الفرنسية قبل حصولها بربع قرن على الأقل، بل وتنبأ بها بعبارات دقيقة أذهلت المعاصرين. ولكن ليس كل الناس جان جاك روسو! كيف رآها؟ كيف استبق الحدث قبل حصوله؟ كيف رأى ما لا يرى؟ إنه بكل بساطة يمتلك "راداراً داخلياً" على عكسنا نحن الناس العاديين أو السطحيين. وهذا الرادار الذي لا يمتلكه إلا الأنبياء والمفكرون الكبار قادر على كشف المحجوب وسبر التفاعلات العميقة التي تعتمل تحت السطح في قلب المجتمع والأشياء. ولكن من الظلم إدانة المثقفين العرب ككل. فبعض المثقفين مهدوا الأرضية للحدث الزلزالي بكتاباتهم التي تدين التخلف والاستبداد والظلام. وهي أفكار منتشرة أكثر مما نتصور في أوساط الشبيبة المنتفضة من أجل الحرية والحقيقة والعدالة الاجتماعية. أقول ذلك وأنا أفكر في كتابات المناضل التنويري الكبير محمد الشرفي، وذلك من جملة أمثلة أخرى هنا أو هناك في شتى أقطار العرب... هذا من جهة. وأما من جهة أخرى، فلا ينبغي أن ننسى عدد المثقفين والصحافيين الذين سجنوا أو عذبوا أو قتلوا في العديد من الدول العربية والإسلامية. لقد دفعوا ثمن أفكارهم ومواقفهم غالياً. وهذا أكبر دليل على مدى خطورة الفكر، وأيضاً على مدى شراسة الدولة البوليسية الأخطبوطية وضرورة التخلص منها بأي شكل.

وبالتالي فالقول بأن المثقفين لم يؤدوا أي دور في هذه الانتفاضات خاطئ وظالم. المثقفون، بالمعنى القوي للكلمة، هم منارات الشعوب وضميرها الحي. ولكن يبقى

صحيحاً القول بأن هناك مثقفين ارتبطوا بالأنظمة البوليسية وتواطأوا معها واستفادوا منها، بل واغتنوا إلى درجة أنهم يمتلكون البيوت والشقق حتى في أرقى العواصم الغربية. بل وألّبوا الأنظمة على المثقفين الآخرين ولاحقوهم بإصرار مدهش. هذا لا يعني بالطبع أن كل مثقفي المعارضة هم ملائكة من الناحية الديمقراطية! فالواقع أن معظمهم لا يختلفون في شيء عن مثقفي الأنظمة. يكفي أن تتناقش مع بعضهم خمس دقائق فقط لكي تدرك ذلك. وهذا يعني أن الاستبداد "بنية عقلية راسخة" تخترق الجميع، بل وتخترق القرون... فعلاً الاختلاف في الرأي شيء يصعب تحمله، ولا يمكن تعلمه بين عشية وضحاها. وهنا تكمن المشكلة أو الطامة الكبرى... هنا تكمن معضلة الديمقراطية العربية: ديمقراطية بلا ديمقراطيين[١]!...

وبالتالي فهذه الانتفاضات المشتعلة ليست نهاية كل شيء على ما أتصور بل بدايته. إنها الخطوة الأولى في مسارنا نحو الانعتاق والحرية. وهو انعتاق لاهوتي أيضاً وليس فقط سياسي. إنها تمهد للانتفاضة التنويرية الكبرى التي ستحصل لاحقاً في أرض العرب والإسلام. أو قل هذا ما نأمله ونرجوه. عندئذ يمكن القول بأن العرب قطعوا مع رواسب الماضي المتراكمة، وانتقلوا فعلاً إلى العصر الجديد الآخر[٢]. عندئذ يمكن أن نكرر ما قاله

---

١ استعرت هذا المصطلح الجميل من عنوان ذلك الكتاب الجماعي الذي أصدره كل من عزيز العظمة وغسان سلامة تحت عنوان: **ديمقراطيات بلا ديمقراطيين. سياسات الانفتاح داخل العالم العربي والإسلامي**. منشورات فايار. باريس ١٩٩٤.

Aziz al-Azmeh, Ghassan Salame: *Démocraties sans démocrates*. Fayard. Paris 1994.

٢ هذه النقطة تستحق دراسة طويلة لشرح العلاقة بين الثورة الفكرية التنويرية من جهة، والثورة السياسية من جهة أخرى.

في ما يخص الثورة الفرنسية مثلاً هناك مراجع لا تحصى ولا تعد حول الموضوع... أذكر من بينها مرجعاً رائعاً أصبح كلاسيكياً الآن هو: **الأصول الفكرية للثورة الفرنسية**، للباحث دانييل مورنيه. باريس ١٩٣٣.

Daniel Mornet: *Les origines intellectuelles de la Révolution Francaise*. 1751-1789. Armand Colin. Paris 1933.

هذا الكتاب يدرس العلاقة بين الأفكار الجديدة التي بلورها فلاسفة التنوير الكبار من أمثال فولتير ومونتسكيو وروسو وديدرو والموسوعيين من جهة، وبين اندلاع الثورة الفرنسية من جهة أخرى. فهذه الأفكار الجديدة هي التي فككت مشروعية النظام الملكي القديم في فرنسا وجعلت الناس يتجرأون على إطاحته. وكانت مشروعية إلهية مطلقة وراسخة في الوعي الجماعي الفرنسي على مدار القرون. من هنا الطابع الراديكالي للثورة الفرنسية. وبالتالي فلولا الثورة الفكرية لما كانت الثورة السياسية. هل يمكن القول بأن الثورة السياسية تحصل عندنا الآن من دون ثورة فكرية؟ نعم ولا. نعم، ضمن مقياس أن انتشار الأفكار التنويرية ليس كافياً ولا عميقاً متجذراً في الأرض حتى الآن. والدليل على ذلك المكانة الكبرى التي تحتلها الحركات الإخوانية في المشهد الجديد. لا، ضمن مقياس أن الأفكار التنويرية التي زرعها محمد الشرفي =

هيغل عن الثورة الفرنسية: كانت تلك إشراقة الشمس الرائعة.

= وسواه منتشرة إلى حد ما كما ذكرت في أوساط الشبيبة التونسية خصوصاً والعربية عموماً. من هنا الطابع الوسطي - الغامض لانتفاضاتنا الحالية. أرجو ألا يفهمن أحد من هذا الكلام أني ضد الانتفاضات! فقط أريد أن أقول بأنها ليست إلا خطوة أولى على طريق التحرير الطويل...

ينبغي أن نضيف إلى الكتاب السابق كتاباً آخر صدر أخيراً وناقش طويلاً أطروحات مورنيه وجددها وقدم أطروحات مدهشة. فقد درس الطفرة الكبرى التي طرأت على العقلية والحساسية الفرنسية إبان عصر الأنوار. وهذه الطفرة هي التي جعلت ممكناً ذلك التدمير السريع والعميق للنظام السياسي والاجتماعي القديم. فما كان أحد يتوقع أن ينهار نظام راسخ كالنظام الملكي الفرنسي ذي المشروعية التاريخية والإلهية بمثل هذه السرعة. من هنا الطابع المدهش والباردغمائي الأعظم للثورة الفرنسية. ولكن الأطروحة الجديدة للمؤلف تتمثل في العبارة الآتية: إذا كانت الأنوار قد صنعت الثورة كما يقول مورنيه وتين وتوكفيل من قبله، فإن الثورة صنعت الأنوار أيضاً! على أي حال فإن المؤلف يدرس في هذا الكتاب القيم كيفية انبثاق رأي عام لأول مرة في فرنسا، وكذلك انبثاق ثقافة سياسية جديدة، ثم حصول ظاهرة مهمة جداً هي: انحسار الأصولية المسيحية عن سطح المجتمع الفرنسي ونزع القداسة عن شخص الملك لويس الرابع عشر أو السادس عشر وذريته... عنوان الكتاب يشبه تماماً عنوان كتاب مورنيه ما عدا في كلمة واحدة:
Roger Chartier: *Les origines culturelles de la Révolution Francaise*. Seuil 2000.

للمزيد من التوسع حول هذه المسألة انظر سابقاً الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب بعنوان: هل التنوير هو الذي صنع الثورة الفرنسية؟

الفصل الرابع عشر

لا ثورة سياسية بدون ثورة تنويرية

هل هي انتفاضات تنويرية أم أصولية؟

اطلعت أخيراً على مقالات عديدة لأحمد عبد المعطي حجازي وعبد الرحمن الراشد وصبري حافظ ومشاري الذايدي وجابر عصفور وسامي البحيري وكمال غابريال وأحلام أكرم ودلع المفتي وسواهم عديدين، وكلها تحذر من التفاف الأصوليين على الانتفاضات الربيعية العربية المباركة الجارية حالياً. هذا إضافة إلى مقالات أخرى عديدة أعتذر عن ذكر جميع أصحابها الأجلاء من مثقفي هذه الأمة العربية الكبيرة. ولفتت انتباهي مقالة لسعد الدين إبراهيم بعنوان: هل سيقفز الإخوان على الثورة؟ وتوقفت عند مقالة أهم للسيد يسين بعنوان: هجوم سلفي على الدولة المدنية[1]. وبالتالي فسوف أعطي لهذا التيار المتخوف من سطو الإخوان المسلمين والسلفيين على الانتفاضات العربية الراهنة كل المكانة التي يستحقها من دون أن أتخلى عن تأييدي لهذه الانتفاضات الربيعية التي جعلت العالم كله يعجب بنا وبتوقنا إلى الانعتاق والحرية. وهي أشياء كانوا يعتقدون بأنه لا علاقة للعرب أو

[1] كل هذه المقالات موجودة على صفحات الإنترنت ويمكن أن يلجأ إليها من يشاء. أود الإشادة بشكل خاص بمقالات أحمد عبد المعطي حجازي المتتالية على صفحات الأهرام. إنها أكثر من رائعة ويمكن اعتبارها بمثابة المانيفست الأول على التنوير العربي المعاصر. ولا أعرف إلى متى سيستطيع الاستمرار بمثل هذا الزخم بعد أن خيم العصر الإخواني السلفي على مصر. كان الله في عونه...

المسلمين بها. كانوا يتحدثون عن "الاستثناء الإسلامي" أو بالأحرى الاستعصاء الإسلامي على الحضارة والحداثة والديمقراطية. فهذه الانتفاضات العارمة الصادرة من الأعماق تعبر في الواقع عن مشاعر نبيلة ومشروعة حتى ولو رافقتها بعض التجاوزات الطائفية غير النبيلة بل والمقلقة هنا أو هناك. يقول التيار المتخوف من الوضع الراهن سواء داخل العالم العربي أو خارجه ما معناه:

ينبغي الاعتراف بأن الانتفاضات الشبابية الرائعة التي اندلعت أخيراً مهددة من قبل الحركات الأصولية الارتكاسية[١]. هذه حقيقة لا نستطيع تحاشيها لا في سوريا ولا في مصر ولا في تونس ولا في أي مكان آخر. وبالتالي فنحن بين نارين: نار الأصولية ونار الديكتاتورية. فقلت هما أمران أحلاهما مرّ!... إنها تترقبها وتتحين الفرصة للانقضاض عليها وحرفها عن مسارها الصحيح والنبيل. وهكذا تنعكس الآية وتتحول الحركة الشبابية العفوية من ثورة وطنية تحريرية ضد الاستبداد والفساد إلى ثورة رجعية طائفية بالمعنى الحرفي للكلمة. وهكذا نكون قد عدنا إلى الوراء بدلاً من أن نتقدم إلى الأمام... هذا ما لاحظناه في مصر حتى بعد انتصار الثورة. فقد أوشكت الفتنة أن تقع بين المسلمين والأقباط بعد انتهاء العرس الثوري والتناغم الوطني الرائع الذي حصل، ولو للحظة، بين الطرفين في ميدان التحرير. وقد لفتت انتباهي مقالة مهمة لجمال الغيطاني يتخوف فيها من تهديد السلفيين لمعالم مصر وآثارها الحضارية، بما فيها مسجد الحسين نفسه! ولكن مشاري الذايدي يقول لنا إنه لا فرق يذكر بين السلفيين والإخوان المسلمين (انظر الشرق الأوسط. الهجوم على السلفيين حصرياً ٢٠١١/٤/٢٦). فكما نعلم، الجميع دعوا إلى تنظيم تظاهرة مليونية يدعونها بمليونية الصمود وذلك في مدينة قنا المصرية احتجاجاً على تعيين شخص مسيحي هو عماد شحاتة ميخائيل محافظاً لها. فالتيارات

١ أشير هنا إلى المقالة المهمة التي نشرها محمد سلماوي على صفحات الأهرام بتاريخ ٢٠١١/٧/٦ تحت عنوان: إنه اختطاف للثورة. وفيها يقول محذراً: "لكن أحداً لم يلتفت حتى الآن لمحاولة أخرى تجري الآن على قدم وساق لاختطاف الثورة من أجل تحويل الدولة المدنية التي طالبت بها ورفعت شعاراتها في ميدان التحرير إلى دولة دينية يسيطر عليها أتباع الإسلام السياسي بمختلف فصائلهم من الإخوان إلى السلفيين". استشهد بالمقالة أيضاً مشاري الذايدي في مقالة نشرتها الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠١١/٧/٨ تحت عنوان موفق شديد الإيحاء والدلالة: لا تفسد "العرس" العربي. ولكن المقالات التي نشرها الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي تباعاً على صفحات الأهرام كانت موفقة جداً ومضيئة حقاً كما ذكرت آنفاً. لقد تصدى للتيار الأصولي بجرأة مدهشة واقتدار فكري قل مثيله. يمكن القارئ أن يجدها على صفحات الإنترنت إذا شاء...

الإسلامية من إخوان وسواهم رفضوا تعيينه وطالبوا بتعيين محافظ مسلم بدلاً منه... وراحوا يرفعون شعارات من نوع: لا ولاية لكافر على مؤمن، أو: لا ولاية لذمي على مسلم، أو: مش عايزين قبطي. لا إله إلا الله ميخائيل عدو الله إلخ... ثم كانت الأحداث الطائفية الأخيرة التي ذهب ضحيتها عشرات القتلى والجرحى في حي امبابة الشهير[١]... ثم كانت التصريحات المخجلة للشيخ السلفي وجدي غنيم ضد بابا الأقباط بعد وفاته: هلاك شنودة رأس الكفر! هل بمثل هذا الكلام غير اللائق يمكن تشكيل الوحدة الوطنية؟ هل هذه أخلاق إسلامية حقيقية؟ اللهم لا شماتة في الموت... ثم حصلت أخيراً محاولة استفرادهم بكتابة الدستور وتشكيل دولة دينية بعد أن تراجعوا عن وعدهم بدولة مدنية. فهل هذه ثورة تنويرية؟ هل من أجل ذلك قامت ثورة ٢٥ يناير وتم إسقاط الديكتاتور حسني مبارك؟ أكاد أعتذر، وبشدة، عن المقالة المتسرعة التي نشرتها في الشرق الأوسط تحت عنوان: "ثورة تنويرية لا أصولية" حيث توهمت أن الثورة المصرية غير الثورة الإيرانية بل وقارنتها بالثورة الفرنسية! وهو خطأ جسيم لا أعرف كيف أعتذر عنه. ربما كانت هكذا في البداية ولكنها صودرت لاحقاً بعد أن دخل الشيخ القرضاوي على الخط وكذلك أحمد منصور والجزيرة وكل التيار الشعبوي الأصولي المضاد للحداثة والفلسفة الإنسانية التنويرية. ومعلوم أنهم منعوا أحد شباب الثورة من التكلم (وائل غنيم) لكي يخلو الجو كلياً للقرضاوي والتيار الإخواني الذي سطا بالفعل على الثورة. وعودة القرضاوي إلى مصر لمباركة الثورة وقطف ثمرتها لا تختلف كثيراً عن عودة الخميني

---

١ ثم بعد كل ذلك يقول لك المزاودون والغوغائيون بكل ديماغوجية إن شعبنا غير طائفي! كل مثقف يتحدث بصراحة عن الأمراض أو الرواسب التي يعاني منها الشعب يعتبر ضد الشعب! ينبغي أن تكذب وتجامل وتتحدث اللغة الخشبية العمومية التي تقول كل شيء واللاشيء لكي تنجو بجلدك! ينبغي أن تضحي بالحقيقة من أجل المزاودات والمراوغات السياسية حتى ولو كنت تعتقد تماماً عكس ما تقول. وهكذا لا نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام في تشخيص المشكلة التي تنخر في جسد المجتمع، هذا فضلاً عن حلها وعلاجها. متى سيظهر المثقف الذي يضحي بمصلحته الشخصية من أجل قول ما يعتقد به حقاً حتى ولو كان خطأ؟ لا ريب في أن هذا المثقف موجود ولكنه لا يزال يشكل أقلية بالقياس إلى التيار العام. هذا لا يعني بالطبع أن شعبنا سيّئ أو شرير بطبيعته! من يستطيع أن يقول ذلك؟ إنه من أفضل الشعوب وأشرفها على الإطلاق. إنه يتعذب ويعاني بل ويحترق الآن... ولكن رواسب التاريخ وتراكمات الماضي لا تزال أقوى منه. ليس عيباً إذن أن يكون شعبنا الطيب المعطاء في بعض شرائحه وبكافة فئاته طائفياً في الحالة الراهنة للأمور. العيب هو أن يبقى كذلك في عصر الحداثة والتقدم والرقي. العيب هو ألا نساعده على الخروج من هذا المغطس عن طريق التعليم والتثقيف كما فعل فلاسفة التنوير الأوروبي مع شعوبهم. وبالتالي فالاعتراف بالمرض لا يعني شتم الشعب! ولكنه يشكل الخطوة الأولى لتحريره منه.

الشهيرة إلى إيران. وكلنا يعرف النتيجة... الفرق الوحيد بينهما هو أن الأول سنّي والثاني شيعي. ولكن كلاهما أصولي، قروسطي، ماضوي يجهل كلياً فلسفة الدين والمنظور الحديث لتاريخ الأديان المقارنة. أقول هذا على الرغم من بعض الجهود التجديدية التي يبذلها الشيخ القرضاوي أحياناً، ولكنها غير كافية على الإطلاق. وبالتالي، فلا يكفي أن تندلع مظاهرات مليونية لكي نعتقد أن الثورة قد حصلت وأن الربيع قد أطل وأن كل شيء قد تحقق. ينبغي أن نعرف ما هو مضمون هذه الثورة وهل أدت إلى حصول قطيعة مع رواسب الماضي كما فعلت الثورة الفرنسية، أم على العكس، زادت من العودة الارتجاعية أو الرجعية إلى عقلية الماضي وفتاواه المذهبية والطائفية؟

عندما تحصل مظاهرة مليونية للدفاع عن الأقباط وحقوقهم المدنية ومساواتهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات فسوف أهلل وأصفق وأقول إنه حصلت ثورة تنويرية في مصر. عندما تنهض مظاهرة مليونية للدفاع عن حق المرأة في لبس الحجاب أو خلعه فسوف أقول إن حدثاً مهماً قد حصل. عندما تحصل مظاهرة مليونية ضد السلفيين والإخوان المسلمين وما يمثلونه من قيم قروسطية ارتكاسية تحول دون تشكيل الدولة المدنية والمواطنة الحقيقية فسوف أتفاءل بالمستقبل، وأما قبل ذلك فلا. عندئذ يمكن أن أقارن الثورة المصرية بالثورة الفرنسية التي دشنت العصور الحديثة وفصلت مفهوم المواطنية عن الانتماء الطائفي والمذهبي القديم الراسخ الجذور في العقلية الجماعية. لا يكفي أن تولد في أحضان الأغلبية العددية لكي تكون مواطناً صالحاً لا تشوبه شائبة. ولا يجوز إذا ما ولدت صدفة في مناطق الأقليات أن تحمل وصمة العار على جبينك إلى أبد الآبدين. فلا أحد يختار مكان ولادته أو أبويه! كل مجتمع لا يزال يحاسب الناس على أساس هذه المعايير القديمة الخارجة عن إرادتهم لا يمكن أن يستمر في عصر العولمة والحداثة. إنه مرشح للتغير والتطور والتأقلم مع عصر التقدم والحداثة الكونية والرقي الإنساني – الحضاري. وإلا فلن تكون له مكانة على مسرح التاريخ. حتى السود في أميركا نالوا حقوقهم المدنية وأصبحوا مواطنين من الدرجة الأولى، بل وأصبح منهم رئيس جمهورية! فلماذا يكون الأقباط أقل قيمة من السود الكرام، وهم سكان البلاد الأصليين؟ ليفهم موقفي جيداً هنا: إني أعرف أن ذلك لا يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها. ولا أطالب بكل شيء دفعة واحدة على عكس ما قد يوحي كلامي. ولكن لا أقبل بالمساومة على المبادئ الأساسية، خصوصاً من قبل المثقفين الذين يفترض

أنهم مستنيرون... إذا كنا لا نستطيع تنفيذها فوراً أو إذا كانت مجتمعاتنا عاجزة عن تحقيقها في المدى المنظور، فهذا لا يعني أننا سنساوم عليها. والله لو اجتمعت عليّ العرب والعجم فلن أتزحزح قيد شعرة عن هذا الموقف[١].

الشيء نفسه يهدد سوريا وكل البلدان العربية ذات التنوع الديني والمذهبي[٢]. بل حتى تلك التي لا تشكو من هذا التنوع في تركيبتها السكانية كتونس مثلاً منقسمة أيضاً إلى تيار أصولي متشدد وتيار علماني مستنير وما بينهما. ويومياً تقريباً نسمع عن حصول حوادث بين الطرفين وبخاصة بعد انتصار حركة الغنوشي أخيراً. وبالتالي فمشكلة التنوير الديني والفلسفي مطروحة علينا في كل الأحوال. لكن ينبغي أن نترك مخرجاً لهذا الانسداد التاريخي الذي يتهددنا ويكاد يطبق علينا أو على خوانيقنا والمتمثل في المعادلة المستحيلة الآتية: إما الوضع الساكن الراكد الآسن، وإما الإخوان! ينبغي أن نشير إلى إمكانية ظهور تيار ثالث وسطي عندنا على طريقة أردوغان وحزب العدالة والتنمية التركي الذي نجح في الجمع بين الإسلام والديمقراطية بشكل براغماتي مدهش. إنه خط الأحزاب الديمقراطية

١ ولكن ينبغي على أبناء الأقليات – وأنا منهم – ألا يستهينوا بالمشروعية التاريخية للأغلبية أكثر من اللزوم. ولا ينبغي أن يتحدوها أكثر من اللزوم أيضاً كما يحصل في سوريا حالياً. فلذلك عواقب وخيمة... فهي، أي الأغلبية، لا تستطيع أن تتغير أو تتطور إلا بعد أن تنضج الظروف لذلك. وبالتالي فلن تحصل المساواة بين الطرفين إلا على مراحل. انظر إلى تجربة البروتستانتيين في فرنسا. حتى بعد مئة سنة على اندلاع الثورة الكبرى ظلت حقوقهم منقوصة إلى حد ما. ولم يتساووا بالكامل مع أبناء الأغلبية الكاثوليكية إلا بعد صدور قانون ١٩٠٥ الذي فصل الكنيسة عن الدولة ودشن العصر العلماني الكامل... وبالتالي، فالعملية ليست سهلة على الإطلاق. هذا أقل ما يمكن أن يقال...

٢ لكي لا يخطئ القارئ في فهم مقصد هذه الدراسة، سوف أقول ما يأتي: منذ أكثر من ربع قرن وأنا أنتظر هذه اللحظة، أتوقعها وأخشاها في الوقت ذاته. منذ ربع قرن وأنا أعرف أنها آتية لا محالة. منذ ربع قرن وقلبي على سوريا. بل ومنذ ربع قرن وحرب أهلية طاحنة تدور حولي في قلب باريس على بعد آلاف الكيلومترات من سوريا. بل ومنذ ربع قرن وليس لي أي حياة شخصية بالمعنى الحرفي للكلمة بسبب سوريا. وأستغرب كيف أني لا أزال واقفاً على قدمي حتى هذه اللحظة!... وأنتهز هذه المناسبة لكي أدين الجناح المتطرف في كلتا الجهتين العلوية والسنية لأني أعتبره المسؤول عن تفاقم المشكلة. وسوف يكون دمار سوريا على يديه. ولكن المسؤولية الأولى تقع على كاهل النظام الحاكم بطبيعة الحال. فهل يعتقد أنه سيحكم سوريا إلى أبد الآبدين؟ معظم البلدان العربية سائرة نحو الدمقرطة والتناوب على الحكم. وسوف يشمل هذا الأمر سوريا عاجلاً أو آجلاً. ولكن أحياناً أتساءل: ألم تفلت الأمور من أيدي الجميع؟ أليست التركة الطائفية الثقيلة الموروثة عن الماضي السحيق أكبر من الجميع؟ ألن تجرفهم جميعاً في سيلها العرم؟ أليسوا ذاهبين إلى الحفرة العميقة غصباً عن أبيهم شاؤوا أم أبوا؟ هذا ليس عذراً، بل مجرد محاولة تفسير... أياً يكن من أمر فقد ركبت كل جهة متطرفة رأسها على ما يبدو، ولن تتراجعا قبل أن ينهار السقف على رأس الجميع. وسوف يدفع الطيبون البريئون، أي أغلبية الشعب، الثمن. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً. سوريا جريحة وأنا جريح. ولا أعرف في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور ما إذا كنت سأتمكن من تجاوز جراحاتي أو لا...

الإسلامية على غرار الحزب الديمقراطي المسيحي في ألمانيا أو إيطاليا... فحركة الغنوشي في تونس تزعم أنها تمشي في هذا الاتجاه، وأنها طلقت العنف اللاهوتي ثلاثاً... وأخيراً استقبلوه في قلب باريس والكي دورسيه فشعر بالفرح والامتنان. ولكن المشكلة هي أن الأستاذ محمد الطالبي يشكك في نياته ويخشى من الخدعة التكتيكية! فهو يعتقد بأن الغنوشي سلفي، والسلفي لا يمكن أن يكون ديمقراطياً. نرجو أن يكون أستاذنا الكبير مخطئاً. أياً يكن من أمر، فحتى هذا الخط الوسطي البراغماتي يمثل مرحلة انتقالية في رأيي لانهائية. فتركيا لم تقل كلمتها الأخيرة بعد. وسوف تدهشنا في المستقبل أكثر فأكثر. ذلك أن المصالحة الحقيقية بين الإسلام والحداثة لم تحصل فعلياً بعد، وإن كانت التجربة التركية تشكل خطوة مهمة على الطريق. إنها مجرد خطوة وليست كل الخطوات. والسيد أردوغان ينبغي ألا يغتر بنفسه أكثر مما يجب. فهو ليس نهاية التاريخ[١] على عكس ما يظن!

هل يمكن وضع المجتمع في الثلاجة إلى أبد الآبدين؟ مشكلة الأنظمة الشمولية – البوليسية – العسكرية

ولكن هذا القلق المشروع نسبياً لا ينبغي أن يصادر حق الناس في المطالبة بالإصلاح والتغيير والتنفس والتعبير... لقد احترنا! ماذا تريدون؟ فالجدلية الاجتماعية – التاريخية

١ نهاية التاريخ هي النظام العلماني الديمقراطي الحديث. ولكن أردوغان يمثل في اللحظة الراهنة للوعي الإسلامي أقصى ما يمكن إعطاؤه أو تحققه كما ذكرت سابقاً. هكذا يلاحظ القارئ أني أحاول أن أكون مرناً إلى أقصى الحدود. ينبغي بالفعل أن نفرق بين الوعي الممكن حالياً، والوعي المستحيل حالياً، مع العلم بأن ما هو مستحيل اليوم قد يصبح ممكناً غداً. فالتنوير الحقيقي لم تحن لحظته بعد، وقد لا تحين إلا بعد رحيلنا عن هذا العالم. ولكن لا يهم! المهم أن ننخرط في هذا الطريق وأن نفعل كل ما نستطيع. فالشعب لا يزال أمياً جاهلاً فقيراً في شرائح واسعة منه، وبالتالي فهو يقع فريسة للأصوليين ورجال الدين. والخط الإخواني على طريقة أردوغان البراغماتية التطورية يتعانق مع اللحظة التاريخية الراهنة للشعوب الإسلامية. فهي لا تستطيع أن تقبل بأكثر منه على ما يبدو. ولذلك يقول بعضهم إن اللحظة هي لحظة الإخوان المسلمين المعتدلين. نقول ذلك على الرغم من أن أردوغان أكثر تطوراً واستنارة من الإخوان السوريين والعرب وإن كان الغنوشي يزعم أنه يلحق به أو ينتهج نهجه. على أي حال، فإن الوعي الشعبي يتجسد في خطهم ولا يستطيع أن يقبل بالفصل الكامل بين اللاهوت والسياسة كما تفعل شعوب أوروبا المتقدمة والمستنيرة كلياً. ولكن بعد أن تنجح حركة التنوير التركي والسوري إلخ، فإن الشعب يمكن أن يتقبل لحظة أكثر تقدماً وتطوراً من لحظة أردوغان. وفي نهاية المطاف، أي بعد ثلاثين أو أربعين سنة، سوف يصبح الشعب قادراً على تقبل النظام العلماني الحديث بالكامل: أي نظام المواطنية الحديثة الذي ينظر إليك كإنسان له كرامة بغض النظر عن أصلك وفصلك أو دينك وعرقك ومذهبك.

لن تعود إلى حالتها الطبيعية إلا بعد زوال الأنظمة البوليسية - العسكرية وخط الحزب الواحد والجريدة الواحدة والملاحقات المخابراتية المرعبة والانتخابات المزورة والخطاب السياسي الفارغ والفاقد لكل مصداقية[١]... هل تعلمون بأنه أصبح الآن في مصر وتونس عشرات الأحزاب السياسية ومئات الصحف المعبرة عن كافة الاتجاهات. قد تقولون: هذه فوضى! ولكنها فوضى خلاقة ترافق دائماً عمليات الانتقال والتغيير. حقاً لقد ابتدأ المجتمع يتنفس ويتحلحل... أليس هذا مكسباً؟ وهذه الجدلية الديناميكية سوف تؤدي إلى تقدم المجتمع عن طريق الصراع الفكري - السياسي الحر بين مختلف التيارات الموجودة في الساحة، وبخاصة بين التيار الديني والتيار العلماني. ليندلع هذا الصراع الفكري إذن على مصراعيه، ومن يربح المعركة في نهاية المطاف حلال عليه! إذا ما ربحها الأصوليون السلفيون والإخوان المسلمون فسأكون أول من ينحني أمامهم. وأما إذا ما ربحناها نحن فسوف لن نلغيهم، بل سنخصص لهم حيزاً يناسب حجمهم على هامش المشهد السياسي كما تفعل كل الأمم المتطورة بالنسبة إلى حركات اليمين المتطرف الرافض للحداثة. ربما ربحوها للوهلة الأولى كما هو حصل في مصر أو تونس، ولكنهم سيخسرونها حتماً على المدى المتوسط أو الطويل عندما يتبلور تأويل مستنير للإسلام في مواجهة التأويل السلفي القديم الذي تبثه المدارس والجامعات ووسائل الإعلام والفضائيات، وحتى الكتب التراثية التي تفترش الأرصفة وتملأ المكتبات... هذا الصراع الجدلي الخلاق بين مختلف تيارات الأمة كان ممنوعاً أو مسدوداً بأمر فوقي ساذج يعتقد بأن حل المشاكل يتم عن طريق كبتها أو طمسها أو حتى القفز عليها وعدم الاعتراف بوجودها! إنه كالنعامة التي تدفن رأسها

١ لذلك أصبح واضحاً أن حل المشكلة السورية يعتمد على إجراء إصلاحات راديكالية سوف تؤدي في نهاية المطاف إلى تغيير النظام بصيغته الحالية. ينبغي أن يتاح تشكيل عدة أحزاب تعبر عن مختلف شرائح المجتمع بشرط واحد: عدم السماح بتشكيل أي حزب يتبنى الأطروحات الطائفية أو العنصرية التمييزية علناً أو ضمناً. ينبغي السماح بإصدار عدة جرائد لا جريدة واحدة لكي تعبر عن مختلف حساسيات المجتمع من يمينية ويسارية ووسط ومتدينة أو غير متدينة إلخ... ثم بشكل أخص ينبغي أن تحصل انتخابات حرة وأن تسهم القوى السياسية الحية في اتخاذ القرار السياسي وحكم البلاد. وهذه القوى السياسية تفرزها الانتخابات الحرة. ما عاد بإمكان أي شخص كائناً من كان أن يتحمل هذه المسؤولية الكبرى بمفرده. نقول ذلك وبخاصة أن هناك قرارات ضخمة وخطيرة تنتظر أن تتخذ عاجلاً أو آجلاً. أقول ذلك وأنا أفكر هنا في قرار الحرب أو السلم مع إسرائيل مثلاً. لا يستطيع أي شخص بمفرده أن يتخذ هذا القرار. ينبغي أن يحصل حوله إجماع من قبل القوى السياسية الأساسية للبلاد. إذا ما حصلت مشاركة حقيقية في تحمل المسؤولية واتخاذ القرار فإن التوازن النفسي سيعود إلى سوريا وسيتمتع الحكم الجديد الناتج من صناديق الاقتراع الحر بمشروعية حقيقية.

في الرمال لكي لا ترى الخطر الماحق الذي يحيط بها من كل الجهات. إن كبت المشكلة بحجة عدم إضعاف عزيمة الأمة هو الذي يؤدي إلى انفجارها، وليس التحدث عنها بحرية ومناقشتها من مختلف جوانبها بغية نزع اللغم التفجيري فيها أو التخفيف منه على الأقل... هذا قانون اجتماعي وأكاد أقول فيزيائي تعرفه كل الأمم المتقدمة. انظروا كيف فعلوا مع المشكلة العنصرية في فرنسا عندما صعد لوبن في الثمانينات بقوة مخيفة. لقد طرحوها على كافة الأصعدة والمستويات، وناقشوها بكل جرأة من كافة جوانبها في الراديو والتلفزيون والجرائد حتى خفت حدتها وعادت إلى حجمها الطبيعي. لم يكذبوا على أنفسهم ويقولوا بكل امتثالية ونفاق وكذب على الذات: يا أخي شعبنا غير عنصري! على العكس، راحوا يعترفون بوجود مشكلة عنصرية في فرنسا. صحيح أنها لا تصيب أكثر من شريحة ضيقة لا تتجاوز عشرين في المئة من الشعب، ولكنها موجودة وتهدد السلام الاجتماعي والقيم الجمهورية المتولدة عن فلسفة التنوير والثورة الفرنسية. بل وراح المثقفون الفرنسيون يحفرون أركيولوجياً على أساسات المشكلة العنصرية التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الفرنسي والغربي.

وبالتالي، فإن كبت المشكلة الطائفية لن يؤدي إلى حلها. على العكس سوف يؤدي إلى تفاقمها واستفحالها وتضخمها وتحولها إلى شر مستطير تصعب السيطرة عليه لاحقاً[1].

---

١ أصل المشكلة السورية لا أحد يتحدث عنه ولن تجدوا أي مقالة في الصحافة تذكره. والسبب هو أن المقالات الصحافية، بما فيها الجادة منها، تظل سطحية ومحكومة بالحدث الآني والمدة القصيرة للتاريخ كما يقول بروديل. هذا إضافة إلى أسباب أخرى لا أستطيع ذكرها هنا. أصل المشكلة أيها السادة هو الآتي: العلويون كطائفة كانوا يشعرون بالاضطهاد والنظرة الاحتقارية على مدار التاريخ من قبل إخوانهم السنّة الذين يشكلون الأغلبية. كانوا مهمشين وموضوعين خارج قوس أو خارج التاريخ ككمّ مهمل لا قيمة له. كانوا مرميين في جبالهم الوعرة وقراهم ومنسيين. وإذا ما نزلوا إلى المدينة فإنهم كانوا يقابلون بالاستهزاء والعداء... الكلام نفسه ينطبق على الدروز والإسماعيليين وشيعة لبنان والعراق إلخ. كما وينطبق على المسيحيين العرب ولكن بدرجة أقل. وهنا تكمن المفارقة. ولكن العجب يزول إذا ما علمنا أن الحقد داخل نفس الدين أخطر من الحقد بين دينين مختلفين. انظروا الأحقاد المذهبية الرهيبة بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين في فرنسا وعموم أوروبا قبل أن ينتصر التنوير، فالعلمانية، فالحداثة. وفجأة شاءت الظروف أن يخرج العلويون من هذا التهميش ويدخلوا التاريخ ربما بشكل فج وزائد عن اللزوم أكثر مما ينبغي. وحتماً حصلت تجاوزات بل وجرائم عديدة صدمت الناس. هذا هو شعور الغالبية السنية أو بعض شرائحها على الأقل. هذا ما أثار حساسيتها لأنها كانت تعتبر البلاد ملكاً لها ولها وحدها. وبالتالي فلا تستطيع أن تقبل بدخول طرف جديد على الخط وبخاصة أنه احتل مكانة أكبر من حجمه العددي. من هنا نشأت المشكلة وكان أن انفجرت أحداث الثمانينات المرعبة بين الإخوان والنظام. وهي أحداث خلفت جرحاً لا يندمل حتى الآن. ومعلوم أن الإخوان أو الجناح المتطرف فيهم على الأقل لجأوا فوراً إلى المحاجة اللاهوتية للطعن =

هنا يكمن الفرق بين الأنظمة الديمقراطية القائمة على حرية الكلام والأنظمة الشمولية الانغلاقية القائمة على كبت الكلام وكمّ الأفواه. ألا توجد لغة أخرى للتعامل مع المتظاهرين غير لغة الرصاص الحي؟ هل بمجرد أن يفتح أحدهم أو إحداهن فمه بكلمة أو كلمتين ينبغي أن نرميه في غياهب السجن؟ ينبغي أن يعرف الجميع بأنه لا يمكن وضع مجتمع بأسره في الثلاجة إلى الأبد. عاجلاً أو آجلاً سوف ينفجر وتنفجر معه كل مشاكله المحتقنة. حتى الجنة تصبح لا تطاق في مثل هذه الأجواء الخانقة! فما بالك إذا كان الناس قد زهقوا من هذه الأنظمة الشمولية البوليسية التي ترزح على صدورهم منذ عقود والتي تحصي عليهم أنفاسهم؟ تحية إذن إلى كل الشهداء الذين سقطوا من درعا إلى إدلب مروراً باللاذقية وما بينهما أو ما وراءهما. فلولا دماؤهم الغالية لما تجرأ أحد على فتح فمه. إنها الثمن المدفوع لكي يتنفس المجتمع وتتحقق حرية النقاش وتعددية الأحزاب والصحافة الحرة والقضاء المستقل والانتخابات النزيهة والمشاركة في اتخاذ القرار وتحمل المسؤولية... إني أعرف أن القوى الأصولية تزرع الفتنة وتنتظر اللحظة المؤاتية لتدمير السلام الاجتماعي وبث أفكارها التعصبية المتطرفة. هذا ما فعلته في الثمانينات عندما حفرت شرخاً لم يندمل حتى لآن في صميم المجتمع والشعب[١]، شرخاً في تاريخ طويل... إني أتهمها بأنها مسؤولة إلى

= في مشروعية العلويين وتكفيرهم. وكانت فتوى ابن تيمية جاهزة وتفي تماماً بالغرض فاستخدموها. ولذلك كانت بياناتهم تبتدئ أو تنتهي بالعبارة الآتية: قتلنا فلاناً الفلاني لأنه علوي كافر. ثم كانت مجزرة مدرسة المدفعية الرهيبة في حلب، وكذلك اغتيال الشخصيات والكوادر العلوية من دون سواهم على الرغم من أن النظام يحتوي على شخصيات سنية عديدة. ثم كان رد الفعل العنيف والانتقامي الطائفي عليها من جهة المتطرفين العلويين فحصلت كارثة حماة وتدمر وسواهما. ثم كان التصعيد والتصعيد المضاد إلخ. والآن إذ تندلع المعركة من جديد، فإن أحداث الثمانينات تعود إلى خلفية الذاكرة بقوة وتلهب الأحقاد والمخاوف وتصب الزيت على نار ما عادت بحاجة إلى زيت أصلاً!... من هنا الطابع التفجيري المرعب للمشكلة السورية. أقول ذلك وأنا أتحدث بسرعة شديدة واختصار أشد... ولكن لن تجدوا مقالة واحدة في الصحافة العربية تتحدث عن المكبوت الطائفي العميق الذي يقبع خلف كل ذلك. نادراً أن تجدوا مقالة واحدة تعترف، مجرد اعتراف، بالحقيقة التاريخية... نادراً أن تجدوا مقالة تموضع الأمور ضمن منظور المدة الطويلة للتاريخ كما يقول المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل... وهذا أكبر دليل على مدى سطحية الفكر العربي المعاصر وهزاله وعدم قدرته على تشخيص المشكلات الكبرى بشكل صحيح.

١ لكي نكون منصفين ودقيقين ينبغي الاعتراف بأن الانتفاضة السورية الكبرى الجارية حالياً تنطوي على بعدين اثنين لا بعد واحد:

الأول: تحريري عفوي صادر من الأعماق وله مبرراته الموضوعية من دون أدنى شك. إنه عبارة عن حركة احتجاجية تشبه في ملامحها العريضة كل الحركات التي اندلعت سابقاً في تونس أو مصر إلخ. إنها فعلاً حركة اجتماعية عميقة تجمع بين المطالب الاجتماعية – الاقتصادية – المعيشية من جهة، والمطالب السياسية من جهة أخرى. إنها بمثابة رد فعل على البطالة وتقييد الحريات والاستبداد السياسي وفساد =

حد كبير عن إشاعة التوترات الطائفية في المنطقة. يكفي أن نلقي نظرة سريعة على بعض مواقع الإنترنت لكي نتأكد من ذلك. إنها تمارس عملية الشحن الطائفي البغيض على مدار الساعة... فهي مسجونة بعقلية الفتاوى اللاهوتية القديمة ولا تستطيع منها فكاكاً. فتوى تكفيرية واحدة من ابن تيمية[1] تكفي لإشعال حرب أهلية! ابن تيمية وما أدراك ما ابن

= بطانة الحكم والفقر المدقع لأكثرية الشعب والغنى الفاحش للأقلية. يضاف إلى ذلك الامتعاض من الحكم الشمولي والتجاوزات البوليسية الخطيرة لأجهزة الأمن التي لا تعد ولا تحصى... من هو المجرم الذي أمر بتعذيب أطفال درعا أو قلع أظافرهم الغضة؟ من المعلوم أن هذه الجريمة النكراء كانت هي الشرارة الأولى التي أدت إلى اندلاع الثورة السورية. في كل الأحوال، فإن هذه الانتفاضات العربية المباركة تشبه إلى حد كبير انتفاضات الشعوب الأوروبية التي اندلعت عام ١٨٤٨ والتي دعيت بربيع الشعوب أو ربيع الثورات. وقد صفق لها لامارتين وجورج صاند وبودلير وفاغنر وعشرات غيرهم. وعلى الرغم من أنها قمعت بالحديد والنار إلا أنها كانت ذات انعكاسات تحررية كبيرة لاحقاً. فالثورات لا تعطي ثمارها فوراً بالضرورة على عكس ما نتوقع... الفرق الوحيد بين الانتفاضتين العربية والأوروبية هو أن الثانية جاءت بعد استنارة الشعوب الأوروبية وهزيمة الأصولية المسيحية لا قبلها.

وأما البعد الثاني الذي يقف وراء البعد الأول لهذه الانتفاضة العربية أو السورية فهو مقلق. إنه يخص الدور الذي يلعبه السلفيون والإخوان المسلمون. فبعض المصادر الغربية تقول إن الإخوان اخترقوا هذه الحركة الاجتماعية العفوية أو بعض شرائحها وأصبحوا يثيرون الحوادث والمشاكل. هذا الشيء إذا ما صح قد يتحول إلى حرب أهلية طائفية لا تبقي ولا تذر. والسيارات المفخخة التي انفجرت أخيراً في دمشق وقتلت المئات تحمل بصمات المتطرفين الظلاميين من دون شك سواء أكانوا "قاعدة" أم لا... وهذا يشوه وجه الثورة السورية في الواقع ضد الاستبداد. إنه يضرها ولا يفيدها بأي شكل. من هنا الطابع الازدواجي الغامض للانتفاضات العربية الراهنة. ولكن هذا الطابع الازدواجي لا ينفي مشروعية الانتفاضة العفوية والاحتجاج السلمي ضد وضع مسدود داخلياً وخارجياً. فالانتفاضات أو الثورات تؤدي عادة إلى حلحلة الوضع الراكد والمستنقع الآسن، كما وتؤدي إلى ضخ دم جديد في شرايين الشعوب وبالتالي بعث الشعوب من جديد. وهذا يعني أن الانتفاضات العربية الجارية حالياً مبررة وحصيلتها ستكون إيجابية جداً في نهاية المطاف ولكن على المدى الطويل لا القصير، كما ويمكن تشبيهها بربيع براغ عام ١٩٦٨ ضد النظام الستاليني، وكذلك بربيع شعوب أوروبا الشرقية عام ١٩٩٠ الذي أدى إلى سقوط جدار برلين والمعسكر الشيوعي كله. في كل الأحوال هناك شعوب تنتفض ضد نظام منغلق ومتخشب وجامد كلياً.

١ وهي فتوى استخدموها بكثرة في الثمانينات كما قلت آنفاً لتكفير العلويين والطوائف الشيعية عموماً وتبرير الاغتيالات التي أصابت عشرات الجامعيين والمثقفين والكوادر الطبية إلخ، ومن بينهم رئيس جامعة دمشق الدكتور محمد الفاضل... ولم نسمع وقتها أحداً يرفع إصبعه الصغيرة محتجاً، اللهم إلا بعض الشخصيات النادرة المستنيرة كالدكتور جمال الآتاسي مثلاً. وأخيراً راح الشيخ الوهابي التكفيري صالح اللحيدان يعيد تنشيط فتوى ابن تيمية هذه، داعياً المجاهدين إلى قتل العلويين لأنهم أشد كفراً من اليهود والنصارى... وقبل فترة أتيح لي أن أحاضر في معقل الأصولية الوهابية (جامعة الإمام محمد بن سعود) وذلك ضمن إطار مهرجان الجنادرية فصفعوني بالمعزوفة القديمة نفسها: محمد أركون يريد تهديم الإسلام! أقول ذلك على الرغم من أني لم أذكر اسم أركون أثناء مداخلتي إطلاقاً. وهذا دليل على أنهم كانوا يعرفون مسبقاً من أنا. إذا كان تفكيك فكر ابن تيمية وكل اللاهوت التكفيري الطائفي القروسطي يعتبر تهديماً للإسلام فإني أول الهدامين!... أقول ذلك على الرغم من أن ابن تيمية مفكر ديني كبير بل ويجسد عبقرية الأصولية ولا يمكن اختزاله في هذه الفتوى الصغيرة ضد العلويين أو الشيعة عموماً! ولكن في رأيي ورأي أركون أيضاً فإن =

تيمية؟ إن كلامه معصوم كالقرآن في نظر جماهير العامة وربما في نظر جماهير المتعلمين أو حتى المثقفين أنفسهم!... إنه ليس بشراً! نحن فعلاً لا نزال في غياهب العصور الوسطى ويخطئ من يظن بأننا خرجنا منها[1]... ولذا ينبغي الوقوف في وجهها كما فعل فراس

= هناك فهماً آخر للإسلام الحنيف غير هذا الفهم الظلامي القاتل أو الذي يبرر القتل والاغتيال والتفجيرات العشوائية والإجرامية. ينبغي أن يعلموا بأن فهمهم المتزمت للإسلام أصبح بمثابة إعلان حرب على العالم المتحضر بأسره. لقد سببوا لنا مشكلة مع العالم كله بشرقه وغربه. الشيء الذي فاجأني وأثلج صدري بعد انتهاء الندوة هو أن العديد من شباب جامعة الإمام الملتحين الذين كنت أحسبهم سلفيين أصوليين أخذوني على حدة لكي يشكروني على أنني لم أجبن أمام أساتذتهم و لم أتراجع عن مواقفي الفكرية التي يعرفونها... كانوا يخشون أن أتهيب الوضع أمام هذا الحشد الكبير من الشيوخ الأجلاء فأجامل وأراوغ... هؤلاء الشباب الذين رتبوا لي بعدئذ لقاءً خاصاً في إحدى قاعات مكتبة الأمير سلمان بجامعة الملك سعود هم أمل السعودية ومستقبلها الباسم. وبالتالي فلم أعد أستغرب أن يشع التنوير علينا من السعودية: أي من معقل الظلامية الوهابية! فحيث تتكاثف حلكات الظلام ينبثق الضوء... ماذا يفعل مشاري الذايدي مثلاً؟ ماذا يفعل عبد الله المطيري، أو ممدوح المهيني، أو عبد الرحمن الراشد، أو عشرات غيرهم؟ ماذا يفعل العديد من المثقفين والمثقفات السعوديات الذين لا أستطيع الآن ذكر كل أسمائهم المشعة بأحرف من نور؟ وأعتذر عن ذلك كل الاعتذار... أضيف إليهم أيضاً مثقفي الكويت والبحرين وكل أرض العرب... ولكن تقتضي الأمانة القول إن المشايخ الأجلاء في جامعة الإمام استقبلونا بحفاوة ودعونا إلى مائدتهم بعد انتهاء الندوة بل وصليت معهم أو وراءهم بكل خشوع. وبالتالي، فالاختلاف الفكري الذي ظهر بكل وضوح أثناء الندوة لم يمنع السلوك المهذب والحضاري من طرفهم. وهذا ما أشكرهم عليه كل الشكر.

[1] لكي نكون متوازنين وموضوعيين ينبغي الاعتراف بأن الطائفية موجودة لدى الأقلية أيضاً وليس فقط لدى الأكثرية. صحيح أنها طائفية خائفة ودفاعية على عكس طائفية الأغلبية الهجومية الواثقة من نفسها ومن مشروعيتها التاريخية، ولكنها تظل طائفية! بل وقد تتحول إلى نزعة انتقامية شرسة إذا ما امتلكت القوة والسلطة. يكفي أن نذكر هنا فاجعة حماة وتدمر وسواهما. ويكفي أن نذكر ما يحصل حالياً! وعموماً، فبعد مجزرة مدرسة المدفعية في حلب ابتدأ التصعيد بين الطائفية والطائفية المضادة، وحصل الشرخ الكبير الذي لا يعرف أحد كيف سينتهي. هل سيؤدي إلى تقسيم سوريا يا ترى؟ بل هل المقصود من كل ذلك تعميق الشرخ الطائفي إلى درجة أن التقسيم يصبح أهون الشرين؟هل يريدون أن يصبح أمراً واقعاً إن لم يكن إجبارياً؟ أسئلة كثيرة تطرح نفسها... ولكن المسألة الطائفية أخطر من ذلك بكثير. إنها تضرب بجذورها في أعماق التاريخ العربي الإسلامي. وينبغي أن نموضعها ضمن منظور المدة الطويلة لكي نفهمها على حقيقتها. وبالتالي فالشرخ قديم: إنه شرخ في تاريخ طويل، شرخ يخترق تاريخ الإسلام من أوله إلى آخره. وقد ابتدأ بعد موت النبي مباشرة. شخصياً، أعتقد أن الفكر العربي المعاصر عاجز عن تشخيص المسألة الطائفية كما ينبغي، فما بالك بإيجاد الحلول؟ أرجو أن أكون مخطئاً. والشيء الذي يحزّ في النفس هو أن هناك رغبة حارقة لدى شبيبة كلا الطرفين – العلوي والسني – للتواصل بعضهم مع بعض بل والتزاوج بعضهم من بعض وتشكيل وحدة وطنية حقيقية. ولكن هل سيتركهم متطرفو كلتا الجهتين أن يحققوا هذا المشروع النبيل؟ هذا هو السؤال. ثم هل ستتركهم القوى الخارجية التي تتربص بسوريا وتراقب أمورها عن كثب؟ أعترف بأني أشعر بمخاوف حقيقية على البلد. ولكن يبقى أن خط التنوير العربي الإسلامي والعربي المسيحي هو طريق المستقبل ولا طريق غيره. وإذا ما نجح فسوف تنحل كل هذه المشاكل الطائفية من تلقاء ذاتها وسوف نتلاقى جميعاً على أرضية الفكر التنويري العربي الإسلامي الجديد الذي لا يحاسبنا مسبقاً على أماكن ولادتنا التي لم نخترها بطبيعة الحال. أحياناً يضطر المرء إلى التذكير بالبدهيات!... من الواضح لكل ذي =

السواح في بيان موجه إلى المثقفين السوريين، وكما فعل أيضاً ياسين الحاج صالح في بيان جريء وممتاز ضد الطائفية... ينبغي أن نضيف إليهما كل المثقفين العلمانيين الحقيقيين من أمثال وائل السواح ولؤي حسين وآخرين عديدين. يمكن أن أضيف أيضاً موقف مفتي سوريا الدكتور أحمد بدر الدين حسون الذي من موقعه - كرجل دين - ينحو دائماً باتجاه التوفيق بين المذاهب الشيعية والسنية بكل ذكاء وألمعية[١]. هذا إضافة إلى

= عينين أن الفكر اللاهوتي القديم أصبح ضيقاً ولا يستطيع استيعاب الجميع بين أحضانه. بل وفي حياته كلها لم يستوعبهم، بل كان ينبذهم بحجة الهرطقة والزندقة والكفر. ولهذا السبب فإن الأقليات كانت تسكن دائماً الجبال الوعرة خوفاً من الملاحقات والاضطهادات المتواصلة على مدار التاريخ. لا ريب في أنه كانت لهذه الأوضاع مبرراتها إبان العصور الوسطى ولكنها لم تعد مقبولة الآن لأنها لا تتناسب مع روح العصور الحديثة وفلسفة حقوق الإنسان. هذا الكلام ينطبق على العالم العربي السني عموماً، كما على العالم الإيراني الشيعي عموماً. ولكن المشكلة هي أن هذا الفكر اللاهوتي القروسطي الذي سيطر على العالم العربي طيلة قرون وقرون يتمتع بمشروعية تاريخية ضخمة ولا يمكن إزاحته بجرة قلم أو بين عشية وضحاها. ومع ذلك، فإن تفكيكه أصبح يشكل ضرورة ماسة لكي ينبثق الفكر التنويري الجديد على أنقاضه. فالفلسفة السياسية الحديثة لا يمكن أن تتبلور في العالم العربي وتحظى بالمشروعية إلا بعد تفكيك اللاهوت السياسي التكفيري القديم الذي لا يزال يحظى بالمصداقية بل وبالقدسية والمعصومية حتى هذه اللحظة. انظر حديث الفرقة الناجية مثلاً. على هذا المستوى من العمق ينبغي موضعة الأمور لكي ندرك أبعاد ما يحصل في العالم العربي حالياً ومحدوديته في الوقت ذاته: أي السقف الذي لا يستطيع أحد أن يتجاوزه مهما فعل أو حاول. إن سقف الانتفاضات العربية يكمن هنا. إنها عاجزة عن مواجهة المشكلة الطائفية أو تجاوزها رغم النيات الطيبة لشبيبة مصر وسوريا وتونس وكل أقطار العرب... لا ريب في أنها تحاول ذلك لأنها صادقة في أعماقها. انظر تعانق المسلمين والمسيحيين في ميدان التحرير بالقاهرة. ولكن المشكلة هي أن الاحتقانات الطائفية أكبر من الجميع لأنها ذات جذور تاريخية عميقة ومتواصلة من دون انقطاع منذ مئات السنين... يضاف إلى ذلك أنه لا يوجد فكر تنويري عربي قادر على مواجهة ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا وحسن البنا والقرضاوي إلخ. حتى الآن لا تزال الغلبة للفكر اللاهوتي القديم. لا يوجد في الجهة العربية الإسلامية ما يقابل ديكارت أو سبينوزا أو لايبنتز أو فولتير أو روسو أو مونتسكيو أو كانط... لا يوجد مفكرون كبار قادرون على تفكيك الفكر اللاهوتي القديم وتقويضه من أساسات أساساته... وما دام هذا العمل لم يحصل بعد فسوف تجهض كل الانتفاضات والثورات. الثورة أيها السادة تكون فكرية أولاً قبل أن تكون سياسية. وإذا لم تحسم المعركة فكرياً أولاً فإنها لن تحسم سياسياً. وبالتالي فالمعركة الفكرية لا تزال أمامنا...

١ كتكملة للهامش السابق ينبغي أن أقول ما يأتي: الجميع ينظرون إلى الحكم في سوريا على أساس أنه علوي أقلوي وبالتالي بلا أي مشروعية. وهم يطرحون السؤال الآتي: هل يمكن الأقلية أن تحكم الأكثرية إلى ما لا نهاية؟ ألا تكفي أربعون سنة؟ أليس هذا الوضع شاذاً؟ ألا ينبغي أن تعود الأمور إلى نصابها؟ وهي أسئلة مشروعة تماماً في الواقع وبخاصة أن النظام بوليسي قمعي من الطراز الأول... أقول ذلك على الرغم من أن الخبراء يقولون لك إن الثروة الاقتصادية للبلاد هي في يد البورجوازية السنية والمسيحية في قسمها الأكبر لا في أيدي العلويين. ولكن يبقى صحيحاً القول بأن الحكم مرئي ظاهرياً ومن الخارج وكأنه حكم علوي بالخالص. وهذا لا يمكن أن يستمر إلى الأبد سواء أكان صحيحاً أم لا. فالعادة هي أن تحكم الأكثرية الأقلية لا العكس. العادة هي أن تؤدب الأكثرية الأقلية لا العكس. وهذا ما حصل على مدار التاريخ أصلاً ما عدا =

شخصيات أخرى عديدة عاقلة ومسؤولة كمفتي مصر الشيخ علي جمعة أو كشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب. هنا يكمن الفرق بين الشيخ السلفي الانغلاقي الذي يلعب على وتر العصبيات المذهبية الضيقة، والشيخ المستنير المسؤول الحريص على أن يجمع لا أن يفرق كالشيخ الأكبر.

ولكن كل هذه المخاوف لا تقلل إطلاقاً من أهمية الانتفاضات العربية الجارية حالياً. إنها أكثر من ضرورية وأكثر من مشروعة حتى ولو لم تكن إلا خطوة أولى على طريق التحرير الطويل. ولكنها خطوة ضخمة ومدهشة وتستحق كل إعجاب وتقدير. إنها انفجار طبيعي وإنساني نبيل ضد عقود عديدة من الكبت السياسي والأدلجة المهترئة والحكم البوليسي - العسكري والاعتقالات التعسفية لمجرد التعبير عن الرأي. إنها مهمة بالبذور الكامنة في أحشائها أكثر مما هي مهمة بما ستحققه على المدى القصير. يكفيها شرفاً أن الطريق بفضلها أصبح مفتوحاً للتغيير. فلولاها لما خافت الأنظمة الشمولية وقدمت بعض التنازلات. وبالتالي فدم الثوار لم ولن يذهب سدى.

= السنوات الأخيرة. من هنا الطابع التفجيري والاستعصائي الهائل للمشكلة السورية. أحياناً يتساءل المرء: لو أن الأكثرية السنية قبلت بتشكل دولة علوية بعد الاستقلال ورحيل الفرنسيين أما كان أفضل لهم وللجميع؟ لو سمحت بذلك لما حكم العلويون سوريا لحظة واحدة! بل ولما تجرأوا على وضع قدمهم في دمشق أو حلب أو حماة من دون إذن... أما كان هذا الحل أفضل للأغلبية السنية التي تعاني الآن ما تعانيه؟ وهي إذ تعاني يعاني الشعب كله معها لأنها العمود الفقري للبلاد. ألا يعضون أصابعهم ندماً على أنهم رفضوه؟ كنا قد تحاشينا كل هذه المجازر والمشاكل التي تحصل حالياً. إذا كان الزواج فاشلاً ويتحول يومياً إلى عراكات صاخبة وتكسير للصحون وتشابك بالأيادي فإن الطلاق أفضل منه بألف مرة... وهذا لا يعني تمجيداً للتقسيم، ولكنه يعني أنه كان من الأفضل ألا يحصل التوحيد قبل أن تستنير معظم شرائح الشعب بأقلياته وأكثرياته وتخف الحزازات الطائفية والمذهبية إلى حد النصف على الأقل. إنها مجرد وجهة نظر... مجرد تساؤلات... ولا أعرف فيما إذا كانت وجيهة أو لا... إنها تساؤلات خطرة حتماً وليست خالية من الخلل والضرر... ولكني قررت في هذا الكتاب أن أتناول الموضوع من جميع جوانبه وأقلبه على كافة وجوهه من دون أي تابوات أو محرمات... أما وجهة النظر المعاكسة فتقول: على العكس، إن توحيد البلاد بكافة فئاتها حول الأغلبية جعل أبناء الأقليات يندمجون بطبيعة الحال في المجتمع. وأدى الاختلاط والامتزاج في المدارس والجامعات والأحياء والمدن إلى تحطيم جدار الرعب النفسي بين الطوائف والمذاهب. وهذا ما هدف إليه قادة الاستقلال الأوائل أصلاً. ولكن يبدو أن الرواسب التاريخية كانت أكبر من الجميع، فعاد الجدار الطائفي مجدداً وبقوة بعد أن كنا اعتقدنا بأننا حطمناه وتجاوزناه. لقد عاد لكي يفجر البلاد بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة. وهذا أكبر دليل على أن الحل السياسي لن ينجح قبل نجاح التنوير الفكري الذي سوف يعالج الانقسامات الطائفية من أساساتها وجذورها كما حصل في أوروبا. لذلك أقول بأن المسألة فكرية قبل أن تكون سياسية...

الفرق الأساسي بين الثورة الفرنسية والانتفاضات العربية

بعد كل ما قلناه سابقاً لنحاول أن ندخل في صلب الموضوع. هل هناك من معنى لثورة سياسية من دون ثورة ثقافية تحتضنها وتمهد لها الطريق؟ هل يمكن أن تتقدم بنا خطوة واحدة إلى الأمام؟ أختلف جذرياً مع بعض المثقفين الذين يستهينون بالثورة الفرنسية بنوع من المكابرة الفارغة أو يرفضون اعتبارها بمثابة النموذج البراديغمي الأعلى للثورات. لا ريب في أنه يمكن أن توجد نماذج ثورية أخرى غيرها ولكن بشرط أن تؤدي إلى النتيجة التحريرية نفسها، وبشرط أن يتنفس التاريخ الصعداء بعدها أو بفضلها... فالثورة التي صفق لها فلاسفة وشعراء كبار ككانط وهيغل وشيلنغ وهولدرلين وعشرات سواهم غير التي يصفق لها أحمد منصور والقرضاوي وقناة الجزيرة وجماهير الإخوان المسلمين[١]. ولا يمكن إطلاقاً المقارنة بينهما. ثم دهشنا بمفاجأة جديدة: وهي هيمنة التيار السلفي أو الإخواني على الثورة المصرية من خلال "غزوة صناديق الاقتراع"! ينبغي الاعتراف بأن إخواننا الأصوليين تطوروا كثيراً منذ ضربة ١١ سبتمبر الإجرامية حتى الآن... فما عادوا يتحدثون عن غزوة نيويورك وواشنطن والأندلس ولندن... عن طريق الطائرات والتفجيرات، بل أصبحوا يكتفون "بالهجوم الكثيف" على صناديق الاقتراع... وبالتالي فهناك غزو وغزو... لقد أصبحوا حضاريين ناعمين، بل وديمقراطيين، في ظرف عشر سنوات فقط! أليس هذا تقدماً؟ كان زعيم حزب الوسط الديمقراطي المسيحي الفرنسي فرانسوا بايرو قد عبر عن قلقه بعد أن رحب كل الترحيب بالربيع العربي قائلاً إنه

١ أول شيء فعلته الثورة الفرنسية هو أنها حررت البروتستانتيين بل وحتى اليهود وأعطتهم الحقوق نفسها التي يتمتع بها أبناء الأغلبية الكاثوليكية واعتبرتهم مواطنين بالكامل مثلهم. وكان ذلك حدثاً هائلاً يحصل لأول مرة في تاريخ فرنسا الكاثوليكية... هنا تكمن القطيعة الكبرى بالقياس إلى النظام اللاهوتي القروسطي القديم. من هنا عنوان ذلك النص الشهير المستوحى من فلسفة الأنوار والذي شكل مجد فرنسا والفرنسيين: إعلان حقوق الإنسان والمواطن. والمادة العاشرة فيه تنص على حرية الاعتقاد الديني أو عدم الاعتقاد! فالحرية تكون في كلا الاتجاهين لا في اتجاه واحد وإلا فليست حرية. تقول هذه المادة بالحرف الواحد: لا ينبغي إقلاق أي شخص بسبب أفكاره، حتى الدينية منها. وذلك بشرط ألا يؤدي التعبير عنها إلى زعزعة النظام العام المحكوم من قبل القانون. لماذا نجحت الثورة الفرنسية وشكلت قطيعة فعلية مع الماضي؟ لأن فلاسفة التنوير كانوا قد فككوا اللاهوت المسيحي التكفيري القديم ومهدوا لها الطريق. وهذا ما لم يحصل للأسف الشديد لانتفاضاتنا الكريمة الرائعة. والذنب ليس ذنبها إطلاقاً. الحق يقع على المثقفين العرب الذين لم يستطيعوا إنجاز ما أنجزه الموسوعيون وكبار فلاسفة التنوير في أوروبا. من هنا الخوف عليها... هذا لا يعني أني ضدها! على العكس إني معها قلباً وقالباً...

سيغير وجه المنطقة والعالم. وسبب قلقه شيئان: الأصولية من جهة، والصراع المذهبي السني – الشيعي من جهة أخرى. وهما شيئان مترابطان. انظر الحالة السورية والعراقية واللبنانية والخليجية عموماً[١]... هذا من دون أن ننسى الصراع الإسلامي – المسيحي العربي وبخاصة في مصر وبلاد الشام. وقد تؤخر هذه الصراعات "الجانبية" دمقرطة المنطقة عن طريق إشغالنا بحروب أهلية أو نزاعات داخلية لا يمكن استبعادها بعد الآن. قد تؤخر هذه الصراعات القروسطية قيام دولة مدنية لكي لا نقول علمانية تفتح صدرها وقوانينها ومؤسساتها للجميع من دون أي تمييز بين شيعي وسني أو مسيحي ومسلم. قد تؤخر بلورة عقد اجتماعي لمواطنية جديدة قائمة على أساس الفلسفة السياسية الحديثة لا على أساس اللاهوت القروسطي أو الفقه الطائفي القديم الراسخ في العقليات حتى الآن بل والمسجل في الدساتير عن طريق القول بأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع... نقول ذلك ونحن نعلم أن الشريعة بحسب المفهوم السائد تتناقض في بعض مبادئها كلياً أو جزئياً مع إعلانات حقوق الإنسان والمواطن، بدءاً من ذلك الذي أصدرته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى ذلك الذي أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨، والذي رفضت إحدى الدول الإسلامية وقتها التوقيع عليه بحجة أنه يتعارض مع الشريعة بالذات. فحقوق الإنسان في المنظور الأصولي يتعارض مع حقوق الله[٢].

١ إن التعبير عن هذه المخاوف لا يعني التقليل من شأن الانتفاضات العربية. فهي تعبر عن صرخة صادقة ضد الطغيان، صرخة صادرة من الأعماق. ولكن إذا ما سطا عليها التيار السلفي – الإخواني فإنه يحق للنهضويين العرب أن يرفعوا صوتهم احتجاجاً. يحق لمن واجهوا أنظمة الاستبداد في ذروة طغيانها ودفعوا الثمن الباهظ أن يعاتبوا الانتفاضات والمآل الذي وصلت إليه. يحق لأولئك الذين أصيبوا في شخوصهم أو دفعوا ثمن مواقفهم عداً ونقداً ألا يركعوا للطغيان الجديد الآخذ في التشكل. نقول ذلك وبخاصة أنه يتلبس لبوس الدين، وهو أخطر أنواع الطغيان. انظر السودان والطالبان وإيران. وبالتالي يحق لهم أن يحلموا بتنوير مقبل وربيع جديد. أما أولئك الذين التحقوا بالتيار السلفي أو انبطحوا أمام الإخوان المسلمين فلا علاقة لنا بهم. ولولا العيب لقلنا لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء...

٢ ينبغي العلم بأن عامة الناس بل حتى بعض المثقفين لا يدركون جوهر التمييز بين النظام الديني الأصولي والنظام العلماني أو المدني الحديث. فالنظام العلماني الذي يركز على حقوق الإنسان لا ينكر حقوق الله على عكس ما يتوهمون. إنه لا يفرض الإلحاد بالقوة على المجتمع كما فعل ستالين في الاتحاد السوفياتي. على العكس إنه يؤمن حرية التدين وممارسة الشعائر للجميع بل ويحمي هذه الحرية. الكنائس والجوامع والمعابد مفتوحة في كل أنحاء فرنسا وأوروبا المتحضرة. ولكنه يحمي أيضاً حرية عدم التدين! آية لا إكراه في الدين مطبقة في أوروبا العلمانية وليس في العالم الإسلامي. فالتدين مسألة شخصية تخص الأعماق الضميرية للفرد. إنه ليس مسألة عامة تخص سياسة الدولة أو المصلحة العليا للمجتمع. ماذا نفعل بعالم اقتصاد كبير يخطط لتطور المجتمع، أو بطبيب ناجح يشفي المرضى؟ هل نرفضهما ونكفرهما وندينهما لأنهما =

انظر مشكلة الحدود البدنية الرهيبة كالجلد والرجم وقطع يد السارق، إلخ. ما علاقة كل هذا بحقوق الإنسان؟ ومعلوم أنها شوهت سمعتنا في شتى أنحاء العالم من خلال الممارسات السودانية والإيرانية والطالبانية والوهابية... هذا إضافة إلى تحقير المرأة عن طريق التفسير الحرفي الصارم لآيات من نوع: وللذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة رجل باثنتين، إلخ... هذا إضافة إلى تمييز المسلم عن غير المسلم، تماماً كما تفعل الشريعة المسيحية واليهودية. فضمن منظور القرون الوسطى اللاهوتي لا يمكن أن يتساوى غير المتدين مع المتدين، والمتدين المقبول تدينه عند الله لا يمكن أن يكون إلا من جماعتنا أو ديننا ومذهبنا. فإذا ما ولدت في مجتمع ذي أغلبية مسيحية فإن المؤمن الحقيقي لا يمكن أن يكون إلا مسيحياً. وإذا ما ولدت في مجتمع إسلامي فالمؤمن الحقيقي بالضرورة هو المسلم فقط، إلخ. وبالتالي، يوجد هنا تناقض صارخ مع كل الفلسفة الإنسانية الحديثة التي نتجت منها إعلانات حقوق الإنسان والمواطن. نقصد فلسفة روسو ومونتسكيو وكانط وهيغل إلخ. كيف يمكن أن تبني دولة مدنية تساوي بين الأقباط والمسلمين في ظل المادة الثانية من الدستور التي لم يتجرأ أحد على تعديلها؟ بل واعتبرها حتى شخص مثقف كأحمد فتحي سرور فوق الدستور ولا تناقش مجرد مناقشة... فما بالك بالإخوان والسلفيين؟ أما كان ينبغي عليهم أن يضيفوا كلمة الشريعة المسيحية إضافة إلى الشريعة الإسلامية لكي يحصل التساوي؟ بالطبع الحل الأفضل كما اقترح الأستاذ صبري حافظ على طارق البشري هو تغيير هذه المادة[١]. ولكن هل وعي الشعب المصري قادر في ظل

= غير متدينين أو لا يحضران القداس أو صلاة الجمعة؟ كم سيخسر المجتمع عندئذ من الخبرات والمواهب والكفاءات إذا ما طبقنا عليه محاكم التفتيش هذه؟ لماذا تقدمت أوروبا وتخلف العالم العربي أو الإسلامي؟ ينبغي أن نعرف فوائد التمييز بين الحياة العامة للمجتمع والحياة الخاصة للفرد. فالمجتمع مليء بالمتدينين وغير المتدينين، بالمسلمين والمسيحيين، والبوذيين، واليهود،إلخ... والدولة الحديثة مضطرة إلى تحييد العقائد الإيمانية إذا ما أرادت أن تمشي الأمور بشكل سليم وأن يتساوى الجميع أمام القوانين المدنية لا الشريعة الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية. وإلا فسوف نسقط في مغطس الدولة الثيوقراطية اللاهوتية التي لا تحترم إلا أبناء الدين الواحد أو المذهب الواحد (أي دين الأغلبية أو مذهب الأغلبية). وهذه هي حالة الدول العربية والإسلامية عموماً. لهذا السبب نقول إن الثورة الحقيقية لم تحصل بعد.

١ انظر مقالة صبري حافظ في جريدة القدس العربي تحت العنوان الآتي: خطاب مفتوح إلى طارق البشري. بتاريخ: ٢٠١١/٢/٢٣.

يقول الكاتب: هذه المادة وضعها السادات في دستوره رشوة للوهابية والرجعية العربية. وهي تنص حرفياً على ما يلي: "الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع". الغريب في الأمر هو أن هذه المادة لم تكن موجودة في دساتير مصر السابقة. فالدستور =

الوضع الحالي على التخلي عن مادة مقدسة تشعره بالسكينة والطمأنينة؟ شخصياً لا أعتقد ذلك. وبالتالي، فقليلاً من الصبر أيها الأصدقاء. جماهيرنا ليست مستعدة لهضم هذا التطور الآن. إنه فوق طاقتها، إنه يزعزعها نفسياً. التنوير يأتي على مراحل لا دفعة واحدة... هذا هو الممكن الآن فلا تطلبوا المستحيل!

(أفتح هنا قوساً لكي أقول ما يأتي: كل دستور ناتج من هذه الانتفاضات العفوية الصادرة من الأعماق ينبغي أن ينص على المبادىء الأساسية الآتية: أولاً: ينبغي تأسيس دولة القانون التي تنطبق قوانينها وتشريعاتها على الجميع. ثانياً: ينبغي تشكيل مواطنية حديثة تنطبق أيضاً على الجميع من دون أي تمييز على أساس الدين أو العرق أو المذهب. ثالثاً: ينبغي أن يعطى حق التصويت العام للجميع. رابعاً: محاسبة المسؤول الحكومي بعد انتهاء ولايته سلباً أو إيجاباً. خامساً: الفصل بين السلطات كما دعا إلى ذلك مونتسكيو في كتابه الشهير: **روح القوانين**. وهو فصل يضمن استقلالية القضاء بالقياس إلى السلطة السياسية التنفيذية. سادساً وأخيراً: لا ينبغي أن يوجد بعد اليوم مواطن درجة أولى ومواطن درجة ثانية أو ثالثة كما كان سائداً طيلة القرون الوسطى على أساس لاهوتي - طائفي سواء في إيران أو في العالم العربي. في إيران الفرقة الناجية هي الشيعة الإمامية وليس السنّة... ينبغي تأسيس مواطنية جديدة تتسع للجميع وإحلالها محل النظام القديم الذي كان يعطي الأولوية لأبناء الأغلبية الدينية - المذهبية مع احتقار أو تهميش كل من تبقى. وهذا النظام الذي ألغته

= الليبرالي الذي صدر عام ١٩٢٣ كان ينص على ما يأتي: "إن المصريين لدى القانون سواء. وهم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين". لاحظ الفرق بين المادتين! دستور ١٩٢٣ أكثر تقدماً واستنارة وتلاؤماً مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من دستور عام ٢٠١١ الذي صوتوا عليه قبل أيام! ما سر هذا التراجع؟ الموجة الأصولية الكاسحة والوهابية والبترودولار وجوع الجماهير وفقرها الذي يدفعها للاستعصام بالمقدسات والغيبيات. المدهش أكثر هو أن المادة الثانية عشرة من هذا الدستور الليبرالي كانت تنص على ما يأتي وهو شيء لا يكاد يصدق: "إن حرية الاعتقاد مطلقة"! وهو ما نص عليه الإعلان الشهير لحقوق الإنسان والمواطن الذي كانت الثورة الفرنسية قد أصدرته عام ١٧٨٩... هذا المثال وحده كاف لتبيان الفرق بين الثورة الفرنسية والثورة المصرية أو بقية الثورات العربية. وأنا لا أورده لتبخيس ثوراتنا على الإطلاق بل لتوضيح الوضع الصعب الذي نعيشه والذي لا يسمح لهذه الثورات بأن تحقق أكثر مما حققته حتى الآن. وفي رأيي، إن أفضل حل لهذه المشكلة هو ذلك الذي اقترحته السيدة منى مكرم عبيد حيث تقول: ... ضد إلغاء هذه المادة الثانية. ومع صياغة الدستور الجديد لا مانع من تضمينها. لكن تجب الإضافة إليها ... يتوافق مع اتفاقية حقوق الإنسان التي تضم كل شيء من حرية الديانة وحرية ممارسة الشعائر الدينية (انظر الشرق الأوسط ٢٠١١/٥/١). نلاحظ أن كلام السيدة منى مكرم عبيد يعني ضمنياً التحايل على هذه المادة بل وتحييدها بشكل ما عن طريق إضافة مادة أخرى تلغيها عملياً أو تلغي مفعولها أو تخفف منه إلى حد كبير...

الثورة الفرنسية (ولذلك فإنني أعتبرها ثورة بالمعنى الحقيقي للكلمة) لا يزال سائداً في كل دول العالم العربي والإسلامي. انظر أفضلية الشيعي على السني في العالم الإيراني عموماً، أو أفضلية السني على الشيعي في العالم العربي عموماً[١]).

١ سوف أكون صريحاً إلى أقصى الحدود رغم أن الصراحة تكلف غالياً أحياناً. ولكن ما العمل إذا كنت عاجزاً عن استخدام اللغة الخشبية الامتثالية السائدة؟ سوف أقول إذن ما يأتي: ربما قام مؤرخو المستقبل بدراسة مقارنة بين وصول شخص علوي إلى سدة السلطة في دمشق ووصول شخص بروتستانتي إلى عرش فرنسا إبان القرن السادس عشر (أي الرئيس حافظ الأسد من جهة، والملك هنري الرابع من جهة أخرى). إلى أي مدى أدى ذلك إلى اختلال التوازن النفسي لكل من الشعبين السوري والفرنسي؟ أقول ذلك على الرغم من أن الأسد لم يتجرأ على القفز على سدة السلطة العليا إلا بعد أن أخذ مباركة كبار الفقهاء من أمثال الشيخ أحمد كفتارو وسواه وربما مباركة السياسيين الكبار كالدكتور جمال الآتاسي. وأقوله على الرغم من أنه صلى في جامع بني أمية الكبير مرات ومرات وأخذ بالتالي شهادة حسن سلوك في الانتماء إلى مذهب الأغلبية للتخفيف من وطأة الحدث المذهل على الشعب. الشيء نفسه فعله الأقلوي البروتستانتي هنري الرابع عندما صلى في كنيسة نوتردام الكاثوليكية وقال عبارته الشهيرة التي ذهبت مثلاً والتي حفرت نفسها في الوعي الجماعي الفرنسي حتى هذه اللحظة: باريس تستأهل قداساً كاثوليكياً! بمعنى أن من يريد أن يحكم باريس أي فرنسا ينبغي عليه أولاً أن يتخلى عن مذهبه الأصلي الأقلوي البروتستانتي ويعتنق مذهب الأغلبية، أي المذهب الكاثوليكي. ولكن المشكلة هي أن غلاة البروتستانتيين اعتبروه خائناً بعد أن خرج على المذهب وصلى في معابد الكاثوليك. وأما غلاة الكاثوليكيين فاعتبروه منافقاً و لم يصدقوا أنه تخلى عن مذهبه الأصلي إلا ظاهرياً وسطحياً على سبيل التقية... وفي نهاية المطاف استطاع الأصولي الكاثوليكي المتعصب فرانسوا رافاياك أن يصل إليه في شارع ريفولي العريق ويطعنه طعنات قاتلة، والقصة مشهورة... واغتال بذلك هذا الملك الهرطيق الزنديق الذي لوث عرش فرنسا الكاثولية الطاهرة بجلوسه عليه... ثم كانت الحرب الكاثوليكية –البروتستانتية التي دمرت فرنسا و لم تنته إلا بطرد الأقلية البروتستانتية من البلاد وتصفيتها جزئياً على يد الملك الشهير لويس الرابع عشر الذي طرح الشعار الشهير: ملك واحد، مذهب واحد، قانون واحد... بمعنى أن التعددية الدينية أو المذهبية ممنوعة على الأرض الفرنسية. الحقيقة واحدة لا تتجزأ... ولا يمكن أن يوجد إلا دين واحد صحيح هو المسيحية، بل ومذهب واحد صحيح داخلها هو: الكاثوليكية. كان ذلك قبل أن تتحرر فرنسا بالطبع وتستنير وتتجاوز عقلية القرون الوسطى وتصبح علمانية ديمقراطية. كيف يمكن تحاشي الصدام الطائفي المرعب؟ ليس فقط في سوريا بل أيضاً في العراق ولبنان والخليج العربي كله؟ حتى ولو فهمت خطأ فسوف أقدم الحل الآتي: هنا في المغرب العظيم يتحدثون عن الجهوية، وفي فرنسا عن نظام اللامركزية. فلماذا لا يطبق في سوريا والعراق إلخ؟ بدلاً من الانفصال والتقسيم لنعط لكل إقليم ذي خصوصية حكمه الذاتي من دون أن ينفصل عن الدولة المركزية. فأهل مكة أدرى بشعابها كما يقال. انظر ما سبق الفقرة التي بعنوان: إما الفيدرالية وإما التقسيم! يضاف إلى ذلك أننا نتحاشى عندئذ أن يحكم المنطقة أشخاص من خارجها، أو أن يحكم الدولة شخص لا يمثل الأغلبية ويحصل اختلال توازن سيكولوجي وبالتالي رد فعل مرعب عليه... فحتى تكون شعوبنا قد استنارت ونضجت، حتى تكون الحساسيات الطائفية قد اضمحلت وضعفت كثيراً، لا أرى حلاً أفضل من هذا الحل. إذا كنتم لا تستطيعون أن يتحمل بعضكم بعضاً، إذا كنتم لا تطيقون رؤية بعضكم بعضاً يومياً، فانفصلوا بعضكم عن بعض قليلاً بدلاً من أن تتحاربوا وتدمروا البلاد والعباد. أحياناً ما أحلى الطلاق! ما أحلى الحياة الأخرى والعروس الجديدة! طلقوا بعضكم بعضاً يا أخي ولو لفترة من الزمن بدلاً من أن يذبح بعضكم بعضاً!... وإلا فسوف يظل أحد الطرفين يشعر بالغبن ويحاول أن ينتقم من الآخر أو يهيمن عليه =

لا تنوير في ظل وصاية رجال الدين والفضائيات الظلامية على الجماهير...

ينبغي العلم بأن أول فرق بين الثورة الفرنسية والانتفاضات العربية يخص موضوع التنوير. من المعلوم أن كانط كان قد عرّفه في نصه الشهير على النحو الآتي: خروج الإنسان من مرحلة القصور العقلي (أو الطفولة العقلية) وبلوغه سن الرشد. إنه يعني أن تكون قادراً على التفكير بنفسك من دون وصاية أحد فوق رأسك. من هنا شعار التنوير حيث صرخ كانط قائلاً: تجرأ على التفكير بنفسك أيها الإنسان! تجرأ على استخدام عقلك! أنت عندك عقل فلماذا لا تستخدمه؟ لماذا تلغيه وتتكل على عقل غيرك واضعاً نفسك تحت وصايته؟ من هو المقصود بهذه الوصاية؟ إنه رجل الدين في الدرجة الأولى. فالإنسان المسيحي طيلة العصور الوسطى بل وحتى في عصر كانط إلى حد كبير كان يستشير الكاهن في كل شاردة وواردة لكي يطمئن ويشعر بأن أفعاله ليست مخالفة للشرع الإلهي وليست منحرفة عن الصراط المستقيم. كانت هيمنة رجال الدين على العقول شبه كاملة. ولذلك قال كانط إننا لم نستنر حتى الآن ولكننا سائرون نحو الاستنارة. هذا الكلام كتبه كانط عام ١٧٨٤، أي قبل حصول الثورة الفرنسية بخمس سنوات. ولكننا نعلم أن هذه الثورة قطعت مع النظام الكهنوتي الأصولي المسيحي السابق. وهذا يعني أن فرنسا كانت متقدمة على ألمانيا آنذاك. من هنا إعجاب فلاسفة ألمانيا الكبار بها. وهنا يكمن الفرق الأساسي بين الثورة

= وينكل به ويقمعه لا محالة إذا ما امتلك الدولة والجيش والسلطة والاستخبارات. ولكن عودوا بعضكم إلى بعض بعد عشرين أو ثلاثين سنة عندما تكون الأجيال قد تعلمت واستنارت ونضجت كما حصل للشعوب الأوروبية المتقدمة... وعندئذ يمكن توحيد ليس فقط سوريا، بل سوريا والعراق ولبنان والأردن وفلسطين ومصر والمشرق العربي كله في دولة واحدة. بل ويمكن توحيد العرب كلهم مغرباً ومشرقاً في دولة واحدة مترامية الأطراف ولكن جهوية، لا مركزية... لماذا لا أحد يتحدث عن الولايات العربية المتحدة؟ ولكنه عندئذ لن يكون اتحاداً قسرياً استبدادياً كما حلم بذلك الفكر القومي العربي الذي يقفز على حقائق الواقع وينكر أي خصوصية إقليمية أو جهوية. كما أنه كان مفرغاً من الفلسفة الإنسانية الحديثة وينظر إلى المكونات الأخرى للأمة (وبخاصة الأمازيغ والأكراد) نظرة استعلائية عنصرية. نعم إن وهم الوحدة العربية بالمعنى القديم التوتاليتاري للكلمة سقط ولكن جوهر الفكرة لم يسقط. فكرة العالم العربي الواسع والمتنوع لا تزال أمامنا لا خلفنا. بل وفرضت نفسها حتى في الغرب. لاحظوا كيف أن ألمانيا مؤلفة تقريباً من عدة دول داخل دولة واحدة... أليست ألمانيا بلداً متطوراً؟ إن نظامها السياسي اتحادي فيدرالي. وهي مؤلفة من ستة عشر إقليماً اتحادياً وكل واحد منها يتمتع باستقلاليته الخاصة. ولا أحد يعتدي على صلاحيات أحد. ولا أحد يشعر بأنه مغبون أو مظلوم. وبالتالي فأنا لا أدعو للعودة إلى النظام الاستعماري الذي قسم سوريا إلى خمس دول كدولة العلويين ودولة الدروز ودولة دمشق ودولة حلب وسنجق الإسكندرون... بل أدعو إلى نظام فيدرالي يحقق التناغم والانسجام بين مختلف الأقاليم السورية الجميلة، المتعددة، والغنية، لأنها متعددة ومتنوعة ومختلفة. ينبغي أن نضيف إليهم إخوتنا الأكراد أيضاً.

الفرنسية والانتفاضات العربية الجارية حالياً. لنفكر ولو للحظة بطابعها المعادي لرجال الدين عموماً وبين محاولة الشيخ القرضاوي السطو على الثورات العربية أو تجييرها لخطه اللاهوتي السلفي الإخواني القديم[١]. فالثورة الفرنسية لم ترفع صورة البابا أو صور مطارنة باريس وكرادلتها وكهنتها عندما انفجرت كالبركان! بل رفعت صور جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو وكل أعداء الأصوليين من نجوم الفكر الحديث الصاعد الواعد... أما رجال الدين فقد اختفوا عن الأنظار و لم يصلّوا بالجماهير الثورية في ساحة الجمهورية أو ميدان التحرير! على العكس، لقد ظلوا يلعنون الثورة بكل فلسفتها وأفكارها ومبادئها لمدة مئة سنة قادمة. وكانت صلواتهم تبتدئ بلعنها وبه تختتم. وهذا يعني أنها كانت ثورة حقيقية بالفعل، ثورة تنفتح على المستقبل ولا تنتكس بنا رجوعاً إلى الماضي. و لم يستسلم رجال الدين المسيحيون للأمر الواقع إلا بعد أن أيقنوا بأن النظام المدني العلماني الجديد قد ترسخ وأن العودة إلى القرون الوسطى أصبحت مستحيلة. عندئذ أخذ مطران باريس فتوى من البابا تبيح له الاعتراف بنظام الحداثة الديمقراطية وحقوق الإنسان. وهكذا انحنى الكهنة أخيراً أمام مكتسبات الثورة: مكتسبات التطور والتقدم والرؤية الجديدة للعالم. وهذا يعني أن الثورة الفرنسية دشنت عهداً جديداً بالفعل وشكلت قطيعة كبرى مع الماضي وقفزة هائلة إلى الأمام، ولولا ذلك لباركها رجال الدين. نستنتج من ذلك أن الفكر القديم لم يُهزم بعد في الساحة العربية على عكس الساحة الأوروبية، والتنوير لم يحصل حقيقة. على العكس، فإن التيار الأصولي السلفي لا يزال في أوج عنفوانه، هذا في حين أن الفكر التنويري الجديد لا يزال جنينياً و لم ينتشر بعد بما فيه الكفاية و لم يتغلغل

١ وقد وصل به الأمر أخيراً إلى حد الهجوم الصاعق على كل من يعارض الإخوان المسلمين، إذ يقول: "من يهاجم الإخوان لصوص وفجرة وأصحاب ملذات وشهوات محرمة وشاربو خمر ولاعبو ميسر، ويمارسون الحرام مع النساء، وشاذون جنسياً من قوم لوط وعملاء للغرب وللصليبيين والصهاينة ويعادون الإسلام". (عن القدس العربي. تقرير حسنين كروم بتاريخ ٢٠١٢/٥/٩). هل هذا كلام الإسلام الوسطي المعتدل؟ ماالفرق بينه وبين الإسلام المتطرف؟ ألا يذكرنا بتصريحات بن لادن النارية؟ ألا يوجد فهم آخر للإسلام غير فهم الإخوان المسلمين؟ الإسلام حمّال أوجه يا شيخنا الجليل... الإسلام كان تعددياً في العصر الذهبي المجيد، وسوف يعود تعددياً مشرقاً في عصر التنوير العربي الإسلامي المقبل بإذن الله. تأويل الإخوان المسلمين للإسلام شيء وجوهر رسالة الإسلام والقرآن شيء آخر. لا يمكن اختزال الإسلام كله في جماعة الإخوان المسلمين! وإلا فإنها الطامة الكبرى! الإسلام أكبر من ذلك وأوسع بكثير. والتأويل المستنير السمح للإسلام سوف ينتصر تدريجاً على تأويل الإخوان المسلمين الإكراهي التوتاليتاري كلما تقدمت الشعوب العربية وتعلمت واستنارت. المسألة مسألة وقت ليس إلا...

في أوساط الجماهير بل وأحياناً أوساط المثقفين. انظر تواطؤ العديد من المثقفين مع الخط الإخواني، والذين يغضون الطرف عن شحنه الطائفي المتواصل، ثم يزعمون في الوقت ذاته أنهم من أتباع حقوق الإنسان والفلسفة السياسية الحديثة! أفرق هنا بين الحرس القديم المتشدد على طريقة مهدي عاكف، والخط المنفتح داخل الإخوان على طريقة عبد المنعم أبو الفتوح مثلاً. علينا نحن العلمانيين أن نكون عادلين أيضاً ونرى الجهود التي يبذلها بعض الإخوان للحاق بركب العصر... ولكن لا يزال أصغر شيخ قادراً على تجييش الجماهير أكثر من ألف مثقف أو أكثر من عدة أحزاب دفعة واحدة. وبالتالي فعن أي ثورة نتحدث؟ ينبغي أن نتفق على الأشياء والمصطلحات. الثورات التنويرية لا تزال أمامنا لا خلفنا. وأخشى ما أخشاه هو أن نضطر إلى المرور بالمرحلة الأصولية كما فعل الإيرانيون قبل أن ننتفض عليها بثورات تنويرية لاحقة بعد عشرين أو ثلاثين سنة قادمة! عندئذ سوف تحصل الثورة الحقيقية: الثورة التي تقفز إلى الامام ولا تشد إلى الخلف. عندئذ سيحصل ما هو معادل للثورة الفرنسية أو الإنكليزية أو الأميركية. هل نسيتم كيف تحمسنا للثورة الإيرانية المندلعة ضد الشاه والإمبريالية والصهيونية؟ حتى المسكين ميشيل فوكو وقع في الفخ بعد أن سحره منظر الجماهير التي نزلت إلى شوارع طهران بالملايين وراحت تواجه بصدورها العارية الدبابات والرشاشات. ثم كانت النتيجة التي نعرفها... فالشعب الإيراني بحاجة الآن إلى ثورة على الثورة أو انقلاب على الانقلاب. بهذا المعنى يمكن القول بأن الثورة العربية بالمعنى العميق للكلمة لم تحصل بعد، ولا كذلك الثورة الإيرانية. ولن تحصلا قبل أن يتم نقد العقل اللاهوتي الشيعي والعقل اللاهوتي السني الموروثين عن العصور الوسطى. بمعنى آخر: لن تحصلا قبل أن ينجح مشروع نقد العقل الإسلامي وتفكيك الانغلاقات المذهبية والطائفية[١]...

الثورة العربية الحقيقية لا تزال في ضمير الغيب...

لهذا السبب أقول: لن تحصل الثورة التنويرية قبل أن تشبع الثورة الأصولية من ذاتها

١ للمزيد من التوسع حول هذه النقطة الحاسمة انظر كتاب محمد أركون: **تحرير الوعي الإسلامي. نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة**. منشورات دار الطليعة. بيروت. ٢٠١١.

وتستنفد كل طاقاتها وإمكانياتها وتفقد مصداقيتها في نظر الجماهير المتعلمة على الأقل. المعركة فكرية إذن قبل أن تكون سياسية. وإذا لم تُربح فكرياً فلن تُحسم سياسياً. لن تحصل الثورة الموعودة التي صفق لها كانط قبل أن تنتصر الفلسفة الإنسانية الحديثة على لاهوت القرون الوسطى المشرش في الأعماق والأقاصي، والذي يعطي للشيخ القرضاوي كل هذه الشعبية والثقة المتضخمة بالذات، إن لم أقل الانتفاخ الزائد عن الحد. لقد أصبح البابا المعصوم! فإذا كان سقف الإخوان المسلمين هو مستقبل العرب فعلى العرب ومستقبلهم العفاء. والله لن تقوم لهم قائمة ولن ينهض لهم بنيان. ولن تكون لهم أي مكانة على مسرح الأمم المتمدنة المتحضرة.

(أفتح هنا قوساً آخر لكي أشير إلى تصريحات المفكر التنويري التونسي عبد الوهاب المؤدب. يقول بما معناه: المستقبل سيكشف لنا فيما إذا كان القرضاوي انتهازياً أو مخلصاً عندما زعم أنه من أنصار الدولة المدنية ولكن بمرجعية إسلامية، لا الدولة الدينية. ثم يستدرك فوراً قائلاً إنه إذ يقول هذا الكلام فإنه يفرق بين الدين والحضارة. وهذا التفريق لا معنى له إلا إذا خرجنا من الانغلاق اللاهوتي القروسطي وانفتحنا على المنظور الكانطي الكوسموبوليتي الجديد: أي منظور فلسفة التنوير بالمعنى الواسع للكلمة. ولكن الدكتور القرضاوي يدين العلمانية عندما يقول إنها تتبنى القانون الوضعي وترفض القانون الإسلامي الذي تعتبره غالبية المسلمين بمثابة قانون إلهي. وبالتالي فالعلماني الذي يرفض تطبيق القانون الإسلامي، أي الشريعة، هو مرتد في نظره! وعقوبة المرتد القتل... فهل جميع الليبراليين العرب مرتدون لأنهم يرفضون مثلاً تطبيق حد الرجم المرعب على المرأة المخطئة؟ أو لأنهم يرفضون قطع يد فقير جائع سرق رغيفاً من الخبز؟ هكذا نلاحظ أن الشيخ الجليل "عاد إلى قواعده سالماً" كما يقال وكشف عن موقعه الحقيقي: إنه مجرد سلفي أصولي ليس إلا[١]. وبالتالي أين هي حداثة الشيخ القرضاوي الفقهية؟ لقد تبخرت هنا. هل هي مجرد تكتيك؟

---

١ الدليل على أصوليته الخطرة هو إدانته للناقد الكبير رجاء النقاش وإصدار فتوى بتكفيره بحجة أنه شيوعي! كان ذلك في قطر حيث يوجد الاثنان وكلاهما مصري. ويبدو أن نجاح الأستاذ النقاش في تأسيس مجلة الدوحة الثقافية أثار غيرة الشيخ وحفيظته، فقرر إيقافه عند حده عن طريق تأليب التيار الإسلامي المحافظ عليه، على الرغم من أنه كان يخدم قطر والثقافة العربية كلها. بل واستطاع إيقاف المجلة وإغلاقها وتعطيل المشروع التنويري لرجاء النقاش. أليست هذه محاكم تفتيش؟ ماذا فعل كهنة أوروبا المسيحيون ضد العلماء والفلاسفة من غاليليو إلى ديكارت وسبينوزا وعشرات الآخرين؟ والسؤال: كم من الضحايا سوف يتساقطون قبل أن ينحسر تأثير رجال الدين الطاغي ويستنير العرب؟

أرجو ألا نظلمه إذ نقول ذلك. فهو أحياناً يبذل بعض الجهد للتوفيق بين الشريعة والحياة أو بين الفقه الإسلامي والعصر).

ولذا نقول ما يأتي: لن تحصل الثورة العربية الموازية للثورة الفرنسية في العالم الأوروبي قبل أن ينتصر التأويل الجديد للإسلام على التأويل الطائفي القديم الراسخ الجذور، سواء أكان سنياً أم شيعياً. باختصار شديد، لن تحصل قبل أن ينتصر محمد أركون على يوسف القرضاوي! من الناحية الفكرية هو منتصر عليه مئة في المئة (لا وجه للمقارنة) ولكن من الناحية الجماهيرية؟... ربما لن يحصل ذلك قبل ثلاثين أو أربعين سنة قادمة. هنا تكمن عظمة الانتفاضات العربية الراهنة وهنا تكمن حدودها أو محدوديتها التي لا تستطيع أن تتخطاها. هنا يكمن وجهها التناقضي أو طابعها الازدواجي الغامض. ولذلك فإني أحييها من جهة وأنبه إلى نواقصها أو بالأحرى المخاطر المحدقة بها من جهة أخرى. لكي أوضح كلامي أكثر سوف أقول ما يأتي: معظم المسلمين المعاصرين لا يزالون مسجونين داخل إطار السياج الدوغمائي المغلق الموروث عن القرون الوسطى منذ مئات السنين، والذي أمضى محمد أركون عمره في نقده وتفكيكه وتعرية جذوره والبرهنة على بشريته وتاريخيته. بمعنى آخر، فإنهم منغلقون داخل الاعتقاد القائل بأن العالم منقسم إلى دار إسلام ودار حرب، إلى مؤمنين وكفار، وإن المؤمنين الحقيقيين هم وحدهم المسلمون من بين كل خلق الله. لا يستطيعون أن يفهموا أن هناك عدة طرق تؤدي إلى الله لا طريقاً واحداً أو ديناً واحداً أو مذهباً واحداً. التعددية الدينية أو الاعتقادية لا تزال تشكل اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه بالنسبة إلى جماهيرنا الغفيرة وشيوخنا الأجلاء. هذا فضلاً عن الحرية الدينية والعياذ بالله! فهي تعتبر رجساً من عمل الشيطان. أقصد بالحرية الدينية هنا: حرية أن تعتقد أو لا تعتقد، أن تمارس الطقوس أو لا تمارسها، بل وحتى أن تخرج من كل الأديان والمذاهب وتعتنق الفلسفة التنويرية الكونية ديناً من دون أن يؤذيك أحد أو يعتدي عليك أحد. هنا تكمن مشكلتنا مع عقلية القرون الوسطى التي لا تزال مسيطرة على جماهيرنا بنسبة ثمانين في المئة على الأقل. وذلك على عكس الجماهير الأوروبية التي تحررت من منظور القرون الوسطى. وهنا تكمن قطيعة الحداثة الكبرى. بل وحتى داخل المسلمين أنفسهم هناك مؤمنون وكفار طبقاً لحديث الفرقة الناجية الذي يكفر منذ انتصار الحنابلة قبل ألف سنة جميع الفرق والمذاهب من معتزلة وفلاسفة وشيعة وإباضية، بل وحتى بعض

المذاهب السنية المنفتحة ولكن غير الحنبلية وغير الوهابية. ثم تشكل ضد هذا الانغلاق السني الحنبلي انغلاق شيعي لاهوتي آخر يزعم أنه هو الفرقة الناجية ويكفر أهل السنة! وبالتالي فلا نزال منغلقين على أنفسنا داخل لاهوت القرون الوسطى الذي قضت عليه فلسفة الأنوار والثورة الفرنسية. من هنا عظمة الثورة الفرنسية التي لا تضاهى. ينبغي أن يعلم الجميع بأن المذهب الكاثوليكي البابوي الروماني كان يفرض نفسه أيضاً بمثابة الفرقة الناجية الوحيدة داخل المسيحية ويكفر البروتستانتيين وبقية المذاهب المسيحية الأخرى، هذا فضلاً عن المسلمين واليهود إلخ... وقد ذبح البروتستانتيين الفرنسيين ذبحاً ودمرهم عن بكرة أبيهم تقريباً بحجة محاربة الهرطقة والزندقة. ولا يزال الفرنسيون يتذكرون بنوع من اللوعة والحسرة والخجل أيضاً تلك الفترة السوداء المظلمة من تاريخهم. ولكن فلاسفة الأنوار فككوا العقيدة الكاثوليكية البابوية تفكيكاً راديكالياً و لم يتركوا فيها حجراً على حجر. ماذا فعل فولتير؟ ماذا فعل روسو؟ ماذا فعل ديدرو والموسوعيون؟ ماذا فعل كانط؟ ماذا فعل هيغل؟ إلخ. لا يوجد مفكر أوروبي واحد له معنى إلا وكانت المشكلة الدينية أو الطائفية هي شغله الشاغل على مدار ثلاثمئة سنة من عمر الحداثة الأوروبية. القصة خطيرة، القصة ليست مزحة، القصة ليست سهلة على الإطلاق. هذه الثورة الفكرية العظيمة هي التي أزعم أنها لم تحصل حتى الآن عندنا على الرغم من كل الجهود التي بذلها التنويريون العرب من مسلمين ومسيحيين منذ عصر النهضة حتى الآن.

عظمة الثورة الفرنسية

بعد أن انتصر التنوير الفكري في أوروبا على لاهوت القرون الوسطى ومحاكم التفتيش والتكفير، جاءت الثورة الفرنسية لكي تقطف الثمار وتجسد الفكر الجديد على أرض الواقع. وبالتالي فالأرضية كانت ممهدة. ولولا ذلك لما تجرأت على أن تقطع مع المنظور اللاهوتي القروسطي الطائفي وتساوي بين الجميع عندما أصدرت إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي يؤسس المواطنية على قواعد جديدة كلياً. لأول مرة أصبح الأقلوي البروتستانتي مواطناً كامل المواطنية مثل الكاثوليكي. بل وحتى اليهودي أصبح مواطناً بالكامل في ظل الثورة الكبرى. لا ذكر للشريعة المسيحية في هذا الإعلان العظيم الذي يعتبر مفخرة فرنسا

حتى الآن. ليست المصدر الرئيسي ولا الثانوي للتشريع والقوانين. مصدرها فلسفة روسو ومونتسكيو وبقية الفلاسفة العقلانيين لا الكهنوت ولا اللاهوت الذي يميز بين المسيحي وغير المسيحي، أو بين الكاثوليكي والبروتستانتي، أو بين المؤمن والكافر بالمعنى التقليدي والإكراهي القروسطي لكلمة "مؤمن"... (يفضل أن نقول "متدين تقليدي" ملتزم بأداء الطقوس والشعائر لا "مؤمن"، لأن الجميع مؤمنون بالله أو بالقيم العليا، بمن فيهم أولئك الذين خرجوا من كل الأديان والمذاهب). لهذا السبب قلت إن الثورة الفرنسية كانت ثورة فعلية، ثورة راديكالية تستحق اسم الثورة لأنها دشنت عصراً جديداً وقطعت مع الماضي وساوت بين جميع المواطنين بغض النظر عن أصولهم العرقية أو الطائفية والمذهبية. ولكن هذا الشيء ما كان ممكناً لولا أن التنويريين انتصروا على اللاهوتيين المسيحيين المتعصبين نظراء مشايخنا حالياً. (أقول ذلك على الرغم من أن بعض مشايخنا كالدكتور القرضاوي يتخذون أحياناً بعض المواقف التجديدية المدهشة التي كنت قد أشدت بها أكثر من مرة في الماضي. ولكنهم سرعان ما يعودون إلى مواقعهم الانغلاقية السابقة. لا أعرف لماذا تكون كل الانتفاضات العربية مشروعة ما عدا انتفاضة البحرين التي هي وحدها طائفية! هذا فضلاً عن هجومهم العنيف على التجربة التونسية متهمين إياها بالعلمانية المتطرفة[١] أو

---

١ انظر هجوم الدكتور القرضاوي على كلتا التجربتين الرائدتين في تونس وتركيا من خلال كتاب بعنوان: **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام. تونس وتركيا نموذجاً**. المركز المغاربي للبحوث والترجمة ٢٠٠٢.

نقول ذلك على الرغم من أنه لا يوجد أي تطرف علماني في تونس ولا في تركيا بل ولا توجد حتى علمانية بالمعنى الحقيقي للكلمة! فالعلمانية هناك لا تزال ناقصة وغير مكتملة، ولا تزال لرجال الدين صولات وجولات. ولا يزالون يتدخلون في السياسة على قدم وساق. ماذا يفعل الغنوشي الآن؟ ولكن حتى هذه العلمانية المعتدلة جداً والمخففة استكثرها الشيخ القرضاوي على تونس واعتبرها تطرفاً! فما بالك لو أنه في فرنسا؟ لتوضيح الإشكالية قليلاً ينبغي العلم بأن مجتمعات الحداثة مبنية على شيئين أساسيين: النظام الجمهوري، والديمقراطية الاقتراعية. التراث الفرنسي يعطي الأولوية للنظام الجمهوري العلماني. وهذا ما فعله بورقيبة في تونس ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا. ومعلوم أنهما كانا معجبين جداً بالحضارة الفرنسية. في كل هذه الحالات، فإن الدولة تصبح هي المثقفة للشعب كما رغب جان جاك روسو. انظر جول فيري والدور الكبير الذي لعبه في تنوير الشعب الفرنسي إبان الجمهورية الثالثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان ذلك عندما أسس المدرسة العلمانية المجانية الإجبارية ودخل في معركة ضروس مع رجال الدين المسيحيين الذين لا يقلون عن القرضاوي تعصباً. وهذا ما فعله بورقيبة وأتاتورك اللذان قلداه. من هنا الطابع الاستثنائي لتونس وتركيا داخل العالم الإسلامي كله. ففي كلتا الحالتين همشت الشريعة و لم يعد لها تأثير يذكر على التشريعات والقوانين، وذلك على عكس مصر مثلاً وبقية المجتمعات العربية والإسلامية حيث تعتبر الشريعة المصدر الرئيسي للتشريع وقانون الأحوال الشخصية. من هنا غيظ الدكتور القرضاوي وحقده عليهما. فالتنوير التونسي أو التركي أكبر من أن يتحمله. أقول ذلك على الرغم من أنه محدود ونسبي جداً. ينبغي على التونسيين والتونسيات في المرحلة القادمة أن يناضلوا للحفاظ على هذا =

حتى معاداة الإسلام! وهو اتهام ظالم لا أساس له من الصحة. إنه لا يدرك الفرق بين الفهم المستنير للإسلام الحنيف، والفهم الحنبلي الانغلاقي المتشدد الذي ينتمي إليه ككل الإخوان المسلمون. فهل يتخذ أحياناً بعض المواقف التجديدية من قبيل التكتيك أو ذر الرماد في العيون لكي لا نخلط بينه وبين الظواهري وبن لادن؟... لا أعرف. أعتقد شخصياً أنه أكثر عقلانية واستنارة من مشايخ السلفية الوهابية. ينبغي ألا نظلم الرجل. ولكنه أقل استنارة وتقدمية من الأستاذ الرائع جمال البنا. أياً يكن من أمر، فقد حزنت جداً عندما سمعت بتهديده الابتزازي لزوجته المثقفة الرائعة أسماء بن قادة قبل طلاقه منها أو بعد طلاقه... هذا موقف غريب ويطرح علامات استفهام عديدة... وأرجو ألا يكون صحيحاً ما نقل. أرجو أن يكون مجرد شائعات. ولكن ما معنى المرأة بالنسبة إلى رجل دين؟ أقول ذلك وأنا أفكر في والدي أيضاً الذي كان شيخاً أصولياً مثل القرضاوي والذي لن أغفر له ما حييت طريقة معاملته لأمي وبخاصة بعدما أصيبت. لقد أهملها تماماً وسارع إلى الزواج بأخرى شريرة، كريهة، وما جف الطين عن قبرها!... وربما كان يستعجل موتها لكي يخلو له الجو... لا، ليس عندي أي أوهام حول رجال الدين على الرغم من الهالة القدسية الكبرى التي تحيط بهم وتمنعنا من أن نراهم على حقيقتهم: أي كبشر بكل بساطة لا أكثر ولا أقل... من هنا تركيزي على التنوير الأوروبي... وأتذكر رجال دين آخرين في منطقتنا تزوجوا "بطفلات" في الخامسة عشرة أو السابعة عشرة بعد أن تجاوزوا هم السبعين! ثم يعطونك بعدئذ دروساً في الأخلاق والابتعاد عن الشهوات والملذات: يا ابني أوصيك بتقوى الله، يا ابني وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، يا ابني إن كيدهن عظيم، إلخ... على من يضحكون؟ ما هذه المهزلة؟ مواعظ أخلاقية من جهة، وتطبيق معاكس تماماً من جهة أخرى. على هذا النحو فقدوا مصداقيتهم ما عدا في نظر السذج والشعب الجاهل المسكين. وبالتالي فمشكلتي مع رجال الدين مشكلة شخصية لا حل لها في المدى المنظور... إني أعتبرهم أخطر فئة على وجه الأرض، بل وأخطر من المخابرات لأنهم هم أنفسهم مخابرات إلهية! هذا إن لم أقل شيطانية! فهم قد يزرعون بذرة الفتنة الطائفية والحروب الأهلية بين الناس. عفواً لقد شطح بي القلم وتجاوزت الخطوط الحمر... أعتقد أن نهايتي أصبحت قريبة...

= المكتسب الثمين لكي لا يتراجع عنه الأصوليون بعد أن وصلوا إلى الحكم وأصبحوا نافذين جداً وقادرين على قلب المعادلة والمعطيات...

من هنا إعجابي الشديد بفلاسفة التنوير الأوروبي الذين عرّوا الكهنة المسيحيين على حقيقتهم. ومعلوم أن أوروبا لم تنهض إلا بعد الخلاص منهم، من فتنهم وشرورهم. من هنا حبي لفولتير ونيتشه على وجه الخصوص. ولكن لا ينبغي التعميم كلياً. فعندنا رجال دين أتقياء يخشون الله حقاً...). هكذا نلاحظ أن الثورة الفكرية - أكاد أقول الزلزال الفكري - لم تحصل بعد في الساحة العربية. فما بالك بالثورة السياسية التي تترجمها أو تجسدها على أرض الواقع؟ القصة طويلة...

طريق التنوير الطويل...

لكن بعد أن قلنا هذا الكلام ينبغي أن ننزل من سماء الأحلام والتنظيرات المثالية لكي نتموضع على أرضية الواقع وظروفنا الحالية الصعبة، وإلا فسوف نظلم جماهيرنا الطيبة والفقيرة كثيراً. ينبغي القول إن ما حققته الشعوب الأوروبية على مدار ثلاثة قرون من التطور المتدرج وهضم الثورات العلمية والفلسفية المتلاحقة لا تستطيع جماهيرنا أن تحققه بين عشية وضحاها! فلنعطها إذن الوقت الكافي لكي تتحرر وتستنير وتنضج. لا تستطيع أن تخرج من مرحلة القصور العقلي وتفكر بنفسها (كما يدعوها إلى ذلك كانط) من دون وصاية الشيخ القرضاوي ومئات الشيوخ الآخرين. مجرد التفكير في هذه الاحتمالية يجعلها تتزعزع نفسياً وتشعر بالرعب والخوف من القفز في المجهول. وهنا تكمن المعضلة الرهيبة التي نواجهها حالياً والتي لا حيلة لنا بها. كل المشاكل لها حل ولكن ليس في المدى المنظور بالضرورة، أو قل ليس بالسرعة التي نتوخاها. ونحن لا نستطيع أن نستورد شعوباً مستنيرة جاهزة من هولندا أو السويد أو سويسرا! هذه هي شعوبنا، وهذا هو قدرنا ومصيرنا. وهي شعوب طيبة، فقيرة، في معظمها... ولكن سوف تحترق عدة أجيال بأتون المعاناة الطائفية قبل أن نصل إلى نتيجة نهائية وحاسمة. يخطئ من يظن أن الفلسفة السياسية الحديثة، فلسفة حقوق الإنسان والمواطن، سوف تنتصر على لاهوت القرون الوسطى بين عشية وضحاها! مستحيل! إنه راسخ رسوخ الجبال في الأعماق والأقاصي... يخطئ من يظن أن الشيعي سيتساوى مع السني في العالم العربي، أو السني مع الشيعي في العالم الإيراني في المدى المنظور. هذا فضلاً عن القبطي أو المسيحي. فرنسا

لم تستطع تحقيق ذلك إلا بعد معارك فكرية وسياسية هائجة يشيب لهولها الولدان. أين هي هذه المعارك الجدلية الخصبة بين العقل الديني والعقل الفلسفي في العالم العربي والإسلامي كله؟ بالكاد ابتدأناها... بالكاد ابتدأنا نتجرأ على أن نرفع صوتنا، نفتح فمنا... أين هي القراءة التاريخية - الأركيولوجية لكل تراث الإسلام العظيم؟ الساحة محتلة كلياً من قبل صوت واحد: هو صوت الماضي الأصولي، صوت الشيخ الجليل. أين هو علم الأديان المقارنة في الجامعات العربية؟ هل سمعتم به؟ هل له من أثر؟ إنهم لا يسمحون به حتى ولو من قبيل الاطلاع والفضول المعرفي... هكذا نكون قد عدنا مرة أخرى إلى فراس السواح ومحمد أركون وعبد المجيد الشرفي وآخرين... وهذا يعني أن التنوير العربي - الإسلامي سيكون الموضوع الأساسي المطروح على الساحة بعد نجاح الانتفاضات الحالية التي تشكل خطوة مهمة إلى الأمام. ولكنها ليست نهاية التاريخ! بعدها سوف يبتدئ العمل الجاد. بعدها سوف تندلع المعركة الفكرية والسياسية الكبرى في العالم العربي. وهي معركتنا. منذ ثلاثين سنة ونحن نُعدّ أنفسنا لها ونمهد لها الطريق. إنها أهم من الخبز والملح... لا يمكن تحاشي إشكالية التنوير العربي - الإسلامي أو القفز عليها. وإلا فلن تنهض دولة مدنية، تقدمية، إنسانية، دولة القانون والدساتير الحديثة على أرض العرب. ومعلوم أنها هي وحدها القادرة على استيعاب الجميع داخل أحضانها، وعلى قدم المساواة، كما تفعل كل الأمم الحضارية المتقدمة.

تعقيب على ما سبق: هل القلق مشروع؟

بعد كل ما قلته سابقاً شعرت بأني لم أشبع من الموضوع. ولذلك سأضيف ما يأتي: كان زعيم حزب الوسط الديمقراطي المسيحي فرانسوا بايرو قد عبر عن قلقه، بعد أن رحّب كل الترحيب بالربيع العربي، قائلاً إنه سيغير وجه المنطقة والعالم. وسبب قلقه شيئان: الأصولية من جهة، والصراع المذهبي السني - الشيعي من جهة أخرى. وهما شيئان مترابطان. هذا من دون أن ننسى الصراع الإسلامي - المسيحي العربي، وبخاصة في مصر وبلاد الشام. وقد تؤخر هذه الصراعات الجانبية دمقرطة المنطقة عن طريق إشغالنا بحروب أهلية أو مذهبية لا يمكن استبعادها كلياً. قد تؤخر قيام دولة مدنية لكي لا نقول

علمانية تفتح صدرها وقوانينها ومؤسساتها للجميع من دون أي تمييز. قد تؤخر بلورة عقد مواطنية جديد قائم على أساس الفلسفة السياسية الحديثة لا على أساس اللاهوت القروسطي التكفيري أو الفقه القديم الساري المفعول حتى الآن والمسجل في الدساتير عن طريق القول بأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع... نقول ذلك ونحن نعلم أن الشريعة بحسب المفهوم السائد تتناقض كلياً أو جزئياً مع كل إعلانات حقوق الإنسان والمواطن، بدءاً من ذلك الإعلان الذي أصدرته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى ذلك الذي أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨، والذي رفضت السعودية وقتها التوقيع عليه بحجة أنه يتعارض مع الشريعة بالذات. أعتقد أنها طورت موقفها بعدئذ. ومعلوم أن الشريعة محصورة كلياً تقريباً بتطبيق الحدود البدنية: كحد الرجم والجلد وقطع يد السارق، إلخ. وهي أشياء ترعب الوعي المعاصر وتجعل العالم كله يكرهنا ويشمئز منا. لقد فاجأني كلام فرانسوا بايرو وأسعدني لأنه لم يستخدم لغة الأدلجة المتخشبة، بل ذهب إلى صلب الموضوع فوراً. هل أنا بحاجة لأن أكرر مرة أخرى أن ما أقوله لا يشكل أي اعتراض على مشروعية الانتفاضات الجارية ولكنه محاولة لتعميق النقاش وإيضاح الإشكاليات بقدر الإمكان؟

الفصل الخامس عشر

الانتفاضات العربية في مرآة الغرب

هل هي علاقة التابع بالمتبوع أو الفلاح بالإقطاعي؟

أحياناً يخيل إلي أن علاقة الغرب بالعرب تشبه علاقة الإقطاعي بالفلاحين الفقراء الذين يعيشون على "أراضيه" ويعتبرهم بمثابة أزلامه. إني أعرف أن هذا الكلام سوف يزعج بعض المثقفين الفرنسيين لو أتيح لهم الاطلاع عليه. ولكنه سوف يفرح البعض الآخر ممن تجاوزوا النزعة الكولونيالية الاستعلائية منذ زمن بعيد. فالمثقفون الفرنسيون ليسوا كتلة واحدة، بل هم مثل المثقفين العرب ينتمون إلى مشارب شتى وحساسيات مختلفة ومتضاربة. ففيهم اليميني واليساري، الصهيوني وغير الصهيوني... فيهم المحافظون الجدد وفيهم التقدميون ذوو النزعة التنويرية الكونية الإنسانية. فيهم أيضاً المحب الصادق، وفيهم المنافق الكاذب، وفيهم المعادي صراحة أو ضمناً... نعم فيهم التنويري الذي يتمنى للعرب ما يتمناه لشعبه أو لبقية شعوب الأرض، وفيهم العنصري الذي يعتبر أن الحضارة خلقت للعرق الأوروبي وله وحده، وفيهم بين بين. ولكن لتوضيح الصورة أكثر سوف أورد الحكاية التبسيطية الآتية: يحكى أن إبراهيم الكنج، وهو إقطاعي المنطقة التي ولدت فيها بقضاء جبلة، سمع بأن الفلاحين بنوا مدرسة في أعلى الجبل لتعليم أولادهم مبادئ القراءة والكتابة. فماذا فعل؟ هل شجعهم على ذلك؟ هل دعمهم مادياً؟ على العكس تماماً. لقد جن جنونه وأدرك فوراً وجه الخطر في العملية. ولذلك أرسل رجاله لهدم المدرسة في جنح الظلام. وذلك لأن

أولاد الفلاحين إذا ما تعلموا فسوف تتفتح أعينهم ويعرفون الحق من الباطل وينتفضون على العلاقات العبودية والإقطاعية السائدة. وربما تجرأوا وطالبوا لأولادهم بنفس الحقوق كأبناء الإقطاعي. وهذا شيء لا يغتفر. وبالتالي فمن مصلحته أن يبقى هؤلاء جهلة لا يفقهون شيئاً. وهذه هي حالة الغرب السيد المطاع تجاهنا. فنحن أيضاً إذا ما تعلمنا وتدمقرطنا وسيطرنا عل ناصية العلم والتكنولوجيا والفلسفة فسوف نصبح خطرين عليه يوماً ما. سوف نصبح منافسين له بدلاً من أن كنا مستهلكين لمنتجاته وتابعين له ومؤتمرين بأوامره على طول الخط. سوف أورد مثالاً آخر لتدعيم الفكرة، ولكنه يخص الشيخ هذه المرة لا الزعيم الإقطاعي. يقال إن أحد كبار الشيوخ كان يعظ الناس وينصحهم بعدم تعليم بناتهم لأن ذلك مخالف للشرع والدين وربما أدى إلى الفسق والفجور والغرور... ولكن الشيخ المحترم المبجل لم يكن يتردد في الوقت ذاته في إرسال ابنته إلى باريس لكي تدرس الطب! فمن الأفضل أن تظل ابنته الطبيبة الوحيدة في المنطقة على أن تكون هناك طبيبات عديدات. ثم ما علاقة هؤلاء الفلاحين الجهلة بالطب والعلم والثقافة؟ هذه أشياء لم تخلق لهم، بل لأبناء الشيوخ والزعامات. من هنا العلاقة العضوية التي كانت تربط دائماً بين الزعماء الإقطاعيين ورجال الدين في كل العصور وفي كل المجتمعات البشرية. وهي العلاقة التي أدانها جبران خليل جبران في بعض كتاباته الملتهبة.

هذه هي صورة مبسطة عن علاقة الغرب الاستعلائي بنا.

ومع ذلك، فإن شباب العرب أصبحوا يدقون على أبواب التاريخ! وسوف يدخلونه حتماً يا سادة العالم. فيا ويلكم من اليوم الموعود! أولاد العبيد سوف يصبحون حضاريين وديمقراطيين. من يصدق ذلك؟ أولاد المستعمَرين المذلولين المهانين قادمون. نعم العرب "الهمج" والمسلمون "المتعصبون" قادمون. وربما أصبحوا حضاريين ومتسامحين ومستنيرين مثلكم وأكثر. من يعلم؟ حتى الآن كان التاريخ حكراً عليكم أيها السادة تصولون فيه وتجولون. حتى الآن كنتم الأساتذة والآخرون، كل الآخرين، تلاميذ. ولكن عهد التلمذة ولى أو أوشك، وما عاد بالإمكان أن تستمر الأمور على حالها إلى أبد الآبدين. ما عاد بالإمكان أن توصدوا أبواب التاريخ في وجوه ملايين العرب والمسلمين. لقد أوصدتموه طيلة قرون وقرون، واستمتعتم بثمار الحضارة والنظافة والتقدم والرفاهية وحدكم في نوع من الأنانية اللذيذة والتقوقع الخائف على الذات.

هل من مصلحة الغرب أن يصبح العرب ديمقراطيين مستنيرين؟

ظاهرياً لا هم للغرب إلا أن يخرج العرب من مرحلة الأصولية الدينية ويستنيروا ويتحضروا ويتدمقرطوا. وعندئذ لا يعودون يخيفون الآخرين عن طريق التفجيرات والكاميكاز، وبخاصة تلك السيدة الناعمة المهذبة الراقية: إسرائيل! ولكن قبل هذا السؤال ينبغي أن نطرح سؤالاً آخر: هل يعتقد الغرب بأن العرب أهل للديمقراطية والعقلية الحضارية فعلاً؟ لن أجيب أنا شخصياً عن هذا السؤال، بل سأترك الإجابة عنه لأحد المثقفين الفرنسيين المحترمين: دانييل لندنبيرغ. من المعلوم أنه كان قد خاض حرباً ضروساً ضد المثقفين الطائفيين الفرنسيين، وبخاصة اليهود الصهاينة، على الرغم من أنه هو يهودي أيضاً. ولكنه يهودي شريف يرى العيب في طائفته أيضاً وليس فقط عند الآخرين، وبخاصة العرب والمسلمين. إنه مثقف نقدي لا عضوي: أي غير مرتبط عضوياً بالطائفة وبشكل تعصبي أعمى كبرنار هنري ليفي مثلاً أو أندريه غلوكسمان أو بالأخص آلان فنكيلكروت. يقول في آخر تصريحاته عن الانتفاضات العربية الجارية حالياً: الكثير من المثقفين الفرنسيين يعتقدون في قرارة أنفسهم بأن الشعوب العربية متخلفة بشكل أزلي أو خلقي أو وراثي فطري، أي بشكل لا مخرج منه. وبالتالي فالديمقراطية لم تخلق لهم. ولا تناسبهم إلا سياسة العصا والاستبداد.

ماذا نفهم من هذا الكلام؟ إنه واضح كل الوضوح وليس بحاجة إلى شرح. ولكنه يساعدنا على فهم السر في صمت هؤلاء المثقفين على الانتفاضات العربية واشتباههم بها وتعاطفهم المضمر إن لم يكن الصريح (على الأقل في البداية) مع الأنظمة البوليسية الفاسدة التي سقطت أو المرشحة للسقوط. ولكن في ما بعد، أي بعد أن أصبحت الانتفاضات المباركة كالسيل الجارف الذي يكتسح في طريقه كل شيء، ما عاد بالإمكان السكوت عنها أو عليها. وعندئذ ابتدأت مواقف المثقفين الفرنسيين تنكشف تدريجاً. قبل أن أدخل في صلب الموضوع، سوف أقول إن ريجيس دوبريه يشاطر دانييل لاندنبرغ هجمته على هذا النوع من المثقفين الفرنسيين الذين يتصدرون واجهة الأضواء الإعلامية في باريس.

يرى دانييل لاندنبيرغ أنه يوجد محافظون جدد في فرنسا أيضاً وليس فقط في أميركا. ويقف في طليعتهم المثقفون المذكورون آنفاً: أي برنار هنري ليفي، وأندريه غلوكسمان، وآلان فنكيلكروت، وأليكسندر آدلير. وهؤلاء لا ينظرون إلى الشؤون العربية إلا من منظور

العين الإسرائيلية. في كل مرة يحصل شيء ما يتساءلون: هل هو لمصلحة إسرائيل أم لا؟ لو طارت ذبابة لطرحوا السؤال نفسه... ولذلك شعروا بالحرج تجاه الربيع العربي أو الانتفاضة العربية للوهلة الأولى. شعروا بالحرج لسببين: الأول هو انزعاجهم من أن يكون العرب شعوباً تعشق الحرية أيضاً! والثاني هو أنهم خافوا أن يكون ذلك ضد مصلحة الآنسة المغنجة المدللة إسرائيل التي هي وحدها بلد الحريات والديمقراطيات!... ولكن ريجيس دوبريه كان قد علمنا منذ زمن طويل أن إسرائيل هي بلد

ديمقراطي بالنسبة إلى اليهود ويهودي بالنسبة إلى العرب. نقطة على السطر. وهذا يعني أن الديمقراطية لا تنطبق إلا على شعب الله المختار... أما العرب؟... في ما بعد غيّر بعضهم موقفه كليفي وغلوكسمان من دون أن يختفي القلق نهائياً...

موقف آلان فنكيلكروت

يبدو أن هذا المثقف هو الأكثر تعصباً لإسرائيل والفكرة الصهيونية والأكثر ارتياباً بالعرب. فهو يشتبه بالانتفاضة المصرية العارمة ويخشى أن تشكل خطراً يحوم فوق رأس إسرائيل. يقول ما معناه: عندما ننظر إلى الهجمات التي يذهب ضحيتها الأقباط، وعندما نعرف أن مصر تعيش منذ سنوات طويلة حالة هيجانية ضد إسرائيل وضد السامية، وعندما نقرأ شعارات من نوع (مبارك صهيوني)، وعندما نعلم أن إيران فرحة بما يحصل، فإننا لا نملك إلا أن نخاف ويتزايد قلقنا. لا يسعنا إلا أن ننتظر حتى تنجلي الأمور قبل أن نطلق حكماً على هذه الانتفاضات العربية.

أما غلوكسمان الذي لا يقل محبة وتعصباً لإسرائيل عنه، فيبدو أكثر تفاؤلاً بما يحصل في أرض العرب. يقول مثلاً: ما يحصل في مصر حالياً يبرهن لنا على أن العرب ليسوا مدانين بأن يظلوا محكومين ديكتاتورياً إلى أبد الدهر. إنهم ليسوا محكومين بذلك لا عن طريق الولادة ولا عن طريق الوراثة.

على هذا النحو يستبعد غلوكسمان التفسير العنصري للحالة العربية ويتمايز عن فنكيلكروت والمتعصبين جداً ضدنا من مثقفي اليمين المتطرف، سواء أكانوا يهوداً صهاينة أم لا. والدليل على ذلك هو أن فنكيلكروت يرفض تشبيه الانتفاضات العربية الرائعة

الجارية حالياً بتلك الثورات التحررية التي اندلعت في دول أوروبا الشرقية تباعاً بعد سقوط جدار برلين. نقول ذلك على الرغم من أن أوجه التشابه واضحة وتقفز إلى الذهن فوراً. لماذا يرفض هذا التشبيه الذي خطر على بال العديد من المثقفين الفرنسيين والعرب؟ يقول حرفياً: إن المقارنة بين الثورات التحررية التي جرت إبان التسعينات في دول أوروبا الشرقية والثورات العربية الجارية حالياً خادعة أو خاطئة. لماذا؟ لأن بلدان أوروبا الشرقية كانت تحتوي على تراث ديمقراطي سابق على التجربة الشيوعية. فهل هذا التراث موجود في مصر يا ترى؟ لست واثقاً من ذلك.

بل ويرفض فنكيلكروت مقارنة الحركة الأصولية المصرية والتونسية بالحركة الأصولية التركية التي يقودها حزب أردوغان. لماذا؟ لأن العلمانيين في تركيا حسب رأيه يمتلكون قوة ومشروعية لا مثيل لها في البلدان العربية.

نستنتج من كل ذلك أن الحالة العربية مسدودة من كل الجهات، ويفضل أن يبقى الحاكم الديكتاتوري على رأس العرب إلى أجل غير مسمى!...

صوفي بسيس ترد عليه

لحسن الحظ فإن هذه الباحثة اليهودية التقدمية ذات الأصل التونسي تعرف كيف ترد على فنكيلكروت وجماعة المحافظين الجدد الذين يسيطرون أحياناً على الساحة الباريسية بسبب هيمنتهم على وسائل الإعلام. فهي تقول متهكمة:على ما يبدو فإن صلابة التراث الديموقراطي لدى شعوب أوروبا الشرقية موجودة في جيناتها الوراثية! وأما الجينات الوراثية العربية فلا أثر للديموقراطية فيها! عيب. هل يعلم السيد آلان فنكيلكروت أن بلدان أوروبا الشرقية شهدت أيضاً أنظمة أصولية، مسيحية، استبدادية، تماماً كالعالم العربي؟ وهل يعلم أنها شهدت بعدئذ أنظمة فاشية وشيوعية توتاليتارية؟ ومع ذلك فقد أصبحت ديموقراطية بعد سقوط جدار برلين. وبالتالي فلا نعرف لماذا لا تصبح الشعوب العربية والإسلامية حرة وديموقراطية أيضاً؟ كفانا استخداماً للمعايير العرقية والعنصرية لتفسير قابلية الشعوب الأوروبية الشقراء للديموقراطية، وعدم قابلية الشعوب العربية والإسلامية... إنهم بشر أيضاً. وقد يتقدمون ويتطورون ويستنيرون ويصبحون رواد حضارات... (أفتح هنا قوساً

وأقول: ينبغي علينا أيضاً نحن المثقفين العرب أن نكنس أمام بيتنا ونمتنع عن إطلاق الأحكام العنصرية والطائفية على اليهود. ينبغي أن نتمايز كلياً عن الموقف الأصولي المتخلف الذي يدينهم بشكل مسبق ومطلق. فهناك يهود ويهود كما أن هناك عرباً وعرباً، ولا ينبغي التعميم. لا ينبغي أن نعامل دانييل لندنبيرغ أو صوفي بسيس أو إدغار موران أو الصحافي الإسرائيلي جدعون ليفي أو السياسي الاشتراكي يوسي بيلين أو آخرين عديدين كما نعامل برنار هنري ليفي وغلوكسمان وفنكيلكروت وأليكسندر آدلير وجماعات الليكود وشاس إلخ... هذا ظلم ويرتد أثره سلبياً على الشعب الفلسطيني والقضية العربية).

باسكال بونيفاس يردّ على المحافظين الجدد الفرنسيين

بعد أن حيّا برنار هنري ليفي وغلوكسمان الثورات العربية المتفجرة حالياً، راحا يتخوفان من أن يقطف الأصوليون أو الإخوان المسلمون ثمارها. على هذا التخوف يرد باسكال بونيفاس مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية في باريس وصاحب الكتاب الشهير: **هل من المسموح نقد اسرائيل في فرنسا؟** يقول منفعلاً وغاضباً: الشيء الغريب العجيب هو أن هؤلاء النجوم الإعلاميين قلقون من وصول الحركة المتزمتة الإسلامية إلى سدة السلطة في مصر. وهذا من حقهم. ولكنهم لا يقولون كلمة واحدة عن الحركة الأصولية اليهودية التي تمارس السلطة في التحالف الحكومي لنتنياهو. فحزب شاس مثلاً ليس فقط حزباً أصولياً بل عنصري أيضاً. وهو يشارك في السلطة الإسرائيلية إلى جانب حزب آخر عنصري ولكن علماني هذه المرة هو حزب: إسرائيل بيتنا الذي يتزعمه وزير الخارجية ليبرمان.

صدق باسكال بونيفاس. ومع ذلك فلم نسمع أحداً يحتج على هذا الوضع الشاذ. في حياتنا كلها لم نسمع برنار هنري ليفي أو غلوكسمان هذا فضلاً عن فنكيلكروت ينتقدون شيئاً في سياسة حكومة إسرائيل! هل يعقل أن تكون هذه الحكومة معصومة أو ذات كلام إلهي منزل؟ هل الحكومة التي تمارس الاحتلال والاستيطان والمجازر وهدم البيوت والاغتيالات السرية والعلنية ومصادرة الأراضي هي حكومة نظيفة أو شريفة؟ هل يمكن لمثقف يحترم نفسه أن يسكت عن كل ذلك؟! هنا يكمن الفرق كما قلنا بين المثقف النقدي الحر والمثقف العضوي المتعصب: أي المرتبط عضوياً بمصالح جماعته وطائفته إلخ

درجة أنه لا يستطيع أن يرى أي عيب فيها. لقد أعماه التعصب إلى درجة أنه لا يرى العيب إلا في الآخرين. اعفونا من ذكر الأسماء لأن العديد من المثقفين العرب، وليس فقط اليهود، هم من هذا النوع... من أصعب الصعب رؤية نواقص الذات أو الاعتراف بأخطائها. ومن أسهل السهل أن ترى نواقص الآخرين وتعيرهم بها شامتاً، متشفياً، مستمتعاً... برنار هنري ليفي دافع عن قضية المسلمين المضطهدين في البوسنة وعن قضايا أخرى في شتى أنحاء العالم، ويشكر على ذلك. ولكنه لا يستطيع أن يرى الحق في فلسطين. وقل الأمر ذاته عن غلوكسمان الذي دافع بقوة عن المسلمين الشيشان ضد الزحف الروسي الساحق الماحق، ويشكر على ذلك أيضاً. ولكنه لا يستطيع أن ينتقد حتى شارون!

كارولين فوريست ونفاق إسرائيل

كارولين فوريست هي الباحثة والصحافية الفرنسية التي نشرت بالتعاون مع فياميتا فينر كتاباً عن الأصوليات الثلاث وكيفية محاربتها للعلمانية. وكانت رابطة العقلانيين العرب قد ترجمته ونشرته دار بترا عام ٢٠٠٦ تحت العنوان الآتي: **العلمانية على محك الأصوليات اليهودية والمسيحية والإسلامية.**

وهي تتهكم على قلق نتنياهو من الانتفاضة المصرية وخشيته من أن تتراجع مصر عن عملية السلام بعد رحيل مبارك. تقول ما معناه: كان قلقه يمكن أن يكون أكثر إقناعاً وصدقاً لو أنه استفاد من استقرار مصر طيلة ثلاثين سنة في عهد مبارك المتساهل معهم إلى أقصى الحدود. لماذا لم يستغل هذه الفترة الذهبية المؤاتية لدفع عملية السلام إلى الأمام؟ إن من السهل أن يتباكى عليها الآن. ولكنه لم يفعل شيئاً و لم يتجاوب إطلاقاً مع ترحيب مبارك به وبكل القادة الإسرائيليين. بل ورفض كل التنازلات التي قدمتها له السلطة الوطنية الفلسطينية. وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت عملية السلام مقبورة، وأن السلطة الفلسطينية فقدت هيبتها ومشروعيتها في نظر الجماهير الفلسطينية. وهكذا أصبحت حماس في أوج عنفوانها ونزل اليسار الإسرائيلي إلى قعر الجحيم وانتصر المتطرفون في كلتا الجهتين. فهل يمكن أي حالة مقبلة أن تكون أسوأ من ذلك؟ هل يمكن أن تتدهور الأمور أكثر في ظل الانتفاضات العربية؟ لقد أفسد الصراع العربي -الإسرائيلي سياسة المنطقة منذ أكثر

من ستين سنة. و لم يعد له أي حق في تبرير تأخير الدمقرطة العربية. فليخرس نتنياهو إذن وكل النفاق الغربي الكاذب معه. لقد استغلوا هيبة مبارك ومشروعيته وامتصوها حتى آخر لحظة، وعندما أصبح مستهلكاً وفاقداً للمصداقية في نظر الجماهير العربية لفظوه. وهذه هي منهجية الغرب في التعامل مع القادة العرب من السادات إلى عرفات إلى مبارك...

باسكال مينوريه: الثورة العربية لم تحصل بعد!

من بين التعليقات التي أعجبتني فعلاً تعليق الباحث الفرنسي المختص في الشؤون العربية عموماً والسعودية خصوصاً: باسكال مينوريه. وبه أختتم هذا الحديث. يرى هذا الباحث أن أحزاب المعارضة الفعلية دمرت في مصر منذ عام ١٩٥٢. و لم يبقَ في الساحة إلا قوتان أساسيتان: الجيش بزعامة الضباط الأحرار من جهة، والإخوان المسلمون من جهة أخرى. والآن نجد أنفسنا أمام السيناريو نفسه. وبشكل من الأشكال يمكن القول إن الثورة العربية لم تحصل بعد. يمكن تشبيهها بنقطة واحدة مع الثورة الفرنسية: ألا وهي سقوط الديكتاتور، أي لويس السادس عشر أو بن علي أو مبارك، ولكن من دون سقوط سجن الباستيل وكل امتيازات العهد القديم المحصورة بالطبقة العليا من المجتمع. بهذا المعنى يمكن القول إن الثورة الفرنسية كانت بالفعل ثورة حقيقية على عكس الانتفاضات العربية الجارية حالياً. لماذا أقول ذلك؟ لأنها أدت إلى تغيير حقيقي على أرض الواقع لا تغيير شكلي أو ظاهري سطحي. ثم يختتم الباحث كلامه قائلاً: لقد انتظرنا مئة سنة حتى آتت الثورة الفرنسية أكلها ونضجت ثمارها يانعة جنية. لقد انتظرنا مئة سنة حتى تمكن الفرنسيون من تفكيك الانغلاقات الأصولية والامتيازات التاريخية التي كانت تعوق تطور المجتمع وانطلاقته. وبالتالي فلنعطِ بعض الوقت أيها الأصدقاء للانتفاضات العربية! إنها لن تستطيع قلب النظام الإقطاعي – الأصولي – الطائفي القديم وتحقيق العدالة والمساواة والديمقراطية وتشكيل دولة القانون والمؤسسات المدنية قبل عشرين أو ثلاثين سنة قادمة على الأقل. ولكن الخطوة الأولى ابتدأت ولن تتوقف عمّا قريب...

موقف الفيلسوف إدغار موران

لا يكفي أن نعرف ماذا تقوله العين الداخلية عن هذه الانتفاضات الربيعية التي فاجأت العالم وما كان ينبغي أن تفاجئ أحداً، بل ينبغي أن نعرف ماذا تقوله العين الخارجية التي تراقب الأمور عن كثب: أقصد عين الفلاسفة والمثقفين الفرنسيين والغربيين عموماً. فالعين الخارجية قد ترى أشياء لا تراها العين الداخلية بفضل المسافة التي تستطيع اتخاذها عن الحدث، وكذلك الحرية. كثرة القرب والانخراط قد تعمي الرؤية ولكن كثرة الابتعاد أيضاً. فلنحاول أن نكون بين بين: لا بعيدين جداً ولا قريبين جداً. خير الأمور أوسطها.

يرى الفيلسوف إدغار موران أن هذه الانتفاضات العفوية الصاعدة من الأعماق بددت الصورة السائدة عن العرب في أوروبا والعالم كله. وربما كانت تكمن هنا ميزتها الأساسية الكبرى. لقد بددت الظلمات العقلية التي كانت تخيم على العالم العربي وتدينه بأن يبقى إما تحت بوط الديكتاتوريات البوليسية – العسكرية العلمانية قليلاً أو كثيراً، وإما تحت هيمنة النظام الثيوقراطي الأصولي المتخلف على الطريقة الطالبانية أو الإيرانية. ولكن انفجار الانتفاضات العربية في هذا الربيع الجميل على أيدي الشبيبة المطالبة بالحرية والكرامة والتقزز من فساد الطغاة وحاشيتهم أثبت لنا أن حب الديمقراطية ليس حكراً على الشعوب الغربية، ولكنه كوني يخص كل الشعوب. لقد اكتشفنا أن العرب مثلنا ونحن مثل العرب! على الرغم من كل الاختلافات التاريخية والثقافية. الكلام دائماً لإدغار موران. ونحن نشكره لأنه يضعنا على المستوى نفسه مع الشعوب الأوروبية المتحضرة. وهذا يعني أن نزعات الاستعلاء العنصرية قد انتهت، على الأقل لدى مفكرين مستنيرين من أمثاله. ويعترف موران بأن هذه الموجة الديمقراطية الهائلة ليست مدينة بشيء لحكام الغرب الذين فعلوا المستحيل لدعم الطغاة العرب. ولكنها مدينة في كل شيء للفكر التنويري الأوروبي الذي اخترع فكرة الديمقراطية والمواطنية بالمعنى الحديث للكلمة. وهنا وجه المفارقة والتناقض بين معظم حكام الغرب الحاليين وبين الفلسفة الإنسانية والتنويرية التي ترعرعت في الغرب ذاته. ولهذا السبب يتحدث مفكر مهم آخر عن خيانة التنوير في الغرب أو من قبل الغرب. وقد ناقشنا هذه المسألة على هامش مهرجان الجنادرية الأخير. هذا المفكر الذي يجدد النظرية التنويرية في فرنسا حالياً أهم من إدغار موران في رأيي. إنه المفكر جان كلود غيبو صاحب كتاب **خيانة التنوير بالذات**، هذا إضافة إلى كتاب آخر

مهم جداً هو: **على مشارف عالم جديد**. ففي رأيه إننا نشهد حالياً طفرة معرفية لا تقل أهمية وخطورة عن تلك التي شهدتها أوروبا عندما انتقلت من العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعصور الحديثة. ولكن رفقاً بنا أيها السادة! فنحن لم نخرج بعد من ظلمات العصور الوسطى لكي ندخل في هذا العالم الجديد المدوّخ الذي تتحدثون عنه! كم أشعر بالإحباط عندما أدرك حجم تقدمهم وتأخرنا! كم أشعر بالرعب وأخاف من عدم القدرة على اللحاق بهم في أي يوم من الأيام. ولكن سرعان ما يعود لي الأمل من جديد وأقول: نحن شعوب شابة، شعوب جديدة لم تدخل التاريخ بعد. وهم شعوب شائخة، هرمة، دخلته وشبعت دخولاً حتى ملت من كل شيء. هم ابتدأوا ثوراتهم الديمقراطية قبل مئتي سنة ونحن بالكاد نبتدئها اليوم وندفع ثمنها باهظاً. ولكن المستقبل لنا، أمامنا. على الرغم من كل هذا التفاؤل بالانتفاضات العربية إلا أن بعض الغيوم ابتدأت تلوح في الأفق. وأخطرها من دون شك دخول العناصر الطائفية الظلامية على الخط ومحاولتها حرف الانتفاضات عن مسارها الوطني الصحيح. يضاف إلى ذلك أن الطريق لا يزال وعراً طويلاً: أي الطريق الفاصل بين الحلم الديمقراطي وتحقيق هذا الحلم على أرض الواقع. ليس من السهل أن ينتقل المرء من حالة الرعية إلى حالة المواطنية، من حالة العبودية إلى حالة الحرية. لقد كلف ذلك فرنسا مئة سنة على الأقل حتى بعد الثورة الكبرى. نقول ذلك وبخاصة أن التاريخ العربي منذ الأمويين حتى يومنا هذا يلخصه بيت واحد لأبي العلاء المعري:

تلوا باطلاً وجلوا صارماً

وقالوا صدقنا، فقلنا نعم!

هنا تكمن جذور الاستبداد المشرّشة في أعماق التاريخ العربي والنفسية العربية. هل يمكن شعباً استبطن الاستبداد أو الخنوع للاستبداد على مدار ألف وثلاثمئة سنة متواصلة من حياته أن يستذوق طعم الحرية؟ ألم يصبح الخنوع جزءاً لا يتجزأ من طبيعته الداخلية وتركيبته النفسية؟ كيف يمكن أن تنفصل عن شيء لازمك طيلة كل هذه الفترة الطويلة؟ نقول ذلك وبخاصة أن هذا الخنوع خُلعت عليه المشروعية اللاهوتية من قبل الفقهاء والهيبة الدينية العليا. وبالتالي فنحن أمام معضلتين مترابطتين: معضلة التحرر السياسي، ومعضلة التحرر اللاهوتي وإحلال المشروعية الديمقراطية الأفقية محل المشروعية اللاهوتية العمودية أو النازلة من فوق إلى تحت (حاكمية المودودي أو ولاية الفقيه للخميني). يضاف إلى ذلك كنه تشكيل دولة مدنية لأول مرة في تاريخنا: أي دولة غير ثيوقراطية، دولة يتسع صدرها

للجميع من دون أي تمييز في العرق والدين والمذهب والقبيلة والعشيرة... من يتجرأ على القول بأن ذلك سيتحقق بين عشية وضحاها، اللهم إلا إذا كان ديماغوجياً، مزاوداً؟ انظروا ما يحدث في مصر من عودة مقلقة للإخوان والسلفيين... ولذلك اسمحوا لي أن أقول لكم ما قاله تشرشل للشعب الإنكليزي إبان الحرب العالمية الثانية: لا أعدكم إلا بالمزيد من العرق والجهد المضني والدماء والدموع! وهذا يعني أن طريق الحرية والديمقراطية ليس معبداً ولا مفروشاً بالرياحين والورود... لا ريب في أن الشعوب العربية سائرة نحو الحرية، ولكن بعد أن يتفكك النظام الطائفي القديم بأسره وتدفع الثمن عداً ونقداً... الحرية، كالحبيبة، لا تعطي نفسها بسهولة. وأحياناً يكون مهرها غالياً جداً وتكاد تلعن حالك لأنك وقعت في حبها غصباً عنك! أقولِ ذلك وأنا أتذكر المعري مرة أخرى وبه أختتم:

فيا دارها بالحزن إن مزارها
قريبٌ ولكن دون ذلك أهوال...

برنار هنري ليفي والانتفاضات العربية

ما الذي يريده برنار هنري ليفي؟ لماذا يتعب نفسه كل هذا التعب من أجل العرب وحرية شعوبهم المنتفضة الثائرة؟ لماذا يحبهم كل هذا الحب؟ أحياناً تتخيل كأنه أكثر حرصاً على نجاح الثورات العارمة لشعوبنا منا نحن! لقد زاود علينا، سبقنا إلى احتضان الانتفاضات العربية المباركة والثوار. كدنا نخجل من أنفسنا ونحن نراه يكلف نفسه كل هذا العناء من أجل ديمقراطية الشعوب العربية وحريتها.

بعد أن انتهى الفيلسوف الشهير والشاطر الخطير من الاهتمام بالشعب الليبي، انتقل الآن إلى الاهتمام بشعب آخر يهمه أكثر بكثير في الواقع: إنه الشعب السوري. وذلك لأن سوريا تقع بالضبط على حدود إسرائيل وليست بعيدة عنها بآلاف الكيلومترات كليبيا. هنا "الفريسة" أهم بكثير بالنسبة إلى شخص لا يفعل أي شيء ولا يتخذ أي قرار إلا بناءً على معيار واحد: هل يخدم مصلحة إسرائيل أم لا؟ لقد انفتحت شهيته علينا دفعة واحدة ويريد أن يحبنا، أن يقبّلنا، أن يعانقنا! ماذا تستطيع أن تفعل مع شخص يهجم عليك ويريد أن يحبك ويقبّلك غصباً عن أبيك؟ ولكن المشكلة هي أن ثمن هذا "الحب" غال جداً ولا تستطيع السلطات ولا المعارضات أن تدفعه. إنه الاعتراف الكامل بإسرائيل كما هي

والشطب على قضية فلسطين كلها تقريباً. هذا هو الثمن المطلوب لا أكثر ولا أقل!

لقد فضح برنار هنري ليفي نفسه بنفسه عندما تسرع وقال إنه نقل رسالة من مجلس الحكم الانتقالي الليبي إلى نتنياهو تعترف بإسرائيل وتريد التطبيع معها، فكذبه المجلس الانتقالي فوراً. وهكذا أسقط في يده وخرج بخفي حنين. فتحول الآن نحو الشعب السوري لكي يخدمه ويتباكى على جراحاته وآلامه. وهنا انقسم المثقفون اليهود الكبار إلى قسمين أو قل توزعوا الأدوار: قسم مع إنقاذ النظام كأليكسندر آدلير، وقسم مع الانتفاضة الثائرة كبرنار هنري ليفي وكوشنير وغلوكسمان وفابيوس وكل المحافظين الجدد الفرنسيين إلخ. كيف أصبح هؤلاء فجأة من عشاق الحرية الكبار للعرب؟ لا أعرف. ينبغي العلم بأن إسرائيل لا يمكن أن تترك القضية السورية تتوالى فصولاً بمنأى عنها. إنها معنية بها أكثر من السوريين أنفسهم تقريباً. سوف تحشر أنفها بشكل أو بآخر عن طريق جماعتها في باريس وغير باريس. هذا شيء متوقع ولا ينبغي أن يفاجئ أحداً. الصهيونية العالمية سوف تدعم من يدفع أكثر: أي من يعترف بإسرائيل أكثر، ويرفع علمها على سفارة يهودية في قلب دمشق، ويتخلى عن الجولان كلياً أو جزئياً، هذا فضلاً عن قضية فلسطين بالطبع... المعارضة السورية قد لا تستطيع أن تنتصر إلا إذا قدمت ضمانات لإسرائيل. من هنا اهتمام برنار هنري ليفي بها أو مغازلته لها... والنظام قد لا يمكن أن يصمد إلا إذا قدم ضمانات أيضاً. والخطر كل الخطر هو أن يحصل تسابق من قبل متطرفي كلتا الجهتين للانبطاح على أقدام إسرائيل. فالأحقاد الطائفية السنية – الشيعية قد تتغلب هنا على الأحقاد العربية – اليهودية كما حذر من ذلك محمد حسنين هيكل، بعد أن صدمته التصريحات النارية – العنترية للمتطرفين الهائجين. النفوس مليئة بعد كل ما حصل من اجتياح وحشي للمدن أخيراً. بل هي مليئة حتى قبل هذا الاجتياح عندما حصل الصدام المروع بين النظام والإخوان في الثمانينات من القرن الماضي. هناك حركة جهنمية تقود البلاد نحو الهاوية. أحياناً يخيل إليك أن العناصر المتطرفة في كلتا الجهتين تريد أن تصل بالأمور إلى نقطة اللاعودة من خلال القمع الدموي الوحشي للانتفاضة الشعبية من جهة، ثم من خلال الشحن الطائفي على مدار الساعة من جهة أخرى. انظر ما يقوله شيوخ الظلام على الفضائيات أو ما يكتبه غلاة التطرف على الإنترنت ضد العلويين والشيعة بشكل عام... كل المكبوت التاريخي السحيق يتفجر دفعة واحدة كالبركان. وعندئذ يصبح التقسيم ممكناً على الأرض. فالنفوس

عندما تصبح مقسمة تصبح الجغرافيا مقسمة أيضاً. وهو الحل الذي ترغب فيه إسرائيل ومعها برنار هنري ليفي. وبالتالي فالجميع ينفذون مخطط إسرائيل شاؤوا أو أبوا، شعروا أو لم يشعروا... فهي تدفع بشكل مباشر أو غير مباشر باتجاهه. ففي رأيها أنه لا توجد أي علاقة بين العلويين والسنيين. فهما "شعبان مختلفان" تماماً بحسب تحليلات الاستشراق المتصهين. وبالتالي فلا يمكن التعايش بينهما. يا أخي كيف يمكن أن تتعايشوا بعضكم مع بعض وأنتم أعداء على مدار التاريخ؟ يحق لكم أن تؤسسوا دولتكم وتتحرروا من اضطهادهم لكم وهيمنتهم عليكم. هذا ما يقوله غلاة اليهود الحريصون على مصلحة سوريا!... نقول ذلك على الرغم من أنه تجمع بين السنة والعلويين ومختلف طوائف الشيعة عموماً اللغة نفسها والكتاب نفسه والنبي نفسه والأدب العربي نفسه من الجاهلية إلى صدر الإسلام إلى يومنا هذا والباقي تفاصيل... ولكن المشكلة هي أن هذه "التفاصيل" هي الأساس بالنسبة إلى العامة الجاهلة وشبه الأمية. لذلك فإن إسرائيل تصب الزيت على النار وتدفع في اتجاه تفاقم الأحقاد الطائفية وسفك الدماء أكثر فأكثر حتى لا يعود هناك من مجال للتراجع إلى الخلف، حتى لا يعود هناك من حل آخر غير الانفصال. إسرائيل تضحك في عبّها الآن. يقولون للعلويين: سوف يذبحونكم عن بكرة أبيكم فانتبهوا لا تتركوا الحكم... ويقولون للأغلبية السنية: كيف ترضون بهذا الوضع الشاذ المهين: أقلية صغيرة تهيمن عليكم في عقر داركم. أما آن الأوان لكي تعود الأمور إلى نصابها؟ إننا مستعدون لدعمكم بشرط أن تقيموا معاهدة سلام بعد عودة الحكم إليكم، إلى أصحابه الشرعيين... وهكذا يلعبون على الحبلين ويتبعون سياسة "فرق تسد" الاستعمارية الشهيرة. فخّار يكسر بعضه...

هناك مخطط مرسوم لسوريا وهو واضح وضوح الشمس، ومن لا يراه فهو أعمى. وقد طبق في العراق وأعطى نتائج لا يستهان بها. فلماذا لا يطبق في سوريا؟ أليست الدولة الكردية كياناً شبه مستقل في شمال العراق؟ أليست لها مؤسساتها وبرلمانها وقياداتها؟ ما الذي يمنع إذن قيام دولة تشمل الساحل السوري كله؟ صحيح أن العلويين أقلية في سوريا ولكنهم ليسوا أقلية في المنطقة الممتدة من مشارف حمص حتى حدود تركيا. وهي من أجمل مناطق سوريا إن لم تكن أجملها بإطلاق: السهل والبحر والجبال... على هذا النحو سوف تجهض المصالحة التاريخية بين مختلف مكونات الشعب السوري وأطيافه. وعلى هذا النحو سوف تجهض انتفاضة الشعب السوري الكبير من أجل الحرية والتنفس

والعدالة والكرامة. وسوف يحرفونها إذا ما استطاعوا عن مسارها الصحيح لكي تتحول من انتفاضة وطنية إلى انتفاضة طائفية غصباً عنها. كما سيتم تهميش العناصر الوطنية المستنيرة داخل النظام نفسه أو حتى تصفيتها. المشكلة هي أن الجميع يدركون ذلك ولكنهم لا يستطيعون تحاشي الحفرة فتراهم يهرولون نحوها حثيثاً دون إبطاء!

الفصل السادس عشر

هموم عربية

هل بدأت محاكم التفتيش في مصر؟

ابتدأت الأشياء المقلقة تظهر في مصر تباعاً. فبالأمس القريب هاجم السلفي عبد المنعم الشحات نجيب محفوظ، مفخرة الآداب العربية في هذا العصر، متهماً إياه بأنه عار على مصر! لاحظ كيف انقلبت القيم عاليها سافلها. واليوم يهاجم سلفي آخر هو عسران منصور أحد كبار فناني مصر والعرب عادل إمام بتهمة مشابهة: أي ازدراء الدين الإسلامي في أعماله الفنية والسخرية من الجلباب واللحية. لاحظ كيف اختصر الرجل الدين الإسلامي بمجرد إرخاء اللحية ولبس الجلباب! هل هذا هو الدين الذي صنع إحدى أعظم الحضارات على وجه الأرض أيام الرشيد والمأمون وقاهرة الفاطميين وقرطبة الأندلسيين وبغداد العباسيين والبويهيين، هذا من دون أن ننسى دمشق الأمويين؟ هل نتحدث عن الشيء نفسه نحن وإخواننا السلفيون إذ نلفظ كلمة: إسلام؟ أشك في ذلك كل الشك. هل لنا التصور نفسه عن الدين الإسلامي الحنيف؟ حتماً لا. هم يتصورونه إكراهاً وعسراً وشكليات فارغة ونحن نراه سماحة ويسراً وجوهراً روحانياً أخلاقياً ميتافيزيقياً نقياً. إذن، فالصراع المقبل الذي سيتسارع بعد اكتساحهم للانتخابات المصرية والتونسية وحتماً الليبية وسواها، ليس بين الإسلام والإلحاد كما يزعمون، ولا حتى بين الإسلام والعلمانية الروحانية الفلسفية الرائعة، بل بكل بساطة بين إسلام وإسلام: أي بين إسلام

العصر الذهبي، وإسلام عصر الانحطاط. نحن الآن نراوح هنا. في ما يتعلق بي شخصياً لم أشك لحظة واحدة في أن المعركة الفكرية قادمة لا ريب فيها، بل استغربت كيف تأخرت كل هذا الوقت. في حياتي كلها لم أشك في أنها معركة العصر، وأن كل ما عداها ثانوي أو قل يتوقف عليها. لهذا السبب لم تعنِ السياسة السطحية بالنسبة إلي شيئاً. كنت دائماً مهووساً بالمعركة الفكرية. كانت شغلي الشاغل ولا تزال. هذا لا ينفي إطلاقاً مشروعية الانتفاضات الحالية ضد أنظمة الفساد والطغيان وخنق الأنفاس. ولكن كنت دائماً أنطلق من المبدأ الأساسي الآتي: مستحيل أن تحسم المعركة السياسية قبل أن تحسم المعركة الفكرية. قصدت المعركة بين الإسلام المستنير من جهة، وإسلام التكفير ومحاكم التفتيش وملاحقة الناس على الصغائر من جهة أخرى. المعركة إذن دائرة بين تفسيرين وفهمين للإسلام، وليست بين الإسلام وأي شيء آخر، على الأقل في المدى المنظور. العلمانية الفلسفية ذات النزعة الإنسانية الكونية لم يحن أوانها بعد... لذلك أعتذر عن مقال سابق نشر هنا في "الشرق الأوسط" بعنوان: ثورة تنويرية لا أصولية. وقد تسرعت عندئذ وتهورت تحت ضغط الحماسة الشعبية العارمة، فشبهت الثورة المصرية بالثورة الفرنسية، نائياً بها عن الثورة الإيرانية وكل الثورات الدينية. لا ريب في أن شباب ميدان التحرير حيث توهج التاريخ للحظة مع عناق الإسلام والمسيحية وارتفاع أعلام الوفد الوطنية كانوا يمثلون القيم العليا للحرية. ولكن الثورة سرعان ما صودرت من قبل طرف واحد مضاد لها ولأهدافها التحررية. وسارت الأمور في مجرى مخالف كلياً للثورة الفرنسية أو الإنكليزية أو الأميركية: أي كل الثورات التي دشنت العصور الحديثة وقيم التسامح الديني وحرية الضمير والمعتقد ومحاربة التمييز الطائفي البغيض وتحقيق المساواة بين الجميع في الوطنية والمواطنية. كل هذا لم يتحقق بعد الربيع العربي الذي أراه ناقصاً جداً ويحتاج إلى ربيع آخر ينقلب عليه ويصححه. ممنوع منعاً باتاً أن يعطينا الأصوليون السابقون الذين تسلّموا الحكم الآن دروساً في الحريات! ما ناقصنا إلا هذا! هم الذين تقوم عقيدتهم على التعصب الطائفي وفتاوى القرون الوسطى التي تكفر ثلاثة أرباع البشرية وتحتقر الكرامة الإنسانية لدى غير المسلمين، بل حتى لدى المسلمين أنفسهم: قصدت المسلمين الليبراليين الذين يفهمون الإسلام بشكل مخالف لهم.

ولولا ذلك لما تجرأ السلفيون على إهانة رموز مصر الأدبية والفنية، والآتي أعظم...

ذلك أنهم لن يتوقفوا عند هذا الحد. كل من كتب في الاتجاه العقلاني ودافع عن التفسير التنويري لرسالة الإسلام الحنيف والقرآن الكريم وخالف التفسير الشعبوي الشائع سوف يتعرض للضغط والتهديد وربما التصفية الجسدية. لقد ابتدأوا بنجيب محفوظ وعادل إمام ولكن أين سينتهون؟ هل سيتوقفون عند هذا الحد؟ لا أعتقد. ربما نبشوا لاحقاً طه حسين وتوفيق الحكيم وحتى الشيخ الإمام محمد عبده! من يعلم؟ بل ربما عادوا إلى الوراء قروناً طويلة ونبشوا الفارابي والرازي وابن سينا وابن رشد وابن عربي والتوحيدي والمعري وكل أمجاد العرب السابقين... هؤلاء أيضاً "عار على الإسلام والعرب" وليس فقط نجيب محفوظ أو عادل إمام أو أحمد عبد المعطي حجازي أو جابر عصفور أو جمال الغيطاني وبقية الأنوار المصرية. ربما حرقوا كتبهم من جديد في الساحات العامة. وعلى أي حال، فلا أحد يتجرأ على الاستشهاد بهم في كليات الشريعة والمعاهد الدينية. وربما لن يتجرأ أحد مستقبلاً على الاستشهاد بهم في كليات الآداب أو الفلسفة، هذا إذا بقيت فلسفة. وما حاجتنا إلى الفلسفة إذا كنا نمتلك الحقيقة المطلقة؟ هل يتعلم من ختم العلم مرة واحدة وإلى الأبد؟ نحن الأمة الوحيدة في العالم التي ليست بحاجة إلى علم أو ابتكار أو بحث. كل هذا بدعة مذمومة. كل شيء اكتشف وفهم وعرف منذ زمن طويل، ولا زائد لمستزيد. هل يعقل أن نكتشف شيئاً جديداً بالقياس إلى السلف الصالح؟ مستحيل، والعياذ بالله! إذن، كل هؤلاء الكبار زنادقة كفار في ميزان السلفيين. انظر إلى الكتب التي تكفر ما لا يقل عن مئتين أو ثلاثمئة مثقف عربي معاصر، بل وتفتي بقتلهم وتطهير الأرض من رجسهم. وبالتالي، فالمعركة قديمة لا تزال متواصلة فصولاً منذ أكثر من ألف سنة: أي منذ اندلاع الصراع بين المعتزلة والحنابلة أيام المأمون، ثم بين الغزالي وابن سينا، ثم بين ابن رشد والغزالي: **تهافت الفلاسفة** مقابل **تهافت التهافت**. ألف سنة و لم يستطع العرب أن يحسموا المعركة! هل يعقل أن تستمر معركة معينة مدة ألف سنة؟ كم سيكون رهانها عظيماً؟ والآن عادت إلى المربع الأول، إلى نقطة الصفر، وكأن شيئاً لم يكن... إنها قصة سيزيف. هل سمعتم بأسطورة سيزيف اليونانية الرائعة والمحبطة للآمال كلياً؟ كلما رفع السيد سيزيف الصخرة إلى أعلى الجبل بجهد جهيد وكاد أن يصل بها إلى القمة لكي يضعها عليها وتستقر، راحت تفلت من يده وتتدحرج إلى أسفل الوادي. فيعيد الكرة من جديد. وهكذا دواليك... يبدو أن قوانين التطور التاريخي لا تنطبق على العالم العربي الإسلامي، أو قل إنها تنطبق عليه بالمقلوب:

الآخرون يشعلون ثورات تنويرية ونحن ثورات سلفية – إخوانية. وهكذا أصبحنا بين نارين: نار الاستبداد السياسي، ونار الاستبداد الديني. فقلت هما أمران أحلاهما مر...

هل حقاً الديمقراطية الصورية تكفي؟

حتى الأمس القريب كانوا يقولون لنا إن الإسلام هو الحل. والآن أصبحوا يرفعون شعاراً آخر لا يقل عظمة وجبروتاً: الديمقراطية هي الحل. يعتقد البعض أنه يكفي أن يودع الشعب أصواته في صناديق الاقتراع حتى تكون جميع المشاكل العربية قد حلت دفعة واحدة بضربة عصا سحرية. هل هذا صحيح يا ترى؟ أم أنه من السهل إلقاء الكلام على عواهنه؟ بعيد عني كل البعد التشكيك في أهمية تصويت الشعب بشكل حر لأول مرة في تاريخنا. وبعيد عني كل البعد التصفيق للأنظمة الشمولية الاستبدادية. أقول ذلك وخاصة أن شعوبنا متعطشة لانتخابات نزيهة حرة بعد مهزلة انتخابات ٩٩،٩٩ في المئة المتكررة على مدار العقود والسنوات الصدئة. ولكن ينبغي أن ندخل في صلب الموضوع! لا نستطيع بعد الآن أن نكتفي بالشعارات الانفعالية. فقد تكون خادعة ومضللة، ثم بالأخص سطحية وتبسيطية أكثر من اللزوم. ثم الأخطر من ذلك: قد يرفع شعار الديمقراطية أو يختبئ خلفها ألد أعداء الحرية والديمقراطية! ينبغي العلم بأن الديمقراطية وحدها لا تكفي، بل ينبغي أن يسبقها أو يرافقها على الأقل ما يدعى بالحكم الليبرالي الدستوري: أي دولة الحريات الفردية والعامة. دولة القانون والمؤسسات التي تعامل الجميع على قدم المساواة. قلت الجميع وليس فقط أبناء الأغلبية الدينية أو العرقية أو المذهبية. والسؤال المطروح الآن هو الآتي: ماذا نفعل إذ ما تمخضت صناديق الاقتراع عن أغلبيات إخوانية أصولية تكفّر علناً أو سراً شرائح واسعة من الشعب يدعونها بالأقليات[١]؟ هل نضحي بثلث الشعب لكي ينعم الثلثان بالحياة الرغيدة كما يقول شيوخ السلفية؟ علاوة على الأقليات أو الحشرات: هل نضحي بالتيارات الليبرالية التحديثية التي لا تفهم الدين بطريقة انغلاقية، قروسطية، قمعية، كالإخوان والسلفيين؟

١ نلاحظ أن الرئيس المنتخب محمد مرسي أكثر من إطلاق التصريحات المطمئنة للأقباط والنساء. وهذا بحد ذاته شيء إيجابي. إنه دليل على أن الإخوان المسلمين لن يتخلوا عن تصلبهم العقائدي – السياسي إلا بعد تسلّم السلطة والاحتكاك بالواقع المر. ولكن ينبغي أن ننتظر قليلاً لكي نرى ما إذا كان الرئيس مرسي سيطبق فعلاً ما يقوله أو لا...

ولحسن الحظ، فإن هذه النخب الليبرالية المستنيرة تخترق كل الطوائف والمذاهب من دون استثناء، وعليها تعول الآمال مستقبلاً. هذا هو السؤال المرعب المطروح الآن بعد وصول إخواننا الأصوليين إلى السلطة في عدة دول عربية، وبالأخص في الدولة الأكبر: مصر. لذلك فإني أشاطر المثقفين والفنانين المصريين قلقهم من "تكفير التفكير والتضييق على حرية الإبداع والتعبير" بعد اكتساح الإخوان والسلفيين للانتخابات الأخيرة. بما أن الديمقراطية من أصل غربي لا عربي فليسمح لنا الإخوان بأن نرى كيف تشكل هذا النظام الأفضل في العالم أو الأقل سوءاً بحسب تعبير تشرشل.

عندما نراقب الأمور عن كثب في الدول المتقدمة، نلاحظ أن الديمقراطية الاقتراعية لم تكن هي الهاجس الأول ولا المحرك الأساسي لعملية التطور التاريخي. لم تكن هي الشرط المسبق. كان الهدف الأول يكمن في الخروج من حكم التعسف والاعتباط، حيث تسود شريعة الغاب والذئاب، وحيث التمييز الطائفي والعنصري يعتبر قانوناً شرعياً بل وحقاً إلهياً. تريدون أمثلة على ذلك؟ متى نالت الأقلية البروتستانتية في فرنسا حقوقها؟ ليس قبل الثورة الفرنسية. بل وحتى بعدها ظلت حقوقها منقوصة ومهددة لسنوات طويلة. وذلك لأنه حتى زلزال هائل كالثورة الفرنسية لم يستطع أن يقضي بين عشية وضحاها على العصبيات الطائفية القديمة الراسخة في العقول. أقول ذلك على الرغم من أن الثورة الفرنسية كانت مضادة بعنف للمسيحية أو على الأقل للأصولية المسيحية الكاثوليكية، على عكس ثورات "الربيع العربي" الحالية. هذا لا ينقص من شرعيتها على الإطلاق كانتفاضة صادرة من الأعماق ضد الاستبداد والانسداد السياسي. ولكنها بداية الطريق الطويل لا نهايته. وإذا كان محمد الرميحي يقول إنه متشائم، فإني سأقول إني لست متفائلاً إلا على المدى الطويل. ما الفرق؟ وأعتقد أنه بعد الثورة ثورات... أعتقد شخصياً أن الثورة الفكرية أو العقلية لم تحصل بعد في عالم الإسلام. وهي التي ستحسم الأمور يوماً ما وتدخل العرب في التاريخ بعد أن خرجوا منه لعدة قرون. بهذا المعنى فإن الثورة الحقيقية لم تبدأ بعد. تريدون مثالاً آخر؟ متى نال العبيد السود الذين يعتلي أحدهم الآن عرش البيت الأبيض حقوقهم كبشر؟ منذ عشرين أو ثلاثين سنة فقط. الشعب الأمريكي وبخاصة في الولايات الجنوبية المحافظة كان مضاداً بعنف لأن ينالوا حقوقهم الإنسانية. كان يعتبرهم أقل من الحيوانات!... وعندما مورست الديمقراطية هناك بشكل حر ونزيه صوتت أغلبية الشعب

لصالح القوانين العنصرية التمييزية. ولهذا السبب اضطرت جيوش الولايات الشمالية إلى سحق الديمقراطية والعنصريين في أن واحد بالقوة من أجل تحرير العبيد. وكانت الحرب الأهلية الشهيرة. وبالتالي، فالحروب الأهلية قد تكون أحياناً إجبارية أو قدراً محتوماً لا فكاك منه: إنها معركة كسر عظم بين قوى القديم الراسخ، والجديد الصاعد... إذن، فالتقدم حصل هناك ضد الديمقراطية وليس بفضلها، لأن حصيلة صناديق الاقتراع كانت مضادة لحركة التاريخ والقيم الإنسانية الحضارية. ولذا فالشيء الأساسي كما قلنا هو التوصل إلى النظام الليبرالي الدستوري المستنير: أي النظام الذي يؤمن الحريات والحقوق الأساسية للمواطنين، كل المواطنين بلا استثناء ولا تمييز. بعدئذ تجيء الديمقراطية الاقتراعية تدريجاً كتحصيل حاصل لكي تصدق على الحقوق الإنسانية والمنجزات الحضارية لا لكي تنقلب عليها أو تدعسها بالأرجل! سوف نرى ماذا سيحصل في تونس ومصر لاحقاً... سوف نرى ما إذا كانت المكتسبات التي تحققت منذ عصر النهضة حتى اليوم مهددة أو لا. إنكلترا بلد التنوير الأول وأعرق ديمقراطية في العالم لم تعطِ حق التصويت لجميع السكان، نساءً ورجالاً، إلا في الثلاثينات أو الأربعينات من القرن الماضي. ولكنها كانت دولة ليبرالية دستورية قبل قرن من ذلك التاريخ: أي منذ عام ١٨٣٠. نقول ذلك على الرغم من أن حق التصويت وانتخاب ممثلي الشعب كان محصوراً بنسبة ٢ في المئة من السكان آنذاك: أي علية القوم والنخبة المستنيرة... ولكن يكفي أنها كانت دولة قانون تضمن الحقوق الأساسية لجميع المواطنين: أي حق المواطنية، وحق التدين أو عدم التدين، وحق الملكية، والفصل بين السلطات وتالياً استقلالية القضاء، ثم حماية الحريات الأساسية كحرية الكلام والتعبير، وحرية الاجتماع أو تشكيل الجمعيات من قبل المجتمع المدني، وتأمين حرية الصحافة بطبيعة الحال. بعدئذ جاءت الديمقراطية بالتدريج وعلى مراحل كما ذكرنا. بعدئذ راحت إنكلترا تعطي حق التصويت لشرائح واسعة أكثر فأكثر من السكان كلما تقدمت الفئات الشعبية من المجتمع وتعلمت واستنارت وتراجعت الأفكار القديمة. ثم توصلت لاحقاً إلى تحقيق المعجزة: أي الجمع بين الحكم الليبرالي الدستوري من جهة، والديمقراطية الاقتراعية من جهة أخرى. وهذا أكبر دليل على مدى صعوبة التوصل إلى النظام الديمقراطي، اللهم إلا إذا اختزلنا الديمقراطية إلى مجرد آليات شكلانية وصناديق اقتراع! إنها أكبر من ذلك

بكثير، إنها فلسفة كاملة متكاملة للوجود. إنها حصيلة التقدم البشري على مر العصور[١].

هل العلمانية ضد الدين؟

هل حقاً الدولة المدنية الحديثة ضد الدين؟ هذا السؤال مطروح بقوة على خلفية الثورات العربية الراهنة. ونلاحظ أنهم يستخدمون كلمة الدولة المدنية تحاشياً لمصطلح الدولة العلمانية، على الرغم من أن المعنى واحد في نهاية المطاف. وبالتالي فلا داعي لكل هذا الخوف من كلمة علمانية، وإن كنت لست ضد حلول كلمة مدنية محلها إذا كانت تطمئن الإسلاميين المستنيرين وتزيل هلعهم. قلت الإسلاميين المستنيرين العقلاء وليس الظلاميين الطائفيين الذين يلعبون بالنار الآن ويوشكون على إنجاح المخطط التقسيمي لدول المشرق العربي، عن طريق إثارة الفتنة بين أبناء الشعب الواحد وإيقاظ العصبيات الطائفية والمذهبية وصب الزيت على النار كما يقال. لتوضيح هذه الإشكالية سوف أعرض هنا أفكار أحد كبار المختصين بالعلمانية في فرنسا: البروفيسور جان بوبيرو[٢]. فهو يرى أن العلمانية لم تعد استثناءً أوروبياً ولا حتى فرنسياً، بل أصبحت ظاهرة عالمية منتشرة في شتى أقطار الأرض، من أفريقيا إلى آسيا إلى أميركا اللاتينية. فلا ديمقراطية من دون علمانية أو دولة مدنية على الأقل. ولكنها تتخذ أشكالاً مختلفة من بلد إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى. فهناك علمانيات متعددة لا علمانية واحدة على عكس ما نتوهم.

ويرى المؤلف أنه بفضل الدولة المدنية العلمانية الحديثة لم تعد هناك توترات طائفية أو حروب مذهبية في الدول العلمانية المتحضرة كفرنسا، أو ألمانيا، أو إنكلترا، أو هولندا، إلخ.

نقول ذلك على الرغم من أن هذه الدول مشكلة من أديان ومذاهب مختلفة: كالمذهب الكاثوليكي، والمذهب البروتستانتي، إلخ. كل هؤلاء يتعايشون داخل الدولة نفسها من دون أي مشكلة، لأن هناك فصلاً بين المواطنية من جهة، والانتماء الديني أو المذهبي من

١ للمزيد من التوسع حول الموضوع نحيل القارئ إلى كتاب فريد زكريا الممتع: مستقبل الحرية: الديمقراطية غير الليبرالية في الولايات المتحدة والعالم. منشورات أوديل جاكوب. باريس ٢٠٠٣.
Fareed Zakaria: *L'avenir de la liberté: La démocratie illibérale aux Etats - Unis et dans le monde*. Odile Jacob. Paris 2003.

٢ انظر كتابه الآتي: **العلمانيات في العالم**. المطبوعات الجامعية الفرنسية. باريس ٢٠١٠.
Jean Bauberot: *Les laicités dans le monde*. PUF. Paris. 2010

جهة أخرى. فجميعهم مواطنون على قدم المساواة وينطبق عليهم القانون نفسه. ولكن هذه الدول عانت كثيراً من الصراعات الطائفية في السابق، و لم تتخلص منها إلا بعد انتصار التنوير والعلمانية والحداثة، وكذلك انتصار الثورة الإنكليزية، فالأميركية، فالفرنسية.

في الواقع، إن المؤلف يقسم كتابه إلى سبعة فصول لكي يوضح فكرته العامة؛ في الفصل الأول يتحدث عن تاريخ ما قبل العلمانية. وفي الفصل الثاني عن الأسس الفلسفية للعلمانية، وأما الفصل الثالث فمكرس كله لدراسة الموضوع الآتي: الاستبداد المستنير، والثورات، والعلمانية.

هذا في حين أن الفصل الرابع مكرس لدراسة موضوع العلمانية والحداثة الظافرة. وأما الفصل الخامس من الكتاب فمكرس لدراسة العلاقة بين المجتمعات الدنيوية والعلمانية، فيما الفصل السادس مكرس كله للدراسة الجيوبوليتيكية للعلمانية، أي الانتشار الجغرافي السياسي للعلمانية في شتى القارات والأقطار.

ثم يخصص الفصل السابع والأخير من كتابه للتحدث عن موضوع خطير هو: العلمانية وتحديات القرن الواحد والعشرين. هكذا نلاحظ أنه كتاب مليء بالمعلومات والمعطيات والتحليلات المضيئة. ولا غرو في ذلك، فمؤلفه هو أحد كبار الاختصاصيين في الموضوع وأحد كبار الجامعيين الفرنسيين كما ذكرنا سابقاً.

ويرى البروفيسور بوبيرو أن هناك علمانيات متصالحة مع الدين وعلمانيات متخاصمة معه. صحيح أن العلمانية الفرنسية كانت خلاصة صراع طويل ومرير مع الدين المسيحي والكنيسة الكاثوليكية على وجه الخصوص، ولكن العلمانية الإنكليزية أو الألمانية مثلاً كانت متصالحة مع الدين أو قل مع الفهم المستنير للدين.

ولا عجب في ذلك. فالمذهب البروتستانتي السائد في هذين البلدين لم يكن معادياً لروح العصور الحديثة كالمذهب الكاثوليكي البابوي الروماني السائد في فرنسا. ومعلوم مدى الرعب الذي أثارته الظلامية الكاثوليكية ومحاكم التفتيش في الماضي. وقد جاءت العلمانية الفرنسية كرد فعل راديكالي واستئصالي عليها. وبالتالي، هناك حيثيات محلية تتحكم في كيفية تشكل العلمانية في كل بلد من البلدان. ولكن العلمانية لا تعني محاربة الدين أو منعه كما يعتقد الكثيرون في العالم العربي الإسلامي، كما أنها لا تعني الإلحاد قطعاً، فهناك علمانيون مؤمنون كثيرون. ولكنها تعني عدم المتاجرة بالدين لأغراض سياسية

أو حتى انتهازية وتلويثه بالمناورات التكتيكية التي لا تليق به. كذلك تعني حيادية الدولة تجاه الأديان والعقائد، بمعنى أن الدولة العلمانية تحمي جميع العقائد الدينية وتسمح للمواطنين بممارسة شعائرهم المختلفة بكل حرية، شريطة ألا يعتدي أحد على أحد، وألا يفرض أحد دينه أو مذهبه على أحد بالقوة.

فالدولة العلمانية المدنية الحديثة على عكس الدولة الثيوقراطية القديمة تعترف بكل الأديان والمذاهب وتحترمها وتعاملها على قدم المساواة. وهذا مطابق للمقصد القرآني الأسمى: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة"، ولكنه لم يشأ. وبالتالي فالتعددية الدينية أو المذهبية شيء شرعي ولا غبار عليه. ولكن الفهم الخاطئ للإسلام والموروث عن عصر الانحطاط هو الذي يتعارض مع العلمانية والحداثة والدولة المدنية والنزعة الإنسانية. وهو الذي يحارب التعددية الدينية ويعتبرها كفراً. وهو الذي يثير المشاكل الطائفية حالياً ويهدد بتقسيم المقسم كما يقال. وللأسف فإن هذا الفهم الظلامي للدين هو المنتشر على صفحات الإنترنت وشاشات الفضائيات وليس الإسلام المستنير. وهو الذي سيؤدي إلى سايكس بيكو جديدة تقسم ما عجزت عنه سايكس بيكو القديمة. وهكذا أصبحت بعض دولنا الحالية مهددة بالانقسام إلى عدة دويلات...

ويرى البروفيسور بوبيرو أن العلمانية هي عبارة عن صيرورة تاريخية لعبت فيها الحداثة الغربية دوراً حاسماً. فلا علمانية من دون حداثة. العلمانية هي ثمرة الحداثة الفلسفية التنويرية، وكذلك ثمرة الحداثة العلمية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والأدبية والفنية.

ولذلك فإن المجتمعات التقليدية التي تسودها الأفكار الأصولية المتخلفة لا تعترف بالعلمانية. بالطبع هناك علمانية متطرفة وغير مقبولة على الإطلاق. ولكن العلمانية المنفتحة على الأبعاد الروحية والدينية يمكن أن تتأقلم مع مختلف المجتمعات والتراثات البشرية. بهذا المعنى يمكن القول إن العلمانية العربية سوف تجمع بين الدين والدنيا وتصالح بين الإيمان والعقل. وهي التي ستنقذ العرب من شرور الحروب الأهلية والطائفية التي تهددهم حالياً. ولكنها ستكون مضادة للفهم الظلامي المتعصب للدين. فالفهم العقلاني للدين يؤدي إلى العلمانية. والتراث العربي الإسلامي يحتوي على بذور العلمانية والعقلانية والنزعة الإنسانية إبان العصر الذهبي المجيد. وقد سبقنا الغرب إليها وعنا أخذها. وبالتالي هذي بضاعتنا ردت إلينا...

الإشكالية العامة يطرحها جان بوبيرو على النحو الآتي: ينبغي العلم بأن المجتمع يحتوي أحياناً بل غالباً على عدة أديان أو مذاهب. فكيف يمكن أن يتعايش أفراده بوئام وسلام في ما بينهم دون أن يعتدي أحد على آخر أو من دون أن يحتقره ويعيّره بسبب الاختلاف في العقيدة الدينية؟ كيف يمكن قبول الاختلاف في أعز ما يجله الإنسان ويقدسه: أي الدين؟ كيف يمكن ألا أكفرك إذا كنت لا تنتمي إلى ديني أو مذهبي؟ لا بد من وجود أرضية مشتركة يلتقون عليها جميعاً. وهذه الأرضية المشتركة هي التي تؤمنها لنا الثقافة العلمانية أو المدنية الحديثة، وكذلك التفسير السمح المستنير للدين. وللأسف فإن الثقافة السائدة الآن في العالم العربي مخترقة من قبل الأفكار الطائفية والمذهبية إلى حد مقلق. من هنا وجه الخوف. انظر إلى الدور المشبوه والخطر الذي تلعبه بعض الفضائيات وشيوخ الظلام.

ويرى البروفيسور بوبيرو أن الدولة المدنية العلمانية تضمن لجميع المواطنين المساواة في الحقوق والواجبات بغض النظر عن اختلافاتهم الدينية أو المذهبية. وهذه المبادئ لا تتوافق إطلاقاً مع الدولة اللاهوتية أو الثيوقراطية القديمة القائمة على التمييز الطائفي وتقسيم المجتمع إلى مواطنين درجة أولى ومواطنين درجة ثانية وربما ثالثة... بما أن غاية مؤسسات الدولة هي تأمين المصلحة العامة والسهر عليها فإنه ينبغي أن تكون الدولة العلمانية حيادية تجاه الأديان والمذاهب. قلت حيادية و لم أقل عدائية! وشتان ما بينهما. المقصود بالحيادية أنها دولة لا طائفية: أي تعامل الجميع على قدم المساواة أياً تكن أديانهم ومذاهبهم. فالدين لله والوطن للجميع. هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فلا ينبغي الخلط بين النظام العلماني والنظام الإلحادي الذي أسسه جوزيف ستالين وفرضه بالقوة على شعوب الاتحاد السوفياتي. هذا خطأ جسيم كثيراً ما نقع فيه في العالم العربي بسبب عدم إدراكنا لجوهر الفلسفة العلمانية الحديثة. ينبغي العلم بأن النظام العلماني يؤمّن حرية الاعتقاد وممارسة الطقوس والشعائر لجميع المواطنين من دون استثناء. ولكنه لا يجبر أحداً عليها. وهذا هو معنى الحرية الدينية التي نصت عليها كل إعلانات حقوق الإنسان والمواطن، كما ونص عليها القرآن الكريم: لا إكراه في الدين. وبالتالي فالعلمانية هي الإطار العام الحامي لحقوق الإنسان: أي حقه في أن يتدين أو لا يتدين، أن يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد أو لا يذهب على الإطلاق. فعلى الرغم من عدم تدينه (ولا أقول عدم إيمانه) فإنه يظل مواطناً، وإلا لكانت الدول المتقدمة قد خسرت معظم كفاءاتها العلمية والسياسية والفكرية. ماذا نفعل

بطبيب بارع وناجح ويشفي آلاف المرضى ويخلص في عمله ولكنه ليس متديناً؟ إنه مؤمن بالله والقيم الأخلاقية السامية للدين ولكنه غير متدين بالمعنى التقليدي للكلمة، أي غير مطبق للطقوس والشعائر بحذافيرها. هل نضطهده لكي يهرب إلى الخارج ونخسره فيما يربحه الآخرون ويستفيدون من كفاءاته؟ ماذا نفعل بعالم اقتصاد كبير يخطط للمجتمع ولكنه غير متدين؟ هل نحرم أنفسنا من خبراته وخدماته؟ وقس على ذلك الكثير... وبالتالي، رجاء، فرقوا بين مجال العبادات ومجال المعاملات كما كان يفعل الفقه الإسلامي الكلاسيكي. هذا التفريق هو الذي سيقودنا يوماً ما إلى تحقيق النظام المدني العلماني في العالم العربي ذي الخلفية الروحانية الإسلامية أو المسيحية. وعندئذ تنحل مشكلة الطائفية من أساسها. ولكن العلمانية لن تترسخ ولن تنتصر قبل أن ينجح التنوير العربي الإسلامي وتنتشر الثقافة العلمية والفلسفية في كل أنحاء المجتمع، وتنتصر على الثقافة اللاهوتية الغيبية والأفكار الخرافية والفهم الظلامي والطائفي للدين. وهذه قصة طويلة سوف تستغرق عدة أجيال. وبالتالي فالعلمانية العربية ليست غداً، بل بعد غد...

هل يمكن تشخيص المرض العربي؟

كلنا يتخبط الآن ولا أحد يعرف كيف يجد منفذاً أو مخرجاً. فما هو السبب يا ترى؟ السبب يعود إلى أن أساس المشكلة فكري وليس سياسياً. وبالتالي، إذا لم تحسم المسألة فكرياً فلن تحسم سياسياً حتى ولو بعد مليون سنة! وهذا ما لا يريد أن يفهمه السياسيون العرب سواء أكانوا في السلطة أم في المعارضة. ولكن الأنكى من ذلك والأخطر هو أن المثقفين العرب لا يريدون أن يفهموه أيضاً. فإذا كان المثقف عاجزاً عن تشخيص المشكل فكيف يمكن السياسي أن يحله؟ هذا وقد هلل الكثيرون للربيع العربي وعلقوا عليه الآمال، وأنا من بينهم، من دون أن يدركوا أنه قد يكون ربيعاً سياسياً، ولكنه بالقطع ليس ربيعاً فكرياً. والدليل على ذلك أنه تمخض عن سيطرة الإخوان والسلفيين في كل مكان. فهل الأصولية الدينية هي ربيع فكري؟ هل التراجع إلى الوراء هو تقدم إلى الأمام؟ لكن متى سيحصل الربيع الفكري للعرب؟ ليس في المدى المنظور على ما يبدو. وهنا تكمن المشكلة الأساسية. ذلك أن من يقرأ بحر المقالات المتدفقة كالسيل الهادر يلاحظ أن معظم المثقفين،

ولا أقول كلهم، يتحاشون المشكلة الأساسية: أي مشكلة التنوير الفكري للعرب والمسلمين عموماً. لماذا أصبح الناس يفكرون في الحل الفيدرالي أو حتى في التقسيم؟ لأنهم بدأوا يخافون بعضهم من بعض، وبالأخص من سيطرة العنصر الإخواني السلفي التوتاليتاري على البلدان العربية كلها. وهي أيديولوجيا لا تقر بالمساواة بين البشر. هذا أقل ما يمكن أن يقال. لكن ينبغي الاعتراف بأنها تتمتع بمشروعية تاريخية تخترق القرون. من هنا حراجة الموقف وصعوبته وتعقيده. من هنا تخبطنا جميعاً. لتوضيح الإشكالية سوف أطرح هذا السؤال البسيط: من هو الإنسان الشرعي الكامل الحقوق في العالم الإيراني؟ إنه الفارسي المسلم الشيعي. إنه إنسان ثلاثي الأبعاد أو المكونات. لكن ماذا نفعل بكل مكونات الأمة الإيرانية الأخرى؟ فقد يكون الإيراني فارسياً مسلماً ولكنه ليس شيعياً. وهذه حالة نسبة لا يستهان بها من السكان. أو قد يكون مسلماً شيعياً ولكنه ليس فارسياً. وهذه أيضاً حالة شرائح عديدة من السكان. ويبدو أن التعريف الكامل للإنسان الشرعي لا ينطبق إلا على أربعين أو خمسين في المئة من الشعب الإيراني. والآن لننتقل إلى الجهة الأخرى، أي جهتنا نحن. من هو الإنسان الشرعي الكامل الحقوق في العالم العربي؟ إنه العربي المسلم السني. هنا أيضاً نلاحظ أنه إنسان ثلاثي الأبعاد والمكونات. ولكن ماذا نفعل بالبقية؟ ماذا نفعل بكل أولئك الذين لم تشأ الصدفة أو الحظ أن يولدوا في المكان المناسب؟ ماذا نفعل بالأكراد في المشرق وهم مسلمون سنة ولكنهم ليسوا عرباً. أو ماذا نفعل بالأمازيغ البربر في المغرب الكبير الذين هم أيضاً مسلمون سنة في معظمهم ولكنهم ليسوا عرباً. لحسن الحظ، فإن الدستور المغربي الجديد اعترف لأول مرة بحقوقهم واعتبرهم في ديباجته الأولى أحد المكونات الأساسية للشعب المغربي. في المقابل: ماذا نفعل بالإنسان العربي ولكنه ليس مسلماً؟ وهذه حالة كل المسيحيين العرب وهم يعدون بالملايين، وبخاصة في مصر وبلاد الشام والعراق. ألم يكن الإخوان في الخمسينات أو الستينات يرفعون الشعار الآتي: مسلم في الباكستان ولا مسيحي في لبنان؟! هل تخلوا عنه الآن يا ترى؟ لكن يبدو أن الأخطر من كل ذلك حالياً هو الانقسام المذهبي داخل الإسلام نفسه: أي أن تكون مسلماً عربياً ولكن ليس سنياً. وهذا الأمر ينطبق على كل الطوائف الشيعية العربية من إمامية وعلويين وإسماعيليين ودروز، كما ينطبق على المسلمين الإباضيين لكي لا أقول الخوارج. وهي تسمية سلبية ظالمة لا أحبها وقد ابتدعها خصومهم. لماذا يبدو الانقسام المذهبي داخل

المسلمين العرب أخطر من أي انقسام آخر، على الأقل حالياً؟ لقد وصل الأمر ببعضهم إلى حد القول إن الصراع السني – الشيعي أخطر حتى من الصراع العربي – اليهودي! بالطبع في الأمر مبالغة. ولكن مجرد طرح الأمور على هذا النحو يدل على مدى خطورة هذا الانقسام، ليس في مصر وبلاد أفريقيا الشمالية حيث لا وجود له تقريباً، بل في سوريا ولبنان والعراق واليمن والخليج العربي عموماً. السبب على ما يبدو هو أن الانقسام داخل الدين الواحد أخطر من الانقسام داخل دينين مختلفين. لنفكر هنا ولو للحظة بالانقسام الكاثوليكي – البروتستانتي الذي دمر فرنسا وألمانيا وإنكلترا وأوروبا طيلة قرون.... بمعنى آخر، فإن الانقسام داخل العائلة الواحدة شيء مرعب. وهذا الأمر لا يزال مستمراً منذ الفتنة الكبرى التي لم يستطع اللاهوت الإسلامي ولا الفكر العربي تجاوزها حتى الآن. ما العمل أمام كل هذه الانقسامات التي تنفجر الآن في وجوهنا كالقنابل الموقوتة وتهددنا بالتقسيم والحروب الأهلية وأفدح الأخطار؟ كلما رقعناها من جهة فتقت من جهة أخرى! هناك حلان: الحل الأول هو الكذب على الذات واستخدام اللغة الخشبية الديماغوجية للسياسيين العرب، سلطة كانوا أو معارضة. يقولون لك بكل مكابرة ولا مسؤولية: يا أخي شعبنا غير طائفي. يا أخي شعبنا ملائكي. بمعنى أنك عندما تتحدث عن هذه الأشياء فإنك تهجو الشعب! يا أخي، هذه أشياء زرعها الاستعمار فينا، إلخ... بالطبع لا خير يرجى من هؤلاء. فهم لا يعترفون بوجود المشكلة فكيف يمكن أن يحلوها؟ يضاف إلى ذلك رائحة المزايدات الانتهازية المبتذلة التي تفوح منهم والتي لم تعد تقنع أحداً. والحل الثاني يتمثل في المصارحة التاريخية والتنوير الديني والفلسفي. وهو الطريق الأصعب والأطول ولكنه الأنجع. كل ما تحاشاه الفكر العربي سابقاً ينبغي أن يصبح الآن موضع نقاش حر. لماذا استطاع المجتمع الأميركي أن يحل هذه المشكلة ولا نستطيع نحن؟ لأنه مجتمع ديناميكي قوي واثق من نفسه، ثم لأنه مجتمع مستنير في شرائحه الأوسع. هل نعلم بأن جون فيتزجيرالد كندي طرح مشكلة حقيقية عندما رشح نفسه للانتخابات الرئاسية؟ وذلك لأن الإنسان الشرعي الكامل الحقوق في أميركا هو أيضاً ثلاثي الأبعاد. إنه الإنسان الأبيض، الأنغلو ساكسوني، البروتستانتي. اثنتان من هذه الصفات الثلاث كانتا متوافرتين في كندي ولكن ليس الثالثة. فقد كان كاثوليكياً في بلاد تنتمي في أغلبيتها إلى المذهب البروتستانتي. ولكنه استطاع التغلب على هذا النقص الذي لا حيلة له فيه بفضل جاذبيته

التي لا تضاهى وقوة شخصيته، ثم بفضل استنارة الشعب الأميركي، أو على الأقل، قسم كبير منه. ثم بفضل الدستور الأميركي الذي ينص صراحة على العلمانية، ولكن ليس على الإلحاد! أما أوباما فقد طرح مشكلة أخطر: فقد كان مسيحياً بروتستانتياً ولكنه أسود! وبالتالي "فجريمته" أكبر بكثير من كندي إذا جاز التعبير. ومع ذلك فقد استطاع المجتمع الأميركي المستنير أن يبلعها ويتجاوزها. باختصار شديد، وهنا أختتم المقال الذي طال: لن نخرج من مأزقنا وتخبطنا إلا بعد أن يتشكل لدينا فكر تنويري جديد تتسع أحضانه للجميع من دون استثناء. عندئذ سوف يطل علينا الربيع العربي يختال ضاحكاً... وهذا الفكر لن يتشكل إلا بعد أن يتفكك الفكر القروسطي القديم السائد والراسخ منذ مئات السنين. وهو فكر مليء بالأفكار العنصرية التمييزية والطائفية التكفيرية. ولكن هذه صيرورة معقدة لا يمكن أن تحصل بين عشية وضحاها، بل سوف تستغرق سنوات عديدة ومناقشات هائلة. نعم إن التنوير العربي الإسلامي آت لا ريب فيه!

شبح الإخوان يخيّم على العرب

كان الزميل مشاري الذايدي قد تحدث على صفحات "الشرق الأوسط" عن الربيع الإخواني بدل الربيع العربي. وأعتقد أنه مصيب إلى حد كبير. فبعد انتصار الإخوان في تونس قد ينتصرون أيضاً في مصر وحتماً في ليبيا وربما في أماكن أخرى لاحقاً. لماذا كل هذه الانتصارات بعد ثورات لم يشعلوها هم بل دشنها شباب أقرب إلى الحداثة والتحديث؟ كيف قطفوا ثمار الربيع العربي يانعة جنية؟ كيف نزلت عليهم هذه الهدية من السماء، هذه المفاجأة الإلهية؟ كان الفيلسوف سبينوزا يقول: لا يتعلق الأمر بأن نضحك أو نبكي بل بأن نفهم. وكان الفيلسوف هيغل يقول: كل ما هو واقعي عقلاني. وبالتالي حدث كبير كهذا لا يمكن أن يكون اعتباطياً أو عبثياً. لا بد أن هناك عوامل موضوعية تقف وراءه. فلنحاول أن نستجليها. أول انتخابات حرة في بلد الانتفاضة الأولى تونس أعطى الأغلبية للإخوان الذين دعوا حركتهم باسم "النهضة". ولكن هل قادة النهضة اليوم هم أنفسهم قادة حركة التوحيد الإسلامي بالأمس؟ ألم يتغيروا طيلة ثلاثين عاماً من النضال والمعاناة والاحتكاك بالواقع المر والعيش في البلاد الديمقراطية الأوروبية؟ ألم ينظروا حولهم ويروا كيف يمارس

الحكم الديمقراطي في إنكلترا وفرنسا وألمانيا إلخ؟ هل يعقل أنهم لم يستفيدوا أي شيء من تجاربهم واحتكاكاتهم؟ في ما يخص الحالة التونسية الجميع متفائلون نسبياً. وهذا لا يعني أن حركتهم لم تكن متزمتة بل وإرهابية في الثمانينات من القرن الماضي. ولكنهم تغيروا وتطوروا وتثقفوا... من منا لم يتغير ويتجدد بعد هجرته إلى البلدان الأوروبية المتقدمة والعيش فيها ردحاً من الزمن؟ وبالتالي فمحاربة التيارات الإخوانية في الماضي، بما فيها الجماعة التونسية، كانت مبررة ومشروعة لسبب بسيط هو إنها كانت متعصبة ومعادية للديمقراطية ولروح الأزمنة الحديثة كلها. ولكن لماذا تحاربهم الآن إذا كانوا قد تغيروا واعتنقوا القيم الحديثة واعترفوا بالتعددية وحلفوا بأغلظ الأيمان بأنهم تخلوا عن العنف وانتهجوا الخط الديمقراطي مذهباً والدولة المدنية هدفاً؟ إن المحنة الصراعية التي عاشها الإخوان العرب والليبراليون العرب بعضهم ضد بعض طيلة الخمسين سنة الماضية كانت مفيدة لكلا الطرفين، على الرغم من كل الاغتيالات والمجازر التي ارتكبت من هذا الطرف أو ذاك. الإنسان "لا يتعلم إلا من كيسه" كما يقول المثل العامي... ينبغي العلم بأن حركة الإخوان المسلمين كانت قد سُحقت في الماضي من قبل الحركة القومية العربية والأيديولوجيا الاشتراكية والعالم ثالثية المضادة للإمبريالية والاستعمار. واعتُبر الإخوان آنذاك بمثابة طابور خامس مرتبط بالرجعية العربية والغرب. والآن ينتقم التاريخ لنفسه، إذ يعود الإخوان إلى الساحة بكل هذه القوة والعنفوان. وذلك بعد أن فقدت الأيديولوجيا الحداثية والقومية والاشتراكية مصداقيتها و لم تعد تقنع أحداً بسبب ديكتاتورية الأنظمة وفسادها والتناقض الصارخ بين أقوالها وأفعالها. انظر إلى الحالة المزرية للأحزاب القومية العربية من ناصرية وبعثية، وكذلك إلى الاحزاب الماركسية أو الشيوعية. هي الأخرى فقدت معظم مصداقيتها بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وجدار برلين وتبنّي دول أوروبا الشرقية للنموذج الديمقراطي الغربي. وبالتالي، لمن سيصوّت الناخب العربي أو المسلم في مثل هذا الجو؟ لم يبقَ في الميدان إلا حديدان: أي التنظيمات الدينية. لم يبقَ له من خيار إلا أن يصوّت للأيديولوجيا الأكثر انغراساً في تاريخه وهويته العميقة والأكثر قرباً من اقتناعاته وعقائده الإيمانية الراسخة. لهذا السبب تربح التنظيمات الإخوانية الانتخابات في كل مكان، مثلما ربحتها التنظيمات الشيعية في إيران أو العراق إلخ. إنه لمن المعيب والمخجل أن يفاجأ المثقف العربي الحديث بمثل هذا الوضع. لماذا أقول ذلك؟ لأن هذا التفاجؤ دليل

على مدى جهله بالواقع العربي وبالثقل التاريخي للتراث الديني الكبير.

لقد كان من السذاجة الاعتقاد بأن الشباب التحديثيين الذين قاموا بالثورة في تونس ومصر على الأقل هم الذين سيقطفون ثمرتها. فالوقائع تثبت أن الإسلاميين هم الأكثر رسوخاً في الأرض والأكثر تغلغلاً في الطبقات الشعبية، كما أنهم يحتمون بالهيبة الإلهية التي تطمئن الناس وتسحق الليبراليين سحقاً حتى قبل أن يفتحوا فمهم في أي مناظرة تلفزيونية... يكفي أن يفتتح ممثل الإخوان الأصوليين كلامه بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم حتى يغلبك فوراً. أما أنت فلا تفتتح كلامك بها عادة خشية أن يقال عنك إنك متخلف أو رجعي!... إنهم يستخدمون المعجم اللفظي الديني نفسه الذي تفهمه عامة الشعب وتقدسه منذ مئات السنين، كما أنهم قدموا الخدمات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الطبقات الشعبية الفقيرة بفضل الأموال الغزيرة التي انهالت عليهم من دول الخليج. فهل دعم الغرب الأحزاب العلمانية التونسية بفلس واحد؟ هل نعرف نحن المتبجحين بالليبرالية والعلمانية من هو الشعب في أعماقه التاريخية؟ هل ننزل إلى مستواه أو "نتلوث" به؟ معاذ الله! إننا نتعالى عليه ونتلهى بعرض نظريات فلسفية عويصة لا نفهمها نحن بالذات! أبالغ قليلاً لتوضيح الصورة وعلى طريقة جلد الذات... لقد عجز الإخوان العرب طيلة سنوات وسنوات عن التوصل إلى السلطة بواسطة العنف والإرهاب والاغتيالات، فإذا بها تسقط في أحضانهم من تلقاء ذاتها عن طريق صناديق الاقتراع! ألن يصبحوا ديمقراطيين بعد ذلك؟ ألن يعشقوا الديمقراطية عشقاً ويهيموا بها غراماً؟ ولكن ماذا لو أن صناديق الاقتراع سلبتهم غداً ما أعطتهم اليوم؟ ألن يكفروا بالديمقراطية ويشنوا عليها أبشع الحملات ويتذكروا أنها من اختراع غربي شيطاني؟ ذلك أن الديمقراطية سلاح ذو حدين: أحياناً لك وأحياناً عليك. وما أصعب مفارقة السلطة بعد أن تكون قد ذقت طعمها! سوف نرى ماذا سيحصل في الانتخابات اللاحقة إذا ما خسروها. سوف نرى ما إذا كانوا قد أصبحوا ديمقراطيين حقيقيين يقبلون بالتناوب على السلطة أو أنهم سيلجأون إلى أساليب التهديد العلني أو المبطن لإبقائها في أيديهم. في كل الأحوال، لا ينبغي أن يهيمنوا كلياً على المسرح السياسي كما حصل في إيران. هذا خطر كبير ينبغي تحاشيه بأي شكل، لأنه قد يؤدي إلى التوتاليتارية اللاهوتية التي تحل محل التوتاليتارية "العلمانية" للأنظمة المتهاوية. ماذا سيحصل لفكرة الحاكمية أو لنظرية ولاية الفقيه بعد كل هذه التجارب الديمقراطية المدهشة؟ ألن يتخلى

عنهما الإسلاميون ويقبلوا بالفلسفة السياسية الحديثة التي تقول بأن الشعب بتصويته الحر هو مصدر السيادة العليا والمشروعية لأي سلطة أو حكم؟ هناك انعكاسات نظرية كبيرة تترتب على هذه التجارب الانتخابية والديمقراطية. فالواقع العملي يغير الفكر أيضاً، وليس فقط الفكر يغير الواقع. هناك جدلية خلاقة تربط بين الطرفين. وأخيراً سأقول ما يأتي: كلامي السابق لا يعني أني أعتبر المرحلة الإخوانية بمثابة نهاية التاريخ! فما نعيشه الآن ليس إلا عبارة عن مرحلة انتقالية مترجرجة قبل أن يتثقف الشعب وينتصر التأويل المستنير للدين على التأويل القروسطي القديم. عندئذ سوف تشرق شمس الحرية فعلاً على العرب وسوف يكون لكل حادث حديث...

متى سيفهم العرب أن العلمانية ليست الإلحاد؟

كلمة العلمانية تشكل ما يشبه البعبع المفزع بالنسبة ليس فقط إلى الجمهور العام، بل أيضاً إلى قسم لا يستهان به من المثقفين العرب. والسبب هو أنها متطابقة في الوعي الجماعي مع الإلحاد. فعندما نقول نريد دولة علمانية فكأننا نقول نريد دولة إلحادية! وهذا شيء مناقض للحقيقة تماماً. فالدولة الإلحادية هي تلك التي أسستها الشيوعية وفرضتها على جمهوريات الاتحاد السوفياتي طيلة سبعين سنة. فكان الرفيق ستالين مثلاً يمنع الناس بالقوة من الذهاب إلى الكنيسة الأرثوذكسية لأداء الصلاة أو حضور القداس. ولذلك ما إن انهارت الشيوعية عام ١٩٩٠ حتى عادت الديانة المسيحية إلى روسيا بقوة وحماسة. وهذا ما يدعى بانتقام التاريخ لنفسه. فالناس كانوا قد أصبحوا متعطشين للدين بعد أن حرموا منه طيلة سبعين سنة. وحتى الروايات العظيمة لدوستيوفسكي كانت ممنوعة أو محاربة إبان الفترة الشيوعية، لأنها "رجعية" تنضح بالروحانية المسيحية الصافية والعميقة. ولكن التاريخ انتقم لنفسه كما قلنا وأصبح بطريرك موسكو شخصية مهمة يحسب لها الحساب، يتمسح به بوتين ويتقرب منه... بل ويخشى الآن من أن يزيد رد الفعل الديني عن حده وينقلب إلى ضده: أي أن نعود إلى محاكم التفتيش اللاهوتية بعد أن كنا في محاكم التفتيش الشيوعية!... في المناسبة، بالنسبة إلى إيران وبعض الدول الأصولية الأخرى فإنه يحصل العكس تماماً. فالشيء الممنوع ليس التدين وإنما إجبار الناس بالقوة على التدين وأداء

الطقوس (ستالين معكوساً). ولذلك يقال إن الشبيبة الإيرانية أصبحت تنفر من الدين بعد وصول النظام الأصولي إلى سدة السلطة، في حين إنها كانت متدينة جداً في عهد الشاه. وهذا شيء مفهوم تماماً من الناحية السيكولوجية، لأن كل ممنوع مرغوب. إذا كنت تريد أن يكره الشعب شيئاً ما فأجبره عليه إجباراً. بل إذا كنت تريد أن يكره طفلك شيئاً ما فأجبره عليه. هذا أسوأ مبدأ من مبادئ التربية. من هنا فشل كل الأنظمة التوتاليتارية ذات الحزب الواحد. ومن هنا أيضاً ملل شعوبنا من الأنظمة المركبة على الطريقة الستالينية وعبادة الزعيم والصور والتماثيل! لماذا التماثيل؟ ألا تكفي الصور؟ وهذا ما يفسر سبب نجاح الربيع العربي وانتشاره في الناس كانتشار النار في الهشيم. فالناس تريد أن تتنفس خارج إطار الحزب الواحد والفكرة الواحدة والجريدة الرسمية التي تكرر الكلام نفسه كالببغاوات... إذا كنت تريد أن تقتل روح الإبداع في شعب ما فأسس اتحاداً رسمياً للكتاب واتحاداً للشبيبة والطلبة إلخ... الأدب العظيم لا ينتعش إلا خارج كل هذه الاتحادات. هل يمكن أن تتخيل نزار قباني عضواً في اتحاد الكتاب العرب أو السوريين؟ إنه يستعصي على كل السجون!... ميزة الغرب الأوروبي على كل النطاقات الحضارية الأخرى هي أنه يسمح بالتدين وعدم التدين في آن واحد. بمعنى آخر، فإنه يسمح بالحرية الدينية... وهذا هو معنى العلمانية بالضبط. هذا هو جوهرها. في فرنسا مثلاً يمكن أي شخص أن يمارس طقوس دينه، سواء أكان مسيحياً أم مسلماً أم يهودياً أم بوذياً، ولكن يمكنه أيضاً ألا يمارسها على الإطلاق! ويظل مع ذلك مواطناً يتمتع بكافة الحقوق. الحرية لا تكون في اتجاه واحد فقط، وإلا ليست حرية. كل متدين مواطن بالضرورة ولكن ليس كل مواطن متديناً بالضرورة. لا يحق مثلاً لجاره المتدين أن يعيّره بذلك أو أن ينظر إليه شزراً وكأنه كافر أو فاسق لأنه لا يؤدي الطقوس... ماذا نفعل بطبيب ناجح يداوي الناس بالمجان أحياناً ولكنه غير متدين أو لا ينتمي إلى طائفتنا أو مذهبنا؟ هل نكفره ونعدمه ونخسر كفاءاته؟ وقس على ذلك المهندس والخبير الاقتصادي والعالم الفيزيائي والفيلسوف والصحافي إلخ... يضاف إلى ذلك أن الدولة تقف على الحياد من كل الأديان والمذاهب الموجودة في المجتمع. قلت تقف على الحياد ولم أقل تعادي الأديان. وهذا فرق كبير. هنا يكمن الفرق الأساسي ليس فقط بين الدولة العلمانية والدولة الإلحادية بل أيضاً بين الدولة العلمانية والدولة الأصولية الطائفية والتمييزية. ما معنى ذلك؟ معناه أن الدولة تعامل جميع السكان على قدم المساواة

أياً يكن دينهم أو مذهبهم. إنها لا تنظر إليهم من خلال أديانهم ومذاهبهم وأماكن ولادتهم. قد يبدو هذا الكلام سهلاً أو تحصيل حاصل. في الواقع إنه يشكل طفرة هائلة في تاريخ السياسة والفكر البشري. فالدولة الأصولية التي كانت سائدة في فرنسا قبل الثورة الفرنسية كانت تعامل الناس من خلال انتماءاتهم الدينية أو الطائفية: أي من خلال شيء لا حيلة لهم فيه لأنه لا أحد يختار مكان ولادته! كانت الدولة الفرنسية إبان العهد القديم تعطي الأولوية لأبناء المذهب الغالب. فإذا ما شاء لك الحظ أن تولد في عائلة مسيحية كاثوليكية فأنت شخص شرعي لا غبار عليك. بالطبع سيكون أفضل لو أنك ولدت أيضاً في عائلة من النبلاء الإقطاعيين! ولكن هذه قصة أخرى... أما إذا ما ولدت في عائلة مسيحية بروتستانتية فالويل كل الويل لك! إنك ليس فقط كافراً زنديقاً بل وشبه مجرم! وبالتالي فأنت منبوذ ومحروم من كل الحقوق الإنسانية تقريباً. بالكاد يتحملون وجودك على وجه الأرض. يكفي أننا نسكت عنك وعلى رجسك وعقيدتك المنحرفة الضالة لعنك الله! وبالتالي فالدولة لا يمكن أن تفتح لك أبواب التوظيف والعمل على مصراعيها كما تفعل مع جارك الكاثوليكي المؤمن المحترم، أو المسيحي الصحيح العقيدة، القويم المستقيم. على هذا المستوى من العمق، ينبغي طرح الأمور لكي تُفهم على حقيقتها. ولكن هذا التطور أو هذه القفزة النوعية لم تحصل بين عشية وضحاها، بل لزم مئتا سنة لكي يهضمها العالم المتقدم ولكي تقتنع الجماهير العريضة من المسيحيين بها. ولكنهم عندئذ كانوا قد أصبحوا مسيحيين علمانيين أو ليبراليين، وما عادوا مسيحيين أصوليين طائفيين. وهذا التطور المذهل لم يحصل إلا بعد انتشار الأفكار العلمية والفلسفية والدينية المتنورة في أوساط واسعة من الشعب عن طريق المدرسة والصحافة والتعليم، إلخ. هذا لم يحصل إلا بعد انحسار الأفكار الأصولية القديمة الراسخة في العقول منذ مئات السنين. وهنا بالضبط أصل إلى الوضع العربي الراهن. لماذا تبدو الدولة العلمانية أو المدنية شيئاً مستحيلاً في المدى المنظور؟ لأن المعركة بين الأفكار الحديثة والأفكار الأصولية لم تحسم بعد، أو قل إنها محسومة بشكل كلي تقريباً لمصلحة الأفكار الأصولية المتغلغلة في أوساط الشعب والجماهير الغفيرة. أكبر دليل على ذلك اكتساح إخواننا الأصوليين لكل الانتخابات الحرة، وبالأخص في الدولة الأكبر: مصر. نعم، إن الفكر الأصولي يحظى بمشروعية تاريخية ضخمة لم يتجرأ أحد حتى الآن على مساءلتها، هذا فضلاً عن تفكيكها وتبيان تاريخيتها ونسبيتها. من يفكك مقدسات

الشعب؟ هل أنت مجنون؟ عندما اطلعت على قصة الصراع بين الحزب الكاثوليكي والحزب العلماني الليبرالي في فرنسا منذ أيام فيكتور هيغو والقرن التاسع عشر، بل حتى منذ أيام فولتير والقرن الثامن عشر، هالني الأمر. لم تتحقق العلمانية في فرنسا إلا بعد حسم هذه المعركة الفكرية الضارية. ولذلك أقول إن المعركة لن تحسم سياسياً قبل أن تحسم فكرياً. وهي المعركة العظيمة (أم المعارك!) التي كرس لها إميل بولا، أحد كبار الاختصاصيين في الموضوع، كتاباً كاملاً بعنوان شديد الدلالة والمغزى: **الحرية، العلمانية. حرب شطري فرنسا ومبدأ الحداثة**[1].

هل يمكن أن يستنير العرب في المدى المنظور؟

كانوا قد طرحوا في أواخر القرن الثامن عشر على الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط السؤال الآتي: هل نحن في عصر مستنير يا سيادة البروفيسور؟ فأجاب: لا، ولكننا في عصر سائر نحو الاستنارة. ولو طرح علي أحدهم السؤال نفسه: هل نحن العرب مستنيرون؟ لأجبت: لا لسنا مستنيرين، ولسنا سائرين نحو الاستنارة أصلاً! لاحظ الفرق الشاسع بين لحظة الألمان ولحظة العرب. فبينهما يفصل قرنان ونصف القرن من الزمان، ومع ذلك فالألمان كانوا آنذاك أكثر قرباً إلى التحضر والاستنارة والدولة المدنية من عرب اليوم! من يصدق ذلك؟ أليست كارثة أو مأساة أن يكون الشعب الألماني سائراً نحو التنوير والانفصال عن الأصولية المسيحية والأفكار الطائفية عام ١٧٨٠، وليس العرب عام ٢٠١٢؟ بل إننا سائرون في الاتجاه المعاكس حالياً. ولكن مع ذلك أصرّ على القول بأن المستقبل أمامنا. وأعتقد جازماً بأن انهيار الأنظمة المتكلسة المتحنطة يشكل خطوة أولى على الطريق الصحيح. بهذا المعنى نشكر الربيع العربي لأنه حرك المستنقع الراكد، المستنقع الآسن. صحيح أنه لم يتمخض عما نرجوه ولكنه دشن صيرورة تاريخية لن تتوقف تفاعلاتها الخلاقة عما قريب...

كان كانط يتخذ أحياناً بعض الاحتياطات بغية تمرير أفكاره الجريئة أكثر من اللزوم والسابقة على عصره. من المعلوم أنه مدح ملك ألمانيا (بروسيا آنذاك) فريدريك الثاني باعتبار أنه عاهل مستنير. صحيح أنه مستبد، ولكنه مستبد مستنير يسمح للعلماء والفلاسفة

1 Emile Poulat: *Liberté, laicité. La guerre des deux France et le principe de modernité.* Cerf. Paris 1988.

بحرية البحث والتفكير والنشر. أليس المستبد المستنير أفضل من المستبد الظلامي على طريقة لويس الخامس عشر ملك فرنسا؟ كان فريدريك الكبير هذا يستقبل في بلاطه كل مثقفي فرنسا الهاربين من بطش مليكهم الأصولي بمن في ذلك فولتير. وكان يفتح لهم أبواب أكاديمية برلين لكي يبحثوا ويتناقشوا في شتى شؤون العلم والفكر والدين بكل حرية. وكان يصرف عليهم الرواتب لكي يتفرغوا كلياً للبحث وتنوير الشعوب الأوروبية (لا أرى له شبيهاً في تاريخنا إلا المأمون العظيم)، بل كان هو شخصياً يشارك في المناقشات التي تدور حول العقائد الدينية المسيحية. ولكنه كان يتخذ بعض الاحتياطات ومظاهر التقية خوفاً من رد فعل العوام. حتى هو، الملك الجبار، كان يخاف من الشعب! فما بالك بالمثقفين؟ فالأصوليون كانوا مسيطرين على الجماهير الأمية في معظمها من خلال المواعظ والصلوات والقداسات، تماماً كما هي عليه حالة العرب والمسلمين اليوم. وكان رجال الدين في أي لحظة يستطيعون تهييج العامة على العاهل وتهديد حكمه. وبالتالي، لا بد من إرضائهم وتقديم التنازلات والترضيات والهبات لهم. في الواقع، إن كانط لم يكن منافقاً إذ مدح فريدريك الكبير، بل صادقاً. كان يعتبر وجود المستبد المستنير في وقته أفضل الممكن، وإلا فـ"ديمقراطية" الأصوليين والكهنة المسيحيين! فلو نظمت انتخابات حرة آنذاك لاكتسحوها اكتساحاً، لأن الشعب لم يكن قد استنار بعد، وإنما النخبة المثقفة فقط. ولهذا مدحه، وخاصة أنه يحميه من طغاة مُعمّمين أو مطربشين لا يقلون بأساً وهولاً: رجال الدين بالذات! فهؤلاء كانوا يشتبهون في كانط ويعرفون أنه يحفر تحتهم منتقداً فهمهم الخاطئ للدين، وتكالبهم على الوجاهات والأموال، هذا فضلاً عن تخديرهم للشعب بالمعجزات والخرافات. كان كانط تقياً نقياً وأخلاقياً من الدرجة الأولى. كان يعرف كيف يفرز جوهر الدين عن قشوره. ولم يتعرض للأذى إلا بعد وفاة المستبد المستنير وصعود ابن أخيه غليوم الثاني إلى سدة الملك. فهذا الأخير وقع لسوء الحظ تحت تأثير أحد الأصوليين المسيحيين الأكثر تزمتاً وظلامية. وكان حاقداً جداً على فريدريك الكبير وعهده الليبرالي التنويري المتسامح. ولذا دفع بالملك الجديد إلى التضييق على الحريات، وبالأخص حرية التفكير في الشؤون الدينية والعقائدية، وأخذ يهيجه على كانط ويسوّد صفحته لديه. عندئذ تلقى كبير فلاسفة ألمانيا رسالة تهديد حقيقية، وخاف جدياً لأول مرة في حياته. عندئذ احمرت عليه الأعين تماماً. ولهذا السبب قرر إيقاف أبحاثه عن الدين فوراً. لحسن الحظ،

فإن عهد هذا الملك الرجعي (أو المستبد غير المستنير) لم يدم طويلاً، فعاد الفيلسوف إلى إكمال كتابه الشهير: **الدين ضمن حدود العقل فقط**. وعلى هذا النحو صالح بين المسيحية والحداثة، أو بين الدين من جهة والعقل والتنوير من جهة أخرى. وعلى هذا النحو استطاع أن يهزم التأويل الطائفي الظلامي للدين المسيحي، أي التأويل الذي كان موروثاً راسخاً، والذي خلع المشروعية "الإلهية" على الحروب الطائفية والمذابح والمجازر ودمر ألمانيا. كانط لم يكن ملحداً على الإطلاق، بل كان مؤمناً بوجود فهم آخر أكثر استنارة وعقلانية للدين. هذا كل ما في الأمر، لا أكثر ولا أقل. ومن دون هذا الفهم الجديد للدين، أي الفهم العقلاني المستنير اللاطائفي، لم يكن ممكناً تشكيل الوحدة الوطنية الألمانية التي مزقتها الصراعات الهائجة بين المذهبين الكبيرين للبلاد: أي المذهب الكاثوليكي البابوي والمذهب البروتستانتي اللوثري. وبالفعل لم تتحقق هذه الوحدة إلا على يد بسمارك عام ١٨٧١، أي بعد موت كانط بسبعين سنة تقريباً وموت هيغل بأربعين سنة بالضبط. لم تتحقق إلا بعد أن كان التنوير قد انتصر في العقليات وبرامج التعليم، وقضى على العقلية القديمة والعصبيات الطائفية الضيقة وذلك لمصلحة عصبية واحدة هي: العصبية الوطنية الألمانية التي تتسع أحضانها للجميع. ماذا أستنتج من كل ذلك؟ أستنتج أن إصلاح الفكر سبق إصلاح السياسة وليس العكس. بمعنى أنه لولا كانط وفيخته وهيغل وسواهم لما كان بسمارك. لولا الفكر المستنير لما كانت السياسة المستنيرة. نقطة على السطر. أستغرب لماذا كل هذا الإهمال لدور الفكر المستنير في الربيع العربي! أليس غيابه محبطاً للآمال؟ أليست محاكمة عادل إمام مقلقة؟ هل يمكن أن نشكل دولة مدنية حديثة بعقلية القرون الوسطى، أي من دون التخلي عن الأفكار التكفيرية ومحاكم التفتيش التي تلاحق المثقفين والفنانين؟ ولكن كيف يمكن أن نتخلى عنها إذا كانت لا تزال تفرض نفسها كحقائق مقدسة ومعصومة من خلال المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعات والجوامع بطبيعة الحال هذا فضلاً عن الفضائيات والبرامج الدينية كلها؟ معضلة رهيبة لن نخرج منها عما قريب. وهي أكبر معضلة تواجهنا حالياً وتكاد تقصم ظهرنا. فهذه الفتاوى التكفيرية هي التي شوهت صورتنا على مستوى العالم كله وأعطت عن الدين الإسلامي صورة مرعبة. إذا لم تحصل عقلنة للدين الإسلامي كما حصلت عقلنة للدين المسيحي على يد كانط وسواه من مفكري التنوير الكبار، فلا أرى حلاً ولا خلاصاً. ولكن المشكلة هي أن هذه العقلنة لا يمكن أن تحصل بين عشية

وضحاها. وتجربة أوروبا خير شاهد على ذلك. لا يمكن أن تقتلع الأفكار المقدسة والمكرسة على مدار القرون من العقلية الجماعية بمثل هذه السهولة والسرعة. مستحيل. ولهذا السبب أقول إنه لا يوجد حل – ولا تنوير – في المدى المنظور. ولكن ينبغي أن ننخرط في خط التنوير حتى ولو كانت النتيجة الحاسمة – أي انتصار التنوير – بعيدة وتستغرق سنوات طويلة قبل أن تتحقق، كما أعتقد شخصياً أنه من دون تفكيك العصبيات الطائفية وتنوير العقول لا يمكن أن ينجح الربيع العربي الذي يشكل صرخة احتجاج حقيقية ومشروعة ضد أنظمة الاستبداد والفساد والطغيان. أقصد الأنظمة التي تقتل شعبها بمجرد أن يفتح فمه ويتنفس. من دون استنارة فكرية لا يمكن تشكيل الوحدة الوطنية في أي بلد عربي أو إسلامي. وكانط أعطانا أكبر درس في هذا المجال عندما قال: لكي تغيروا المجتمع ينبغي أولاً أن تغيروا العقليات السائدة فيه عن طريق التعليم والتثقيف والتهذيب. ولكننا نعلم أن زحزحة الجبال أسهل من تغيير العقليات! ومع ذلك ينبغي علينا أن نغير برامج التعليم القديمة التي تكرس الحزازات المذهبية والانقسامات الطائفية في نفوس الأطفال الصغار منذ المرحلة الابتدائية. كيف يمكن أن نشكل وحدة وطنية في مثل هذا الجو؟ ولذلك أدعو إلى ثورة فكرية تنويرية عربية تكون مكملاً للربيع السياسي العربي وتليق به وبتضحياته. السياسة من دون رادار فكري عمياء أو خبط عشواء، والفكر من دون ترجمة سياسية على أرض الواقع شيء عقيم...

تودوروف وتنوير العرب

في كتابه الأخير: **الأعداء الداخليون للديمقراطية**[1]، يصفي تزفيتان تودوروف حساباته مع المحافظين الجدد الفرنسيين، وعلى رأسهم برنار هنري ليفي وساركوزي وآخرون عديدون. إنه يشن هجوماً قوياً على النظام الغربي بمجمله. وهذا شيء مفاجئ في الواقع. فتودوروف كان قد فر هارباً من الجحيم الشيوعي وبلاده الأصلية بلغاريا عام ١٩٦٣. ثم التجأ إلى المعسكر الآخر المضاد، أي المعسكر الليبرالي الديمقراطي. وراح ينعم بجنة الحريات الفردية في قلب باريس، ويصعد في سلم الفكر والمناصب الجامعية حتى وصل

1 Tzvetan Todorov: *Les ennemis intimes de la démocratie*. Robert Laffont 2012.

إلى ذراها. وبالتالي فما كان أحد يعتقد أنه سينقلب على العالم الرأسمالي، البورجوازي، الذي احتضنه يوماً ما. أقول ذلك وخاصة أني عندما قابلته مرتين في مكتبه وفي بيته قبل ربع قرن كان متحمساً جداً للنظام الليبرالي الغربي. وفوجئت آنئذ، عندما ذكرت له اسم فوكو وديلوز عرضاً، بأنه غير راضٍ عنهما أبداً، لأنهما ينتقدان الديمقراطية الليبرالية التي يعيشان في أحضانها من دون أن يدركا حجم النعمة التي يتمتعان بها. كان يعتبرهما من جماعة اليسار النيتشوي العدمي المتطرف الذي يريد إطاحة كل شيء. وقال لي: ليذهبا للعيش في بلاد توتاليتارية استبدادية عشرة أيام فقط وبعدئذ نرى إذا كانا سينتقدان الديمقراطية الغربية أو لا. هذا ما فهمته منه آنذاك. فكيف تغير تودوروف وانتقل من النقيض إلى النقيض؟

قد تبدو افتتاحية مقالي هذه هجوماً عليه. في الواقع، إني أكتبها للدفاع عنه ولتأييد موقفه الشجاع. فمن حق المثقف أن يتغير وينضج كلما كبر في العمر والتجارب وحقق المزيد من الكشوفات والفتوحات المعرفية. فتودوروف لا يلوم الغرب على اتباع التنوير، بل على انحرافه عن التنوير وخيانته للقيم الإنسانية الحضارية التي يتبجح بها ظاهرياً ويعمل عكسها فعلياً.

ويرى تودوروف أن المحافظين الجدد من أميركان وفرنسيين يبالغون جداً في خطر الإسلام ويحولونه إلى "بعبع" مضخم ومرعب، كما أنهم لا يميزون بين الإسلام كدين كبير وبين الأصولية المتطرفة التي تزعم الانتساب إليه والتي اتخذته كرهينة بعد جريمة ١١ سبتمبر أو حتى قبل ذلك. لحسن الحظ، فإن صديقه لوك فيري ميز بين الأمرين بشكل واضح قبل فترة قصيرة في برنامج تلفزيوني. وقد سعدت جداً لسماع كلامه على القناة الخامسة لأنه، إضافة إلى تودوروف، يعتبر أحد أهم المثقفين في فرنسا حالياً. ومجرد وجوده في الساحة يخيف زعيم المحافظين الجدد الفرنسيين برنار هنري ليفي ذي الثقافة الفلسفية السطحية قياساً إليه أو إلى تودوروف. فهو سياسي في الدرجة الأولى أكثر مما هو مفكر على عكس ما يتوهم ويزعم. وقد لفظ لوك فيري هذه العبارة الموفقة الآتية: هل نحاسب المسيح أو الإنجيل على محاكم التفتيش المسيحية التي لاحقت العلماء والمفكرين طيلة العصور الوسطى؟ المقصود: لا ينبغي أن نحاسب الإسلام أو المسلمين ككل على جرائم ترتكبها أقلية من الجهلة والمتطرفين. ولكن يبقى صحيحاً القول بأن هناك مشكلة لدينا حالياً وقد أصبحت تقلق العالم كله، ولا تفيد في شيء التغطية عليها. يمكننا بسهولة أن نتهم الآخرين

بالطائفية والتعصب، ولكن يصعب علينا أن نعترف بأن ذلك قد يكون موجوداً لدينا أيضاً. الآخر هو دائماً المخطئ والمدان، أما أنا فلا أشكو من أي شيء!... ما دمنا بهذه العقلية فلا يمكن أن يحصل أي تقدم في مجتمعاتنا ولا يمكن أن نتخلص من عللنا الاجتماعية وانقساماتنا المذهبية. لو أن فلاسفة التنوير الأوروبي اتخذوا مثل هذا الموقف السهل واللامسؤول لما استنارت الشعوب الأوروبية، ولظلت طائفية يذبح بعضها بعضاً على الهوية حتى الآن. من المعلوم أن فولتير عندما زار إنكلترا وشاهد التقدم الذي حققته وكل التسامح الديني المنتشر فيها، راح يهاجم فرنسا والفرنسيين لأنهم لا يزالون متعصبين طائفياً وغير مستنيرين عقلياً. راح يهاجمهم بعنف لأنهم لا يزالون يقتل بعضهم بعضاً على الهوية من كاثوليكيين وبروتستانتيين. فكلهم مسيحيون: كتابهم الإنجيل ونبيهم يسوع المسيح. ومع ذلك، فإنهم لا يطيق بعضهم بعضاً! اقرأوا كتابه **رسائل إنكليزية** الذي تحول لاحقاً إلى **رسائل فلسفية**. إنه ممتع حقاً. عندئذ تدركون أن المثقف النقدي الحر هو الذي يحلحل الوضع ويوقظ الشعب، وليس المثقف الامتثالي المحافظ الذي لا يقدم ولا يؤخر. فهل كان فولتير خائناً لفرنسا وعميلاً لإنكلترا إذ هاجم الفرنسيين ومدح الإنكليز؟ أبداً لا. فمن شدة حرصه على شعبه وغيرته على أمته وانزعاجه من سبق الآخرين لها، راح يقرّع الفرنسيين ويؤنبهم ويحثهم على اللحاق بركب الأمم المتطورة. والآن، لا يلومه أحد على هذا الموقف النقدي الصارم. على العكس، فإنهم يعتبرونه إحدى مفاخر الأمة الفرنسية لأنه أيقظها من غيبوبتها وأصوليتها وتعصبها. وأصلاً، لو أن فلاسفة أوروبا قالوا إن شعبنا عظيم، شعبنا ملائكي، شعبنا لا يعاني من أي مشكلة أو علة، لما حصل أي تقدم في أوروبا. ليس عيباً أن يكون الشعب بأقلياته وأكثرياته ذا حساسية طائفية في فترة من الفترات بسبب الجهل والرواسب التاريخية المتراكمة والعصور الانحطاطية. العيب هو أن يبقى كذلك. العيب هو أن تدغدغ النخبة المثقفة عواطفه بشكل ديماغوجي بدلاً من أن تساعده على استشعار هذه النواقص والعيوب بغية التحرر منها. لقد أصبح واضحاً لكل ذي عينين أنه لا يمكن تحقيق الوحدة الوطنية في أي بلد عربي مشرقي قبل إيجاد العلاج المناسب لهذه العصبيات الطائفية الخطيرة التي تمزق المجتمع وتفتك به فتكا ذريعاً. من هنا الحاجة الملحة إلى الانخراط في مشروع التنوير العربي الإسلامي باعتباره مشروع المستقبل.

من المعلوم أن تودوروف كان قد أشرف قبل بضع سنوات على تنظيم معرض كبير في

المكتبة الوطنية الفرنسية لتمجيد التنوير واعتباره إرثاً للمستقبل، لا شيئاً ماضياً منتهياً. ومن خلاله دعا الآخرين ضمنياً (وبالأخص الشعوب العربية والإسلامية) إلى بلورة تفسير تنويري جديد لعقيدتهم الدينية. ولكنه كان يرفض أن يفرض عليهم ذلك بالقوة كما يفعل المحافظون الجدد. فالتنوير إما أن ينبثق من الداخل أو لا ينبثق، وكذلك الديمقراطية. لا يمكن استيراد ذلك بشكل جاهز من الخارج كما تُستورد الآلة مع قطع الغيار. ولكن العديد من المثقفين العرب لا يزالون يكابرون ويرفضون الاعتراف بضرورة الانخراط في هذا الاتجاه التنويري الجديد. نقول ذلك على الرغم من أن كل مثقفي العالم شرقاً وغرباً أصبحوا متأكدين من حتمية هذه الصيرورة، لأن الأصولية المتطرفة أصبحت مشكلة دولية وليس فقط عربية أو إسلامية. والحدث الكبير المنتظر في السنوات القادمة هو انبثاق شمس التنوير العربي من خلف الآفاق المسدودة والدياجير المظلمات. العالم كله ينتظر الآن حصول هذا الحدث الأعظم: متى يتحلحل الإسلام، متى يتجدد الإسلام، متى ينفض عن نفسه غبار القرون؟

تونس والربيع العربي

بما أن تونس هي الأكثر تقدماً في علمانيتها، فإنها الأكثر تقدماً حتى في أصوليتها! أو قل إن أصوليتها هي الأكثر استنارة والأقل ظلامية من بين كل الأصوليات العربية. هكذا نلاحظ أنها رائدة على كلتا الجهتين: العلمانية والإسلامية. لقد تمخض الربيع العربي الذي هو تونسي أصلاً عن الانتصار الواضح لحركة النهضة الإسلامية. وينبغي أن نقبل بالنتيجة كما فعل الحزب العلماني التونسي بكل أريحية وحس ديمقراطي: أقصد الحزب الذي يقوده كل من الأستاذ أحمد نجيب الشابي والسيدة مية الجريبي. فمن الواضح أن السقف الفكري - السياسي الذي تسمح به اللحظة التاريخية الراهنة للعالم العربي هو ما يمثله التيار الإسلامي المنفتح على الطريقة التونسية، وإلا فتأخذون الطالبان وما أشبههم! فهل هذا تريدون؟ اقبلوا بما تستطيع اللحظة التاريخية أن تعطيه أو تسمح به. أما التنوير الكامل، أي التنوير الحقيقي، فلن يحصل إلا لاحقاً وعلى مراحل. هناك الممكن في تاريخ الفكر وهناك المستحيل. وما هو مستحيل اليوم قد يصبح ممكناً غداً... وبالتالي فإني أشارك المفكر القانوني الكبير

عياض بن عاشور تفاؤله بالحالة التونسية حتى بعد انتصار النهضة. إنها حالة صحية لا مرضية. فالصراع الجدلي الخلاق بين كلا التيارين الكبيرين يبتدئ الآن على أرضية مفتوحة، ديمقراطية. على العكس من ذلك فإن الحالة المصرية والمشرقية عموماً تشعرني ببعض القلق من دون أن أتخلى عن تأييد الربيع العربي والاعتراف بضرورته ومشروعيته التاريخية..

لقد سارع قادة النهضة إلى التصريح بأنهم سيضمنون الحريات العامة وحقوق المرأة، ولن يتراجعوا عن قانون الأحوال الشخصية الذي سنّه بورقيبة والذي هو الأكثر تحرراً في كل أنحاء العالم العربي. فماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كما رحبوا بالتعاون مع الأحزاب اليسارية أو العلمانية التي تقبل بالتشارك معهم لقيادة تونس الجديدة. وإذا ما نفذوا عملياً تصريحاتهم هذه فلا أعرف لماذا نظل نلاحقهم بتهمة الأصولية والعنف والإرهاب؟ لننتظر ونرَ... العالم كله يركز أنظاره الآن على التجربة التونسية التي قد تصبح مختبراً لكل العرب. هناك أصولية منفتحة وأصولية منغلقة. وللحق والإنصاف، ينبغي التفريق بينهما. ففي الوقت الذي صرح فيه مصطفى عبد الجليل بأنه سيعيد قانون تعدد الزوجات إلى الساحة بعد أن ألغاه القذافي، يؤكد قادة النهضة منعه. ولكن قائد المجلس الانتقالي الليبي سرعان ما تراجع عن كلامه المتهور. ولكي نعذر هذا الرجل التقليدي الورع، ينبغي الاعتراف بأن ليبيا خارجة من أكبر خضة في تاريخها وهي مثقلة بالجراح. وبالتالي فهي بحاجة لأن تلتقط أنفاسها وتضمد جراحاتها. أعطوها المهلة الكافية لكي تتنفس الصعداء بعد أربعين سنة من حكم قراقوش الطغياني الهذياني الخنفشاري، وكذلك بعد حرب أهلية طاحنة أنهكت البلاد والعباد. هذا لا يمنع التعاطف الإنساني مع السيدة صفية فركاش التي فجعت بنصف عائلتها دفعة واحدة. فهي تظل سيدة عربية مسلمة تستحق الاحترام. وليست مسؤولة عن سياسة زوجها ومغامراته الطائشة الرعناء. لا ينبغي أن نسقط في التطرف المعاكس. والخطأ السابق لا يبرر الخطأ اللاحق. حذار من تشويه صورة الربيع العربي! أياً يكن من أمر، فإن ليبيا لم تقل كلمتها الأخيرة بعد. وربما فاجأتنا بأشياء كثيرة مستقبلاً بعد أن تستعيد صحتها وعافيتها. وعلى أي حال، فهي سائرة على درب التقدم والبناء والتطور إن شاء الله.

لقد كان موضوع المصالحة بين الإسلام والحداثة شغلنا الشاغل طيلة ربع القرن المنصرم نحن المثقفين العرب أو بعضهم على الأقل. لهذا السبب أمضيت كل تلك الفترة في ترجمة أركون وشرح أفكاره والتعليق عليها. واكتشفنا من خلال التجربة والمعاناة

والمراجعات أنه ينبغي على كلا الطرفين أن يقدم بعض التنازلات. فالطرف الإسلامي مدعو لأن يقدم تنازلات مهمة للحداثة والاعتراف ببعض إيجابياتها التي لا تنكر والتي لا يمكن النهضة الإسلامية أن تتحقق من دونها، ويقف في طليعتها الفكر النقدي الحر وعدم التسليم بشيء قبل تمحيصه من قبل العقل، اللهم إلا في ما يخص الألوهيات والماورائيات الميتافيزيقة التي تتجاوز العقل. والتيار التنويري المحض مدعو أيضاً للاعتراف بالقيم الروحانية والأخلاقية السامية للدين، وبأنه يشكل القاعدة الصلبة والهوية الراسخة للشعب. من هنا نبدأ... كما أنه مدعو لنقد تطرفات الحداثة وانحرافاتها وشططها من دون أن يتخلى عن أعظم ما أنجزته وحققته على مدار القرون الأربعة المنصرمة. وهي كثيرة وعظيمة ولا تزال مجهولة من قبل الجمهور العربي الإسلامي... وإذا ما مشى كلا الطرفين خطوة أو خطوتين باتجاه الآخر فإن المجتمع سيشعر بالتوازن والارتياح، والخير سينعكس على الجميع. وربما توصلنا إلى المنهج الصحيح المؤدي إلى الخلاص. من يعلم؟ قد يكون كلامي هذا ملائكياً أو خيالياً أكثر من اللزوم. قد يكون تمييعاً للقضايا ذات الإشكالية ومحاولة للمصالحة بأي ثمن، أنا المتهم بالمواقف الراديكالية والتفجيرية... فالواقع أن الصراع بين الطرفين سوف يستمر حتى بعد انتصار النهضة وغير النهضة. ولكن لم لا؟ أليس الصراع الجدلي الخصب بين العقل الديني والعقل الفلسفي هو طريق التطور والتحلحل؟ ألم يخترق التاريخ البشري من أوله إلى آخره؟ ألم يكن تعطيله منذ دخولنا في عصر الانحطاط وهزيمة المعتزلة والفلاسفة وإغلاق باب الاجتهاد سبب ديكتاتورية الرأي الواحد والمذهب الواحد وهيمنة الاستبداد والتخلف والجمود؟ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ لقد عشنا طويلاً خارج التاريخ في متاهات غيبية استلابية دروشية بعد تكفير العلم والفلسفة. وقد آن لـ"أهل الكهف" أن يستيقظوا!

المثقفون التونسيون والقلق المشروع

اطلعت أخيراً على البيان الذي أصدره المثقفون التونسيون باللغات الرئيسية الثلاث، العربية والفرنسية والإنكليزية. وفيه يعبرون عن مخاوفهم من المصير الذي آلت إليه الأمور أخيراً بعد الثورة. فعلى ما يبدو هناك محاولة للهيمنة على كل مفاصل الدولة من قبل الحزب

الأصولي الحاكم. وهناك محاولة للتراجع عن بعض المكتسبات الأساسية التي حققها المجتمع التونسي منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم وليس فقط منذ عهد بورقيبة الليبرالي. ومعلوم أن تونس شهدت أول دستور في العالم العربي منذ عام ١٨٦١! ومعلوم أيضاً أن قانون الأحوال الشخصية يمنع الطلاق التعسفي وتعدد الزوجات ويعطي للمرأة حقوقاً لا مثيل لها في العالم العربي. وهناك هجوم شامل يشنه حزب "النهضة" على رموز الحداثة من شخصيات ومؤسسات، كما أنه يستدعي دعاة متطرفين من المشرق لبث الأفكار الطائفية والعنصرية في البلاد. فهل تونس المثقفة بحاجة إلى "محاضرات" الشيخ وجدي غنيم لكي تتنور وتتحضر؟ شيء عجيب! بالأمس القريب كان يشمت "بهلاك" البابا شنودة ويعتبره "رأس الكفر" محرضاً بذلك على الفتنة الطائفية في مصر. فهل أصبح فجأة قدوة أو نموذجاً يحتذى؟ ليعذرني قادة الحركة في تونس: يحرجني أن أنتقدهم في الوقت الذي يهاجمهم أيمن الظواهري. ولكن هو يلومهم لأنهم ليسوا ظلاميين بما فيه الكفاية، وأنا ألومهم لأنهم ليسوا مستنيرين بما فيه الكفاية. ليحاسبني الله على ما سأقوله الآن إذا كنت ظالماً. شخصياً، أصبحت أتردد في تسمية حزبهم بحزب "النهضة"، لأن كلمة نهضة ذات رنين خاص في اللغة العربية، بل حتى في اللغات الأجنبية. إنها تعني التطلع إلى المستقبل لا العودة إلى الماضي. إنها تعني في اللغات الأجنبية إحداث القطيعة مع ظلاميات العصور الوسطى المسيحية. وبالتالي، فهي لا تنطبق إطلاقاً على الأحزاب الأصولية العربية التي تريد العودة إلى العصور الوسطى الإسلامية وليس القطيعة معها. ينتج من ذلك أن السطو على هذا المفهوم الشهير خلق بلبلة فكرية وفوضى معنوية، بل وقلب الأمور عاليها سافلها. لم نعد نعرف معنى الكلمات. حتى اللغة أصبحت معكوسة! كان يمكن أن يسمّوا أنفسهم حزب العدالة والتنمية التونسي على غرار الحزب التركي أو المغربي. لا يمكن كلمة "نهضة" أن تنطبق على تأويل إخواني أو سلفي قديم للإسلام. بالمقابل، يمكن أن تنطبق كل الانطباق على التأويل التجديدي المستنير للدين الحنيف والقرآن الكريم. وهو التأويل الذي أسهم فيه المثقفون التونسيون إلى حد كبير. نذكر من بينهم بعض الموقعين على هذا البيان بالذات: كعبد المجيد الشرفي، ورجاء بن سلامة، ومحمد شريف فرجاني، وفتحي بن سلامة، وآخرين. هذا من دون أن ننسى عبد الوهاب المؤدب الذي ذهب إلى أبعد حد ممكن في الدراسة التنويرية الداخلية للتراث العربي الإسلامي. وكانت جرأته محط إعجاب الكثيرين في الغرب

والشرق. وحققت كتبه المتتالية رواجاً ملحوظاً، وألقت إضاءات ساطعة على الإشكالية الكبرى التي تؤرقنا وتؤرق العالم كله من حولنا. فقد عرف كيف يشخص بشكل دقيق طبيعة المرض الذي أصبنا به من دون أن ندري (انظر **مرض الإسلام** والكتب الأربعة التي تلته تباعاً)، كما وعرف كيف يصالح بين الأنوار العربية والأنوار الأوروبية أو قل: عرف كيف يجد نقطة التقاطع بينهما والحلقة المفرغة الضائعة. إنه يبرع في ذلك كل البراعة بفضل اطلاعه الواسع على تراثنا الإسلامي العريق من جهة، وعلى التراث المسيحي فالعلماني الأوروبي من جهة أخرى. إنه مسكون بكلتا التجربتين والهمّين. من هنا خصوبة كتبه وعمقها الفكري الناتج من تبنيه للنظرة المقارنة التي توسع الآفاق والعقول. من لا يعرف لغتين أو ثقافتين على الأقل ليس مثقفاً حتى ولو كان عبقرياً! وبالتالي، فعبد الوهاب المؤدب نتاج ناجح لكلا التراثين الكبيرين المتقابلين على كلتا الضفتين. نقول ذلك وخاصة أنه ابن أحد مشايخ الزيتونة الشهيرة. ومعلوم أن أبناء المشايخ هم الذين ينجحون أكثر من غيرهم في نقد الانغلاقات الدينية والمذهبية لأنهم يعرفونها من الداخل جيداً ويعانون منها أكثر من سواهم. ألم يكن نيتشه ابن قس بروتستانتي؟ من يصدق ذلك؟ بل حتى جده وجد جده وكل أسلافه كانوا من رجال الدين. ولذلك قال عبارته الجميلة: القس البروتستانتي هو أبو الفلسفة الألمانية، والبروتستانتية ذاتها هي خطيئتها الأصلية! وحتى هيغل كان من المقرر أن يصبح رجل دين لأنه متخرّج في كلية اللاهوت البروتستانتية الشهيرة في توبنجين. وقل الأمر ذاته عن شيلنغ وهولدرلين... وحتى فولتير كان ذا تربية يسوعية كاثوليكية متزمتة في طفولته قبل أن ينقلب عليها لاحقاً. وأي انقلاب! وقس على ذلك معظم فلاسفة التنوير الأوروبي. كلهم تعرضوا لتربية دينية صارمة في طفولتهم. كلهم خرجوا من معطف الدين والتزمت الأصولي المسيحي أو اليهودي. لنتذكر المسكين سبينوزا الذي فصلوه من الطائفة ولعنوه لاهوتياً لعنة لا تحول ولا تزول. ثم حرموه من الميراث العائلي بل وحاولوا تصفيته جسدياً. لا أحد يمزح مع التعصب الديني!... ولكن لولا ذلك هل كان سيتحفنا برائعته الخالدة: مقالة في اللاهوت السياسي؟ ينبغي أن تعاني من هذه الأشياء في طفولتك الأولى لكي تعرف كيف تتحدث عنها أو تخرج منها:

لا يعرف الحب إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها.

هذا الكلام لا يعني إطلاقاً إنكار عظمة التيار الإسلامي التونسي أو العربي العريق بمجمله. فالواقع أنه توجد لدى العديد من عناصر هذا التيار الضخم والمحترم رغبة حقيقية في التصالح مع الحداثة والعصر. وكنت أنا شخصياً قد أشدت بالربيع التونسي وتفاءلت به، على عكس الربيع العربي الآخر باستثناء الربيع المغربي. وعللت ذلك باستنارة الأصولية التونسية قياساً إلى الأصوليات العربية الأخرى. فهي مثقفة أكثر من الأصولية المصرية مثلاً، وأكثر انفتاحاً على العالم. ولكن هل هي بحاجة إلى دعاة التخلف لكي يبثوا ظلامياتهم فيها؟ ونحن نجد لدى الأستاذ الغنوشي أحياناً تصريحات جميلة وعديدة تمشي في هذا الاتجاه العقلاني. أذكر من بينها قوله إن العلمانية ليست إلحاداً، بل ترتيبات إجرائية لضمان الحرية (الشرق الأوسط. ٥ مارس ٢٠١٢). وأذكر قوله: العلمانية لا تتعارض مع الإسلام... وبالتالي، فالرجل يبذل جهوداً لا يستهان بها من أجل المصالحة بين الإسلام والحداثة، على عكس معظم مشايخ المشرق والمغرب. وأعتقد أن هذا الموضوع يهمه فعلاً. فلماذا لا يضع حداً لتجاوزات المتطرفين والسلفيين الذين يهددون الحريات العامة ويقلقون الناس في تونس حالياً؟ لماذا لا يطبق عملياً ما يؤمن به نظرياً؟ هل أردوغان أفضل منه؟ هو مثقف أكثر من أردوغان! أعتقد شخصياً أنه يخشى إغضاب التيار المتشدد في قاعدته الشعبية. وربما كان يخشى أيضاً إغضاب التيارات المحافظة جداً في منطقة الخليج العربي، والتي تكره كلمة الحداثة كره النجوس وتخلط بينها وبين الكفر. أنت حداثي أو علماني إذن أنت كافر أو ملحد! نقطة على السطر. لا نقاش!... العالم العربي لا يناقش. المسلمون لا يناقشون ولا يضيعون وقتهم في مثل هذه السخافات المستوردة من أوروبا. كيف يناقش من ختم العلم وامتلك الحقيقة المطلقة مرة واحدة وإلى الأبد؟ لماذا يناقش؟ على أي شيء يناقش؟ كل شيء محسوم ومكتمل منذ أن كان باب الاجتهاد قد أغلق قبل ألف سنة على الأقل. ولذلك فالأستاذ الغنوشي تارة ينفتح وتارة ينغلق طبقاً للظروف والمنعطفات والضغوطات. في الواقع، إن المسألة أكبر منه ومنا جميعاً. أقصد أن الظرف التاريخي الذي تعيشه مجتمعاتنا العربية والإسلامية صعب للغاية على كافة الأصعدة والمستويات: من اقتصادية واجتماعية، وفقر وأمية وتزايد سكاني هائل لا تستطيع الدولة بإمكانياتها المتواضعة أن تؤطره أو تلبي حاجاته. ولا أعتقد أن المسألة ستحل قبل أن ينتصر التفسير المستنير للإسلام على التفسير القديم الموروث: أي قبل أن ينتصر تفسير عبد المجيد الشرفي وأركون وعبد الوهاب المؤدب

على تفسير الشيخ القرضاوي وكل الإخوان المسلمين. صراع المستقبل "صراع تفاسير" أيها السادة كما يقول الفيلسوف بول ريكور. بمعنى: هل سينتصر التفسير العقلاني الجوهراني الروحاني العميق للإسلام على التفسير الإخواني الحرفي الانغلاقي التوتاليتاري أم لا؟ هل سينتصر ابن رشد على الغزالي، أو ابن عربي على ابن تيمية، أو طه حسين على حسن البنا؟ هل سينتصر الأمير عبد القادر الجزائري على محمد بن عبد الوهاب؟ هل ستنتصر الأنوار الإسلامية على الانغلاقات الإسلامية؟ هذا هو السؤال، والباقي تفاصيل. ثم ينبغي أن يترسخ هذا التفسير الجديد المنقذ في برامج التعليم ويعمم على كل مدارس العالم العربي، من الابتدائي حتى الجامعي. ينبغي أن نتصالح مع أنفسنا أخيراً! ومع العالم أيضاً! وهذه عملية ضخمة سوف تستغرق عدة أجيال. من هنا الاستعصاء التونسي وغير التونسي. نريد كل شيء دفعة واحدة، والواقع لا يستطيع أن يتجاوب معنا، لا يستطيع أن يعطي أكثر مما يعطيه. جماهيرنا تريد رجال الدين والذنب ليس ذنبها. وراءها ألف سنة من عصور الانحطاط والظلام. من يستطيع أن يقاوم ألف سنة متراكمة بعضها فوق بعض كالبنيان المرصوص؟ ربما كان الشيخ القرضاوي كثيراً علينا! ربما كنا لا نستحقه. من يعلم؟ ربما كانت "أنوار" الشيخ وجدي غنيم أكبر منا! فما بالك بالفيلسوف الكبير طارق رمضان؟ نريد اللحاق بركب الحضارة بسرعة صاروخية، ولكن الحضارة مهرها غال. إنها كالغادة الحسناء، لا تعطي نفسها بسهولة. عفواً لهذا التشبيه الذي خرج عن دائرة السيطرة! الوعاء ينضح بما فيه. ماذا تريدون أن تعطيه مجتمعاتنا في الحالة الراهنة للأمور؟ أصغر شيخ في أصغر قرية أهم من أكبر مثقف في تونس أو دمشق! وكلامه معصوم... هذه حقيقة. يكفي أن يتمتم ببعض التسبيحات والبسملات حتى يغلبك في أول مناظرة تلفزيونية، بل ويقضي عليك بالضربة القاضية! أعتقد شخصياً أن جيلنا عاجز وحده عن تحقيق هذه المهمة العظيمة، بل ولا حتى الجيل الذي سيليه. ربما كنت مخطئاً. أرجو أن أكون مخطئاً...

وأخيراً سوف أقول إن بيان المثقفين التونسيين عن مستقبل الديمقراطية وآفاقها يخصنا جميعاً نحن العرب والمسلمين، لأن تونس أصبحت مختبراً لكل العرب. فالجدلية الصراعية الخلاقة الجارية حالياً بين التيار الليبرالي التحديثي والتيار الإسلامي التقليدي هي جدليتنا كلنا، وسنمر بها جميعاً شئنا أو أبينا. وسندفع ثمنها عداً ونقداً. لا بد مما ليس منه بد. ولكن مرحلياً، وبانتظار حصول الحسم النهائي التنويري الكبير، لا بد من تسويات براغماتية

مؤقتة. لا بد أن يقدم كل طرف بعض التنازلات للطرف الآخر لكي نتوصل إلى المصالحة التاريخية بين شطري الأمة: أي الشطر الإسلامي والشطر اللائكي العلماني. من يتذكر الآن ذلك الرائد الكبير محمد الشرفي صاحب كتاب: **الإسلام والحرية**؟ متى سيتعانق الإسلام مع الحرية كما كانت عليه الحال في العصر الذهبي المجيد من تاريخنا؟ متى سينتهي سوء التفاهم التاريخي الذي استمر طيلة العصور الانحطاطية؟ هذه هي بعض التساؤلات التي أثارها في نفسي بيان المثقفين التونسيين. نعم، فإنه بناءً على نجاح التجربة التونسية أو فشلها يتوقف أيضاً مصير العرب الآخرين، أو قل انتفاضات الربيع العربي الأخرى. قد يقولون: ولكن هذا الكلام ينطبق في الدرجة الأولى على الشقيقة الكبرى: مصر... ربما. ولكن يخطئ من يستهين بتونس وتجربتها الرائدة ليبرالياً كان أو إسلامياً.

الفصل السابع عشر

كتب ومراجعات

سمير أمين والربيع العربي

أصدر سمير أمين أخيراً كتاباً عن الانتفاضات العربية المندلعة حالياً وذلك تحت عنوان: **العالم العربي ضمن المدى الطويل: هل هو "ربيع" عربي حقاً؟**[1]. وكان متوقعاً أن يتدخل في الموضوع لأنه أحد كبار المفكرين المعنيين بالشؤون العربية منذ زمن طويل. كان المؤلف قد ولد في مصر عام ١٩٣١ من أب مصري وأم فرنسية، وكلاهما طبيب. وهذا يعني أنه ولد في عائلة بورجوازية، هو الذي سيصبح لاحقاً أحد كبار المناضلين الماركسيين المضادين للبورجوازية والرأسمالية والإمبريالية. نشر سمير أمين حتى الآن عشرات الكتب. نذكر من بينها: **مصر الناصرية**، ومسار ثقافي: **نظرات على نصف قرن** (وهي مذكراته الشخصية)، ثم **الحداثة والدين والديمقراطية**، إلخ... أمضى طفولته وشبابه الأول في بور سعيد حيث نال شهادة البكالوريا من مدرسة فرنسية عام ١٩٤٧. وبعدئذ سافر إلى باريس لإكمال دراساته الجامعية والنضال السياسي في صفوف اليسار الفرنسي. وبالتالي فهو ينظر إلى الأمور من منظور ماركسي تقدمي مستنير على عكس العديد ممن كتبوا عن الثورات العربية حتى الآن. من هنا أهمية الاطلاع على تحليلاته، من دون أن يعني ذلك الاتفاق معه على

[1] Samir Amin: *Le monde arabe dans la longue durée: Un printemps des peuples?* Paris. Le Temps des Cerises 2011.

كل شيء. فهو أحياناً يظل سجين اللغة الماركسية القديمة المهووسة بالإمبريالية والرجعية إلخ... يرى هذا الأستاذ الجامعي والباحث المصري أن هذه الانتفاضات المتفجرة قسمت تاريخ العرب إلى قسمين: ما قبلها وما بعدها. وذلك لأن هذه الحركات الاحتجاجية غيرت النظام الاجتماعي الداخلي للبلدان العربية، مثلما غيرت مكانة هذه البلدان داخل الساحة السياسية الإقليمية والعربية. فهذه الانتفاضات العارمة لا تهدف فقط إلى إزاحة الديكتاتوريين عن سدة الحكم، ولكن تهدف أيضاً إلى إحداث تغييرات ضخمة على المدى البعيد. إنها صرخة غضب ضد التفاوتات الاجتماعية الفاحشة بين الأغنياء والفقراء داخل البلدان العربية، كما تمثل صرخة غضب ضد النظام الاقتصادي العالمي الجائر. إنها تريد إخراج العرب من حالة التبعية والخضوع للغرب الذي ينهب ثرواتها وخيراتها، كما يمكن أيضاً اعتبارها على الصعيد السياسي صرخة احتجاج ضد إملاءات السياسة الأميركية والأطلسية على العرب. يضاف إلى ذلك أن هذه الحركات الاحتجاجية تهدف إلى دمقرطة المجتمع العربي وتحقيق العدالة الاجتماعية أو الحد الأدنى منها. ولهذا السبب فإنها ستدوم سنوات وسنوات، لأن مطالبها لن تتحقق فوراً، بل على المدى الطويل. من هنا خيبة الأمل التي سيشعر بها الشباب الثائر لا محالة. انظروا ما يحصل الآن في مصر وميدان التحرير...

ويلاحظ سمير أمين أن دور الشباب الرائعين والرائعات كبير في هذه الثورات، لأن الشباب العربي تسيّس من جديد أخيراً. لقد تسيس بطريقته الخاصة خارج إطار أحزاب المعارضة اليسارية التقليدية. ولكنه لم يتسيس ضدها. فهناك في هذه اللحظات بالذات تناغم عميق بين شباب ميدان التحرير وأحزاب اليسار الماركسي الراديكالي. يضاف إلى ذلك أن شباب تونس المستنير وشاباتها ينزلون الآن إلى الشارع للدفاع عن الثورة الحقيقية والمكتسبات التقدمية ضد جحافل المرتدين عليها أو الذين يريدون الارتداد.

في هذا الكتاب الجديد يقول سمير أمين ما يأتي: لقد دشنت سنة ٢٠١١ من قبل انفجارات الغضب العارم للشعوب العربية. ولكن السؤال المطروح هو الآتي: هل سيكون هذا الربيع العربي قادراً على تقديم أجوبة عن المشاكل الحارقة والملحة للشبيبة العربية؟ في رأي المؤلف أن هذه الأجوبة لن تكون ناجعة وشافية إلا إذا تخلت الشعوب العربية عن أوهامها القديمة والماضوية المتمثلة في أسلمة المجتمع والسياسة على طريقة الإخوان والسلفيين. فعقارب

الساعة لا يمكن أن تعود إلى الوراء. وحتى لو عادت مؤقتاً فإن ذلك لن يدوم.

ولكن السؤال الذي يُطرح على سمير أمين هنا هو الآتي: ألا ينبغي التمييز بين الإسلاميين المعتدلين والإسلاميين المتطرفين؟ وبأي حق نمنع الأولين من ممارسة الحكم إذا ما فازوا في الانتخابات، كما حصل في تونس والمغرب ومصر أخيراً؟ ربما كان نجاحهم في مصر مقلقاً لأنه كان طاغياً... هذه الأسئلة لا يطرحها سمير أمين. وربما يكمن هنا نقص منظوره الفكري. فنحن لا نستطيع أن ننادي بالديمقراطية ثم نرفض نتائجها إذا جاءت بشكل لا يعجبنا كما يقول آلان جوبيه. وعلى أي حال، فإن ما يحصل الآن قد يشكل الخطوة الأولى للمصالحة بين الإسلام والحداثة في نهاية المطاف. وقد يدفع بالتنظيمات الإسلامية المنتصرة في الانتخابات إلى تعديل الكثير من أطروحاتها غير الواقعية أو غير المنسجمة مع فلسفة حقوق الإنسان التي تسود العالم المعاصر. بدلاً من الصدام معها وجهاً لوجه ينبغي أن نساعد هذه القوى الإسلامية المعتدلة على التطور التدريجي، وذلك لمصلحة المجتمع ككل، وعندئذ يمكن تحييد قوى التطرف والإرهاب.

الفصل الأول من الكتاب مكرس لدراسة الانتفاضات الربيعية، إنه يتموضع في الزمن الراهن. أما في الفصول الأربعة التالية فيحاول المؤلف أن يموضع هذه الانتفاضات داخل منظور المدة الطويلة لتاريخ العرب والعالم. ولكن بما أنه مصري فإنه يركز اهتمامه على الحالة المصرية، من دون أن ينسى الحالة التونسية أو سواها. وهو يشرح لنا كيف أن الحركة الشعبية المصرية التي أدت إلى إسقاط مبارك هي عبارة عن تتويج لسيرورة تاريخية طويلة تشمل القرن العشرين كله حتى بدايات الواحد والعشرين. وهذه السيرورة التاريخية شهدت على مدار أكثر من قرن تقدمات وتراجعات، أو مداً وجزراً. المرحلة التقدمية تجسدت في حكم الوفد (١٩٣٦)، والحكم الناصري (١٩٥٢-١٩٦٧). وأما المرحلة الارتكاسية أو التراجعية فتمثلت في حكم السادات ومبارك المدعومين من قبل واشنطن والرجعية العربية (١٩٦٧-٢٠١١). ومعلوم أن هذين الرئيسين لعبا ورقة الإخوان المسلمين على عكس الوفد وجمال عبد الناصر. ويرى سمير أمين أن الخطأ الكبير الذي ارتكب في عهد السادات ومبارك هو إيكال نظام التعليم، والقضاء، بل وحتى الإعلام، إلى الإخوان المسلمين. وهكذا تحكموا في عقلية الشعب المصري وراحوا يوجهونها في الوجهة التي يريدون. ولهذا السبب اكتسحوا الانتخابات أخيراً، أو قل كان أحد الأسباب الرئيسية.

انظروا إلى سيطرة الشيخ الشعراوي على الفضائيات المصرية سابقاً. الملايين كانت تستمع إليه مثلما تستمع الآن إلى الشيخ القرضاوي. لماذا فعل السادات ومبارك ذلك؟ لكي يكسبا ودّ الشارع الإسلامي ويمنعا بالتالي أي دمقرطة حقيقية للمجتمع المصري الذي يظل مخدراً تحت تأثير الغيبيات والخرافات. وهنا يكرس المؤلف صفحات طويلة للإخوان المسلمين الذين يقودهم أشخاص مليارديريون، ويقول إنهم لم يلتحقوا بالثورة في ميدان التحرير إلا بعد بضعة أيام من اندلاعها. وقد التحقوا بها لمصادرة الحركة الشعبية الثورية الديمقراطية بغية السيطرة عليها وإجهاضها، أو إجهاض مضمونها الاجتماعي التقدمي، بمساعدة القوى المحافظة الداخلية والخارجية. وقد تلاقى ذلك مع مخطط واشنطن التي لا تريد اليساريين والديمقراطيين الحقيقيين في الحكم لأنهم يرفضون التبعية للغرب.

نلاحظ أن سمير أمين يشيد إشادة كبيرة باللحظة الوفدية لسعد زغلول، حيث تألق التاريخ المصري. ومعلوم أن حزب الوفد تشكل عام ١٩١٩ وكان يهدف إلى التحديث السياسي لمصر عن طريق تبني الصيغة البورجوازية للديمقراطية الدستورية. وهذا ما يدعى بالمرحلة الليبرالية من تاريخ مصر والعرب، حيث ازدهرت العلوم والفنون والآداب، وظهرت شخصيات كبرى كأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وعباس محمود العقاد، وسلامة موسى، ونجيب محفوظ، وبقية النهضويين. والآن أصبح نجيب محفوظ "عاراً" على مصر! من يصدق ذلك؟ نعم هذا هو منظور عبد المنعم الشحات وبقية السلفيين المتشددين. وهذه اللحظة الليبرالية المجيدة من تاريخ مصر شهدت نوعاً من العلمنة للمجتمع المصري. وهي علمنة راقية تجسدت حتى في شكل العَلَم ذاته حيث يتعانق فيه الهلال مع الصليب كرمز لوحدة البلاد بكلا شقيها الكبيرين الإسلامي والمسيحي. وقد فوجئنا أخيراً بظهور علم الوفد هذا في ميدان التحرير بعد طول غياب. وكان يرفرف عالياً. ويا لها من مفاجأة سعيدة. وفي تلك الفترة الليبرالية المشرقة، جرت انتخابات ديمقراطية حرة أتاحت للأقباط ليس فقط أن يُنتخبوا من قبل أغلبية إسلامية وإنما أيضاً أن يتسنموا مناصب رفيعة في الحكم والدولة من دون أن يثير ذلك حساسية أحد. ولكن للأسف، فإن هذا العصر الذهبي للتنوير المصري والتعايش الإسلامي – المسيحي لم يدم طويلاً. فقد تآمرت عليه الكتلة الرجعية المؤلفة من القصر وكبار الإقطاعيين والباشوات، وأجهضت هذه المكتسبات الديمقراطية لمصر الوفدية. وليس من قبيل الصدفة أن يكون القصر والسفارة الإنكليزية قد

دعما آنذاك تشكيل حركة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا عام ١٩٢٨ . ومعلوم أنها تستلهم الفكر السلفي الماضوي لرشيد رضا، أستاذ البنا. وهي الحركة الأكثر رجعية والأكثر معاداة للديمقراطية والتقدم الاجتماعي من بين كل الأحزاب السياسية العربية. وهكذا نجد أنفسنا مع الانتخابات الأخيرة وقد عدنا إلى المربع الأول، إلى نقطة الصفر من جديد! وهذا يعني أن معركة التنوير العربي لا تزال أمامنا لا خلفنا.

بنيامين ستورا وتأملاته حول الانتفاضات العربية

هذا الكتاب صدر في باريس[1] أخيراً لكي يحلل "على الساخن" انتفاضاتنا العربية المتوالية فصولاً حتى الآن من أجل الحقيقة والحرية. وهو من تأليف مؤرخ وصحافي في آن واحد. الأول هو بنيامين ستورا المختص في شؤون المغرب العربي في الجامعة الفرنسية، والثاني هو ادوي بلينيل الصحافي المعروف في جريدة اللوموند. وكلاهما عاش في الجزائر ردحاً من الزمن، بل إن الأول من مواليدها حيث إنه يهودي جزائري. البعض يشبه انتفاضاتنا بالثورة الفرنسية، والبعض الآخر يرى أنها أقرب ما تكون إلى ثورة شعوب أوروبا الشرقية التي أدت إلى سقوط الشيوعية

وجدار برلين: أي سقوط النظام الحديدي الستاليني للحزب الواحد. فما هي حقيقة الأمر يا ترى؟ عن هذا السؤال يحاول أن يجيب المؤرخ والصحافي من خلال هذا الحوار التفاعلي الجاري على مدار الكتاب.

التساؤلات التي يطرحها الكتاب هي من النوع الآتي: كيف تهاوى النظام العربي الاستبدادي المطلق السابق بمثل هذه السرعة؟ كيف استطاعت هذه الحركات الشعبية أن تفرض نفسها على الساحة من دون طليعة تقودها أو أي قائد كاريزمي كما حصل للخميني مع الثورة الإيرانية مثلاً؟

يبدو واضحاً انبهار المؤلفين بالانتفاضات العربية التي أدهشت العالم وفاجأته وجعلته ينظر إلى العرب بطريقة أخرى أقل احتقاراً وازدراءً. وهما يحاولان تفسير سرها أو لغزه كما يفعل المثقفون العرب أيضاً كل من وجهة نظره. ولذلك يبلوران بعض الأطروحات

---

[1]: *Le 89 arabe: Dialogue avec Edwy Plenel.* Benjamin Stora. Paris. Stock 2011.

ويقدمان بعض الفرضيات، مسقطين بذلك بعض الكليشيهات السلبية والأفكار المسبقة السائدة في الغرب عن العالم العربي. وهي كليشيهات ذات طابع عنصري أو كولونيالي بغيض لا يفصح عن اسمه إلا نادراً. فالنخب الثقافية والسياسية الغربية كانت قد اختزلت العالم العربي إلى مجرد عالم يستعصي على الحداثة والديمقراطية لأنه متعلق بالعروبة والإسلام. وسجنته لسنوات طويلة في المعادلة القسرية الآتية: إما الأنظمة الاستبدادية الراهنة وإما الحركات الأصولية، ولا حل آخر. بما أن المؤلفين مضادان للأطروحات العنصرية والاستعمارية، فإنهما ينقضان هذه الصورة الاحتقارية السائدة عن العرب في الغرب عموماً وفرنسا تحديداً. فالبعبع الأصولي ليس المفتاح الوحيد الذي يفسر كل ظواهر العالم العربي. هناك عوامل أخرى مهمة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار. يقول المؤلفان في أطروحتهما المركزية إن العالم العربي أكثر تعقيداً من ذلك بكثير. فديناميكية التحديث الاجتماعي والسياسي كانت شغالة وفعالة تحت السطح، ولكن غطت عليها الإشكالية الأصولية المفرقعة وحجبتها. هذه الديناميكية مع كل المتغيرات المرافقة لها كانت شغالة ولكن لا أحد يراها من شدة التركيز على الإشكالية الأصولية، وخاصة بعد ١١ سبتمبر. من أهم العوامل التي تفسر اندلاع هذه الانتفاضات نذكر العوامل السوسيولوجية الآتية: تناقص النسل في السنوات الأخيرة. فالعائلة العربية لم تعد بطريركية ضخمة تضم عشرة أشخاص، بل أصبحت ذرية لا تضم أكثر من طفلين أو ثلاثة على أكثر تقدير. هناك أيضاً النقمة الاجتماعية على الأنظمة التي حكمت بعد الاستقلال وفشلت في إنجاح التنمية وحل المشاكل. هناك أيضاً عدم الاقتناع بالتصويت والامتناع شبه الكلي عن المشاركة في انتخابات مزورة سلفاً. نذكر أيضاً من بين العوامل الاجتماعية التي أدت إلى اندلاع الانتفاضات تزايد النخب الحضرية في المدن، ثم تعميم التعليم على أوسع نطاق. وبالتالي، ليست وسائل المعلوماتية الحديثة كالفيسبوك والتويتر والعربية والجزيرة هي التي أدت إلى اندلاع الانتفاضات العربية، بل عوامل اجتماعية وسياسية عميقة كانت تشتغل تحت السطح من دون أن يراها أحد. إن الأطروحة الأساسية للمؤلفين تقول بأن المجتمعات العربية كانت تشهد نقلة عميقة باتجاه الحداثة منذ سنوات عديدة. ولكن الغرب كان يعتقد أنها غارقة في الأصولية! وهذه النقلة تتمثل في السياسة العائلية الجديدة، ومكانة الفرد في المجتمع، ودور الشبيبة المتصاعد، إلخ. وهذه المتغيرات كانت تعني إقامة علاقة جديدة

مع العالم مختلفة عن العلاقة التقليدية لجيل الآباء. وبهذا الصدد يلوم المؤلفان قادة الغرب، وخاصة القادة الفرنسيين، على تشبثهم بالكليشيهات الخاطئة والأحكام المسبقة عن العرب والمسلمين. فهم يحصرونهم داخل الإشكال الأصولي المضاد للحداثة. وهذا تقييم عنصري في الواقع وليس علمياً. ولهذا السبب، فإن الانتفاضات العربية لم تحظَ بتعاطف حقيقي من قبل قادة الغرب، على الأقل في البداية. فقد كذبت تصورهم عن العالم العربي وأجبرتهم على مراجعة أفكارهم. ويرى المؤلفان أن هذه الانتفاضات تجبرنا على تغيير نظرتنا عن عالم العرب والإسلام. فقد كنا نعتقد أنه يستعصي على أفكار الحداثة والتقدم بسبب انغلاقه المزمن داخل أصوليته المقدسة، ولكننا اكتشفنا أنه يتوق إلى الحريات الديمقراطية، مثله في ذلك مثل بقية شعوب الأرض. بل واكتشفنا أنه مستعد للتضحية من أجل الحرية والكرامة.

نلاحظ أن بنيامين ستورا يركز على فكرة أساسية وهي: ولادة الفرد في العالم العربي. في السابق ما كان موجوداً إلا من خلال طائفته أو عشيرته. أما اليوم، فهو موجود بحد ذاته ولذاته ويريد تحقيق رغباته، بغض النظر عن الانتماءات الجماعية التي تتجاوزه. إنه مهموم بسعادته الشخصية وتحقيق ذاته على هذه الأرض قبل أي شيء آخر.

والآن نطرح هذا السؤال: بأي شيء تشبه الانتفاضات العربية الثورة الفرنسية؟ بإلحاحها على المساواة والعدالة قبل كل شيء. فكما أن الثورة الفرنسية قضت على نظام الإقطاع والامتيازات التي كانت تتمتع بها طبقة النبلاء والعائلات الشهيرة ويحرم منها الشعب، فإن الانتفاضات العربية تريد القضاء على امتيازات الطبقة الحاكمة وحاشيتهم وعائلاتهم وملياراتهم.

بأي شيء تشبه تلك الثورة التي أطاحت جدار برلين والشيوعية عام ١٩٨٩؟ بتعطشها الهائل إلى الحرية. ويرى المؤلفان أن هذه الثورات العربية تدشن حلقة جديدة في تاريخ العالم العربي وربما في تاريخ العالم كله. إنها ليست مهمة فقط بالنسبة إلى العرب، بل أيضاً بالنسبة إلى أوروبا والعالم المتوسطي بمجمله. إنها تشكل انفتاحاً هائلاً على آفاق الممكن والمستحيل.

ويرى بنيامين ستورا أن الانتفاضات العربية ليست وليدة الفيسبوك كما توهم بعضهم، وإن كان قد سهل من حركتها وأسهم في تنشيط العملية الانتفاضية أو الثورية. والدليل على ذلك أنه لزم الخروج من العالم الافتراضي والنزول إلى الشارع لكي تحصل الثورة. وبالتالي،

فالفيسبوك وحده لا يكفي لصنع ثورة. إنه مجرد أداة. ويبقى أن صانع الثورة الحقيقي هو الإنسان: أي ذلك الشخص الذي قرر النزول إلى الشارع والمغامرة بنفسه وتقديم التضحية العظمى التي لا تضحية بعدها.

أخيراً، على الرغم من أن بنيامين ستورا يشارك الصحافي بلينيل حماسته للثورات العربية، إلا أنه يظل أكثر حذراً. فهو يتساءل: هل ستتم مصادرة الثورات من قبل الجيش أم من قبل الأصوليين السلفيين، أم من قبل طرف آخر؟ لا نعرف. التطورات مفتوحة على كافة الاحتمالات. فقد تؤدي هذه الثورات في نهاية المطاف إلى تشكيل نظام ديمقراطي حقيقي في البلدان العربية كما فعلت الثورة الفرنسية عام ١٩٨٧، أو ثورات بلدان أوروبا الشرقية ضد الشيوعية عام ١٩٨٩. وقد تجهض عن طريق سطو العسكر أو الأصوليين عليها. لا نعرف ماذا سيحصل بالضبط. ينبغي أن ننتظر قليلاً لكي تنجلي الأمور.

نقطة الخلاف الوحيدة بين الرجلين تتعلق بالمغامرة الليبية لساركوزي. فالصحافي بلينيل يشكك في نيّات الرئيس الفرنسي، ويرى أن مساعدته لليبيين ليست إلا من قبيل صرف الأنظار عن سياسته العدائية والعنصرية ضد العرب والمسلمين داخل فرنسا ذاتها. وأما ستورا الذي لا يحب ساركوزي أيضاً، فإنه يعتقد أنه بالرغم من حقيقة نياته، إلا أن عمله كان إيجابيا إذا ما أدى إلى سقوط الطاغية وتحرير الشعب الليبي من براثنه. ولا يمكن إلا أن نشكره على ذلك.

ماتيو غيدير وصدمة الثورات العربية

لا يزال تسونامي الثورات العربية يتوالى فصولاً من مشرق العالم العربي إلى مغربه. ولولا أن الجزائر دفعت ثمناً غالياً طيلة السنوات العشر السوداء (١٩٩٠–٢٠٠٠) لربما كانت الأوضاع قد انفجرت فيها أيضاً بكل عنف. ومع ذلك فإنها ليست بمنأى عن ذلك. ولهذا السبب فإن الحكم يسارع إلى الإعلان عن إصلاحات كبيرة لاستدراك الوضع وتحاشي الانفجار. ويرى مؤلف هذا الكتاب[1] أن دهشتنا بهذه الانتفاضات العارمة كانت على قدر جهلنا بالحقائق الداخلية للعالم العربي المترامي الأطراف من المحيط إلى الخليج. وهو

[1] Mathieu Guidere: *Le choc des révolutions arabes*. Paris. Editions Autrement 2011.

منذ البداية يطرح هذا السؤال: كيف يمكن تفسير مثل هذه الأحداث الاستثنائية التي غيرت وجه المنطقة والعالم؟ لحسن الحظ فإن المؤلف ماتيو غيدير باحث قدير واختصاصي حقيقي في شؤون العالم العربي، وليس صحافياً متسرعاً أو سطحياً كما جرت العادة في أحيان كثيرة. فهو أستاذ علم الإسلاميات والفكر العربي في جامعة تولوز الفرنسية. وقد كان سابقاً أستاذاً في جامعة جنيف، كما درس في الأكاديمية العسكرية الفرنسية الشهيرة: سان سير حيث أشرف على دراسات ولي العهد القطري. وله أكثر من عشرين كتاباً نذكر من بينها: **مدخل إلى علم الترجمة العربية - الفرنسية**، و**الشعر العربي الكلاسيكي**، و**الإرهابيون الجدد**، إلخ...

وفي هذا الكتاب الجديد يحاول الباحث تفسير سبب أو أسباب اندلاع الانتفاضات العربية. ولكي يتوصل إلى ذلك فإنه يدرس بعناية البنية الداخلية لاثنين وعشرين بلداً يشكلون الجامعة العربية. فعلى الرغم من التشابهات العديدة في ما بينها، هناك خصوصيات وتمايزات. فبعضها يؤثر عليه العامل القبلي أكثر، وبعضها يؤثر عليه العامل الطائفي والمذهبي أكثر. وفي كل الأحوال، هناك ثلاث قوى تؤثر على الجميع هي: الجيش، والقبيلة أو الطائفة، والجامع. إذا لم نأخذ هذه العوامل الثلاثة بعين الاعتبار فإننا لن نفهم أوضاع البلدان العربية بشكل جيد. بالطبع بعضها يؤثر عليه العامل القبلي أكثر كاليمن مثلاً أو ليبيا أو الأردن إلخ. ولكن بعضها الآخر محكوم بالعامل الطائفي أو المذهبي. وهذه هي حالة معظم بلدان المشرق العربي. هذا العامل الطائفي أو المذهبي يكاد يكون معدوماً في بلدان المغرب العربي.

لكن لماذا خلع المؤلف على كتابه عنوان: **صدمة الثورات العربية**؟ لماذا اختار كلمة صدمة بالذات؟ لكي يدحض أطروحة صدام الحضارات السائدة في الغرب، والتي تريد أن تسجن العرب والمسلمين في خصوصية متخلفة تستعصي على الحداثة والحضارة والديمقراطية. ويرى المؤلف أنه قد آن الأوان لكي يتخلى الغرب عن الأحكام السلبية المسبقة تجاه العرب والمسلمين. فهذه الانتفاضات أثبتت أنهم شعوب محترمة ترغب في الحرية والعدالة والكرامة مثل بقية شعوب الأرض. فالشعوب العربية ما عادت تقبل بوضع الرعية، بل أصبحت تطالب بوضع المواطن الحر والمسؤول. وهنا يكمن أحد الجوانب الأساسية للانتفاضات الجارية. ولكن الانتقال من مرحلة الرعية إلى مرحلة المواطنية الحديثة وحقوق الإنسان ليست عملية سهلة على الإطلاق. يضاف إلى ذلك أنها لن تتم بين عشية وضحاها، كما

أثبتت لنا تجربة الشعوب الأوروبية المتقدمة ذاتها. ولكن الشعوب العربية انخرطت في العملية، ومسيرة الألف كيلومتر تبتدئ بالخطوة الأولى كما هو معلوم.

ويرى المؤلف أن الشبيبة العربية المنتفضة من المحيط إلى الخليج تفند أطروحة صدام الحضارات اليمينية العنصرية السائدة في الغرب والمدعومة من قبل اليمين الصهيوني أيضاً. هذه النقطة الأخيرة لا يذكرها ولكنها مؤكدة. فهذه الشبيبة المنتفضة تفعل ذلك باسم الحرية وبروح حديثة تماماً، وبأدوات حديثة أيضاً كالفيسبوك والإنترنت. وبالتالي، فكلمة الصدمة الواردة في الكتاب تعني أن أفكار الغرب العتيقة عن العرب قد أصيبت بصدمة هائلة بفضل هذه الانتفاضات بالذات. والغرب مضطر الآن إلى أن ينظر إلى العرب بعيون جديدة غير السابقة. والآن نطرح هذا السؤال: كيف نفسر هذه الثورات؟ كيف نفهمها؟ والجواب هو أنها ثورات تحريرية في الدرجة الأولى: إنها تحرير للناس من الخوف، وتحرير للصحافة من الرقابة، وتحرير للكلام المكبوت للمواطنين. ولكن هذه الثورات ليست تحريرية بالمعنى الراديكالي للكلمة كالثورة الفرنسية مثلاً. من هنا الطابع الانتقالي لا النهائي لهذه الثورات. إنها بداية على طريق التحرير الطويل وليست نهاية. إنها الخطوة الأولى التي ينبغي أن تتبعها خطوات أخرى لكي يتحرر العالم العربي فعلاً من عقلية القرون الوسطى ويتصالح مع الحداثة.

وماذا عن دور الأصولية والأصوليين في هذه الثورات؟ عن هذا السؤال يجيب المؤلف قائلاً ما معناه: من الواضح أنها لعبت دوراً في التعبئة كالشبيبة الليبرالية. ومن الواضح أن الحركات الإسلامية بكل تياراتها سوف تكون حاضرة على المدى البعيد وسوف تلعب دوراً سياسياً مهماً. ولكن هيمنة الإسلاميين على الطريقة الطالبانية الظلامية مستبعدة في البلدان العربية لأسباب داخلية وخارجية. الشيء المرجح هو أن العالم العربي لأسباب تاريخية وبراغماتية سوف يتوجه نحو تبني النموذج التركي الذي أثبت فعاليته حتى الآن. ولكن إذا رفض الغرب دعم هذه الثورات اقتصادياً وديبلوماسياً، بل وحتى عسكرياً إذا لزم الأمر، فإن التيار الطالباني المتشدد سوف ينتصر. وبالتالي، فعلى كاهل الغرب يقع واجب أخلاقي كبير في هذه الظروف العصيبة بالذات. فإما أن يتخلى عن سياسته الانتهازية القصيرة النظر والمتمثلة في ممالأة الأنظمة التي تؤمن له مصالحه الاقتصادية وصفقاته التجارية، ضارباً عرض الحائط بمصالح الشعوب، وإما أن الأمور سوف تتدهور وتنعطف نحو منزلق خطير.

وعندئذ سوف يلوم نفسه لأن الشعوب قلبت في اتجاه التطرف والحقد الأعمى عليه. لهذا السبب ينصح المؤلف قادة الغرب بضخ الاستثمارات والأموال الضخمة في البلدان العربية، كما فعل مع دول أوروبا الشرقية بغية تقوية التيارات الديمقراطية والمدنية الوسطية المتسامحة في العالم العربي. وإلا فإن التيار الآخر المعادي للغرب ولكل القيم الحضارية الحديثة سوف ينتصر ويجهض الآمال العراض التي علقت على هذه الثورات. وبالتالي فقد أعذر من أنذر.

النهضة العربية والانتفاضات الديمقراطية في مرآة الباحث جان بيير فيليو

نحن بحاجة إلى كل المفاتيح وإلى تحليلات كل الخبراء والمفكرين لكي نفهم ما يجري حالياً في عالمنا العربي. ولا أحد يستطيع الزعم بأنه وحده قادر على تفسير ظاهرة عظمى كالثورة العربية الجارية حالياً. من بين هؤلاء الاختصاصيين الباحث الفرنسي جان بيير فيليو الذي لم ينل حتى الآن شهرة جيل كيبل أو أوليفييه روا، ولكن ربما كان في طريقه إلى ذلك. فهو أستاذ في معهد العلوم السياسية بباريس، إضافة إلى كونه أستاذاً زائراً في جامعة كولومبيا بنيويورك وجامعة جورج تاون بواشنطن، كما أنه مؤلف عدة كتب نذكر من بينها: **ميتران وفلسطين**، **حدود الجهاد**، **مفهوم القيامة أو نهاية العالم في الإسلام**، **الحيوات التسع للقاعدة**. وأخيراً يصدر هذا الكتاب الجديد قبل بضعة أيام في العاصمة الفرنسية تحت عنوان: **الثورة العربية: عشرة دروس مستخلصة من الانتفاضة الديمقراطية**. منشورات فايار. باريس[1].

لماذا الثورة العربية بالمفرد؟ لماذا لم يقل الثورات العربية كما يفعل معظم الباحثين؟ على هذا السؤال أو الاعتراض يرد المؤلف قائلاً: لأن هذه الثورة العربية ليست إلا امتداداً لحركة كبرى سابقة عليها، قصدت النهضة العربية للقرن التاسع عشر. ولكن نهضة القرن التاسع عشر كانت ذات أبعاد وحدوية عربية أكثر من الثورات الحالية المحكومة بظروف كل دولة على حدة. هذا لا يعني أنه لا توجد علاقة بينها. فالواقع أنها أكثر من واضحة. والانتفاضات تنتقل من بلد إلى آخر عن طريق العدوى تقريباً. فالديناميكية العربية إذا ما نجحت في بلد ما فإن ذلك ينعكس على البلدان الأخرى. وإذا ما تعرقلت فإن ذلك ينعكس أيضاً. في كل الأحوال، إننا نجد أنفسنا أمام موجة صاعدة من أعماق الشعوب العربية.

1 Jean-Pierre Filiu: *La Révolution arabe: dix lécons sur le soulèvement démocratique*. Paris. Fayard. 2011

نحن الآن أمام عالم عربي تنتفض شبيبته في كل مكان تقريباً وإن بدرجات متفاوتة. ويرى جان بيير فيليو أن الأنظمة الملكية هي الأكثر مناعة تجاه الانتفاضات، نظراً إلى المشروعية التاريخية الطويلة التي تتمتع بها. فهي تشكل الرمز الذي يتحلق حوله الشعب بكافة فئاته ومناطقه المترامية الأطراف والشديدة التنوع والاختلاف أحياناً. وكان يمكن أن تتفكك لولا الرمز الموحد. وهذا الأمر ينطبق في الدرجة الأولى على النظام الملكي المغربي والنظام الملكي السعودي. ولكنه ينطبق بدرجة أقل على النظام الملكي الأردني لأنه حديث العهد قياساً إليهما. فعمره لا يتجاوز تسعين سنة. من هنا هشاشته النسبية أمام انتفاضة شبيبته.

ويرى الباحث الفرنسي أنه يمكن تلخيص البرنامج السياسي لهذه الانتفاضات في المبادئ الأربعة الآتية:

أولاً: المطالبة بالشفافية. هناك عطش هائل إلى الشفافية في العالم العربي، وكره للتعتيم وانغلاق الأنظمة على ذاتها واستفرادها بالقرار من دون بقية الشعب. الشعب يريد أن يعرف لماذا يتخذ القرار ومن يتخذه. إنه لم يعد طفلاً قاصراً، ويريد أن يشارك في صنع القرار الذي يتوقف عليه مصيره.

ثانياً: الشعب أصبح يكره الفساد كرهاً شديداً ولم يعد يتحمل مظاهر المحسوبية والرشى واستغلال المنصب من أجل الغنى غير المشروع، إلخ...

ثالثاً: المطالبةِ بالعدالة الاجتماعية، واقتسام الثروة التي أصبحت حكراً على السلطة وحاشيتها. وهذا ما يزيد من نقمة الشعب على الحكم أضعافاً مضاعفة.

رابعاً: المطالبة بالانتخابات الحرة لا المزورة على طريقة ٩٩،٩٩ في المئة. بمعنى آخر: الشعب متعطش إلى الحرية والديمقراطية ويريد أن يشم رائحتها، أن يمارسها لأول مرة.

في الولايات المتحدة طرحوا عليه هذا السؤال: ولكن هذه الانتفاضات تعاني من نقص خطير، وهو أنه لا رأس لها ولا زعيم كما كانت عليه الحال أيام عبد الناصر أو الخميني بالنسبة إلى إيران. والعرب معروفون بعبادة القائد الملهم. فكيف يمكن أن تنتصر ثورة بلا قائد أوحد وكاريزمي؟ مستحيل. وجواب جان بيير فيليو هو أن الشعوب العربية متعطشة للنظام البرلماني الحر وليس للقائد الأوحد.

وأما في ما يخص التيار الأصولي، فيرى الباحث الفرنسي أنه يشكل أقلية داخل الثورات العربية على الرغم من كل المظاهر. ربما كانوا الحزب الأقوى والأكثر تنظيماً

بين الأحزاب، ولكنهم يظلون أقلية داخل شرائح الشعب العريضة. يضاف إلى ذلك أنهم منقسمون على أنفسهم أكثر مما نظن. فالإخوان المسلمون في مصر مثلاً، انبثقت عنهم أربعة أحزاب، والسلفيون ثلاثة، إلخ... الأصوليون ليسوا هم سبب اندلاع الثورات العربية، بل التحقوا بها بعد أن شعروا بقوة الموجة، و لم يلعبوا إلا دوراً ثانوياً في الثورة التونسية. لكن حضورهم كان قوياً في مصر ولا يستهان به في ليبيا. وبالتالي، فالمخطط السابق الذي يقول: إما الأصوليون وإما الأنظمة الديكتاتورية قد انتهى. ومعلوم أن الغرب كان مقتنعاً بذلك لفترة طويلة، ولذلك دعم الأنظمة. أما الآن، فنحن نتجه نحو خيار ثالث قد يحيرنا ويشوشنا، ولكنه قد يعجبنا ويحمسنا. وفي كل الأحوال فإن الباحث لا يعتقد أننا على موعد مع الزحف الأصولي، بل سوف تتعود الشعوب العربية تدريجاً التعددية، والتفاوض بين القوى السياسية المختلفة بغية قيادة البلاد. باختصار: سوف تتعود اللعبة الديمقراطية والتناوب على السلطة.

وأخيراً يرى الباحث أن الثورة العربية تجري في كل بلد داخل إطار الدولة الحديثة الموروثة عن الاستقلال والتحرر من الاستعمار، وليس للأنظمة أمامها إلا خياران: إما القيام بإصلاحات راديكالية تنهي الاستبداد والفساد والتفرد بالقرار، وإما القمع الدموي الذي لا يرحم. وهو قمع انتحاري في نهاية المطاف. وإذا لم يصادر التيار الأصولي هذه الثورات فإنها سوف تشكل انبثاق نهضة جديدة في العالم العربي. وهي نهضة قد تحقق وعود الأنوار العربية لنهضة القرن التاسع عشر التي أجهضت كما هو معلوم. ليس غريباً إذن أن تكون الثورات قد انطلقت من تونس ومصر: أي البلدين اللذين لعبا دوراً كبيراً في النهضة الليبرالية التحررية إبان القرن التاسع عشر.

سبعة مفاتيح لفهم الثورات العربية

هذا الكتاب[1] من تأليف باحثين اثنين: الأول هو ميخائيل بشير العياري الدكتور في العلوم السياسية والباحث في معهد الدراسات المتعلقة بالعالم العربي والإسلامي في مدينة ايكس أن بروفنص بجنوب فرنسا، وهو الآن يشتغل في معهد دولي للبحوث في تونس. وأما

1 Vincent Geisser et Michael Bechir Ayari: *Renaissances arabes*. Paris. Editions de l'Atelier 2011.

الثاني، فانسان جيسير، فهو باحث في المعهد الفرنسي لشؤون الشرق الأوسط في بيروت، كما أنه رئيس مركز المعلومات والدراسات عن الهجرات العالمية في باريس. وقد اشتهر بعد نشره لكتاب عن الإسلاموفوبيا الجديدة في فرنسا عام ٢٠٠٣. وفيه يدين المثقفين الفرنسيين الذين حولوا الإسلام والمسلمين إلى "بعبع" مخيف عن طريق وسائل الإعلام. وقد ترجم كتابه إلى العربية والتركية.

يرى المؤلفان في هذا الكتاب الجديد أننا نعيش لحظة متوهجة من لحظات التاريخ بفضل انتفاضات الشعوب العربية شرقاً ومغرباً. وهذه الثورات التي لا تزال مندلعة حتى اللحظة، والتي هي محاطة بالهشاشات والأخطار تطرح عدة تساؤلات حول منشئها ومصيرها. إن المؤلفين اللذين هما عبارة عن باحثين مختصين في شؤون العالم العربي يحاولان في هذا الكتاب الإجابة عن سبعة أسئلة أساسية. إنهما يقدمان سبعة مفاتيح لفهم الثورات العربية. وكل مفتاح هو جواب بحد ذاته. وهذه الأجوبة التفصيلية التي يقدمانها تجعلنا نفهم بشكل أفضل طبيعة هذه الثورات المشتعلة. كذلك يحاول المؤلفان تحاشي موقفين اثنين: وجهة النظر الساذجة والرومانطيقية التي تتغنى بالثورات بشكل حالم ومثالي جداً من جهة، ووجهة النظر المتشائمة التي تبخس الثورات العربية حقها باعتبار أنها نتيجة مؤامرة خارجية أو ملونة بالخطر الأصولي من جهة أخرى. ينبغي أن نتحاشى هذين المطبين ونكون واقعيين ومنصفين قدر الإمكان في قراءتنا لهذه الثورات التي فاجأت الجميع.

وأول سؤال يطرحه الكتاب هو الآتي: هل هي ثورات بورجوازية أم شعبية؟ من هم الذين ينزلون إلى الشارع ويعرضون أنفسهم للخطر الأعظم إذ يتظاهرون ضد الأنظمة القائمة؟ ما هي طبيعتهم؟ هل هم بروليتاريون أم بورجوازيون؟ والجواب هو أنهم لا هذا ولا ذاك، ولكنهم يخترقون كل الطبقات الاجتماعية. فالانتفاضات العربية عبارة عن حركات عفوية في الدرجة الأولى. وهي تهدف قبل كل شيء إلى قلب القادة المهيمنين على السلطة، وكذلك الطفيليين المحيطين بهم والذين أصبحوا مليارديريين يمصون دم الشعب ويسرقون الاقتصاد الوطني ويضعونه في جيوبهم. الشعب يتضور جوعاً وهم في القصور وملايينهم في البنوك الأجنبية. إنهم يمنعون تطور الاقتصاد الوطني ونجاح التنمية في البلاد. وهكذا نجد أن الفقراء يزدادون فقراً، والأغنياء غنى، والفساد والرشوة والمحسوبية على كل قدم وساق. هذه الحالة لم تعد تطاق. لهذا السبب انفجر الشعب وعرض صدره للرصاص

بعد أن لم يعد لديه شيء لكي يخسره. وبالتالي، هذه الانتفاضات تهدف على المستوى الاقتصادي إلى القضاء على الطبقة الطفيلية التي تنهب الاقتصاد الوطني، وعلى المستوى السياسي إلى القضاء على الديكتاتورية وهيمنة الحزب الواحد.

السؤال الثاني أو المفتاح الثاني الذي يطرحه الكتاب لفهم الثورات العربية هو الآتي: هل هذه الثورات صنيعة الفيسبوك كما يقولون؟

يحاول الكتاب تدمير هذه الأسطورة التي تقول بأن الفيسبوك ووسائل المعلوماتية الأخرى هي التي أدت إلى اندلاع الثورات العربية. لا ريب في أنها سهلت عملية التواصل بين الثوار، ولكنها ليست هي السبب الأساس لاندلاع الانتفاضة. السبب يبقى كما قلنا الظلم الاجتماعي والاقتصادي الذي يعاني منه الشعب، إضافة إلى القمع السياسي والمخابراتي وخنق الأنفاس.

السؤال الثالث: هل هذه الثورات خضراء - بنفسجية من صنع الولايات المتحدة الأميركية؟ هنا نلتقي بنظرية المؤامرة التي تبناها بعض المحللين الكبار من أمثال محمد حسنين هيكل. من المعلوم أن الولايات المتحدة لعبت دوراً في اندلاع ثورات شعوب أوروبا الشرقية التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفياتي وجدار برلين. فهل لعبت الدور نفسه يا ترى مع الثورات العربية؟ يستبعد المؤلفان هذه الفرضية ويقولان إنهما لا يعتقدان بأن الثورات العربية "مفبركة" من قبل المخابرات المركزية الأميركية. ولكن سيكون من السذاجة الاعتقاد بأن الغرب سيقف مكتوف الأيدي أمام هذه الثورات. فمن الواضح أنه يحاول استغلال الوضع لصالحه والتأثير على المرحلة الانتقالية لكي تجيء بأنظمة جديدة غير معادية له إن لم تكن صديقة. لا ريب في أنه أجبر مبارك على الاستقالة بعد أن أقنع كبار قادة الجيش المصري بذلك وضمن ولاءهم للبنتاغون. ومعلوم أن الجيش المصري يتلقى سنوياً مساعدة تصل إلى مليار ونصف المليار دولار تقريباً. لا ريب في أن أميركا تحاول التأثير على هذه الثورات العارمة وتوجيهها في الاتجاه الذي يخدم مخططاتها في المنطقة، وكذلك بشكل يتناسب مع رؤيتهم الأيديولوجية لطبيعة الديمقراطية الملائمة للعالم العربي. في كل الأحوال، فإن القادة السابقين أصبحوا عالة على أميركا بعد أن استنفدت خدماتهم طيلة السنوات الماضية. وبالتالي من مصلحتها أن يحل محلهم قادة جدد يتمتعون بالمشروعية لدى شعوبهم.

السؤال الرابع: ما هو دور المرأة في هذه الثورات العربية: أحاضرة هي أم غائبة؟

هنا يحطم المؤلفان تلك الصورة الاستشراقية الشائعة عن المرأة العربية أو المسلمة في الغرب. فهم يصورونها على أساس أنها خاضعة، خانعة، ملازمة لبيتها ولا تشارك في الحياة العامة ولا تخرج من البيت إلا بإذن زوجها! على العكس من ذلك يرى المؤلفان أن المرأة العربية لعبت دوراً كبيراً في الانتفاضات الثورية. وهذا الأمر ينطبق على المرأة المثقفة التي تنشر المقالات وتعرف كيف تستخدم الإنترنت ووسائل المعلوماتية الحديثة. ولكنه ينطبق أيضاً على نساء المناطق الريفية وكذلك الضواحي الشعبية للمدن. والشيء المدهش هو أن المرأة الشعبية لعبت دوراً كبيراً في اندلاع الانتفاضات الثورية ضد أنظمة الفساد والرشوة والمحسوبية والطغيان البوليسي.

أما السؤال الخامس وربما الأخطر فهو الآتي: هل هي ثورات دينية أم علمانية؟ ما هو دور السلفيين والإخوان المسلمين في اندلاع هذه الثورات؟ هل حقاً أنهم سوف يقطفون ثمرتها ويستولون عليها؟ من المعلوم أن العديد من المثقفين الفرنسيين بل وحتى العرب اليساريين يدعمون هذه الفرضية ويخشون تحققها. من بين الفرنسيين نذكر برنار هنري ليفي وأليكسندر آدلير وآلان فنكيلكروت إلخ. وهذا التخوف هو الذي دفع قادة الغرب إلى دعم الأنظمة الديكتاتورية السابقة طيلة سنوات وسنوات.

لا ريب في أن هذه الأطروحة مبالغ فيها كما يرى المؤلفان. ولكن دحضها لا يعني أنه لا يوجد شيء في الساحة اسمه: الإسلام السياسي. فهو موجود وبقوة. ولكن يبدو أن الجيل الجديد من شباب الإخوان أصبح يتمرد على الجيل القديم ذي العقلية الأبوية الاستبدادية. وبالتالي هناك إخوان وإخوان. وفي نهاية المطاف، هناك شيء مؤكد على كل حال: وهو أن قوى الإسلام السياسي سوف تدخل اللعبة وسوف تلعب دوراً سياسياً مهماً في المرحلة القادمة.

أما السؤال السادس: فيتعلق بمدى الدور الذي لعبه الجيش إبان هذه الثورات. هذا في حين أن السؤال السابع مطروح على النحو الآتي: هل التزايد الديمغرافي أو السكاني الهائل للشباب العربي هو سبب اندلاع هذه الثورات والانفجارات؟ وهو تساؤل وجيه جداً، وإذا ما درس بشكل جيد فقد يضيء لنا المفتاح الأساسي أو أحد المفاتيح الأساسية التي تفسر سبب اندلاع هذه الانتفاضات العارمة. ومعلوم أن المجتمعات العربية تعج

بالشباب الذين يعانون من البطالة والعطالة وانسداد الآفاق.

وأخيراً، فإن الأطروحة الأساسية للكتاب تقول لنا إن الربيع العربي سيؤدي حتماً إلى نهضة عربية جديدة على الرغم من كل المخاطر والتقلبات التي تحيط بالثورات العربية. وعلى الرغم من كل مقاومات الأنظمة لها، إلا أن شيئاً ما تغير في العالم العربي أخيراً. وهذه ظاهرة ضخمة تشبه ما حصل لدول أوروبا الشرقية بعد سقوط جدار برلين.

الفصل الثامن عشر

أمين معلوف كاتباً عالمياً ومفكراً تنويرياً

أمين معلوف واختلال العالم[1]

أقل ما يقال فيه الآن هو أن العالم مليء بالفوضى والاضطرابات والمشاكل. وكنا نتوقع أنه بعد نهاية الحرب الباردة سوف يسود السلام والديمقراطية والحرية كل مناطق المعمورة. هل نسينا النبوءات المتفائلة لفرنسيس فوكوياما؟ ما هو سبب ذلك يا ترى؟ عن هذا السؤال الأساسي يحاول أمين معلوف أن يجيب في كتابه الأخير: **اختلالات العالم**. على الرغم من أن الرجل يقدم نفسه كأحد أبناء التنوير، يوجه انتقادات لاذعة للحضارة الغربية. فقد خانت هذا التنوير ومعظم مبادئها في تعاملها مع الشعوب الأخرى، ومن بينها الشعوب العربية والإسلامية. إنها لا تطبق مبادئها التنويرية إلا في الداخل، أي على شعوبها بالذات. أما عندما يتعلق الأمر بالآخرين فإنها تنسى مبادئ الحق والعدل والحرية والديمقراطية والمساواة والإخاء. فهذه القيم ليست للشعوب المتخلفة من أمثالنا. إنها فقط للشعوب الحضارية! نحن يكفينا التخلف والاستبداد والجهل والفقر. وعلى عكس الفكرة الشائعة في العالم العربي، فإن القوى الأوروبية العظمى لم تحاول فرض قيمها علينا إبان المرحلة الاستعمارية، بل فعلت العكس تماماً: لقد منعتنا من تبني هذه القيم الكونية في الحرية

1 Amin Maalouf : *Le dérèglement du monde*. Paris. Le Livre de poche 2010.

والتنوير والديمقراطية، وخانتها أثناء تعاملها معنا. كيف يمكن فهم هذا الموقف التناقضي؟ إنه يذكرني شخصياً بموقف ذلك الإقطاعي في منطقتنا (إبراهيم الكنج) الذي كان يرسل أولاده إلى المدرسة، ولكنه عندما سمع بأن الفلاحين بنوا مدرسة لتعليم أبنائهم أرسل أزلامه لهدمها. هذه القصة البسيطة تلخص كل علاقة الغرب بنا. إنه يخشى تقدمنا وتطورنا واستنارتنا. ما الذي سيحصل عندما يمسك ثلاثمئة مليون عربي بأول الخيط المؤدي إلى الحقيقة والنور؟ وبالتالي، هو يحاول تأجيل هذه اللحظة إلى أقصى حد ممكن. وعلى هذا النحو يظل هو المسيطر على العالم. من هنا قلقه الشديد بعد إقلاع الهند والصين أخيراً. إنه يخشى أن يفقد هيمنته على العالم. وأنا واثق من أنه سعيد جداً بظاهرة القاعدة وبن لادن، أو قل إن الأطراف اليمينية الوقحة فيه سعيدة تماماً بذلك، وتستغله أفضل استغلال كما قال صالح القلاب هنا بالذات.

إن تشخيص أمين معلوف لمرض العالم العربي ومرض الغرب، أو الاختلال الذي يصيب هذا وذاك يبدو لي مقنعاً. لا ريب في أنه لا يموضع كلا الاختلالين على المستوى نفسه. فالغرب حقق إنجازات حضارية ضخمة على كافة الأصعدة والمستويات طيلة القرون الثلاثة الماضية، في حين أننا نحن العرب لم نحقق شيئاً يذكر بعد انهيار حضارتنا الكلاسيكية. نحن في أسفل الحضيض الآن. وبالتالي، لا وجه للمقارنة من هذه الناحية. ولكن الشيء الأخطر الذي يعيبه الكاتب اللبناني الشهير على العالم العربي هو الفقر المدقع لضميره الأخلاقي حالياً. وأما ما يعيبه على الغرب فهو أنه يستخدم ضميره الأخلاقي كأداة للهيمنة على الآخرين. ففي الخطابات العربية المعاصرة نادراً أن تجد الهمّ الأخلاقي أو الإشارة إلى القيم الإنسانية الكونية حاضرة. وأما الخطاب الغربي فمليء بها ولكنها مستخدمة بشكل انتهازي وانتقائي لتحقيق المصالح السياسية أو المطامع الاقتصادية الشرهة التي لا تشبع. نقول ذلك ونحن نعلم أنه لا توجد حقوق إنسان بالنسبة إلى أوروبا، وحقوق إنسان بالنسبة إلى أفريقيا، أو أميركا اللاتينية، أو العالم العربي إلخ. حقوق الإنسان واحدة، وينبغي أن تنطبق على الجميع. الإنسان له كرامة وينبغي أن تحترم في كل مكان. ولكن الغرب يقول لك إن الشعوب العربية أو الإسلامية غير ناضجة حضارياً، وبالتالي غير مهيأة لتقبلها أو لتبنيها. ولهذا السبب فإنه يغض الطرف عن انتهاكها من قبل بعض الأنظمة، وخاصة إذا كانت صديقة.

هل تريدون مثالاً تطبيقياً عملياً على اختلال العالم العربي واختلال الغرب؟ انظروا إلى الحالة العراقية. التيار اليميني المتطرف في الغرب يصفق في أعماقه لانفجار العنف الطائفي الذي حصد حتى الآن عشرات الآلاف من أبناء العراق، ويأمل أن يؤدي ذلك إلى تقسيمه. ولكن ماذا عنا نحن؟ ألا يصفق الكثيرون منا سراً أو علناً لإرهابيي القاعدة عندما يذهبون بسياراتهم المفخخة إلى الأسواق لتفجيرها كيفما اتفق وسط العائلات والنساء والرجال والأطفال؟ ألا يعتبرونهم مجاهدين وشهداء وأبطالاً؟ ألا يسكت الشيخ القرضاوي عن كل ذلك؟ ألا يسكت عليه المثقفون العلمانيون إلا من رحم ربك؟ أين هو الضمير الأخلاقي العربي أو الإسلامي؟ لماذا تسكت الفضائيات ووسائل الإعلام العربية عن هذه التفجيرات الإجرامية المتلاحقة أو تمر عليها مرور الكرام وكأنها شيء روتيني؟ من هو المسؤول بالتالي عن العنف الطائفي؟ هل هو الداخل أم الخارج؟ الداخل في الدرجة الأولى، لأن العرب لم يتجاوزوا بعد المرحلة الطائفية من تاريخهم، وإن كان الخارج يعرف كيف يستغل ذلك لمصلحة سياسته المكيافيلية من أجل تمزيقنا. كل من يقول بأن العرب استناروا وتحضروا وتجاوزوا المرحلة الطائفية القروسطية من تاريخهم فهو ديماغوجي كاذب. التنوير الديني أو الفلسفي لا يزال أمامنا لا خلفنا، على عكس الشعوب الأوروبية المستنيرة. لكن يبقى السؤال الفاجع، السؤال المدمر هو الآتي: لماذا لم تتقدم الحضارة الغربية أخلاقياً مثلما تقدمت علمياً وطبياً وتكنولوجياً وكل شيء؟ أنا لا أنفي حصول تقدم مدني وأخلاقي انضباطي، ولكنه ليس بالمستوى المتوقع. هذا السؤال كان جان جاك روسو قد استبقه بحدسه النبوئي الاستشرافي في خطابه الأول الشهير وهزّ به عصره هزّاً.

أمين معلوف في الأكاديمية الفرنسية

إنه لخبر مهم انتخاب أمين معلوف عضواً في الأكاديمية الفرنسية بدلاً من المفكر الشهير كلود ليفي ستروس. إنه يشرّف الأكاديمية بقدر ما تشرّفه، وليس صغيراً عليها. هل أصبحت جائزة نوبل على الأبواب؟ على أي حال كل شيء يجيء في وقته. من كان يتوقع أن هذا الصحافي الذي وصل إلى باريس قبلنا بقليل أو حتى بعدنا سوف يصبح أحد أعلام الأدب والفكر العالمي؟ أعتقد شخصياً أنه يستحق هذا التكريس لسببين أو ربما ثلاثة أسباب. أولها

أنه نجح على كلتا الجبهتين الأدبية والفكرية. يكفي أن نذكر هنا **صخرة طنوس وأصول في ما** يخص الأولى، ثم **الهويات القاتلة في ما** يخص الثانية. لقد جمع المجد من كلا طرفيه وأثبت أنه من سلالة جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وكل أولئك العباقرة الذين صنعوا مجد لبنان والآداب العربية. وثانيها أنه يمثل أنجح جسر ثقافي بين كلتا الضفتين كما كان يحلم جاك بيرك ومحمد أركون. وإذ أقول ذلك لا يعني أنني أقلل من أهمية عبد الوهاب المؤدب أو الطاهر بن جلون أو مالك شبل أو محمد ديب أو إدريس الشرايبي أو عشرات غيرهم. لقد استطاع القضاء على أسطورة صدام الحضارات عن طريق تجسيد تلاقي الحضارات واللغات والثقافات بشكل رائع في شخصه المبدع بالذات. وثالثها أن أمين معلوف يحمل الهم اللبناني والعربي على كتفيه عن طريق تفكيكه لكل النزعات الطائفية والعنصرية التي دمرت لبنان والعالم العربي ولا تزال تهدده بأفدح الأخطار. وبالتالي فهو قطعاً أحد كبار التنويريين العرب وإن كان يكتب بالفرنسية. فهمومه عربية في الدرجة الأولى، وإن كان استطاع أن يرتفع بها لاحقاً إلى مرتبة الكونية والنزعة الإنسانية الشاملة. من يقرأ هذه الكلمات قد يتوهم أني من أصدقائه المقربين أو أني أشرب القهوة معه كل يوم! في الواقع إني لا أعرفه شخصياً ولم ألتقِ به مرة واحدة في حياتي. ولهذا السبب، فإني أستطيع التحدث عنه بحرية.

أكتب عنه بحماسة لأني استمتعت كثيراً بقراءة كتابه **أصول** الذي هو عبارة عن سيرة ذاتية له ولعائلته وللبنان والمنطقة بأسرها. كل هموم المنطقة وخروجها الصعب والبطيء من عصر الظلمات العثمانية إلى عصر الأنوار الحديثة تنعكس في هذا الكتاب الجميل الذي يشدك إليه شداً، والذي يشبه الرواية البوليسية أحياناً. إنه كتاب أدبي وفكري في الوقت ذاته. يعجبني هذا النوع من الكتب التي تحقق في الضربة الواحدة بين عمق الفكر وجمال الأسلوب. يضاف إلى كل ذلك سبب رابع ربما: وهو أن أمين معلوف على عكس الأيديولوجيين العرب قادر على أن يخرج من نفسه، أن ينفصل عن نفسه، لكي يرى "الآخر كذات" أو "الذات كآخر" كما يقول الفيلسوف الفرنسي بول ريكور. لقد مللنا من نزعات الانغلاق على الذات والهويات التعصبية. مللنا من هؤلاء المثقفين، أو بالأحرى أشباه المثقفين الذين لا يرون في الآخر إلا عدواً محتملاً بسبب اختلافه في الدين أو المذهب أو العرق. هؤلاء الذين في حياتهم كلها لم يطرحوا سؤالاً واحداً على أنفسهم، في حياتهم كلها لم يعرفوا معنى اشتغال الذات على ذاتها أو مراجعة الذات لذاتها. الآخر هو دائماً الطائفي وليس

أنا، الآخر هو دائماً العنصري وليس أنا. معاذ الله! مش معقول أن أكون أنا طائفياً أو أن تكون تربيتي خاطئة في بعض جوانبها بسبب ظروف الماضي والظلام. كيف يمكن للفكر العربي أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام بهذه الطريقة أو بهذه العقلية؟ من هذه الناحية، فإن أمين معلوف شخص مهم جداً وضروري، لأنه يدعونا إلى توسيع عقليتنا ولو قليلاً، وإلا فسوف نظل يذبح بعضنا بعضاً على الهوية إلى ما شاء الله. هل نستطيع أن نعيش في جو الكره والأحقاد التاريخية إلى ما لا نهاية؟ هل هذا عالم يطاق؟ هل هذه حياة؟ من يستطيع أن يعيش في المشرق العربي حالياً: هذا المشرق المنكوب بالويلات منذ قرون والذي نحمل همه على كتفينا؟ كتاب **الهويات القاتلة** لأمين معلوف ذو أهمية كبرى في هذا المجال. العنوان بحد ذاته من أنجح العناوين. إنه يلخص مرحلة بأسرها، مرحلة لا تزال تتوالى فصولاً حتى الآن.

لكن أمين معلوف لا ينتقد الشرق فقط وتخلفه وظلاميته وعدم قدرته على الخروج من جموده المزمن وعصور انحطاطه الطويلة، ولكنه ينتقد أيضاً الغرب وخيانته للتنوير الذي يرفع رايته ظاهرياً ويفعل عكسه فعلياً في أحيان كثيرة. بل إن نقده للغرب أقسى لأنه غير معذور على الإطلاق. فهو متطور ومتقدم ومثقف وغني إلخ. وكنا نتوقع منه شيئاً آخر. كنا نتوقع نزعة إنسانية أرقى وأكثر اتساعاً وشمولاً. كنا نتوقع ألا يتوقف في تطبيقه لمبادئ الحرية والديمقراطية والنزعة الحضارية والإنسانية عند حدوده الجغرافية فقط. كنا نتوقع أن يحترم كرامة الشعوب الأخرى كما دعا إلى ذلك كبار فلاسفة التنوير الأوروبي من روسو إلى ديدرو إلى كانط إلى كوندورسيه إلخ. أما الشرق، شرقنا الحزين، شرقنا الحبيب، فلا يزال يتخبط في متاهات الفقر والاستبداد والأنظمة البوليسية الشمولية التي تواجه شعوبها بالحديد والنار كلما حاولت أن تتنفس أو تتحلحل. ولا يزال شبح المجاعات والحروب الأهلية يخيم عليه. ولا يزال التعصب السلفي لجماعات القاعدة يرعبه. ضد هذا القهر، ضد هذا الفقر، ضد هذا الجهل والتعصب التاريخي المزمن ينهض أدب أمين معلوف وفكره.

الختام:

ليس لي مكان!

في الماضي السحيق، عندما كنت أقرأ في كتاب هيدغر الجميل **دروب تؤدي إلى لامكان**[1] كنت أشعر بالانجذاب والانخطاف نحو هذا "اللامكان" الساحر الخالي من رعب البشر وزمجرات التاريخ. وفي الوقت ذاته كنت أتساءل: هل يوجد يا ترى شيء اسمه اللامكان؟ أين هو؟ في أي منطقة من مناطق العالم يتموضع؟ لم يكن يخطر على بالي إطلاقاً أني سأصل إلى هذا اللامكان يوماً ما وأغطس فيه نهائياً. بمعنى من المعاني، أنا شخص غير موجود على الإطلاق! إني مقبور حياً منذ ربع قرن على الأقل. ميزة هذا الوضع هي أني عندما سأموت فعلاً لن يشعر أحد بأن شيئاً قد حصل: إذ كيف يموت شخص غير موجود أصلاً؟ لقد انتقل من اللامكان إلى اللامكان، أو من جهنم إلى جهنم، لا فرق. ربما كنت موجوداً من خلال كتاباتي وترجماتي، ولكنني كشخص من لحم ودم غير موجود أبداً. لا أرى أحداً ولا أحد يراني، اللهم إلا بعض المتسكعين والمتسكعات من أشكالي. شكراً للمتسكعات الغامضات، فلولاهن لأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق.

عندما لا تستطيع الانتماء إلى أي جماعة أو حزب، عندما تفقد كل تواصل اجتماعي مع البشر، عندما تصبح منشقاً حتى على نفسك، فإنك تقترب من منطقة اللامكان هذه. لا

---

١ كتاب مؤلف من ستة فصول. وهذه الفصول الستة عبارة عن دروب تقودك إلى استكشاف مجاهيل الفكر والشعر في آن واحد. ذلك أن الشعر كان شيئاً مهماً بالنسبة إلى فيلسوف ضخم كهيدغر على عكس المفكرين الصغار. انظر صداقته مع رينيه شار. إنها دروب تغذ السير في المجهول لكي تصل إلى كل مكان: أي إلى لامكان... العنوان بحد ذاته قصيدة شعر لواحد من أكبر فلاسفة العصر.

Martin Heidegger: *Chémins qui ne mènent nulle part.* Gallimard 1962.

ريب في أن المجروحين الذين يتساقطون الآن دفاعاً عن إنسانيتهم، عن حريتهم وكرامتهم، هم من جماعتي، لأني مجروح مثلهم أو قبلهم، وقد دفعت الثمن باهظاً. وإنها لمعجزة حقيقية أني لا أزال واقفاً على قدمي بعد كل ما حصل منذ ذلك الصيف المجرم من عام ٢٠٠٩ حتى اليوم.

لكن ما علاقتي بما هو موجود الآن؟ لا أستطيع أن أنتمي إلى أي طائفة، أياً تكن، ولا أن أنحصر داخلها حتى ولو ذبحوني! الانغلاقات ضيقة عليّ، وكذلك الأسوار المغلقة والأبواب. أعشق الهواء الطلق والبراري القفار. الناس الطيبون موجودون في كل الجهات، والأشرار أيضاً. مملكتي ليست من هذا العالم، يقول السيد المسيح. أريد عالماً آخر، أحلم بمجتمع آخر لن أراه بأم عيني. ولكن لا توجد قوة على سطح الأرض قادرة على أن تمنعني من الحلم به.

تذكرت الناقد الفرنسي موريس بلانشو الذي عاش ٩٦ سنة تقريباً من دون أن يراه أحد. وقد فشلت كل الإذاعات والجرائد في أن تجري معه مقابلة واحدة. لاحظ المفارقة: المثقفون عادة يتراكضون على الأضواء والمقابلات والواجهات الاستعراضية، وهو يهرب منها بأي شكل ممكن. فترصدوه من بعيد لكي يأخذوا له صورة وهو خارج من السوبر ماركت. ولكنها صورة غامضة، مشوشة، إلى درجة أنك لا تعرف هل هو بشر أم شبح. وقال البعض إنه ليس هو.

قد يقول قائل: ولكن أفضل طريقة لكي تنجو بجلدك هي أن تسكن منطقة اللامكان هذه حيث لا يستطيع أحد أن يزعجك أو يصل إليك، وحيث لا تضطر إلى اتخاذ أي موقف سلباً أو إيجاباً. وبالتالي، كفّ عنا نواحك ونعيبك أرجوك! أنت محسود لأنك تسكن منطقة خالية من العرب والعجم، من السلطة والمعارضة. إنك تغني على ليلاك كما تشاء وتشتهي. فعلاً إنك أكثر خبثاً ومكراً مما نظن.

لكن لنكن جديين أكثر: كان العالم الأنتربولوجي كلود ليفي ستروس يتمنى لو أنه عاش في القرن التاسع عشر وليس في القرن العشرين. وأنا شخصياً أتمنى العكس تماماً: أتمنى فعلاً ومن كل قلبي لو أني ولدت في القرن القادم وليس في هذا القرن. بمعنى أتمنى لو أني ولدت عام ٢٠٥٠ وليس ١٩٥٠. لماذا؟ لأني أعتقد أن كل مشاكل العرب التي نعاني منها الآن سوف تكون قد انتهت على أفق عام ٢١٠٠، وأخشى ٣٠٠٠، أي عندما يكون عمري

تسعمئة وخمسين سنة فقط. فهل كثير عليّ ألف سنة صغيرة؟ ولو؟ وسعوا عقولكم قليلاً. سيدنا نوح عاش ألفاً وخمسمئة سنة حيث لا برادات ولا غسالات ولا مستشفيات ولا ترفيهات.

عندئذ ستكون الحروب الأهلية قد انتهت، والأنظمة القراقوشية البوليسية قد زالت، وانتفاضات الربيع العربي قد آتت ثمارها فعلاً. عندئذ ستكون الأحقاد الطائفية التي لا تطفئها مياه دجلة والفرات قد انطفأت. وربما تكون منظمة "القاعدة" السلفية الإرهابية قد انتهت أيضاً. من يعلم؟ وربما أكون أنا قد تصالحت مع نفسي بعد طول عراك وصدام. هل هذا من رابع المستحيلات؟ ولكن كيف أتصالح وسوريا منشقة على نفسها بل والعرب كلهم منشقون على أنفسهم؟ هل الحرب الضارية التي أخوضها ضد نفسي أخطر من الحروب الأهلية العربية؟ هل هذا من ذاك؟ أحياناً أشعر بأن كل أمراض العرب متمركزة في شخصي المتواضع. هل هي فوضى مدمرة أم فوضى خلاقة؟ من يعلم؟

وما أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

كل هذا سينتهي في العصر المقبل. كم سيطيب العيش عندئذ في بلاد العرب؟ كم سنشعر بالرغبة في العودة إلى الأوطان بعد طول غياب؟ ولهذا السبب عندما أقول إني أعيش في منطقة اللامكان فإني جاد كل الجدية ولا أمزح على الإطلاق. أنا أعيش في منطقة انعدام الوزن، أو انعدام الجاذبية، لا فرق. "صحراء الوحدة تتسع حولي" يقول نيتشه. الفراغ الهائل يحيط بك من كل الجهات. لولا العيب لقلت ما قاله باسكال: الصمت الأبدي لهذي الفضاءات اللانهائية يرعبني. أنا لا أعيش في هذا العصر، بل في العصر الذي يليه. جان جاك روسو كان يقول هذه العبارة البليغة: من لا يرى إلى أبعد من أنفه، إلى أبعد من عصره، ليس مفكراً. وأنا أتبع هذه النصيحة أو أحاول اتباعها بقدر الإمكان. كل كتاباتي وترجماتي عبارة عن أحلام يقظة قد تتحقق بعد خمسين أو ستين أو سبعين سنة قادمة، ولكن ليس الآن. اضربوها بعشرة يا شباب! أبالغ قليلاً أو كثيراً لتوضيح الصورة. التنوير العربي الإسلامي الذي أحلم به مثلاً لن يتحقق قبل ذلك التاريخ. وباء الطائفية، من كل الجهات، لن ينتهي قبل تلك اللحظة. لذلك أعتذر عن عدم تقديم التهانئ لكم بالعام الجديد ولا حتى بالذي يليه. سوف تصلكم تهانئي الحارة بالبريد الإلكتروني أو بالأحرى الميتافيزيقي عام ٢١٠٠ أو ٣٠٠٠، لا أعلم. قبل ذلك التاريخ، لا أستطيع أن أهنّئ أحداً

ولا حتى نفسي. كم أتمنى أن أخرج من هذا العصر الموبوء بالضغائن والحزازات! لا أستطيع أن أعيش في جو الكره والحقد إلى الأبد. أكاد أختنق. قليلاً من الحب أيها الأصدقاء.

أحياناً وأنا جالس في المقهى، أخشى أن يدخل أحدهم لكي يذبحني أو يضربني كفين من دون أي سبب.

جنّ الناس، هاجت العرب بعضها على بعض. دخلنا في حرب داحس والغبراء لمدة خمسين سنة قادمة. دخلنا في حرب الطوائف والمذاهب التي دمرت أوروبا المسيحية إبان عصور الظلام. ولن نخرج منها عما قريب. نظريتي، فلسفة التاريخ التي أتبعها منذ عشرين سنة على الأقل، تقول بأنه إذا لم يشبع العرب بعضهم من بعض، إذا لم يصفوا حساباتهم التاريخية بعضهم مع بعض إلى آخر نقطة، إلى آخر قطرة، فلا يمكن البدايات الأولى أن تنبثق، لا يمكن الربيع الحقيقي أن يطل.

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً. .

آسف أن أقول لكم ما قاله تشرشل للشعب الإنكليزي: لا أستطيع أن أعدكم إلا بالمزيد من العرق والدماء والدموع!

ليس لي مكان

ليس لي محل من الإعراب

لا جار ولا مجرور

أو بالأحرى مجرور من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة، بل وحتى من بيت إلى بيت، وقريباً من "زنقة إلى زنقة" كما يقول القذافي.

سمعت أخيراً بأنهم اكتشفوا كوكباً جديداً يبعد عن الأرض ملايين السنين الضوئية. وقد فكرت في الهجرة إليه لكي أتنفس الصعداء. ولكن أخشى ما أخشاه قبل أن أضع قدمي على سطح هذا الكوكب الجميل أن أجد العلويين والسنيين في انتظاري!

فماذا أفعل؟ كيف أتجه؟

وهل يهرب الإنسان من ملك ربه

فيخرج من أرض له وسماء؟!



فهرس الأعلام

ت

ج

ح

خ

د

ن

هـ

ي

فاجأت الانتفاضات العربية معظم المثقّفين العرب والأجانب عندما انفجرت كالقنبلة الموقوتة بعد طول احتقان. واستطاعت تكنيس العديد من أنظمة الفساد والطغيان. وأشاعت في الجو نكهة جديدة من عبق الحرّية والانعتاق. ولكن يبدو أن الشباب الذين دشّنوها ليسوا هم الذين قطفوا ثمرتها في نهاية المطاف، وإنما التنظيمات الإخوانية - السلفية. فهل تحوّل الربيع العربي إلى خريف أصولي كما يقول البعض؟ كيف يمكن تفسير كل ذلك على ضوء فلسفة التاريخ؟

يحاول الكتاب قراءة الظاهرة من خلال منظور فلسفي بعيد المدى. ويتساءل: لماذا تبدو الانتفاضات العربية أقرب إلى الثورات الدينية منها إلى الثورات العلمانية الحديثة؟ ألا يعني ذلك أن ثوراتنا لم يسبقها تنوير ديني حقيقي فسقطت بسهولة في أحضان الأصوليين؟ وهل كان يمكن للثورة الفرنسية أن تدشّن عالم الحداثة والحرّية لولا أن فلاسفة التنوير كانوا قد سبقوها ومهّدوا لها الطريق عن طريق التفكيك الناجح لمقولات الأصولية المسيحية؟ ثم أخيراً: أليس هذا هو الشيء الأساسي الذي ينقص، وبشكل موجع، كل انتفاضات الربيع العربي؟

ولكن ذلك كلّه لا ينفي أهمّيتها ولا مشروعيتها التاريخية. فقط ينبغي اعتبارها كخطوة أولى على طريق التحرير الطويل...

هاشم صالح مفكّر وكاتب سوري مقيم في فرنسا. صدر له عن دار الساقي «الاستشراق بين دعاته ومعارضيه»، «الانسداد التاريخي»، «معارك التنويريين والأصوليين في أوروبا».




ISBN 978-1-85516-962-3